

تأليف

محمد كرد علي

الجزء السادس

الناشر
مكتبة النوري
دمشق

الطبعة الثانية
مصحّحة بقلم المؤلف

طبع على مطابع :
مؤسسة الاعلمي للمطبوعات - بيروت ص.ب. : ٧١٢٠

التاريخ المدني

البيع والكنائس والديرة

بيوت العبادة عند الأقدمين :

لم يخلف التاريخ الصحيح مستنداً يركن إليه في وصف بيوت العبادة عند قدماء سكان الشام أيام كانوا يعبدون الأصنام والأوثان ثم بعد أن أصبحوا يعبدون النيران . فلا نعرف إذاً شيئاً يعتدّ به عن هياكل الفينيقيين في صور وصيدا وبيروت وجبيل ولا عن هياكل مشارف الشام الجنوبية ولا عن بيوت النيران في حلب ولا عن بيوت العبادة عند الحثيين والبابليين والاشوريين ولا عن هيكل الرب مرناس الذي كان يعبد في غزة،ويحجون إلى هيكله من الأقطار ولا عن معبد المشتري (جوبيتر)الذي أنشأه أدريانوس الروماني في جبل جرزيم فوق نابلس،ولا عن هياكل المشتري معبود الرومان الذي وجد في السخنة بين تدمر ودير الزور ، ولا عن هيكل اليونان في أنطاكية ، ولا عن هيكل بزيزة بالغرب من كوسبة في لبنان ، ولا عن بعل مرقد في أطلال دير القلعة قرب بيت مري بلبنان ، ولا عن هيكل الزهرة في افقة في جبل كسروان . والهيكل الباقي من هياكل القدماء هو هيكل بعلبك وقليل أمثاله جداً مما صبر على ضربات الدهر .

أما كنائس اليهود فقد تبين أنهم شرعوا بإنشاء كنيس لهم في سبي بابل

يجتمعون فيه ويتعبدون . وأهم ما كان من كنائسهم كنيسهم في القدس بنوه بعد رجوعهم من بابل بجانب المعبد وقسموه قسمين قسم للرجال وقسم للنساء ، ثم كثرت الكنائس في المدن الصغرى والكبرى في كل بلد كان فيها لليهودية معتقدون وأنصار . ولكل كنيس خزانة مقدسة تقام في داخل البناء على خشب وتجعل متجهة نحو القدس وهي مغشاة بالكتان وفيها الطوامير المقدسة وأمام الخزانة ستار يذكر بستار المعبد وفي وسطه أمام الخزانة شيء أشبه بمنبر .

هذا غاية ما يقال في هياكل القدماء وبيوت عباداتهم ، وكيف السبيل إلى وصف المعابد القديمة والتاريخ لا يعرف شيئاً يعتدّ به عن العالم الاسرائيلي بل ولا عن نصارى القرون الأولى ، وكل ما يعرف عن موسى وعن قضاة إسرائيل وداود أو المسيح والحواريين لا يكاد يملأ سوى صفحات قليلة والنصرانية نفسها لم تنتشر في الشام إلا في القرن الرابع للميلاد على يد قسطنطين أو أم قسطنطين بن قسطنطين باني القسطنطينية وهو الذي بنى كنائس كثيرة بدمشق وغيرها حتى يقال إنه بنى في زمانه اثني عشر ألف كنيسة .

ولا بد لنا قبل وصف الكنائس والبيع والأديار أن نعرفها تعريفاً يقربها من جميع الأذهان ولا يوقع فيها لبساً . فالدير كما قالوا في تعريفه بيت يتعبد فيه الرهبان ولا يكاد يكون في المصر الأعظم إنما يكون في الصحاري ورؤوس الجبال فان كان في المصر كانت كنيسة أو بيعة . وربما فرّق بينهما فجعلوا الكنيسة لليهود والبيعة للنصارى . وقال بعضهم : البيعة متعبد النصارى وقيل : كنيسة اليهود . والأولى أن تطلق الكنيسة على متعبد النصارى والكنيس على متعبد اليهود . وجاءت لفظة الدير من الدار والجمع أديار والديراني صاحب الدير والذي يسكنه ويعمره . ويقال له ديّار . ويقال دَيْر ودَيّرة وأديار وديران ودارة ودارات وديّرة ودير ودور ودوران وأدوار ودوّار وأدورة .

منشأ الأديار والبيع :

أنشئت الأديار الأولى في الشام ، فهي موطنها الأول ، ذلك أن من

المسيحيين من أخذوا يألفون العزلة لأول ظهورهم في صعيد مصر وجبال أنطاكية ينقطعون للنسك . ولما زاد عدد هؤلاء الناسكين دعت الضرورة إلى إنشاء أكواخ منفردة أشبه بعمرات جعلت برئاسة رئيس . وأنشئت دور عظيمة يعيش فيها أولئك الزهاد عيشة مشتركة يجمعهم سقف واحد وتسيّرهم إدارة رئيس واحد . ثم اتحدت تلك الأكواخ والبيوت . وأنشئت أديار في المدن تولاها الأساقفة وانتقل ذلك إلى الغرب . وكما كانت الشام منشأ الأديار كذلك كانت أول من وضع هندسة الكنائس ذات القباب ، فقد جرت في هندستها لأول مرة على مثال المعابد القديمة ، فالشام إذاً أول من أنشأ الأديار والكنائس كما قامت فيها النصرانية واليهودية .

قلنا: إنه يردُّ إنشاء الكنائس إلى عهد قسطنطين وقد بدأت البيع بالتكاثر في سنة(٣٣٠) للميلاد وذكر بعض المؤرخين أن ثيودوسيوس الكبير حول بعض هياكل الوثنيين في بعلبك الى كنائس فبنى كنيستين في القلعة إحداهما في وسط البهو الكبير القائم أمام هيكل الشمس . وقال المسعودي: إن هيلاني بنتْ بإيليا الكنيسة المعروفة بالقيامة في هذا الوقت الذي يظهر منها النار في يوم السبت الكبير الذي صبحه الفصح وكنيسة قسطنطين وديارات كثيرة للنساء والرجال على الجبل المطل على مدينة بيت المقدس المعروف بالطور وهو بإزاء قبة اليهود وعمرت مدينة إيليا عمارة لم يكن قبلها مثلها ولم يزل ذلك عامراً إلى أن أخربته الفرس حين غلبت على مصر والشام .

تكاثرت الكنائس والأديار في الشام فلم يمض على انتشار النصرانية قرنان حتى زاد عدد الأديار والبيع على صورة مستغربة حتى إن الغسانيين ولعوا أيضاً بعمارة الأديار في الجزء الذي ارتفع سلطانهم عليه في الجنوب على عهد ملوك الروم فشادوا دير حالي ودير أيوب ودير الدهناء ودير ضخم ودير النبوة . واشتهر الغساسنة بإقامة الديرة والبيع وكانوا كما قيل يعتمدون ببنائهم المواضع الكثيرة الشجر والرياض والمياه ويجعلون في حيطانها وسقوفها الفسافس والذهب ومثلهم كان شأن آل المنذر بالحيرة وبني الحارث بن كعب بنجران من بيوتات العرب .

أعظم الكنائس وأقدمها :

ويظهر أن كنيسة القبر المقدس في القدس هي أقدم كنيسة في الشام قامت في مكان نظر إليه في كل وقت بأنه مقدس. وذكر الأسقف أوسابيوس القيصري(٣١٤–٣٤٠)وهو والد تاريخ الكنيسة أن في الحفريات التي جرت على عهد الملك قسطنطين اكتشفت مغارة المخلص المقدسة . وزاد المؤرخون المحدثون أن الملكة هيلانة والدة قسطنطين المتوفاة نحو سنة(٣٢٦ م)زارت القدس واكتشفت القبر المقدس وصليب يسوع ، فالبنايات التي أقيمت في ذاك المكان سنة(٣٣٦ م) هي من البناء المدور قد دعي كنيسة القيامة ومؤرخوا المسلمين يسمونها كنيسة القمامة كما كان هناك كنيسة كاتدرائية خاصة برمز الصليب وقد أحرق الفرس هذين المكانين سنة(٦١٤ م). وأعاد هرقل بناء ما كان خرب كسرى من الكنائس في مصر والشام ، وذكر المؤرخون أن الفرس خربوا كنائس القدس بمعاونة اليهود ومما خربوا كنيسة الجسمانية وكنيسة المنية وظلتا خراباً الى القرن الرابع من الهجرة،ولما انصرفوا عمر النصارى كنيسة القيامة والمقبرة والا كرانيون ومار قسطنطين وأحدث الراهب مودست رئيس دير تيودوس في سنة(٦١٦ و ٦٢٦) كنيسة القيامة وكنيسة الصليب وكنيسة الجلجلة وأضيفت سنة (٦٧٠) الى الجنوب كنيسة للعذراء .

ولما فتحت القدس وجاء الخليفة عمر بن الخطاب أدركته الصلاة فلم يرض أن يصلي في كنيسة القيامة لئلا يكون بعده للمسلمين حجة في أخذها وبنى مقابلها جامعاً ومصلى . ولما تنصر الروم على رواية ابن بطريق وبنت هيلانة أم قسطنطين الكنائس في بيت المقدس كان موضع الصخرة وحولها خراب فترك،ورموا على الصخرة التراب وهذه التي بُني عليها المسجد الأقصى ،ثم ذهب الخليفة الى بيت لحم فحضرته الصلاة فصلى داخل الكنيسة عند الحنية القبلية ، وكانت الحنية كلها منقوشة بالفسيفساء ، وكتب عمر للبطرك سجلاً أن لا يصلي في هذا الموضع من المسلمين إلا رجل واحد بعد واحد ولا يجمع فيه صلاة ولا يؤذن فيه ولا يغير فيه شيء . وكنيسة بيت

لحم من الكنائس القديمة المشهورة أنشأها قسطنطين سنة (٣٣٠) فكانت كاتدرائية كبرى وأنشأ يوستنيانوس حيطانها وأقيمت فيها أديار وكنائس كثيرة حتى اطلق عليها سنة ستمائة للميلاد اسم المكان الزاهر .

ومن أشهر كنائس الشام كنيسة دمشق المعروفة بكنيسة مار يوحنا مكان الجامع الأموي اليوم ، صالح المسلمون على نصفها الشرقي لأنهم اعتبروا دمشق بما فتح صلحاً وعنوة ، فكان النصف من هذه الكنيسة العظمى ، التي كانت أكبر معابدهم على رواية ابن كثير ، في النصف الذي فتحه خالد بن الوليد بالسيف . وكان بدمشق خمس عشرة كنيسة كتب بها عمر بن الخطاب كتاب أمان وأقر ما بأيدي النصارى أربع عشرة كنيسة، فجعل أبو عبيدة من الكنيسة الكبرى مسجداً. فكان المسلمون والنصارى يدخلون من باب واحد وهو باب المعبد الأصلي في القبلة؟ قال جرجس بن العميد: وقيل: إن الوليد بذل للنصارى في كنيسة مار يوحنا أربعين ألف دينار فلم يريدوا أن يأخذوا المال فأخذها فأخربها ولم يعطهم شيئاً . وفي تواريخ دمشق أن النصارى رفعوا إلى عمر بن عبد العزيز في خلافته ما بيدهم من عهد أبي عبيدة بن الجراح من أن كنائسهم لا تهدم ولا تسكن وأن الوليد أخذ كنيستهم بغير حق قهراً، فلما رأى عمر ذلك منهم دفع لهم مالاً يرضيهم به حتى بلغ مائة ألف فأبوا ، فكتب الى محمد بن سويد الفهري أن يدفع إليهم كنيستهم أو يرضيهم في ذلك . فلما وصل كتاب عمر إلى دمشق أعظم الناس ذلك وفيهم يومئذ بقية من أهل الفقه ، فشاورهم محمد بن سويد فقالوا: هذا أمر عظيم ندفع إليهم مسجدنا وقد أذنا فيه بالصلاة وجمعنا فيه يهدم ويعاد كنيسة . فقال رجل منهم: هنا مسألة فإن لهم كنائس عظاماً حول مدينتنا وهي دير مران والكنيسة بباب توما وغيرها من الكنائس ان أحبوا أن نعطيهم كنيستهم فلا يبقوا حول مدينة دمشق ولا بالغوطة كنيسة إلا هدمت أو نبقي لهم جميع كنائسهم ويتركوا هذه ونسجل لهم بذلك سجلاً ، فرضي النصارى على أن يسجل لهم الخليفة سجلاً منشوراً بأمان على ما بدمشق والغوطة من كنيسة أن تهدم أو تسكن . وهكذا استحالت كنيسة مار يوحنا إلى مسجد جامع للمسلمين أخذوه بحكم الفتح

وأرضوا أبناء ذمتهم على كل حال . وما ندري كيف آل إلى هؤلاء من اليهود أو إلىالنصارى منالصابئة وغيرهم. ولعل التقليد القائل بأن في الجامع رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام أتى من كون الكنيسة كانت على اسم ماريوحنا . ويوحنا هو يحيى والله أعلم .

وخاصم النصارى حساناً بن مالك الكلبي الى عمر بن عبد العزيز في كنيسة بدمشق فقال له عمر: إن كانت من الخمس عشرة كنيسة التي في عهدهم فلا سبيل لك إليها . وقال غيره: خاصمت العرب في كنيسة بدمشق يقال لها كنيسة ابن نضر كان معاوية أقطعهم إياها فأخرجهم عمر بن عبد العزيز منها فدفعها الى النصارى فلما ولي يزيد ردها الى بني نضر . وفي كتاب سجل يحيى بن حمزة أن النصارى ذكروا لعمر بن عبد العزيز أن عتقاء العرب قد سخروا بهم وبرئيسهم وبدينهم وجماعتهم من أهل القرى وأن أولئك العتقاء أحلاف وفرقٌ وأنهم غلبوهم على كنائسهم وسألوا الوفاء لهم بما في عهدهم وبما في الكتاب الذي كتبه لهم خالد بن الوليد عند فتح مدينتهم فأمرهم ان يأتوا بحجتهم فأتوا بكتاب خالد بن الوليد فاذا فيه: « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق يوم فتحها أعطاهم أماناً لأنفسهم ولأموالهم وكنائسهم لا تهدم ولا تسكن لهم على ذلك ذمة الله وذمة الرسول عليه الصلاة والسلام وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين لا يعرض لهم أحد إلا بخير إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية شهد بهذا الكتاب يوم كتب عمرو بن العاص وعياض بن غنم ويزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة بن الجراح ومعمر بن غياث (عتاب) وشرحبيل بن حسنة وعمير بن سعد ويزيد بن نبيشة وعبدالله بن الحارث وقضاعي بن عمر وكتب في شهر ربيع الأول سنة خمس عشرة » .

قال يحيى بن حمزة فنظرت في كتابهم فوجدته خاصة لهم ، وفحصت عن أمرهم فوجدت فتحها بعد حصار ، ووجدت ما وراء حائطها آثاراً وضعت لدفع الخيل ومراكز الرماح ، ونظرت في جزيتهم فوجدتها وظيفة عليها خاصة دون غيرهم ، ووجدت أهلها عند فتحها رجلين رجلاً رومياً قتلته الحرب أو نفته ، ومساكنهم وكنائسهم قسمة بين المسلمين

معروفة لا تخفى ، ورجلاً من أهلها حقن دمه هذا العهد ، فمساكنهم وكنائسهم مع دمائهم لهم لم تسكن ، ولم تقسم معروفة ليس تخفى ، فقضيت لهم بكنائسهم حين وجدتهم أهل هذا العهد وأبناء البلد ، ووجدت من نازعهم لفيفاً طرأ وذلك لو أنهم أسلموا بعد فتحها كان لهم صرفها مساجد ومساكن . فلهم في آخر الدهر ما لهم في أوله وأثبت في الأصول قبل وأشهد الله عليه وصالح المؤمنين ، وفاء بهذا العهد الذي عهده لهم السابقون الأخيار فلم يكن بينهم خاصة في ذلك اختلاف نظر لهم .. وقضيت لمن نازعهم بما كان لهم فيها من حلية أو آنية أو كسوة أو عرضة أضافوا ذلك إليها أن يدفع ذلك إليهم بأعيانها إن قدروا عليه وسهل قبضه ، أو قيمة عدل يوم ينظر فيه شهد الله على ذلك اه .

هذا ما كان من المسلمين مع أبناء ذمتهم ومراعاة العهود التي قطعوها على أنفسهم . ولم تزل سيرة خلفاء بني أمية وبعض بني العباس مع النصارى وكنائسهم سيرة الخليفة الثاني والفاتحين من الصحابة الكرام . فقد بنى أبو جعفر المنصور كنيسة في دمشق لبني قطيطاني الغوريق ، ذكر ذلك ابن عساكر . ولما وقع حريق في كنيسة مريم بدمشق أيام أحمد بن طولون أمر أن تفرق على أهل الحريق سبعون ألف دينار ففضل عنهم أربعة عشر ألف دينار فأمر أن تفرق عليهم على قدر سهامهم ثم أمر ففرّق على أهل دمشق وغوطتها مال عظيم فأقل من أصابه من ذلك دينار .

مبدأ هدم الكنائس :

أول حادث وقع في تخريب الكنائس قبل الإسلام كان لما ثار بفلسطين أهل السامرة وهدموا في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة الكنائس كلها وأحرقوها من بيسان الى بيت لحم وقتلوا النصارى وعذبوهم عذاباً شديداً فأعاد يوستنيانوس الكنائس وكتب الى عامله في فلسطين أن يعفي أهلها من الخراج ويعمر بها الكنائس والديارات وبنى بيمارستاناً للغرباء في القدس .

وبقدر ما رأى النصارى من عدل المسلمين معهم أيام عزهم أخذ بعض ملوكهم بعد القرن الثالث يحكمون العواطف بدل العقل في الكنائس

والبيع ، وكان من أثر ذلك أن نالت السياسة من بيوت العبادة فكان إذا أحسّ القائم بأمر المسلمين أن قومه في شدة في ديار الحرب انتقم من أهل ذمته في ديار الإسلام ، وسلط العامة من طرف خفي ليخربوا كنائس النصارى وبيعهم .

قال القلقشندي: وفي السنة الأخيرة من رياسة البطريرك قسيما وهي سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة أحرق المسلمون كنيسة مريم بدمشق ونهبوا ما فيها وتتبعوا كنائس اليعاقبة والنساطرة . وقال ابن بطريق: إن هذه الحادثة وقعت في رجب سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة وذلك أن المسلمين في دمشق ثاروا فهدموا كنيسة مرتمريم الكاتوليقية ، وكانت عظيمة كبيرة حسنة أنفق فيها مائتا ألف دينار ، ونهبوا ما كان فيها من آنية وغير ذلك من حلي وستور ، ونهبت ديارات وخاصة دير النساء الذي كان في جانب الكنيسة وشعثوا كنائس كثيرة للملكية ، وهدموا كنيسة النسطورية . وثار المسلمون بالرملة وهدموا للملكية فيها كنيستين كنيسة مار قزماس وكنيسة مار كورقس وهدموا كنيسة عسقلان وقيسارية وذلك سنة(٣١١). وثار المسلمون بكنيسة بيت المقدس وأحرقوا أبواب كنيسة قسطنطين القبلية سنة(٣٢٥).

وكان الداعي الى ذلك ما وقع من اضطهاد المسلمين في الروم على الغالب فلم يجد ملوك الإسلام واسطة لتخفيف الشر الواقع على رعاياهم من أهل الإسلام إلا بالضغط على النصارى في ديارهم والتأثير في ملوك النصارى بضربهم في أكبادهم في كنائس هي مهوى قلوب أبنائهم في بيت المقدس وما إليها بدليل أن ابن بطريق نفسه قال بعد إيراد تلك الحوادث : وقع بين الروم والمسلمين هدنة مرضية في سنة ست وعشرين وثلاثمائة وقال في حوادث السنة التالية: إن المسلمين ثاروا في عسقلان فهدموا كنيسة كبيرة تعرف بكنيسة مريم الخضراء ونهبوا جميع ما فيها وأُحرقت وعاضد المسلمين اليهود في هدمها . وكان اليهود يشعلون النار في الحطب ويجرونه بالبكر الى أعلا السقوف حتى يحرقوها وينحل رصاصها وتقع عمدها وخربت الكنيسة وبقيت خربة . وروى أيضاً أن الصناحي والي القدس

اضطهد بطريرك القدس فاستعدى عليه ملك مصر فأعداه فلم يستمع الوالي لذلك واختبأ البطريرك في كنيسة القيامة فهاجمها الوالي وأحرقوا أبوابها وسقطت القبة ، وتوجه الرعية الى كنيسة صهيون وأحرقوها ونهبوها . وهدم اليهود وأخربوا أكثر من المسلمين .

وأهم ما نال الكنائس في الشام من الأذى ، كان على عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي فإنه لم يبق في مملكته ديراً ولا كنيسة إلا هدمها . ففي سنة (٣٩٨) كتب الحاكم الى دمشق بهدم كنيسة السيدة القاتوليكي فهدمت، وكتب الى والي الرملة بهدم كنيسة القيامة في القدس وإزالة معالمها والقضاء على آثارها،وهدم الاقرانيون كنيسة ماري قسطنطين وسائر ما اشتملت عليه حدودها واستقصوا في إزالة الآثار المقدسة ، وكان في جوار المقبرة دير للنساء يعرف بدير السري فهدم أيضاً . وكان ابتداء نقضها سنة أربعمائة ووضعت اليد على الأملاك والأوقاف وجميع ما في تلك الكنائس من آلاتها وحلاها .

وعاد الحاكم بعد أن ضرب النصارى في كنائسهم في جميع أرجاء مملكته فأعطاهم عهداً كما كان يعطي الخلفاء العادلون ومنها هذا المنشور الذي أورده ابن بطريق :

«بسم الله الرحمن الرحيم أمر أمير المؤمنين بكتب هذا المنشور لنيقيفور بطريرك بيت المقدس بما رآه من إجابة رغبته ، وإطلاق بغيته ، من صيانته وحياطته ، والذب عنه وعن أهل الذمة من نحلته ، وتمكينهم من صلواتهم على رسومهم في افتراقهم واجتماعهم ، وترك الاعتراض لمن يصلي منهم في عرصة الكنيسة المعروفة بالقيامة وخربتها ، على اختلاف رأيه ومذهبه ، ومفارقته في دينه وعقيدته ، وإقامة ما يلزمه في حدود ديانته ، وحفظ المواضع الباقية في قبضته ، داخل البلد وخارجه والديارات وبيت لحم ولدّ ، وما برسم هذه المواضع من الدور المنضوية إليها ، والمنع من نقض المصلبات بها ، والاعتراض لأحباسها المطلقة لها ، ومن هدم جداراتها وسائر أبنيتها ، إحساناً من أمير المؤمنين إليهم ، ودفع الأذى عنهم وعن كافتهم ، وحفظاً لذمة الإسلام فيهم ، فمن قرأه أو قرئ عليه من الأولياء

والولاة، ومتولي هذه النواحي وكافة الحماة ، وسائر المتصرفين في الأعمال ، والمستخدمين على سائر منازلهم ، وتفاوت درجاتهم ، واستمرار خدمتهم ، أو تعاقب نظرهم ، في هذا الوقت وما يليه ، فليعلم ذلك من أمير المؤمنين ورسمه ، ويعمل عليه وبحسبه ، وليحذر من تعدي حده ومخالفة حكمه ، ويتجنب مباينة نصه ومجانبة شرحه ، وليقرّ هذا المنشور في يده حجة لمودعه ، يستعين بها على نيل طلبته ، وإدراك بغيته ، إن شاء الله تعالى . وكتب في جمادى الأخرى سنة إحدى عشرة وأربعمائة » . وفي أعلاه بخط الحاكم توقيع : الحمد لله رب العالمين .

قال ابن بطريق ، وانفتح حينئذٍ باب رجعة الكنائس ورد أوقافها عليها ، وأطلق عمارة جميع الكنائس والديارات التي يستدعي منه الإذن فيها وفي عمارتها بمصر وفي سائر بلاد مملكته ، وكتب لكل منهم سجلاً لإعادة أوقافها إليها ، إلا ما كان من الأوقاف والكنائس قد بيع في وقت القبض عليها في دمشق وفي جميع بلاد الساحل ، وصرف ثمنه في النفقات السلطانية ، لضيق الأموال وقلتها ، أو ما كان منها قد حصل لمن يتوقون شره من المسلمين . ولما تسامح الحاكم بعمارة الكنائس وتجديدها ورد أوقافها عاد الذين أسلموا من النصارى وقت الاضطهاد إلى دينهم بأمره وتسامحه . ولما هلك الحاكم وبويع لابنه الظاهر واستولت عمته على الملك بالفعل تقدمت بمسير نيقيفور بطريرك بيت المقدس إلى حضرة الملك ليطالبه بعودة الكنائس وتجديد كنيسة القيامة ببيت المقدس وسائر البيع في جميع بلاد مصر والشام ورجوع أوقافها إليها .

وكان البطاركة أشبه بسفراء سلام بين ملوك الإسلام وملوك الروم . إذا وقع حيف على المسلمين في ديار أعدائهم يندبهم ولاة الإسلام الى مطالعة الروم بما ينال النصارى في الشام وغيرها من الاضطهاد إن هم أساءوا إلى المسلمين الواقعين في أسرهم ، أو الراحلين إليهم في التجارة . ومما اشترط ملك الروم على الظاهر العبيدي في عقد الهدنة ثلاثة شروط منها أن يعمر الملك الظاهر كنيسة القيامة ببيت المقدس ويجددها من ماله ، ويصيّر بطريركاً على بيت المقدس ، وأن تعمر النصارى جميع الكنائس الخراب

التي في بلاد الظاهر . فقبل الظاهر ما شرطه الملك من بناء كنيسة القيامة ومن إقامة بطريرك ومن تجديد النصارى بقية الكنائس سوى ما كان منها قد عمل مسجداً .

وقد علل مجير الدين الحنبلي عمل الحاكم في هدم البيع تعليلاً غير مقبول كثيراً قال: إنه بسبب ما أنهي الى الحاكم من الفعل الذي يتعاطاه النصارى يوم الفصح من النار التي يوقدونها في سبت النور يوهمون أنها تنزل من السماء وقال: إن المستنصر بالله أبا تميم معداً ، هادن ملك الروم على أن يطلق خمسة آلاف أسير ليمكن من عمارة القيامة التي كان خربها جده الحاكم فأطلق الأسرى . قال: والذي يظهر أن تخريبها لم يكن تخريباً كلياً بل كان في غالبها .

وقد وقع في العصور التالية بعض حوادث من تخريب كنيسة أو بيعة كان السبب فيه داخلياً كأن يميل أهلها إلى عدو خارجي يداهم القطر ، فقد استطالوا سنة (٦٥٨هـ) على المسلمين كما يقول المؤرخون فنهبهم المسلمون وخربوا كنيسة مريم بدمشق وكما وقع لهبة الله النصراني متولي خزانة السلطان فإنه « كان تمكن من المسلمين وآذاهم ، ورفع منار النصارى وتسلطوا بجاهه على المسلمين ، وجدد لهم بناء كنيسة مريم وشيد بنيانها ، ورفع بابها ، وحسن عمارتها ، ثم هدم ما زاده ، وأعيدت الكنيسة إلى ما كانت عليه ، وتولى النصارى هدم ذلك بأنفسهم » .

وكل تخريب وقع كان عن دواعٍ كلية في الغالب يرجع في جملته إلى إعتداء النصارى في غير ديار الإسلام على المسلمين . فإن نيقيفور دومستيقس صاحب الروم لما غزا جزيرة اقريطش (كريت) في أسطول ونازلها في النصف من المحرم سنة خمسين وثلاثمائة وحاصرها ثمانية أشهر وفتحها وخرب ما فيها من المساجد وسبى من أهلها خلقاً كثيراً قام المصريون فخربوا بعض ما عندهم من الكنائس انتقاماً مس الروم على فعلتهم وهكذا دواليك في تلك العصور المظلمة .

وفي سنة(٨٥٦)صدر مرسوم الملك بالكشف على الأديار وبهدم ما استجد بدير صهيون في القدس وانتزاع قبر داود من أيدي النصارى فهدم البناء

المستجد، وفيها أخرج المسجد من دير السريان وصار زاوية وهدم البناء المستجد ببيت لحم وفي كنيسة القيامة وكشفت جميع الأديار وهدم جميع ما استجد بها . وفي سنة (٨٩٥) هدمت القبة التي أحدثها النصارى في دير صهيون . والسبب في ذلك على ما يبدو للنظر أن الدولة في تلك الأيام حاذرت من أن يكون من بعض الأديار والكنائس أماكن يعتصم فيها تساعد في الأيام العصيبة على أن تكون ثكناً وقلاعاً لمن يداهم الشام من غير أهل الإسلام .

ومع هذا لم يخل زمن من ظهور حكام استعملوا العدل في تلك الأعصار مع أبناء ذمتهم فقد ذكروا أن المفرج بن الجراح لما تغلب على أرجاء فلسطين ألزم النصارى ببناء كنيسة القيامة ببيت المقدس ، قال ابن بطريق: إنه عاون على بناء كنيسة القيامة وأعاد فيها مواضع بحسب إمكانه وقدرته .

كنائس دمشق :

ولم يحدثنا التاريخ بما كان من أنواع الكنائس بعد القرن الثامن ومعظم الكنائس والأديار في الشام اليوم بعد كنائس القدس وبيت لحم ودمشق هي مما أنشئ في القرون الأخيرة. فالكنائس في دمشق جددت بعد سنة(١٨٦٠) أي بعد أن خربت في حوادث تلك السنة . فلطائفة الروم الأرثوذكس ثلاث كنائس أكبرها المريمية وهي أعظمها ، ومن أقدم كنائس هذه الديار وفيها مقام البطريرك الأنطاكي خربت في أدوار كثيرة وآخر خرابها في وقعة تيمور يبلغ طولها نحو ٧٠ ذراعاً وعرضها نحو أربعين . والثانية كنيسة مار يوحنا الدمشقي أُنشئت بعد سنة (١٨٦٠)وفي جوارها مدرسة الروم . والثالثة كنيسة الميدان في محلة القرشي تم بناؤها سنة(١٨٦٢). ولطائفة الروم الكاثوليك ثلاث كنائس أيضاً كانت الكبرى كنيساً لليهود القرائين فاشتراها الكاثوليك وأسست أيام الحكومة المصرية تم بناؤها سنة (١٨٤٠)على اسم السيدة وهي في حارة زيتون قرب سور البلد القديم وحرقت في حادثة سنة (١٨٦٠)أيضاً وهي متينة راسخة البنيان وفيها مقام البطريرك الأنطاكي لتلك الطائفة . والكنيسة الثانية في باب المصلى على اسم القديس جاورجيوس .

والثالثة في القرشي على اسم سيدة النياح . وللسريان الكاثوليك كنيسة على اسم مار موسى الحبشي في حي المسيحيين على الطريق العامة وفيها دار البطريركية ولها مدرسة متصلة بها حرقت في سنة(١٨٦٠)أيضاً ثم جددت . وللأرمن القدماء كنيسة قرب السور وهي قديمة احترقت في حوادث سنة (١٨٦٠)واسمها مار سركيس ولها مدرسة جدد بناؤها بعد الحوادث . وللسريان اليعاقبة كنيسة بالقرب من الباب الشرقي في محلة حنانيا جددت سنة(١٨٦٠) باسم القديس جاورجيوس . وللأرمن الكاثوليك كنيسة أمام دير اللعازاريين أنشئت بعد سنة(١٨٦٠) على اسم القديس غريغوريوس . وللبرتستانت كنيستان بنت إحداهما مسز موط الانكليزية سنة(١٨٦٨)والثانية (١٨٦٤) بناها القس يوحنا كرفورد الأميركاني .

وقد أنشئت عدة كنائس وأديار في دمشق أهمها دير اللعازاريين كان شرع ببنائه قبل حوادث (١٨٦٠) ثم أحرق وجدد بعد ذلك وفيه مدرستان إحداهما للذكور والثانية للإناث . ولليسوعيين مدرسة للبنات وفيها كنيسة صغيرة . وهناك دير الفرنسيسكان بالقرب من دير اللعازارية قيل:إنه أنشئ من نحو ٣٥٠ سنة وجدد عقيب حوادث (١٨٦٠) وفيه مدرسة للصبيان . ولطائفة الموارنة دير على اسم مار أنطونيوس البادواني حرق (١٨٦٠) وفيه دار البطريركية . وفي سفح الصالحية كنيسة صغرى للسريان الكاثوليك . وأنشئت في العهد الأخير كنيسة في المدرسة الإيطالية بطريق الصالحية وأخرى وراء المستشفى العسكري لراهبات الفرنسيسكان وغيرها من الكنائس الصغرى .

كنائس حلب :

وليس في الشهباء كنائس قديمة وأقدمها لا يرد عهده إلى قبل منتصف القرن الماضي فمنها كنيسة الأربعين للأرمن الغريغوريين في الصليبة وهي من الكنائس القديمة جددت (١٨٦٩) وكنيسة السيدة للأرمن الغريغوريين (١٨٥٠) وكنيسة مار أنطونيوس البادوي للآباء الفرنسيسيين أنشئت (١٦٦٠) ثم جددت، وكنيسة انتقال السيدة للسريان الكاثوليك في حارة الصليبة جددت

(١٨٥٠) بعد حريق وقع لها . وكنيسة أم المعونات للأرمن الكاثوليك تم بناؤها (١٨٤٠) ومنها كنيسة بشارة الإنجيل للبرتستانت في محلة جقور القسطل جعلت كنيسة (١٨٦٧) . وكنيسة مار فرنسيس للآباء الفرنسيسيين في حي جلوم تم بناؤها (١٨٧٨) . وكنيسة السيدة للروم الأرثوذكس في الصليبة جدد بناؤها (١٨٥١) . وسيدة الانتقال للروم الكاثوليك جددت بعد حريقها (١٨٥١) . ومار جرجس للروم الكاثوليك في ثرعسوس تم بناؤها (١٨٥٠) وكنيسة قلب يسوع للآباء اليسوعيين في حي تراب الغربا تمت سنة (١٨٨١). وكنيسة مار بطرس للكلدان في العزيزية (١٨٨٢) . وكنيسة مار جرجس للسريان الأرثوذكس في جقور قسطل وهي من الكنائس القديمة اختص بها السريان بعد أن كانت مشتركة بينهم وبين الأرمن في سنة(١٨٩٣) وكنيسة القديس بوناونتورا للآباء الفرنسيسيين تم بناؤها في حي الرام سنة(١٩٠٧) وكنيسة للموارنة باسم مار الياس الحي في الصليبة تمت سنة (١٨٩١)، وكنيسة الأنفس المطهربة في الحميدية تم بناؤها سنة (١٩١٠) .

الكنائس والبيع في القدس :

وفي القدس أديار وكنائس كثيرة بحيث يصح أن تدعى بلد الكنائس ولطائفة كاثوليك الرومانيين كنيسة اسمها كنيسة البطريركية ودير المخلص للفرنسيسكان وله كنيسة وميتم وصيدلية ومطبعة ، وكنيسة القديسة حنة وكنيسة الاكسي هومو (أي صورة المسيح المكللة بالشوك) وكنيسة الدورميسيون وكاتدرائية سان ايتيان ، وكنيسة الاغوني وأديار كنيسة القيامة ودي لافلاجلاسيون والدومنيكيين وإخوان البعثة الإفريقية واللعازاريين والآباء الپاسيونيست والبندكتيين . ودير البندكتيين وأديار الكرمليين وسيدات صهيون وأخوات القديس يوسف وأخوات الوردية والكلاريس وأخوات ريپاراتريس والبندكتيات . ولهم كنائس في المدارس . منها في المدرسة الاكليريكية البطريركية وميتم الأطفال في دير المخلص والمدرسة الصناعية في الدير نفسه ومدرسة الذكور للفرنسيسكان والمدرسة الصناعية

للذكور لرهبان سيدة صهيون ومدرسة الذكور لإخوان المدارس المسيحية ومدرسة وميتم بنات أخوات القديس يوسف وميتم البنات لأخوات الفرنسيسكانيات ومدرسة للبنات لراهبات الوردية ومدرسة وميتم لبنات سيدات راتسبون ، ومدرسة البنين والبنات لجمعية الأرض المقدسة الألمانية . ومن المستشفيات مستشفى سان لويس ، تعاون فيه راهبات القديس يوسف وملجأ اللقطاء والعجزة والمرضى لأخوات الإحسان ، وملاجئ الحجاج مثل كازانوفا للفرنسيسكان . والملجأ الكبير الفرنسي لسيدة فرنسا وملجأ الاغسطينيين والملجأ الكاثوليكي الالماني والملجأ النمساوي والروم المجتمعين أو الروم الكاثوليك كنيسة في البطريركية وبيعة في سانت فيرونيك ومدرسة اكليركية كبرى لرهبان القديسة حنة لاخوان البعثة الإفريقية (الآباء البيض) وميتم للبندكتيات وواحد للسوريين المتحدين وله مدرسة اكليركية يديرها الآباء البنديكتيون وقليل من الأرمن المتحدين مع كنيسة سيدة السپاسم وبيعة وملجأ ومدرسة متصلة بالكنيسة اللاتينية .

وللطوائف البرتستانتية الالمانية كنيسة المخلص الالمانية وملاجئ فرسان القديس يوحنا ومستشفى الدياكونيس قيصر ورت ودار للبرص للاخوان المورافيين وميتم للفتيات وميتم سوري للأولاد أسسه شنيلر وله ملجأ للعميان ومدرسة لأولاد العرب في القدس . وللطائفة البرتستانتية الانكليزية مدرسة وكنيسة أسقفية وجمعية التبشير الكنائسي لدعوة أبناء العرب من المسلمين واليهود للمذهب ولها كنيسة القديس بولس وميتم للذكور أسسه أسقف كوبا ومدرسة للذكور والبنات ومدرسة عالية وكنيسة يسوع لجمعية يهود لندرا ، وهذه الارسالية تقوم بنفقة مستشفى كبير وصيدليتين ومدارس للذكور والإناث ومدرسة صناعية ومطبعة . ولرهبنة فرسان القديس يوحنا الانكليزية مستوصف للرمد وبعض الأديار والمدارس تنفق عليها جمعية تبرعات فلسطين وجمعية مبرات ارسالية الشرق الانكليزية . ولطائفة الروم الارثوذكس عدة أديار وكنائس منها دير هيلانة وقسطنطين ودير إبراهيم ودير جيتسماني والقديس باسيليوس والقديس تيودوروس والقديس

جورج والقديس ميشل والقديسة كاترينا واوتيم وسيدة النجا واسبيريدون وكارالومبوس وديمتريوس ونيقولاوس وروح القدس ومدرسة للبنات وأخرى للذكور ومستشفى وغير ذلك . وللبعثة الروسية مدرسة كبرى في حي يافا والبنايات على جبل الزيتون. وكان للجمعية الروسية الفلسطينية ملجأ كبير للحجاج بالقرب من المعهد الروسي ، وملجأ للراهبات بالقرب من البيمارستان .

وللأرمن دير بالقرب من باب صهيون ولهم مدرسة اكليريكية ومدرستان للذكور وللإناث وكنيسة القديس يعقوب ودير للنساء اسمه دير الزيتوني ودير وبيعة جبل صهيون ولهم ملجأ . وللأقباط دير يقيم فيه أسقفهم ودير آخر يقال له دير القديس جورج . وللسريان اليعقوبيين كنيسة صغرى يقيم فيها أسقف لهم . وللحبش دير وكنيسة في الشمال الغربي من المدينة وللإسرائيليين زهاء ٧٠ كنيساً . وكثير من معاهد الخير والإحسان وملاجئ للزوار ومعاهد للفقراء أسس معظمها مونتفيور وروتشيلد وجمعية الاتحاد الإسرائيلي وغيرهم ولهم أربعة مستشفيات ودار للمعتوهين ومدرسة للعميان وملجأ للشيوخ ومدرسة ابتدائية وصناعية تقيم عليها جمعية الاتحاد الإسرائيلي ومدرسة انكليزية للبنات ومدرسة المانية للبنين وملاجئ منها الالماني والاسباني وفي القدس مدرسة البنات لاسوج . ولما زار الامبراطور غليوم الثاني ملك ألمانيا مدينة القدس أمر بانشاء أربع كنائس وكلها واقعة في أهم بقعة في المدينة ثلاث منها مشرفة عليها من الخارج والرابعة داخل المدينة أي السور .

وقبل الحرب العامة كان في القدس ٨ أديار للذكور و ٩ أديار للإناث من اللاتين وكنيستان للروم الكاثوليك وواحدة للأرمن الكاثوليك و ١٤ ديراً للروم الذكور و ٤ أديرة للإناث من الروم و ٤ أديار للروس و ٥ للأرمن و ٣ للأقباط و ٣ للحبش و ٢ للسريان و ٢ للبرتستانت الاسقفيين و ١ للإنجيليين و ١ للهيكليين من الطوائف البرتستانتية و ٤٠ كنيساً للإسرائيليين وربما زادت بعض الطوائف أماكن أخرى للعبادة .

وكنائس القدس وأديارها وبيعها على غاية من الفخامة لأنها من إنشاء

دول كبرى ومكانة القدس في هذا الباب لا تنازعها فيه غير رومية العظمى ، وأهم تلك الكنائس في القدس كنيسة القيامة وهي ليست بالكبرى كثيراً بالنسبة لكنائس الغرب المهمة بل هي متوسطة الحجم استأثر أهل كل مذهب من مذاهب النصرانية ببقعة صغيرة منها لا يتعدونها يكنسونها ويوقدون سرجها ويتعهدونها بما يصلحها . والسدانة للمسلمين حتى لا يقع بين أهل تلك المذاهب شيء من التحاسد الذي أدى في الأزمان السالفة الى فتن وحوادث ، ولكل قطعة من قطع كنيسة القيامة وجدار من جدرانها وعمود من عمدها حادثة تاريخية يذكرونها في تاريخهم الديني .

ولو كان عُني بعمران كل بلد على مثل ما عُنيَ بإنشاء الأديار والكنائس في القدس وما إليها من الأرض المقدسة لكانت الشام أعمر أقطار العالم بكنائسها وأديارها فقد قدّر بعضهم ما أنفق على هذه المعاهد الدينية الكبرى بخمسة عشر مليون جنيه قبل أن يحاول اليهود أن يجعلوا لهم من فلسطين وطناً قومياً ، وقبل أن ينشئوا فيها كنائسهم ومعابدهم ويشترك يهود العالم في إتمام مشاريعهم في فلسطين . ولا يدخل في هذا التقدير ما في معابد القدس من العاديات والآثار والتحف والطرف فإن ذلك لا يقوّم بثمن . كل هذا بسائق المنافسة السياسية والدينية بين الطوائف المسيحية بعضها مع بعض وبين المسيحيين من جهة والموسويين من أخرى .

كنائس فلسطين :

ولو جئنا نستقصي كنائس فلسطين لطال بنا المجال فمن كنائسها كنيسة روسية في يافا مطلة على سهل سارون وكنائس صغيرة ثابتة للفرنسيين والروم الأرثوذكس والكاثوليك والموارنة ، وكنيس لليهود . ولهم مدرسة مهمة في تل أبيب وأهم الأديار فيها دير اللاتين وفيها كنيسة للبرتستانت الالمان من طائفة الهيكليين واسمها أحباب القدس وقد كثرت الكنائس في المدن والقرى والغالب أن كنائس القرى سبقت بإنشائها كنائس المدن لأن النصرانية انتشرت أولاً في القرى وعصى أهل المدن على التدين بها لغلبة التعصب عليهم . ومن رأي بعض الواقفين أن النصرانية انتشرت أولاً في المدن

كالقدس وأنطاكية والإسكندرية وأفسس حتى وصلت الى داخل بلاط القياصرة .

وفي نابلس دير للاتين وكنيسة للروم وكنيس وكتاب للسامرة ومدرسة للانكليز ومدرسة للراهبات ولها بيع صغيرة وفي أريحا كنيسة للروم وأخرى للاتين. وكنيسة بيت لحم من أقدم الكاتدرائيات الباقية لم تخرب في جملة ما خربه الحاكم ، وقد رممت في أوقات مختلفة وزينت ولا سيما في عهد الصليبيين ، وفي بيت لحم عدة أديار وكنائس منها دير للفرنسيسكان مع دار ضيافة ومدرسة للذكور وصيدلية وكنيسة جميلة ولأخوات القديس يوسف دير وميتم ومدرسة للبنات ودير للكرمليات عُمر على مثال قصر سانت آنج في رومية وله كنيسة ومدرسة اكليركية لجمعية آباء القلب المقدس وجمعية الأب بيلوني وفيه مدرستان إحداهما صناعية وكنيسة . ولراهبات المحبة مستشفى ولإخوان المدارس المسيحية مدرسة عظمى وللروم دير الولادة وكنيستان إحداهما باسم القديسة هيلانة والثانية باسم القديس جورج ومدرسة للذكور وأخرى للإناث . وللأرمن دير عظيم وهو دير الفرنسيسكان ودير الروم أشبه بقلاع . وللبرتستانت الالمان مدرستان وميتم ، وللانكليز مدرسة للفتيات يضاف إليها دار للمعلمات وكلها تحوي كنائس وبيعاً . وفي الناصرة أربع عشرة بيعة وكنيسة ومعظمها من ضخامة البناء ما يذكر بقصور الملوك ، ودير الفرنسيسكان يزار لبعض الآثار التاريخية فيه وهو أثر من آثار القرون الوسطى . وفي صفد كنيسة ومدرسة للروم الكاثوليك وخمس كنائس للإسرائيليين وخمس مدارس ابتدائية دينية ومدرسة عالية للاتحاد الإسرائيلي وكنيسة ومستشفى للبرتستانت . وفي طبريا كنيسة للروم وأخرى للكاثوليك وخمس كنائس لليهود . وللكاثوليك كنائس في حيفا والبصة وشفاعمرو وترشيحة والمقار . وفي الطور دير وكنيسة لكل من الفرنسيين والروم الأرثوذكس ، وكنيسة الفرنسيين من أبدع كنائس العالم .

وفي الرملة دير للآباء الفرنسيسكانيين أسس سنة(١٤٠٠)على يد الأمير فيليب الاسباني ثم خرب سنة(١٧٠٠)ثم أعيد بناؤه . وخرب صلاح الدين

كنيسة لدّ التي أنشئت في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، كما خرب كثيراً من الكنائس في عهده وخرب بعضها في الحروب وخرب الآخر قصداً لأسباب سياسية وحربية حافزة . وفي جينين دير ومدرسة للذكور وللروم كنيسة وللبرتستانت وللكاثوليك ولكل كنيسة مدرسة تابعة لها . وبالجملة فكل بلد في فلسطين لا يخلو من دير أو كنيسة أو كنيس مهما بلغ من قلة ساكنيه من المسيحيين والإسرائيليين .

والفضل في إنشاء هذه الكنائس لجماعة الرهبان والمبشرين فهم الذين استوكفوا أكف المحسنين في الغرب وصرفوا عقولهم وأوقاتهم في إقامة تلك المعاهد المهمة ، وقد جاء منهم نوابغ في كل قرن خلدوا اسمهم بقدر ما بذلوا من العناية بنشر دينهم وإقامة شعائره ومعابده فاستفاد العمران من عملهم فوائد لا ينكرها منصف . كتب إيليا بطريرك بيت المقدس إلى أنسطاس ملك الروم: قد بعثتُ إليك بجماعة عبيد الله ورؤساء رهبان بريتنا وفيهم سابا الفاضل الذي قد صيّر بريتنا مدائن وأعمرها وهو نجم فلسطين .

كنائس الأردن :

وفي عبر الأردن كنائس أهمها كنيسة مادبا أو ميدبا وقد تقدم الكلام عليها في المصانع ونزيد الآن أن ميدبا (عن مجلة المسرة) فاقت أخواتها بكنائسها الفخمة العشر وأن سرجيوس مشيد الكنائس شيد كنيسة على اسم الرسل القديسين . ومن الكنائس التي بقي ذكرها إلى اليوم كنيسة البتول التي يرجع عهدها إلى أيام القيصر يوستنيانوس . ولما فاضت جيوش الأعاجم على هذه الديار حرقت الكنائس والديرة وذبحت الألوف من الرهبان والنصارى ثم وطئتها أقدام الفاتحين من المسلمين فدثرت تلك الأسقفية وعادت أخربة ينعق فيها البوم عصوراً طويلة .

وكان في أكثر أمهات قرى حوران كنائس مهمة في الإسلام خربت بطول الزمن حتى قيل إنه كان في إقليم حوران فقط أربع وثلاثون أسقفية وناهيك بما يقتضي لها من الكنائس . واشتهرت اليوم كنائس تبنة وبصير وخبب . وفي جبل عجلون عدة كنائس منها ثلاث في الحصن أكبرها كنيسة اللاتين . وفي عجلون عدة كنائس صغرى جعل بجانبها مدارس .

وفي الكرك ثلاث كنائس للروم والكاثوليك والبرتستانت . وقد بلغ الغرام برجال المذاهب المسيحية أن أهل كل مذهب إذا وجدوا خمس عيال في قرية من رعاياهم أنشأوا لهم كنيسة فالكنائس الصغيرة كثيرة جداً في كل بلد وكل قرية أنشأ فيها اللاتين كنيسة أنشأ فيها البرتستانت أيضاً والعكس بالعكس .

كنائس لبنان :

أما كنائس لبنان فكثيرة جداً لا تكاد تخلو قرية من كنيسة أو كنيستين وربما أكثر ،وليست كلها على جانب عظيم من العظمة ولا يرد عهدها إلى زمن قديم ، فإن معظم ما كان منها في كسروان وما إليه إلى جنوبي الجبل ليس له من العمر أكثر من مئتي سنة ، ذلك لأن الموارنة لم يمتدوا إلى كسروان قبل القرن السادس عشر للميلاد ، وكان عشهم في شمالي لبنان قبل ذلك . ولقد ترى في بعض المدن اللبنانية كزحلة وهي أكثر القرى سكاناً في الجبل كثيراً من الكنائس التي لم تقم على ما يظهر إلا بسائق المنافسة ففيها ١٢ كنيسة للكاثوليك وكنيستان للأرثوذكس وكنيستان للموارنة وكنيسة ودير لليسوعيين وكنيسة للسريان الكاثوليك وكنيسة للأميركان،وفي زحلة أيضاً دير القديس الياس الطوق للرهبنة الباسيلية وفيها كنيسة في المدرسة الشرقية وغير ذلك من الكنائس الملحقة بالمدارس ولا تقل عن ست وعشرين كنيسة . وفي مدينة بيروت وطرابلس واللاذقية وصور وصيدا كنائس كثيرة لكل طائفة ولكل جمعية تبشيرية وأهمها ما كان في بيروت فللروم الأرثوذكس وللروم الكاثوليك وللبرتستانت الأميركان ولغيرهم من الطوائف كنائس وبيع مهمة ، وأهمها ما كان لليسوعيين أو المرسلين الأميركان .

وفي الهدنة التي عقدت بين المنصور قلاوون وولده الملك الصالح وبين حكام الفرنج بعكا سنة(٦٨٢) أن تكون كنيسة الناصرة وأربع بيوت من أقرب البيوت إليها لزيارة الحجاج وغيرهم من دين الصليب كبيرهم وصغيرهم على اختلاف أجناسهم وأنفارهم من عكا والبلاد الساحلية ويصلي

بالكنيسة الأقساء والرهبان وتكون البيوت المذكورة لزوار كنيسة الناصرة خاصة، وإذا نقبت الحجارة التي بالكنيسة المذكورة ترمى براً ولا يحط حجر منها على حجر لأجل بنايته ولا يتعرض إلى الأقساء والرهبان وذلك على وجه الهبة لأجل زوار دير الصليب .

ومن كنائس لبنان وما إليه كنيسة معاد وكنيسة رشكيدا وكنيسة حدنون وكنائس اهدن وعبدله وبحديدات وصربا وكفر شليمان وقنوبين وبكفيا وادّه وبشرّي وبكركي والديمان وزحلة ودير القمر والشرفة وبرمانا وغزير وبيت خشبو وبزمار وبعبدات والقريّة وحريصا وأميون وجزين وجبيل وأفقة والكورة والزاوية وبخنّس ودير مار الياس والشوير وبسكنتا وكفتين ودير مار يعقوب المقطع ودير سيدة الراس ودير حماطورة ودير مار جرجس ودير مار الياس النهر ودير ناطور ودير سيدة النورية عند وجه الحجر ودير كفتون ودير جبرائيل ودير ميخائيل المعظمة في برج صافيتا ودير مار جرجس الحميرا ودير الأحمر . ودير مار شربين ودير مار توما قرب صيدنايا .

وكان الصليبيون أنشأوا عدة كنائس في أرواد وطرطوس وصيدا وبيروت وغيرها من الساحل فهدمت ، ثم بنيت مساجد ولأن بعضها كان بمثابة حصون في أيدي الرهبنات المتجندة مثل الهيكليين والاسبتاريين والتوتونيين . وفي أمهات المدن الصغيرة كنائس مهمة مثل بعلبك وعكار والحصن وحمص وحماة ويبرود والقبيات والإسكندرونة وأنطاكية . وفي هذه فقط تسع كنائس وفيها أُنشئت أول كنيسة في الشام وكانت في جميع أدوارها موضع إعجاب المؤرخين والسائحين ومنها ما هو في القرى مثل صدد ومعلولا وصيدنايا وهذه أليق بأن تذكر في باب الأديار لأنها بعيدة عن المدن والدير في الحقيقة كنيسة وزيادة . ولليهود في حلب ودمشق عدة كنائس ولكنها ليست من المكانة على شيء ولهم في تادف وجوبر وغيرهما كنائس قديمة ينتابونها للعبادة ومن عادة الإسرائيليين أن يكون في دار كل غني كنيس وهو عبارة عن غرفة كبيرة تجعل للعبادة وأشهرها في دمشق كنيس سوق الجمعة ولهم في حلب كنائس مهمة وكذلك في بيروت.

عمل الرهبان والراهبات العظيم :

يتصور القارئ مبلغ عناية الرهبان والراهبات بدينهم من إلقاء نظرة على الفصل التالي : للراهبات الالمانيات مدرسة ودار للأيتام في القدس ومستشفى في حيفا ومستشفى ومدرسة ليلية ونهارية للإناث في بيروت ومعهد في دمشق وآخر في حلب وقد جئن القدس سنة(١٨٨٧). وجاء راهبات السجود القدس سنة(١٨٨٨)وأسسن فيها ديراً كبيراً ثم جئن بيروت وأنشأن داراً للعبادة . وللعازاريين محال مهمة وهم يقسمون قسمين قسم الرهبان اللعازريين الالمان جاءوا سورية عام(١٨٩٠)وأنشأوا في القدس مدرسة ، والقسم الثاني رهبان فرنسيون جاءوا سورية منذ نحو قرنين وأخذوا الأديار التي كانت لليسوعيين ولهم مدرسة في بيروت وأخرى في عينطورة وأهدن في لبنان ورابعة في دمشق وخامسة في ريفون .

وجاء الآباء الساليزيون القدس سنة(١٨٩١)ولهم دار للأيتام في بيت لحم ودار للأيتام زراعية في بيت جمال وثالثة في الناصرة ومدرسة ابتدائية في بيت لحم . وجاء الراهبات الساليزيات القدس سنة (١٨٩١) وهن يشتغلن مع الرهبان الساليزيين . وأتى راهبات صهيون القدس عام(١٨٥٦)وأنشأن معهداً في كنيستهن المسماة اكس هومو . وقدم الآباء البيض القدس عام (١٨٧٨)وأنشأوا كنيستين فيها. ونزل آباء القلب المقدس القدس عام(١٨٧٩) وأنشأوا مدرسة في بيت لحم . ولراهبات الوردية عمل ديني مثل بنات جنسهن . وجاء القدس آباء سيدة صهيون عام(١٨٨٤) . والدومنيكان أو رهبان مار عبد الأحد وردوا على القدس عام(١٨٨٢) وأسس الرهبان الصعوديون مأواهم في القدس عام(١٨٨٧)وأسس الآباء الترابيون ديراً في الاطرون وهم معروفون بفن الألبان والزراعة . وجاء الراهبات البندكتيات القدس عام(١٨٩٦) وراهبات هورتوس كونكلوز وهن اميركانيات جئن القدس عام (١٩٠١) .

ولراهبات الناصرة مدرسة في حيفا وأخرى في شفاعمرو وثالثة في عكا ودير الناصرة في بيروت وقد جئن سورية سنة(١٨٥٥). وقدم الراهبات

الكرمليات الشام سنة (١٨٧٣) وأنشأن ديرهن المعروف في جبل الزيتون في القدس ولهن دير في بيت لحم وآخر في سفح جبل الكرمل قرب حيفا . وجاء رهبان الفرير الشام سنة(١٨٧٨) ولهم مدرسة في القدس وأخرى في حيفا وثالثة في الناصرة ورابعة في بيت لحم وخامسة في بيروت وسادسة في طرابلس وسابعة في إسكندرونة وثامنة في دمشق وتاسعة في يافا . وجاء رهبان مار يوحنا الالهي القدس عام(١٨٧٩)فأسسوا مستشفى في طنطور على طريق بيت لحم ولهم مستشفى ومستوصف في الناصرة .

وجاء راهبات سانت كلير الشام عام(١٨٨٤)وأنشأن ديراً على طريق بيت لحم ولهن دير في الناصرة . ووردت الراهبات الفرنسيسيات البيض القدس عام(١٨٨٥)وأنشأن ميتماً ولهن ميتم في بيت لحم وأنشأن مدرسة في دمشق . وجاء راهبات المحبة القدس عام(١٨٨٦)ولهن مستشفى ودار للأيتام في بيت لحم ومستشفى ومدرسة في حيفا ومستشفى في الناصرة ولهن في بيروت مستشفى عظيم ودار للأيتام ودار للصناعة للذكور والإناث وثلاث مدارس صغرى في بيروت ومكتب للصنائع في طرابلس ودور نقاهة في اهدن وبحنّس من لبنان ومدرسة في برج البراجنة وفي كل معهد منها دار للعبادة يختلف إليها أهل المذهب الذي يبشرون به .

ولقد قالوا: إن عدد الجمعيات الأجنبية التي تسعى لتنوير أفكار النصارى في سورية تبلغ ثمانين جمعية ، وأهمها جمعية اليسوعيين وردوا الشام قبل قرنين أو ثلاثة فأسسوا الأديار التي ينزلها اللعازريون اليوم ثم غادروا الديار فلم يعودوا إليها إلا عام(١٨٣١)فأنشأوا مدرستهم في غزير من لبنان وفي عام(١٨٧٦)افتتحوا كليتهم العظمى في بيروت ولهم الآن عدة أديارومدارس في بكفيا والمعلقة وزحلة وغزير ودمشق وحلب وتعنايل وجزين وقد أنشأوا بعد الحرب العالمية مدارس صغرى كثيرة في ربوع جمهورية لبنان ويوشكون أن يتوسعوا في الداخلية كثيراً بمدارسهم وكنائسهم . أما الفرنسيسكان فلم يزالوا في الشام منذ الحروب الصليبية وزادوا عام(١٨٤٨) عدد أديارهم وأنشأوا ملاجئ للزوار في القدس ولهم فيها ستة ملاجئ ولهم أديار وملاجئ في بيت لحم وعين كارم وطبريا وجبل الطور والناصرة وقانا وعكا وصور

وصيدا وبيروت وحريصا وطرابلس واللاذقية ودمشق وحلب وإسكندرونة ولهم مدرسة في حلب .

وكان الكرمليون تركوا الشام مع القافلة الأخيرة من الصليبيين ثم عادوا إلى جبل الكرمل عام(١٦٣٦)وبنوا ديراً ومحلاً للضيافة في الجبل ولهم أديار في حيفا وطرابلس والقبيات من إقليم عكار ومدرسة في بشرّي . وديرهم في الكرمل من أجمل أديار الشام ترى منه أجمل المناظر . وجاء راهبات القديس يوسف أو الراهبات اليوسفيات من مرسيليا إلى القدس عام(١٨٤٨) ولهن في فلسطين ١٣ معهداً و ٣ مستشفيات أحدها في القدس والآخر في يافا والثالث في الناصرة . ولهن في هذه المدن ثلاث دور للأيتام ومدرستان نهاريتان وخمس مدارس دينية ومدرسة في بيروت ودير في صيدنايا ومدرسة فيها دير ومدرسة في دير القمر وديران ومدرستان ليليتان ومستشفى في حلب ودير ومدرسة في إسكندرونة .

الأديار القديمة في الشام :

« دير إسحاق » كان بين حمص وسلمية في موضع حسن نَزِه على نهرٍ جارٍ وحوله كروم ومزارع إلى جانب ضيعة صغيرة يقال لها جَدَر . وهي التي ذكرها الأخطل في قوله :

كأنني شارب يوم استبدّ بهم ... من قرقف عتقتها حمص أو جَدَر

وقال فيه أبو عبد الرحمن الهاشمي السلماني من أهل سَلَمية :

وإذا مررت بدير إسحاق فقل ... جادتك غيث سحائب وبروق
ديرٌ يُشبَّه ماؤه بهوائه ... وهواؤه بلطافة المعشوق

وليس لهذا الدير من أثر اليوم .

« دير الباعفي » كان قبلي بصرى من أرض حوران وهو دير بحيرا الراهب كما زعموا ولا يعرف الآن . وبحيرا شخص خيالي .

« دير باعنتل » من جوسية على أقل من ميل وجوسية على مرحلة من حمص ولا يعرف اليوم هذا الدير .

« دير البتّراء »كان في وادي موسى دير للراهبات وذكر البولونديون

ديراً للرهبان في البتّراء كان يرأسه القديس موسى أسقف البدو الرحالة يقال:إن بانيه اثينوجينوس أوائل القرن السابع للميلاد . وذكر الرحالة تيتمار أنه طاف تلك الفيافي سنة(١٢١٧)وعثّر بين أخربة البتّراء على كنيسة ودير لم يزل يسكنه بعض الرهبان . وهناك الكنيسة الكاتدرائية المثلثة السواعد وقد كانت اماً لسائر الكنائس الملكية الكاثوليكية في هذه البلاد الشرقية (عن مجلة المسرة) .

« دير البخت » كان على فرسخين من دمشق ويسمى دير ميخائيل وكان عبد الملك بن مروان قد ارتبط عنده بختاً وهي جمال الترك فغلب عليها وكان لعلي بن عبد الله بن عباس قربه جنينة يتنزه فيها . وقرية دير البخت معروفة الى اليوم في الجيدور . ووجه التسمية في هذا الدير بعيد لأنه عرف بهذا الاسم قبل الإسلام على ما ظهر من رواية ابن عساكر في بعض وقائع عمر بن الخطاب في الجاهلية ومروره بدير البخت واجتماعه براهب أكرمه وتفرس فيه الخير فيما قال .

« دير بصرى » قيل هو الذي كان فيه بحيرا الراهب في حوران . مجهول محله .

« دير بلاض » من أعمال حلب مشرف على العمق فيه رهبان لهم مزارع وهو دير قديم مشهور لم يبلغنا أنه موجود .

« دير البلمند » من أديار الروم الأرثوذكس المشهورة على نشزعال قرب مدينة طرابلس في أقصى حدود جبل لبنان يقال:إنه من أديار الصليبيين وإن اسمه جاء من تركيب بل مونت أي الجبل الجميل وهو اليوم عامر .

« دير بلودان » مر به ابن فضل الله العمري ونزل إليه فقال فيه:إن بناءه قديم بديع الحسن وافر الغلة كثير الكروم والفواكه والماء الجاري ، بقربه قرية بلودان وهي محاذية لكفر عامر تطلّ من مشترفها على جبة الزبداني وبه رهبان نظاف ونظم فيه أبياتاً ومنها :

حبذا الدير من بلودان دارا   أيّ دير به وأيّ نصارى

فيهم كل أحور الطرف أحوى   فائق الحسن في حسان العذارى

وقال محاسن الشوا الحلبي :

حييا ساكني بلودان عني ورجالاً بدير قانون زهرا

ولا يعرف متى زال هذا الدير،ودير قانون من قرى الوادي لا دير فيه اليوم .

« دير بولس » كان بنواحي الرملة نزله الفضل بن إسماعيل وقال فيه شعراً لم يسمه في أوله :

عليك سلام الله يا دير من فتىً بمهجته شوق إليك طويل
ولا زال من جو السماكين وابل عليك لكي يُروي ثَراك هطول

قال البكري : ودير بولس آخر و « دير بطرس » (أو نطرس) وهما معروفان بظاهر دمشق في نواحي بني حنيفة في ناحية الغوطة وإياهما عنى جرير بقوله :

لما تذكرت بالديرين أرّقني صوت الدجاج وقرعٌ بالنواقيس
فقلت للركب إذ جدّ الرحيل بنا يا بعد يبرين من باب الفراديس

ولا نعرف شيئاً عن هذا الدير .

« دير البنات » وهو دير أبيض البناء مشرف على أرض طرابلس كان للرواهب قال فيه الطيبي :

دير البنات الزهر أنتِ المنى وأنت من دون الأماني المرام
لم أنس يوماً فيك أذهبته باللهو بل ذهبته بالمدام
ونحن في غـرة أيامنـا والعيش مثل الطيف حلو اللمام
والدوح ما جفت له زهرةٌ والروض طفل ما جفاه الغمام
وبيننا خوّد كشمس الضحى وأغيد قد فاق بدر التمـام
لولا نبات الشّعر في خده لم تدر أي الأغيدين الغـلام

ولا نعرف اليوم أي أديار البنات هذا .

« دير يوَنّا » أي يوحنا وروي بالباء بدل الياء كان بجانب الغوطة بدمشق ليس بكبير ولا رهبانه بكثير ولكنه في رياض مشرقة وأنهار متدفقة ويقال بأنه من أقدم ديِرة النصارى . اجتاز به الوليد بن يزيد فأقام فيه أياماً وقال فيه :

حبذا يومنا بديـر يوَنّا حيث نسقى براحه ونُغَنّى

واستهنا بالناس فيما يقولو ن إذا خُبِروا بما قد فعلنا

قال ابن فضل الله وهذا الدير اليوم لا وجود له .

« دير حمطورا » هو في شرقي طرابلس في جانب الوادي الذي أسفل من طرزيه والحدث . وهو بناءٌ في سفح الجبل من ذلك الجانب قبالة الطريق السالك إلى طرابلس وهو حصين جداً لا يسلك إليه إلا من طريق واحد وظهر الجبل الذي له ممتنع — قاله ابن فضل الله .

« دير الحنابلة » في تاريخ الصالحية لم يكن في الجبل أي قاسيون إلا بناية يسيرة من الناحية الغربية دير أبي العباس الكهفي ودار بيت الضيا وغيرها ، ومن الناحية الشرقية دير يقال له دير الحنابله وكان أولاً لناس من الرهبان فاتفق أنهم أحدثوا شيئاً فأُخرجوا منه ثم بنى الشيخ أبو عمر المدرسة .

« دير حنيناء » دير بالشام وهناك مات معاوية بن هشام بن عبد الملك فقال الكميت يرثيه :

فأي فتى دنيا ودين تلمست بدير حنيناء المنـايا فدُلّت

تعطلت الدنيا به بعد موته وكانت له حيناً به قد تحلّت

وقيل: إن الذي رثي بهذا الشعر البطال أحد قواد الأموية وفرسانهم مات بدير حنيناء قافلاً مع معاوية بن هشام من غزوة فأمر معاوية الشعراءَ برثائه . والرواية في شعر أبي تمام حبيناء بالباء المعجمة ولا يعلم عنه شيءٌ في عصرنا .

« دير الحمان » كان هذا الدير بأرض أذرعات بُـني بالحجارة السود على نشز من الأرض يشرف على بركة الفوار وهو من البناء الرومي القديم . ولا يعرف اليوم عنه شيءٌ .

« دير خالد » وهو دير صليبا بدمشق كان مقابل باب الفراديس نسب الى خالد بن الوليد لنزوله فيه عند حصاره دمشق قال ابن الكلبي :وهو على ميل من الباب الشرقي ولا يعرف عنه شيءٌ آخر وفي هذا الدير يقول محمد ابن علي المعروف بأبي البقاء :

جنة لقبت بديـر صليبـا مبدعاً حسنه كمالاً وطيبا

جئته للمقام يومـاً فظلنا فيه شهراً وكان أمراً عجيبا

شجـر محـدق به وميـاه جار يات والر وض يبدو ضروبا

من بديع الألوان يضحي بهالثا كلٌ مما يرى لديه طروبا
كم رأينا بدراً به فوق غصن مائس قد علا بشكل كثيبا
وشربنا به الحياة مداماً تطلع الشمس في الكؤوس غروبا
فكأن الظلام فيها نهار لسناها تسرّ منا القلوبا
لست أنسى ما مر فيه ولا أجـ عل مدحي إلا لدير صليبا

« دير خُناصرة » ورد ذكره في شعر بني مازن في قول حاجب بن ذبيان المازني مازن بن تميم من عمرو بن تميم لعبد الملك بن مروان في جدب أصاب العرب قال :

وما أنا يوم دير خُناصرات بمرتد الهموم ولا مُليم
ولكني ألمت بحال قومي كما ألم الجريح من الكلوم

وخناصرة بلدة في قبلي حلب وليس للدير ذكر الآن .

« دير الدواكيس » شرقي القدس حسن البناء له سمعة وذكر وكان له وقف يعود منه على الرهبان السكان جليل فائدة ونفع ولابن فضل الله فيه وقد مر به غير مرة أبيات منها :

دير الدواكيس أم ريش الطواويس أم الشموس سنًا تلك الشماميس
مأوى المياسير لكن بعد أوبتهم منه يُعدّون في حزب المفاليس
فانزل به وأقم فيما تريد وقل إملا كؤوسي وفرّغ عندها كيسي
واقدح زناد سرور من مدامته فهذه النار من تلك المقابيس

« دير رُمانين » جمع رمان بلفظ جمع السلامة يعرف أيضاً بدير السابان وهو بين حلب وأنطاكية مطل على بقعة تعرف بسَرْمَن وهو دير حسن كبير خرب قبل القرن السابع وآثاره باقية كما قال ياقوت وفيه يقول الشاعر :

ألف المقام بدير رُمانينا للروض إلفاً والمدام خدينا
والكأس والإبريق يعمل دهره وتراه يجني الآس والنّسرينا

قال ياقوت ودير السابان وهو دير رُمّانين وتفسيره بالسريانية دير الشيخ .

« دير سابر » كان من نواحي دمشق وهو من إقليم خولان سكنه عمر ابن محمد الأموي . وخولان كانت بقرب دمشق خربت بها قبر أبي مسلم

الخولاني وبها آثار باقية – ياقوت.وبيت سابر اليوم قرية في سفح جبل الشيخ من عمل وادي العجم .

« دير سعد » كان من ديرة الشام نزله عقيل بن عُلَّفَة المري وكان يصهر إليه خلفاء بني أمية وهذا كل ما عرف عنه قديماً .

« دير سليمان » دير بجسر منبج وهو في جبل عال من جبال دلوك مطل على مرج العين وهو غاية في النزاهة قال أبو الفرج أخبرني جعفر بن قدامة قال:ولي إبراهيم بن المدبِّر عقيب نكبته وزوالها عنه الثغور الجزرية وكان أكثر مقامه بمنبج فخرج في بعض ولايته إلى نواحي دلوك برعبان وخلف بمنبج جارية كان يتحظاها يقال لها غادر فنزل بدلوك على جبل من جبالها بدير يعرف بدير سليمان من أحسن بلاد الله وأنزهها ودعا بطعام خفيف فأكل وشرب ثم دعا بدواة وقرطاس فكتب :

أيا ساقيينا وسط دير سليمان	أديرا الكؤوس فانهلاني وعُلاني
وخصا بصافيها أبا جعفر أخي	فذا ثقتي دون الأنام وخلصاني
وميلا بها نحو ابن سلاّم الذي	أود ، وعودا بعد ذاك لنعمان
وعُما بها النعمان والصحب إنني	تنكر عيشي بعد صحبي وإخواني
ولا تتركا نفسي تمت بسقامها	لذكرى حبيب قد سقاني وغناني
ترحلت عنه عن صدود وهجرة	فأقبل نحوي وهو باك فأبكاني
وفارقته والله يجمع شملنا	بلوعة محزون وغلة حرّان
وليلة عين المرج زار خياله	فهيج لي شوقاً وجدد أحزاني
فأشرفت أعلى الدير أنظر طامحاً	بألمح آماق وأنظر إنسان
لعلي أرى أبيات منبج رؤية	تُسكن من وجدي وتكشف أشجاني
فقصّر طرفي واستهل بعبرة	وفدّيت من لو كان يدري لفدّاني
ومثله شوقي إليه مقابلي	وناجاه عني بالضمير وناجاني

« دير سمعان » بنواحي أنطاكية على البحر قال ابن بطلان وبظاهر أنطاكية دير سمعان وهو مثل نصف دار الخلافة ببغداد يضاف به المجتازون وله من الارتفاع كل سنة عدة قناطير من الذهب والفضة وقيل: إن دخله في السنة أربعمائة ألف دينار ومنه يصعد إلى جبل اللكام – قال هذا في

القرن الخامس للهجرة . وفي رواية أن دير سمعان بنواحي حلب بين جبل بني عُـليم والجبل الأعلى . ودير سمعان أيضاً في قرية تعرف بالبقرة من قبلي معرة النعمان وبه قبر عمر بن عبد العزيز مشهور لا ينكر ذكره السيد الرضي في رثائه بقوله :

يا ابن عبد العزيز ولو بكت العيـ ـن فتىً من أميـة لبكيتكْ
أنت نزهتنـا عن السب والشتـ ـم فلو يمكن الجزا لجـزيتك
دير سمعان لاعدتك الغوادي خير ميت من آل مروان ميتُـك

وقال أبو فراس بن أبي الفرج البزاعي وقد مر به فرآه خراباً فغمه :

يا دير سمعان قل لي أين سمعان وأين بانوك خبرني متى بانوا
وأين سكانك اليوم الألى سلفوا قد أصبحوا وهم في الترب سكان
أصبحت قفراً خراباً مثلما خربوا بالموت ثم انقضى عمر وعمران
وقفتُ اسأله جهلاً ليخـبرني هيهات من صامت بالنطق تبيان
أجابني بلسان الحـال إنهـم كانوا ويكفيك قولي إنهم بانوا

« دير السيق » كان معروفاً قديماً ويقع قبلي البيت المقدس على نشز عظيم عال مشرف على الغور غور أريحا يطل على تلك البسائط الخضر ومجرى الشريعة وبه رهبان ظراف أكياس لا يأتيهم إلا قاصد لهم أو مارّ في مزارع الغور . تحتهم وفوقهم الطريق الآخذة الى الكثيب الأحمر . ومشهد موسى عليه السلام في القبة التي بناها عليه الملك الظاهر بيبرس وفي هذا الدير ومشترفه وأطلال قلاليه وغرفه قال ابن فضل الله العمري :

أرى حسن دير السيق يزداد كلما نظرت إليه والفضاء به نضرُ
بنوه على نجد من الغور مشرف كتخت مليك تحته بُسُط خضرُ
وأشرق في سود الغمام كأنمـا تشقق ليلاً عن جلابيبه الفجر
وقام على طود عليّ كأنما مصابيحه تحت الدجى الأنجم الزهرُ
وزفت إليه الشمس من جنب خدرها وناغاه جنح الليل في أفْقه البدرُ
وألقت إليه الريح فضل عنانها وأحنى عليها لا تبلّ له عذرُ
ولو كان كالنسرَين هان ارتقاؤه ولكنه قد حط من دونه النسر
علا نهر ريحا والمجرّة فوقـــه فمن فوقه نهر ومن تحته نهر

« دير شق معلولا » وهو بباطن جبة عسال وهو بناء رومي بالحجر الأبيض مُعَلّق بسقيف وبها صدع فيها ماءٌ ينقط نحو الذي بصيدنايا ، ويأخذه النصارى للتبرك معتقدين فيه نحو اعتقادهم في الآخر وإنما الاسم للذي بصيدنايا — قاله في مسالك الأبصار والغالب أنه دير الروم الباقي الى اليوم .

« دير صليبا » ويعرف بدير السائمة (السائحة ؟) وهو بدمشق مطل على الغوطة ويليه من أبوابها باب الفراديس نزل دونه خالد بن الوليد أيام محاصرة دمشق وهو في موضع نزه كثير البساتين وبناؤه حسن عجيب وإلى جانبه دير للنساء فيه رهبان ورواهب وإياه أراد جرير بقوله :

إذا تذكرت بالديرين أرقني ... صوت الدجاج وقرع بالنواقيس
فقلت للركب إذ جد النجاء بهم ... يا بعد يبرين من باب الفراديس

وقد مر بنا هذان البيتان في دير بولس برواية أخرى . وقال الآخر :

يادير باب الفراديس المهيج لي ... بلابلاً بقلاليه وأشجاره
لو عشت تسعين عاماً فيك مصطبحاً ... لما قضى منك قلبي بعض أوطاره

قال ابن فضل الله وهذا اليوم (أي في الثامن) لا عين له ولا أثر وإنما صار دوراً وأبنية ومساجد ومدافن وهي بناحية محلة حمام النحاس اه .

« دير صيدنايا » يؤخذ مما قاله صاحب مسالك الأبصار أنهما اثنان أحدهما يقصده النصارى بالزيارة وهو في دمنة القرية والآخر على بعد منها مشرف على الجبل شماليها بشرق وهو دير مار شربين ويقصد للتنزه من بناء الروم بالحجر الجليل الأبيض وهو دير كبير وفي ظاهره عين ماء سارحة وفيها ما يطل على بواطن ما وراء ثنية العقاب ويمتد النظر من طاقاته الشمالية إلى ما أخذ شمالاً عن بعلبك . وأما الذي في القرية فمن بناء الروم بالحجر الأبيض أيضاً ويعرف بدير السيدة وله بستان وبه ماء جارٍ في بركة عملت به وعليه أوقاف كثيرة وله مغلات واسعة وتأتيه نذور وافرة وطوائف النصارى من الفرنج تقصد هذا الدير وتأتيه للزيارة . وكنت أراهم يسألون السلطان في أن يمكنهم من زيارته وإذا كتب لهم زيارة قمامة ولم يكتب معها صيدنايا يعاودون السؤال في كتابتها لهم ، ولهم فيها معتقد . وقال جاءت مرة كتب ريد فرنس

(ملك فرنسا) وكتب الاذفونش (ملك اسبانيا) على أيدي رسلهم ومما سألوا فيها تمكين رسلهم من التوجه الى صيدنايا للتبرك بها فأجاب السلطان سؤالهم وحمل الرسل على خيل البريد إليها . وهذا الدير لم يزل عامراً إلى اليوم يزوره الناس وفيه راهبات أرثوذكسيات. وفي عيد الصليب من كل سنة تجري في قربه اجتماعات وأفراح ويأتيه الناس من الأقاليم المجاورة وغيرها .

«دير الطور» الطور في الأصل الجبل المشرف : والطور ها هنا جبل مستدير واسع الأسفل مستدير الرأس لا يتعلق به شيءٌ من الجبال وليس له إلا طريق واحد وهو ما بين طبرية واللّجون مشرف على الغور ومرج اللّجون وفيه عين تنبع بماء غزير كثير والدير في نفس القلة مبني بالحجر وحوله كروم يعتصرونها ويعرف عندهم بدير التجلي والناس يقصدونه من كل موضع فيقيمون به ويشربون فيه وموضعه حسن يشرف على طبرية والبحيرة وما والاها وعلى اللجون . وما زال هذا الدير عامراً وقد جدد في أدوار مختلفة وفيه يقول مهلهل بن يوسف المُزَرّع :

نهضت الى الطور في فتية	سراع النهوض الى ما أحب
كرام الجدود حسان الوجوه	كهول العقول شباب اللعب
فأي زمان بهم لم يَسُرّ	وأي مكان بهم لم يطب
أنخت الركاب على ديره	وقضيت من حقه ما يجب
وأنزلتهم وسط أعتابه	وأسقيتهم من عصير العنب
وأحضرتهم قمراً مشرقاً	تميل الغصون به في الكُثُب
نحث الكؤوس بأهزاجه	ومرسوم أرماله بالعجب
وما بين ذاك حديث يروق	وخوض لهم في فنون الأدب
فيا طيب ذا العيش لو لم يزُل	ويا حسن ذا السعد لو لم يَغِب

«دير عمّان» قال ياقوت : بنواحي حلب وتفسيره بالسريانية دير الجماعة قال فيه حمدان بن عبد الرحيم الحلبي :

دير عمّان ودير سابان	هجن غرامي وزدن أشجاني
إذا تذكرتُ منهما زمناً	قضيته في عُرام ريعاني

ومرّ به أبو فراس بن أبي الفرج البُزاعي فقال ارتجالاً :

قد مررنا بالدير دير عـمّانا ووجدناه دائراً فشجـانا
ورأينا منازلاً وطلولاً دارسات ولم نرَ السكانا
وأرتنا الآثار من كان فيها قبل تفنيهم الخطوب عيانا
فبكينا فيه وكان علينـا لا عليه لما بكينا بُسكـانا
لست أنسى يا دير وقفتنا فيـ ـك وإن أورثتَنْنيَ النسيانا
من أناس حَلُّوك دهراً فخلَّو ك وأمسوا قد عطلوك الآنا
فرّقتهم يدُ الخطوب فأصبحـ ـتَ خراباً من بعدهم أسيانا
وكذا شيمةُ الليالي تميت الـ حيّ منا وتهدم البنيانـا
حرَباً ما الذي لقينا من الدهـ ـر وماذا من خطبه قد دهانا
نحن في غفلة بها وغرور وورانا من الردى ما ورانا

ولا نعرف عنه شيئاً الآن .

« دير فاخور » وهو الموضع الذي تعمد فيه المسيح من يوحنا المعمدان كما في كتب الجغرافية .

« دير فِيق » هو في ظهر عقبة فِيق – عقبة تنحدر الى الغور من أرض الأردن ومن أعلاها طبرية وبُحيرتها – وهذا الدير فيما بين العقبة وبين البحيرة في لحف جبل يتصل بالعقبة منقور في الحجر وكان عامراً بمن فيه من الرهبان ومن يطرقه من السيّار، والنصارى يعظمونه، واجتاز به أبو نُواس فقال في غلام نصراني فيه قصيدة منها :

بحجك قاصداً ما سرجسان فديَرْ النوبهان فدير فيق
وبالمطران إذ يتلو زبوراً يعظمـه ويبكي بالشهيق

وهذا الدير غير عامر الآن .

« دير القاروس » قال ابن فضل الله: إنه على جانب اللاذقية من شمالها وهو في أرض مستوية وبناؤه مربع وهو حسن البقعة . وفيه يقول أبو علي حسن بن علي الغزي :

لم أنس في القاروس يوماً أبيضاً مثل الجبين يزينه فرع الدجى
في ظل هيكله المَشيد وقد بدا للعين معقود السكينة أبلجا

واللاذقية دونه في شاطىء بلوره قد زيّن الفيْروزجا
ولديّ من رهبانه متنمس أضحى لفرط جماله متبرجا
أحوى أغنّ إذا تردد صوته في مِسْمع رد احتجاج ذوي الحجى
لا شيء ألطف من شمائله إذا حث الشّمول ولفظه قد لجلجا
فله ولليوم الذي قضيته معه بكائي لا لربع قد شجا

« دير القديس سابا » إلى الجنوب الشرقي من أورشليم على بعد ثلاث ساعات ونصف عنها على الراجل وعلى انخفاض ٥٦٠ متراً عنها عند الطريق المؤدي منها الى البحر الميت على مقربة من وادي الراهب (النار) وعلى عدوة وادي قدرون إلى شمال بيت ساحور الشرقي . وهو أشبه بقلعة منيعة غريبة الأبنية. ومن الدير إلى هضم الوادي ٢٧٥ ذراعاً فيصعد من الوادي إلى الدير بسلالم بعضها منقور بالصخر والآخر مبني على شكل أدراج ولا يدخل إليه إلا باذن البطريرك الأورشليمي . ورهبانه ستون راهباً يعيشون عيشة تقشف منقطعين إلى الصلاة والصوم والعبادة وفي كل جمعة يبعث لهم دير القبر المقدس في أورشليم طعامهم مرة واحدة ولا يسمح للنساء أن يدخلنه، وتلك عادة منذ تشييده إلى اليوم لم تدخله امرأة ، وقربه برج مار سمعان وهو دير خرب فيه بيت كبير يشرف على دير القديس سابا على بعد خمس دقائق فيسمح للنساء أن ينظرن الدير الكبير من بيت هذا البرج وقربه دير على قمة جبل تاودوسيوس وهو عامر الآن وفيه رهبان ويسميه العرب دير عبيد (من مجلة النعمة) .

« دير قِنّسْري » على شاطىء الفرات من الجانب الشرقي من نواحي الجزيرة وديار مضر مقابل جرابلس (في الأصل جرباس) وجرابلس شامية، وبين هذا الدير ومنبج أربعة فراسخ وبينه وبين سروج سبعة فراسخ، فهو دير كبير كان فيه أيام عمارته ثلاثمائة وسبعون راهباً، ووجد في هيكله مكتوباً :

أيا دير قنّسري كفى بك نزهةً لمن كان بالدنيا يلَذّ ويَطْرَبُ
فلا زلتَ معموراً ولا زلتَ آهلاً ولا زلت مخضراً تُزار وتَعجِب

« دير كعب » كان من أديار الشام وهو الذي جاء فيه المثل أطول من

فراسخ دير كعب قال الشاعر :

ذهبت تمادياً وذهبت عرضاً كأنك من فراسخ دير كعب

« دير كفتون » ولعله المعروف اليوم بدير كفتين قال فيه ابن فضل الله: إنه ببلاد طرابلس مبني على جبل وهو دير كبير وبناؤه بالحجر والكلس في نهاية الجودة وبه ماء جارٍ وله حوض كبير مملوءٌ من شجر النارنج يحمل نارنجه إلى طرابلس يباع فيها ويرتفق بثمنه الرهبان وله مستشرف مطل على البلاد والمزارع ومنه مكان يشرف عن بعد على البحر ، ولهذا الدير صيت جائل وسمعة مذكورة وبه رهبان كثيرو العدد والنصارى تقصده وتحمل إليه النذور ويقصده كثير من أهل البطالة واللهو للتفرج به والتنزه فيه، وفيه يقول الطيبي :

أدير كفتون تُكفى كل نائبةٍ من الهموم وتلقى كل سراء
من كل خضراء في الأشجار مائسةً وكل صهباء في الكاسات حمراء
حللت في دير كفتون فلا عجبٌ إذ متّ سكراً بحمراءٍ وخضراء

« دير مارون » قال المسعودي في التنبيه والإشراف: وفي أيام موريق من ملوك الروم ظهر رجل من أهل حماة من أعمال حمص يعرف بمارون إليه تنسب المارونية من النصارى . وأمرهم مشهور بالشام وغيرها أكثرهم بجبل لبنان وسنير وحمص وأعمالها كحماة وشيزر ومعرة النعمان وكان له دير عظيم يعرف به شرقي حماة وشيزر ذو بنيان عظيم حوله أكثر من ثلاثمائة صومعة فيها الرهبان وكان فيه من آلات الذهب والفضة والجوهر شيءٌ عظيم فخرب هذا الدير وما حوله من الصوامع بتواتر الفتن من الأعراب وحيف السلطان وهو بقرب نهر الارنط (العاصي) نهر حمص وأنطاكية . وقال ابن بطريق: وكان في عصر موريق ملك الروم راهب يقال له مارون وكان يقول: إن سيدنا المسيح طبيعتان ومشيئة واحدة وفعل واحد وأقنوم واحد وأكثر من تبعه على مقالته تلاميذه القائلون به أهل مدينة حماة وقنسرين والعواصم وجماعة من أرض الروم فسموا الموارنة ولما مات مارون بنى أهل حماة ديراً بحماة وسموه دير مارون. قلنا: ولعله دير آخر غير الدير الذي نشأ فيه مارون شرقي حماة وشيزر. وقد خرب دير مار مارون سنة(٧٥)

للهجرة لما غزا موريق وموريقان بلاد الشام وحملا على هذا الدير وقتلا منه خمسمائة راهب وهدما بنيانه ثم تحولا من هناك إلى قنسرين والعواصم فقتلا الأهلين ونهبا وخربا المساكن ولم يعفيا عن أحد من أتباع مار مارون . وقال الدويهي : كان قرب دمشق فوق نهر يزيد دير على اسم القديس مارون . قال : ولقد استدللنا برسومه وأطلاله الماثلة إلى اليوم على عظمه وشرفه ذكره ابن الحريري المؤرخ فيما كتبه عن الحاكم بأمر الله سنة (٣٨٦) . ولا أثر اليوم لدير حماة ولا لدير دمشق .

« دير مار مروثا » وهو دير صغير بظاهر حلب في سفح جبل جَوْشن على نهر العُرجان (العوجان ؟) . وكان سيف الدولة محسناً إلى أهله وقلما مرّ به إلا نزله ووهب لأهله هبة كبيرة وكان يقول : رأيت أبي في النوم يوصيني به — وفي رواية والدته — . وله بساتين قليلة ومباقل وفيه نرجس وبنفسج وزعفران ويعرف بالبيعتين لأن فيه مسكنين للرجال والنساء . قال الخالدي وإياه عنى الصنوبري بقوله :

كأنما اختيرت الفصوص له بين عقيق وبين فيروزَجْ
أما ترى البيعتَين أُفردتا بمفرد الأقحوان والمُزْوَجْ
أثوابه المزن كيف ما اتصلت وناره البرق كيف ما أجّجْ

هذا ما رواه ابن فضل الله في هذا الدير ، وفي رواية ياقوت أن هذا الدير ذهب ولا أثر له وقد استجد في موضعه مشهد زعم الحلبيون أنهم رأوا الحسين ابن علي رضي الله عنه يصلي فيه فجمع له المتشيعون بينهم مالاً وعمروه أحسن عمارة وأحكمها وفيه أيضاً يقول بعض الشاميين :

بدير مارت مروثا الـ شريف ذي البيعتين
والراهب المتحلي والقس ذي الطمرين
إلا رثيتَ لصبّ مشارف للحين
قد شفه منك هجر من بعد لوعة بين

قال وفيه يقول الحسين بن علي التميمي :

يا دير مارت مروثا سقيت غيثاً مغيثا

فأنت جنة حسن قد حزت روضاً أثيثا

« دير مارت مريم » قال الخالدي: وبالشام دير يقال له مارت مريم وهو من قديم الديرة ونزله الرشيد وفيه يقول الشاعر :

نعم المحل لمن يسعى للذته دير لمريم فوق الظهر معمور
ظل ظليل وماء غير ذي أسن وقاصرات كأمثال المها حُور

« دير الماطرون » يروى لزيد بن معاوية فيه :

ولها بالماطرون إذا أكل النمل الذي جمعا
حرقة حتى إذا ربعت ذكرت من جلق بيعا
في قباب حول دسكرة بينها الزيتون قد ينعا

قال أبو محمد حمزة بن القاسم قرأت على الحائط من بستان الماطرون هذه الأبيات :

أرقت بدير الماطرون كأنني لساري النجوم آخر الليل حارس
وأعرضت الشعرى العبور كأنها معلق قنديل عليها الكنائس
ولاح سهيل عن يميني كأنه شهاب نجاة وجهه الريح قابس

ولم يبق في الوجود من هذا الدير غير اسمه .

« دير المصلَّبة » وهو بظاهر مدينة القدس الشريف في شامها بغرب وهو دير رومي قديم البناء بالحجر والكلس محكم الصنعة مونق البقعة في بحيرة من أشجار الزيتون والكروم وشجر التين بإزاء قرية تجري على الدير بمرسوم السلطان . قال في مسالك الأبصار بعدما تقدم: وهذا الدير دخلت إليه ورأيته وفيه صور يونانية في غاية من محاسن التصوير وتناسب المقادير وصعدت إلى سطحه فرأيت له حسن مُشْتَرَف وسعة فضاء ورهبانه من الكرج. قال وكان أُخذ وجعل مسجداً للمسلمين ثم أُعيد ديراً للنصارى وتُوُصل إلى هذا بكتاب أحضر من ملك الكرج وأعان عليه قوم آخرون. قال: وحدثه رهبانه بأن على ديرهم وقوفاً في بلادهم منها خيول سائمة تُحمل أثمان نتاجها إليهم وأنه يجيء منها في كل سنة قدر جليل وأنها تنفق في مصالح الدير وابن السبيل. وفيه يقول أبو علي حسن الغزي :

يا حسن أيام قطعت هنيئة بالدير حيث التين والزيتونُ

دير المصلبة الرفيعُ بناؤه ... تَفدي عبير ترابه دَارين
في ظل هيكله وأسراب الدّمى ... مَجلُوّة والمرمرُ المسنونُ
ومزنرين إذا تلوا إنجيلهم ... وتعطفوا فحمائم وغصونُ
غزلانُ وجرةَ هم وبين جفونهم ... لأسود بيشة إن عَرَضْن عرين
نزعوا القلانس والمسوح فزحزحت ... منهن عن غرر الشموس دجون
وسعوا بكاسات المدام وما دروا ... أن للكؤوس الدائرات جنونُ
فقضيت بينهم زماناً لم يزل ... عندي إليه تشوق وحنينُ
تلك المنازل قد سفحن مدامعي ... لا مصرُ قاطبةً ولا جيرُونُ

ولا يزال هذا الدير عامراً وهو للروم الأرثوذكس .

« دير مرقس » الغالب أنه كان من نواحي حلب ورد في شعر حمدان بن عبد الرحيم في قوله :

أسكان عرشين القصور عليكم ... سلاميَ ما هبت صباً وقبول
ألا هل إلى حث المطيّ إليكم ... وشم خزامى حربنوش سبيل
وهل غفلات العيش في دير مرقس ... تعود وظل اللهو فيه ظليل
إذا ذكرت لذاتها النفس عندكم ... تلاقى عليها زفرة وعويل
بلاد بها أمسى الهوى غير أنني ... أميل مع الأقدار حيث تميل

« دير مُرّان » هذا اسم لديرين في الشام كان أحدهما على الجبل المشرف على كَفَرْ طاب قرب المعرة يزعمون أن فيه قبر عمر بن عبد العزيز (رض) وهو مشهور بذلك كان يزار في عصر ياقوت. والثاني بالقرب من دمشق على تل مشرف على مزارع الزعفران ورياض حسنة وبناؤه بالجص وأكثر فرشه بالبلاط الملون، وهو دير كبير وفيه رهبان كثيرة وفي هيكله صورة عجيبة دقيقة المعاني والأشجار محيطة به. روى ذلك الخالدي أما محل الدير فمحل خلاف منذ القديم قال ابن فضل الله: والناس في اختلاف اين كان دير مران فمن قائل إنه كان بمشارق السفح نواحي برزة والأكثر على أنه كان بمغاربه وأن مكانه الآن (القرن الثامن) المدرسة المعظمية، وأما الذي كان بمشارق السفح فهو دير السائمة المسمى دير صليبا. وروى صاحب قضاة دمشق قال: لما وافى المأمون دمشق سنة خمس عشرة ومائتين نزل بدير مران

ومكانه المعروف بالسهم إلى قرب النيرب خارج دمشق في سفح قاسيون فعمر المأمون هذا الدير وبنى القبة التي فوق الجبل وهي المعروفة الآن بقبة النصر ولم يعثر على أثر لهذا الدير العظيم. وكان هذا الدير لقربه من دمشق ولجمال موقعه مقصد الملوك والراغبين في النزهة والشراب. قال ابن بطريق: إن كنائس الغوطة ودير مران كان المسلمون ينزلونها ويسكنون فيها. وقد نزل يزيد بن معاوية دير مران ومات فيه الوليد واجتاز به الرشيد والمأمون وقد أكثر الشعراء من ذكره حتى نسب ليزيد قوله وقد أصاب المسلمين سباء بأرض الروم :

وما أبالي بما لاقت جموعهم　　بالغذقذونة من حمى ومن مُوم
إذا اتكأت على الأنماط مرتفقاً　　بدير مران عندي أم كلثوم[1]

ومن جملة ما قيل في هذا الدير قول أبي بكر الصنوبري وهو :

أمرّ بدير مران فأحيـا　　وأجعل بيت لهوي بيت لهيا
ويبرد غُلّتي برّدى فسقياً　　لأيام على بردى ورعيـا
ولي في باب جيرون ظبـاء　　أعاطيها الهوى ظبياً فظبيا
ونعم الدار داريا ففيها　　حلا لي العيش حتى صار أريا
سقت دنيا دمشق ليصطفيها　　وليس يريد غير دمشق دنيا
تفيض جداول البلور فيها　　خلال حدائق يُنبتن وشيا
مظللة فواكهها بأبهى الـ　　ـمناظر في نواظرها وأهيا

---

(١) الموم: البرسام، وأم كلثوم هي زوجة يزيد بنت عبد الله بن كريز والغذقذونة ويروى الخذقذونة وهو الثغر الذي فيه المصيصة وطرسوس وأذنة وعين زربة .

وروى البكري هذه الأبيات في دير سمعان باختلاف قليل قائلا إن معاوية كان وجه ابنه يزيد لغزو الروم فأقام يزيد بدير سمعان ووجه الجيوش ، وتلك غزوة الطوانة فأصابهم الوباء فقال يزيد بن معاوية :

أهون علي بما لاقت جموعهم　　يوم الطوانة من حمى ومن موم
إذا اتكأت على الأنماط مرتفقاً　　بدير سمعان عندي أم كلثوم

فبلغ شعره معاوية فكتب إليه : أقسم بالله لتلحقن بهم حتى يصيبك ما أصابهم ، فألحقه بهم . والاختلاف في رواية هذين البيتين وإنشادهما مع تبدل يسير تارة في دير سمعان وأخرى في دير مران يوقع الشك في نسبتهما ليزيد وحامل على أن القصة مفتعلة .

فمن تفاحة لم تعدُ خداً ومن رمانة لم تُخط ثديا

وله فيه :

متى الأرحل محطوطة وعير الشوق مربوطة
بأعلى دير مران فداريا إلى الغوطة
فشطي بردى في جنب بسط الروض مبسوطة
رباع تهبط الأنهار منها خير مهبوطة
وروض أحسنت تكتيبه المزن وتنقيطه

وقال فيه الحسين بن الضحاك :

يا دير مرّان لا عُرّيت من سكن قد هجت لي حزناً يا دير مرانا
حثّ المدام فإن الكأس مترعة مما يهيج دواعي الشوق أحيانا

وقال الببغا أبو الفرج عبد الواحد :

ويوم كأن الدهر سامحني به فصار اسمه ما بيننا هبة الدهر
جرت فيه أفراس الصبا بارتياضنا إلى دير مران المعظم والعمر
بحيث هواء الغوطتين معطر الـ نسيم بأنفاس الرياحين والزهر
فمن روضة بالحسن ترفد روضة ومن نهر بالغيض يجري إلى نهر
وفي الهيكل المعمور منه انتزعتها وصحبي حلالاً بعد توفية المهر
ونزهت عن غير الدنانير قدرها فما زلت منها أشرب التبر بالتبر

وقال عون الدين الحلبي الكاتب المتوفى سنة(٦٥٦)وهو مما يستأنس به من أن هذا الدير كان عامراً إلى أواسط القرن السابع وفيه ذكر ديرين آخرين وهما دير متى ودير حنينا والأول ليس له ذكر في ديرة الشام بل هو من أديار الموصل ولما كانت القصيدة في التشوف إلى الشام استلزم ذلك أن يكون دير متى من جملة أديارها التي ضاع اسمها ورسمها قال :

يا سائقاً يقطع البيداء معتسفاً بضامر لم يكن في سيره واني
إن جزت بالشام شم تلك البروق ولا تعدل بلغت المنى عن ديـر مرّان
واقصد علالي قلاليه تلاقِ بها ما تشتهي النفس من حور وولدان
من كل بيضاء هيفاء القوام إذا ماست فيا خجلة المران والبان
وكل أسمر قد دان الجمال له وكمل الحسن فيه فرط إحسان

ورب صدغ بدا في الخد مُرْسَلُه ... في فترة فتنت من سحر أجفان
فليت ريقته وِردي ووجنته ... وَردي ومن صدغه أنسي وريحاني
وعج على دير متى ثم حيّ به الـ ... ربان بالطرس فالربان رباني
فهمت منه إشارات فهمت بها ... وصنت منشورها في طي كتمان
واعبر بدير حنينا وانتهز فرص الـ ... لذات ما بين قسيس ومطران
واستجل راحاتها تحي النفوس إذا ... دارت براح شماميسٍ ورهبان

« دير المُغان » بحمص في خربة بني السمط تحت تلهم، وهو دير عظيم الشأن عندهم كبير القدر فيه رهبان كثيرة وترابه يختّم عليه للعقارب ويهدى إلى البلاد قاطبة وتتنافس النصارى في موضع مقبرته (ياقوت) .

« دير ميماس » نقلت من ياقوت: بين دمشق وحمص على نهر يقال له ميماس وإليه نسب، وهو في موضع نزه، وبه شاهد على زعمهم من حواريي عيسى عليه السلام زعم رهبانه أنه يشفي المرضى. وكان البطين الشاعر قد مرض فجاءوا به إليه يستشفي فيه فقيل: إن أهله غفلوا عنه فبال قدام قبر الشاهد واتفق أن مات عقيب ذلك فشاع بين أهل حمص أن الشاهد قتله وقصدوا الدير ليهدموه وقالوا: نصراني يقتل مسلماً لا نرضى أو تسلموا لنا عظام الشاهد حتى نحرقها، فرشا النصارى أمير حمص حتى رفع عنهم العامة فقال شاعر يذكر ذلك :

يا رحمتا لبُطينْ الشعر إن لعبت ... به شياطينه في دير ميماس
وافاه وهو عليل يرتجي فرجاً ... فَرَدّه ذاك في ظلمات أرماس
وقيل شاهد هذا الدير أتلفه ... حقاً مقالة وَسواس وخناس
أأعظُمٌ باليات ذات مقدرة ... على مضرة ذي بطش وذي باس
لكنهم أهل حمص لا عقول لهم ... بهائم غير معدودين في الناس

وحكي أن أبا نواس لما دخل حمص ماراً بها دعاه فتى من أدبائها إلى دير ميماس ودعا معه أشجع السُلمي فجلسوا يشربون وأبو نواس ينشدهم له ولغيره فقال أشجع:

صبحت وجه الصباح بالكاس ... ولم تَعقُني مقالة الناس
ونحن عند المدام أربعةٌ ... أكرمُ صحب وخير جلاس
نديرِ حمصية معتقةً ... على نسيم النسرين والآس

ولم يزل مطرباً ومنشدنا أبو نواس في ديـر ميماس

« دير نجران » بأرض دمشق من نواحي حوران ببصرى وهو دير عظيم عجيب العمارة ولهذا الدير يُنادى في البلاد من نذر نذراً لنجران المبارك والمنادي راكب فرس يطوف عامة نهاره في كل مدينة مناد، وللسلطان على الدير قطيعة يأخذها من النذور التي تهدى إليه .

« دير النّقيرة » في جبل قرب المعرة ولا نعرف عنه شيئاً .

« دير هِزْقِل » قال الخالدي هو بالشام وذكره دعبل بن علي حين هجا أبا عباد كاتب المأمون فقال :

فكأنه من دير هِزْقِل مُفْلَتٌ حَنِق يجر سلاسل الأقياد

قال ابن فضل الله: ولا أدري في قرب أي مدينة هو .

« دير يونس » ربما كان في جهات الرملة في فلسطين وقد قيلت فيه قصائد كثيرة وما ندري إن كان اختلط بدير في جهات الموصل على جانب دجلة الشرقي وموضعه يعرف بنينوى ، ونينوى هي مدينة يونس .

هذا ما أمكن تلقفه عن الأديار في الإسلام وكان قبل الإسلام أديار مهمة ضاعت أخبارها ولا يستغرب ما قيل في هذه الأديار من الأشعار في سالف الأعصار. فقد كان المسلمون يختلفون إلى الديرة يجعلونها محال النزهة لأنها في أماكن نزهة على الغالب تخيّر بانوها مواقعها، وبالنظر لتحريج الحكومات الإسلامية في الخمور وإباحة شربها وبيعها لأهل الذمة كان المولعون بالشراب من أهل الشأن وخلعاء الشعراء والأدباء يغشون الأديار فيجدون صدوراً رحبة فيشربون ويطربون ولذلك خص الشعراء تلك الأديرة بأشعار لطيفة وقصائد ربما كان فيها شيءٌ من المبالغة ومنها ما نبا عن طور الأدب اليوم ولكنه كان من المألوف في تلك العصور .

وفي ديار الشام اليوم ولا سيما في لبنان وبعض أنحاء فلسطين أديار عظيمة منها ما ورد ذكره في الجريدة التي كتبناها هنا ومنها ما هو من البناء الجديد وفيها المهم بنيانه وهندسته أشبه بقلاع منه بطرابيل وصوامع للمنقطعين للعبادة والتبتل وقد ظهر في يوم ٢٧ أيار ١٩٤٥ وقد قذفت فرنسا مدينة دمشق بحمم مدافعها أن معظم كنائس دمشق للاتين كان فيها ورشاشات وسلاح قاتلوا به السكان وعلى رأسهم الراهبات والرهبان !

المساجد والجوامع

في أول الفتح :

المسجد (بكسر الجيم) البيت الذي يسجد فيه وكل موضع يتعبد فيه فهو مسجد. ويقال مسجد الجامع والمسجد الجامع أي مسجد اليوم جامع. فالمسجد قد يكون صغير المساحة والحجم، والجامع مسجد عظيم يجمع المصلين أيام الجمع والأعياد. وأول المساجد التي بنيت في الشام على ما يظهر كانت في البلدان التي سبق فتحها غيرها من أمهات المدن مثل موتة والجرباء وأذرح وفِحل وأجنادين وبُصرى .

ولما كانت السذاجة في كل شيء قد غلبت على العرب لأول عهدهم بالإسلام كانت مصانعهم بحسب الحاجة، وإذا كان من الواجب إذا اجتمع بضعة أفراد منهم أن يقيموا الصلاة جماعة لم تلبث المساجد أن كثرت في الشام في المدن والقرى. وكان الفاتحون يصالحون الأهلين إما على النصف من كنائسهم أو على بعضها أو يكتفون بواحدة أو بنصف واحدة كما اكتفوا بكنيسة مار يوحنا من أصل خمس عشرة كنيسة في دمشق وضاحيتها. وأعطى أبو عبيدة أهل بعلبك وأهل الرستن الأمان على كنائسهم واستثنى عليهم ربع كنيسة يوحنا للمسجد في الرستن. وصالح الفاتح أهل حمص على ربع كنيستهم للمسجد وظلت كذلك إلى القرن الرابع وبعض بيعتها المسجد الجامع وشطرها للنصارى وبيعتهم من أعظم بيع الشام. وترك الفاتحون لأهل اللاذقية كنيستهم وبنوا مسجداً جامعاً لصلاتهم ثم وسعوه .

بقيت المساجد على حالة ابتدائية حتى تولى معاوية أمر الشام، وكان بعيد

النظر في العمران، فسمت به همته إلى أن يخرج المساجد من دور التأسيس ويدخلها في مظهر مدني فيه الجلال والجمال. ولم يزل بعثمان حتى أذن له أن يبني المساجد ويكبر ما كان ابتني منها قبل خلافته. وهكذا بدأ التوسع في المساجد والجوامع عقيب استقرار الفتح ورسوخ أقدام بني أمية.

واختط سليمان بن عبد الملك لما ولي جند فلسطين مدينة الرملة واختط المسجد وبناه فولي الخلافة قبل استتمامه ثم بنى فيه بعدُ في خلافته ثم أتمه عمر بن عبد العزيز ونقص من الخطة وقال: أهل الرملة يكتفون بهذا المقدار الذي اقتصرت بهم عليه. ومعنى هذا أن جوامع القوم ومساجدهم كانت بحسب حاجة من ينزل في كل صقع من المسلمين والتوسع لم يبدُ إلا مع معاوية بن أبي سفيان وأخلافه .

عرضنا في فصل المصانع لوصف المسجدين الجامعين في هذه الديار المسجد الأقصى وجامع دمشق.ونحن الآن نعرض لغيرهما من المساجد نذكر المهم منها في الحواضر على الأكثر، ونقابل بين قديمها وحديثها، وبديهي أن المساجد لقيت من المصائب السماوية والأرضية ما لقي غيرها من المصانع والعاديات. فإن الزلازل قد نسفت في الإسلام مدناً برمتها فقد تقطع الجبل الأقرع فمات أهل اللاذقية سنة(٢٤٢هـ)وخربت طرابلس منه وفي هذا الزلزال خرب معظم الساحل وزلزلة سنة(٤٦٠)خربت فلسطين وزلزال سنة (٥٥٢) خربت به أمهات المدن الشامية وهكذا يقال في معظم الزلازل التي وقعت بعد إلى القرن الماضي ومن أهمها زلزال سنة(١١٧٣)حتى إن من المدن ما لم يبق فيه جدار قائم ولا إنسان سائر. ومساجد الساحل أصيبت في الحروب الصليبية بما نسفها أو غير معالمها فأصبحت كنائس ثم لما عادت البلاد لسلطان المسلمين أعيدت بعض البيع أيضاً مساجد .

ومن المتعذر أن نعرف ما قام في كل عصر ومصر في الشام من المساجد والجوامع. ومن القرى اليوم ما كان فيه بالأمس عشرة مساجد والعمران يكثر ويقل بحسب حاجة الناس . والغالب أن العناية ببناء المسجد كان لغرض شريف للغاية باديءَ بدء يراد به وجه المولى وثواب الآخرة وخدمة الإسلام والمسلمين. فلما أوغل الناس في مضمار الحضارة كان من البانين من يجمعون

بين الدين والدنيا إذا تعلقت هممهم أن ينشئوا لهم جوامع يقصدون بها تخليد ذكرهم ونيل الثواب والأجر. ثم أتت قرون وقد أخذ بعض الناس ولا سيما الحكام يعمرون المساجد ويقفون عليها حتى يحفظوا بحجتها بعض ثرواتهم لذراريهم، وفي هذه العصور الأخيرة وقع التخليط وكثرت المنافسة في إقامة المساجد والجوامع، حتى في الأماكن التي لا يحتاج فيها الناس إلى مساجد كثيرة إما لكثرتها أو لقلة المصلين في جوارها. وأشبهت دمشق القاهرة في عهد المماليك وبعدهم، فكانوا يعمرون الجامع قرب أخيه على أشبار قليلة منه. وما حدثت البانين أنفسهم أن يشترك في إقامة مسجد جامع بضعة من أهل الخير أو عشرات منهم، لأن المقصد الأول استحال في الآخر إلى إحراز شهرة وإذا عمر إنسان جامعاً بالاشتراك مع غيره يضيع اسمه، وغايته أن يقال بنى فلان مسجداً، وهذا مسجد فلان، أو أن ينتفع هو أو أولاده بمغل وقف الجامع .

وكان للملوك والأمراء في كثرة المساجد وقلتها يد طولى ومنها أن الملك أو الأمير أو غيره من طبقات الحكام والولاة إذا آنس منه قومه رغبة في الاستكثار من المساجد والقربات جاروه على أفكاره وتقربوا إليه بمثل هذه الأعمال الصالحة، وربما تقاضاهم هو ذلك سراً حتى يستخرج بذلك أموالهم وتوزع في الرعية فلا تجمد الثروة في يد واحدة. قال ابن تغري بردي في حوادث سنة (٨٤٤) : لما كانت الملوك السالفة تهوى النزه والطرب عمرت في أيامهم بولاق وبركة الرطلي وغيرها من الأماكن، وقدم إلى القاهرة كل أستاذ صاحب آلة من المطربين وأمثالهم من المغاني والملاهي إلى أن تسلطن الملك الظاهر جقمق، وسار في سلطنته على قدم هائل من العبادة، والعفة عن المنكرات والفروج، وأخذ في مقت من يتعاطى مسكرات من أمرائه وأرباب دولته، فعند ذلك تاب أكثرهم وتصولح وتزهد، وصار كل واحد يتقرب إلى خاطره بنوع من أنواع المعروف، فمنهم من صار يكثر من الحج، ومنهم من تاب وأقلع عما كان فيه، ومنهم من بنى المساجد، ولم يبق في دولته ممن استمر على ما كان عليه إلا جماعة يسيرة .

مساجد حلب :

في حلب اليوم ١٦٩ جامعاً و١٨٢ مسجداً ومنها الجيد بنيانه، وأعظمها المسجد الجامع مسجد زكريا في غربي القلعة. صالح المسلمون أهل حلب على موضع المسجد الجامع يوم الفتح، وكان محله حديقة كنيسة الروم القديمة التي بنتها هيلانة أم قسطنطين. قالوا: إنه كان يضاهي جامع دمشق بالزخرفة والرخام والفسيفساء، وإن سليمان بن عبد الملك هو الذي بناه وتأنق في بنائه ليضاهي به ما عمله أخوه الوليد في جامع دمشق. وقيل: إن بانيه الوليد نفسه، وإن بني العباس نقضوا ما كان فيه من الرخام والآلات ونقلوه إلى جامع الأنبار في جملة ما نقضوا من آثار بني أمية بالشام. ولما جاء الروم حلب سنة (٣٥١) أحرقوا الجامع والبلد فرم بعضه سيف الدولة ثم ابنه سعد الدولة، وأحرقته الإسماعيلية سنة (٥٦٤) مع الأسواق التي حوله فعمره نور الدين زنكي وقطع الأعمدة الصفر من بعادين ونقل إليه عمد مسجد قنسرين، وأحرقه الأرمن سنة (٦٧٩) أيام كانوا محالفين للتتر. وعمره قراسنقر سنة (٦٨٤) وبنى فيه غيره بعض جهات منه مثل الأمير ألطون بغا الصالحي نائب حلب والأمير يشبك اليوسفي .

ويقول العارفون بالآثار: إن بناء الجامع الحالي قد قام على الصورة التي عملت عليه زمن سابق بن محمود من بني مرداس (٤٦٨ — ٤٧٢) على يد القاضي ابن الخشاب وإن في أسفل المنارة كتابة تاريخها سنة (٤٨٣) ذكر فيها اسم ملكشاه وابن الخشاب وفي جهة أخرى ذكر اسم تتش أخو ملك شاه ويستدل من مجموع البناء، وليس في جدرانه من كتابة مزبورة، أن هذا الطراز قديم صبر على الدهر. ومحرابه من عهد قلاوون والمنبر من عهد الناصر محمد، ويرد عهد الباب الأوسط للحرم إلى أوائل زمن المماليك وإن كانت فيه كتابات أحدث من عهد السلطان مراد الثالث (٩٩٦). وأسس المنارة المربعة ذات الخمس طبقات القاضي ابن الخشاب سنة (٤٨٢) وهي منقوشة أبدع نقش وهي بما كتب عليها من الكتابات الكوفية والنسخية المثال الوحيد من الهندسة الإسلامية. قال أبو الفداء: وكان بحلب بيت نار قديم ثم صار أتون حمام فأخذ ابن الخشاب حجارته وعمر منارة جامع حلب .

وصف ابن جبير في القرن السادس جامع حلب بقوله: وهذا الجامع من أحسن الجوامع وأجملها وقد أطاف بصحنه الواسع بلاط كبير متسع مفتح كله أبواباً قصرية الحسن إلى الصحن عددها ينيف عن الخمسين باباً، فيستوقف الأبصار حسن منظرها، وفي صحنه بئران معينتان، والبلاط القبلي لا مقصورة فيه، فجاء ظاهر الاتساع رائق الانشراح. وقد استفرغت الصنعة القرنصية جهدها في منبره، فما أرى في بلد من البلاد منبراً على شكله، وغرابة صنعته، واتصلت الصنعة الخشبية منه إلى المحراب فتجللت صفحاته كلها حسناً على تلك الصنعة الغريبة، وارتفع كالتاج العظيم على المحراب، وعلا حتى اتصل بسمك السقف، وقد قوّس أعلاه وشرف بالشُّرف الخشبية القرنصية، وهو مرصع كله بالعاج والآبنوس، واتصال الترصيع من المنبر إلى المحراب مع ما يليهما من جدار القبلة، دون أن يتبين بينهما انفصال، فتجتلي العيون منه أبدع منظر يكون في الدنيا، وحسن هذا الجامع المكرم أكثر من أن يوصف اه.

هذا وصف المسجد الجامع وما كان فيه وليس هو بالعظيم كمسجد دمشق أو المسجد الأقصى وقد رمم في أوقات مختلفة. وفي حلب جامع الصالحين جنوبي المدينة أنشئ سنة (٤٧٩) أنشأه أحمد بن ملكشاه ومحرابه مهم في بابه. وأول جامع بني بحلب فيما قالوا بعد الجامع الكبير جامع ألطون بغا الصالحي تم سنة (٧٢٣) وفيه يقول ابن حبيب:

في حلب دار القرى جامعٌ	أنشأه ألطنبغا الصالحي
رحب الذرى يبدو لمن أمّه	لطف معاني حسنه الواضح
مرتفع الرايات يروي الظما	من مائه السارب والسارح
يهدي المصلي في ظلام الدجى	من نوره اللامع واللائح
من حوله روض يرى للورى	من زهره بالفائق الفائح
لله بانيه الذي خصه	بالروح للغادي وللرائح

وعدّ ابن الشحنة من أحسن الجوامع التي بنيت على أجمل الوجوه جامع منكلي بغا الشمسي نائب حلب عمر (٧٧٨). وعد ابن شداد في باطن حلب مائتي مسجد وسبعة عشر مسجداً داخل سور البلد منها ما نسبه لمنشئه ومنها

ما عرفه بالخطة التي هو فيها. وذكر المساجد التي بأرباض حلب وذكر منها ما هو بالحاضر السليماني مائة مسجد وعشرة مساجد،وذكر مساجد الرابية وجورة جغال فعدها مائة وثمانية وستين مسجداً وأتى على ذكر المساجد التي بالظاهرية فعدها تسعة وتسعين مسجداً وعد بالرمادة أربعة وثلاثين مسجداً . وعد ببانقوسا ثلاثة عشر مسجداً وبالفرافرة اثني عشر مسجداً وبالمضيق ستة عشر مسجداً وبالقلعة عشرة مساجد. قال ابن الشحنة وعنه لخصنا احصاء ابن شداد لمساجد حلب : فجملة هذه المساجد التي داخل حلب وخارجها إلى حين تأليف ابن شداد كتابه سبعمائة وخمسة وعشرون مسجداً. وقد بنى بعض الولاة الأول في الدولة العثمانية جوامع في حلب منهم جامع خسرو باشا (٩٣٨) وجامع عادلي محمد باشا (٩٥٧) وجامع بهرام باشا (٩٨٨) وابشير مصطفى باشا (١٠٦١) وجامع عثمان باشا (١١٥٠). ومن جوامع حلب التي بقيت عليها بعض الكتابات الحثية جامع القيقان ومن جوامعها الأطروش واشتهر بكتاباته ونقوشه جامع البيادة في شمالي غربي القلعة .

جوامع عمالة حلب :

قامت في أنحاء حلب مساجد كثيرة ومنها مساجد قنسرين وهو البلد القديم الذي كان في الإسلام بمثابة حلب فخرّبه سيف الدولة سنة(٣٥١)أو (٣٥٥) وأحرق مساجده، لما نزل الروم حلبوقتلوا جميع من كان بربضها وذلك خوفاً من سقوطها في أيدي أعدائه. وأنشئت في أنطاكية عدة جوامع بقيت منها بقايا على ما انتابها من الزلازل وأهمها اليوم جامع حبيب النجّار والجامع الكبير والشيخ علي والذخرية. وفي أنطاكية لعهدنا ١٣ جامعاً و٢٧ مسجداً ومجموع ما في عملها ١٣٥ مسجداً وجامعاً وزاويةً وتكية. وأنشئت منذ الفتح جوامع في مدينة المعرة وصف ناصر خسرو في أواخر منتصف القرن الخامس جامعها الأعظم فقال: إنه مبني على أكمة قامت وسط المدينة ومن أي جهة اتجهت إلى هذا الجامع كان عليك أن ترتقي سلماً ذات ثلاث عشرة درجة. وقد خربت المعرة بدخول الصليبيين ، ثم عادت إليها بعض حياتها وفيها اليوم ٢٣ جامعاً ومسجداً أهمها الجامع العمري الكبير تقام فيه الجمعة دون غيره

من المساجد. ومجموع ما في عمل المعرة ٤١ مسجداً وجامعاً. وفي عمل جبل سمعان اليوم ١٨٣ جامعاً ومسجداً، وفي بيلان ٥ مساجد وجوامع. وفي قضاء إدلب ٣٧ مسجداً وجامعاً وجامعها في القصبة من عهد الفتح يسمونه العمري. وفي معرة مصرين وعملها ١١ جامعاً ومسجداً، وفي حارم جامع ومسجد وفي عملها عدة جوامع ومساجد وكذلك في اعزاز، وفي قضاء الباب ١٥ جامعاً ومسجداً وفي بزاعة وجسر الشغر ومعرة مصرين وسرمين وجبرين وسلقين وخناصرة والفوعة وأرمناز وديركوش والجبول والأثارب ودانيث وكلز وغيرها من البلدان القديمة مساجد وجوامع. ولا تكاد تخلو في يومنا هذا كل قرية من مسجد إلا إذا كانت مزرعة حقيرة لأحد أرباب الأملاك. وفي الشغر اليوم ثلاثة جوامع وخمسة مساجد ولا تخلو المدينة التي كانت عامرة جداً ثم خربت عن آخرها مثل بالس (مسكنة) ومنبج مثلاً من مساجد لا بأس بها.

ولقد تقلبت الأيام بهذه المساجد والجوامع فكثرت في الأماكن التي اشتدت إليها الحاجة وقلت حيث قل العمران وابذعرّ السكان. فقد كانت سرمين مثلاً على طرف جبل السماق من المدن ولها مساجد كثيرة روى ابن شداد أن عددها كان ينيف على ثلاثمائة مسجد، قال: وليس بها الآن أي في عهده مسجد يصلى فيه غير الجامع وأكثر أهلها إسماعيلية ولهم بها دار دعوة. وسواء كان هذا العدد مبالغاً فيه أو غير مبالغ فالمحقق أن الجوامع والمساجد كثرت في الأعصر السالفة في هذه الأرجاء بكثرة السكان وتوفر خيرات الأرض ثم لما خربت المدن دع القرى تراجع أمر بيوت العبادة.

ومن الجوامع القديمة في هذا الصقع جامع اعزاز عرف بالجامع الكبير قال الغزي: وهو صحن واسع فسيح في شماليه رواق وفيه مأذنة ضخمة وفي وسطه حوض يهبط إليه بدركات تجري فيه قناة جرها إليه إسماعيل بن عبد الله العزازي المتوفى سنة (٧٤٨) وفي جنوبي صحن الجامع قبلية يبلغ طولها نحو ٥٠ في عرض ١٥ ذراعاً سقفها قباب محمولة على أعمدة ضخمة وقد كتب على باب الجامع المتجه إلى الغرب: بسم الله الرحمن الرحيم في سنة (٦٤٤) أمر بعمله مولانا السلطان العالم العادل الملك الناصر صلاح الدنيا والدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي ابن أيوب ناصر أمير المؤمنين خلد الله ملكه.

مساجد الساحل وجوامعه :

لما كانت مدن الساحل معرضة لهجمات الأعداء كل حين، وكانت الزلازل قد توالت عليها كثيراً وظلت مرسحاً للجيوش الصليبية مدة قرنين أصاب الجوامع والمساجد فيها ما أصاب غيرها من العمائر، فليس في الإسكندرونة اليوم سوى جامعين وفي عمالتها بعض المساجد الحقيرة، وكذلك الحال في السويدية واللاذقية والمرقب وطرطوس وجبلة وبانياس وطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور وعكا وحيفا ويافا وغزة، خربت جوامعها ومساجدها وعمرت غير مرة في الإسلام. ففي اللاذقية اليوم عدة مساجد وفيها جامع جميل مطل عليها من الهضبة المطلة على الثغر ولها منارة جميلة. وأهم جوامع اللاذقية جامع المغربي ومن جوامعهم جامع الجديد والكبير المنصوري وأرسلان باشا والصليبة وصوفان والشيخ ضاهر وجامع الاسكلة والشواف والصغير، وفي اللاذقية اثنا عشر مسجداً غير هذه الجوامع. وفي جبلة جامعان وهما جامع السيد إبراهيم والمنصوري ومن مساجدها القنطاري وبني علي أديب والغزالي والأكراد وجامع واحد في بانياس، وفي طرطوس جامع كان على عهد الصليبيين كنيسة كاتدرائية، وفي صافيتا جامع وثلاثة مساجد في جوارها .

وفي طرابلس[١] عدة جوامع ومساجد ومعظمها من آثار المماليك البحرية والجراكسة، وما تجدد بعدهم فقليل جداً بالنسبة لآثارهم في هذه المدينة، وأكثرها لم يذكر عليه اسم بانيه. ولا ريب أن البواعث كانت دينية محضة ورغبة في ثواب الله بدار الآخرة فكان عدم ذكر الباني على البناء أبعد عن السمعة والرياء، وكان الأمير أو المتمول منهم إذا شيد مسجداً للصلاة جعل في أحد أطرافه مشهداً ليدفن فيه عند موته ولم يزل إلى الآن كثير من قبور المماليك الرخام محفوظاً في المساجد التي أقاموها على الطراز المخصوص بهم كأن يجعلوا في كل زاوية من زوايا القبر قاعدة بارتفاع ثلاثين سانتيماً وأعلاها كروي. وللمماليك من نوع هذه القبور في دمشق صنوف. وإن ما بقي إلى اليوم من الفسيفساء في محاريب تلك المساجد وجدرانها آية في الإبداع وحسن الصناعة .

---

(١) كتب وصف جوامع طرابلس السيد محمد كامل بابا .

ومن أعظم جوامع هذا الثغر الجامع الكبير بناه السلطان صلاح الدين خليل الأشرفي على ما يرى في الكتابة المحفورة فوق باب الجامع الشمالي وذلك في سنة(٦٩٣هـ) وكان متولي العمارة سالم الصهيوني ابن ناصر الدين العجمي وفي سنة(٧١٥)وعلى عهد ولاية السلطان محمد بن قلاوون للمرة الثالثة بنيت بأمره الأروقة المحيطة بصحن المسجد أيام نيابة المقر السيفي كستاي الناصري وكان متولي العمارة أحمد بن حسن الحرلبعليلي وتسميه أهالي طرابلس الجامع المنصوري وهو غلط بين لأن الملك المنصور قلاوون هو أبو الأشرفي باني الجامع المذكور .

ومنها جامع طينال وتسميه العامة طيلان بناه سيف الدين طينال مملوك محمد الناصري وحاجبه وكان قد تولى ولاية طرابلس مرتين وبنى الجامع المذكور للمرة الثانية سنة(٧٣٦). وفي منارته هندسة لطيفة ولها من داخلها سلمان أحدهما سقف للآخر ،فإذا أراد المؤذن الصعود للأذان من داره الملاصقة للمسجد دخل من باب المنارة صاعداً أعلاها وإذا أراد النزول للصلاة دخل من باب آخر يصل منه إلى داخل المسجد وعلى هذه الصورة فباب المنارة السفلي الخارجي أدنى من أرض المسجد بقدر قامة الإنسان .

ومن جوامعها جامع أرغون شاه وتسميه العامة الفنشا على الطريق الشرقية الآخذة لجبانة باب الرمل ولا يعلم تاريخ بنائه وفوق بابه كتابة حفرت أيام قايتباي من المماليك الجراكسة سنة(٨٨٠)يأمر فيها بحماية زراع أراضي الوقف للجامع المذكور وتسليمها إلى محمود الأدهمي الحسيني وقد بني هذا الجامع حديثاً بعد سقوطه ووضعت له القساطل الحديدية لجر المياه .

ومن جوامعها جامع التوبة وهو ملاصق للجسر الجديد على نهر أبي علي ومن الثابت أنه بني أيام دولة المماليك وطرز هندسته يشبه الجامع الكبير من وجوه كثيرة وقد جدد بناءه بعدما تهدم من الفيضان الكبير الذي وقع في طرابلس سنة (١٠٢٠)أحمد بن محمد الشربداري الأنصاري كتخداي حسين باشا السيفي، وتم بناؤه في شهر ربيع الآخر سنة(١٠٢١)والكتابات الأثرية التي عليه يرجع تاريخها إلى سنة(٨١٧)أيام دولة المؤيد أبي النصر شيخ المحمودي من المماليك الجراكسة .

ومن جوامعها جامع المعلق بناه محمود بن لطفي الزعيم سنة (٩٦٧) أيام سليمان القانوني وهو في محلة بوابة الحدادين. وجامع العطار وسط البلد بقرب محلة الملاحة والمشهور عند أهالي طرابلس أنه كان كنيسة في زمن الصليبيين ثم تحول إلى جامع بعد الفتح الإسلامي وكان قد تداعى بناؤه، فأقيم وفي أعلى بابه الشرقي مكتوب هذا التاريخ « البسملة. هذا الباب المبارك والمنبر من عمل المعلم محمد بن إبراهيم المهندس في سنة إحدى وخمسين وسبعمائة ». وجامع البرطاسي في جانب الجسر العتيق على نهر أبي علي وفي الكتابة التي فوق بابه يقول: بنى هذه المدرسة عيسى بن عمر البرطاسي ووقفها على المشتغلين بطلب العلم على مذهب الإمام الشافعي ولم يعلم الزمان الذي تحولت فيه إلى جامع وقد ذهب من أصل الكتابة التاريخية القسم الذي يذكر به زمن البناء غير أن أسلوب تلك الكتابة وطرز بنائه الفخم ودقة الفسيفساء التي على محرابه وفي أرضه تدل على أن بانيه من الأثرياء أيام دولة المماليك البحرية. وجامع الأويسية بني في دولة المماليك غير أنه لم يكن عليه كتابات تاريخية إلا ما كان في أعلى منارته وفيها ذكر أنه جدّد بناءها أيام السلطان سليمان القانوني سنة (٩٤١) رجل اسمه حيدرة وفي وقفية الجامع أن اسم بانيه محيي الدين الأويسي.

وجامع عبد الواحد وراء سوق الصاغة بناه عبد الواحد المغربي المكناسي أيام السلطان محمد بن قلاوون للمرة الثالثة سنة (٧٠٥) وعليه زبرت كتابة تشعر بذلك. وجامع التفاحي ويسمى اليوم بالحميدي لم يبق من بنائه الأصلي أثر وتجدد بناؤه حوالي سنة (١٣١٠) بمعاونة أهل الخير وإعانة السلطان عبد الحميد الثاني فنسب إليه. وجامع محمود بك السنجق وهذا بناه في طرف البلد تقريباً للجهة الشرقية بالمحلة المعروفة بباب التبانة سنة (١٠٢٠) في عهد السلطان أحمد من ملوك بني عثمان ووقف عليه أوقافاً كثيرة لم تزل قائمة إلى الآن. وجامع الطحام داخل البلد ولم يعلم اسم بانيه ولا تاريخ بنائه وشكله وطرز منارته يدل على أنه بني زمن المماليك.

هذه جوامع طرابلس وقد وصف ناصر خسرو المسجد الأعظم فيها أواخر النصف الأول من القرن الخامس بقوله: والمسجد الأعظم قائم في وسط المدينة وهو جميل للغاية، مزدان بأحسن زينة، ومبني على غاية القوة

والمتانة ، وفي صحنه قبة عظيمة تعلو حوضاً من المرمر في وسطه فوارة يخرج ماؤها من منقار نحاس أصفر اهـ. والغالب أن هذا الجامع خرب بخراب تلك المدينة بعد .

وفي جبيل جامع قديم هو مما اتخذ جامعاً بعد الحروب الصليبية.أما مدينة بيروت فكانت فيها جوامع صغيرة بعد الفتح ولم تكن بيروت بالثغر العظيم إذ ذاك ولم يكن للمسلمين جامع فيها أيام استيلاء الصليبيين عليها ، فلما انتزعت منهم أخذوا كنيستهم وجعلوها جامعاً ، وهي تعرف بكنيسة مار يوحنا الصايغ ويقال لها جامع النبي يحيى أو الجامع الكبير اليوم. وبنى فيها الأمير منصور عساف جامع السراية. وكان جامع الخضر كنيسة للموارنة باسم مار جرجس إلى سنة(١٦٦١م)فأخذه أحد باشاوات الترك وجعله جامعاً.ومنها جامع المجيدية وغيره ومجموع ما في بيروت اليوم من المساجد والجوامع ثلاثون جامعاً ومسجداً .

وفي صيدا سبعة جوامع ومساجد أهمها الجامع الكبير جامع يحيى وكان كنيسة على الغالب باسم مار يوحنا وفي صور مسجد جامع. وفي عكا بضعة جوامع أهمها جامع الجزار،وفي حيفا وعملها عدة جوامع ومساجد،وفي يافا وعملها كذلك وجوامع يافا قديمة في الجملة،وفي غزة اليوم عدة جوامع ومساجد. وقد أعجب الظاهري في القرن التاسع بجوامع غزة ،وكان مسجدها الجامع من الكنائس المهمة في القرن الثاني عشر للميلاد على اسم القديس يوحنا المعمدان،وكان كاتدرائية لأسقف الروم،وفيها جامع هاشم وجامع باب الداروم وغيره من الجوامع التي فيها نقوش بديعة وأنقاض تدل على مجد قديم .

جوامع المدن الداخلية :

وفي الخليل و(حبرون) جامع فيه مقام الخليل إبراهيم في مغارة تحت الأرض. قال شيخ الربوة:ومن المباني القديمة مقام الخليل عليه السلام طوله ثمانون ذراعاً وعرضه خمسون ذراعاً،في الطول منه عشرون حجراً مدماكاً واحداً،وداخل المقام نصب على الضريح كل واحد حجر واحد، الطول أربعة أذرع والعرض ذراعان ونصف والسمك مثلها وأزيد. ويحتوي اليوم سور الخليل على أساس يبلغ علوه ١٢ متراً وحجارته ملساء عليها مسحة

الأمبراطور هيرودوس . وقد بنى هذا الجامع الصليبيون من سنة(١١٦٧)إلى (١١٨٧) ، وربما كان إنشاؤه مكان كنيسة يوستنيانوس وجدده المسلمون بعد ذلك. وأقدم ما في الجامع من الترميمات ما قام به قلاوون من سلاطين المماليك .

وفي القدس عدا المسجد الأقصى ثمانية جوامع وهي جامع عمر بن الخطاب تهدم ومكانه الآن كنيسة القديسة حنة شمال كنيسة ماريوحنا والجامع الباقي مع المأذنة من آثار قلاوون (قاله الأستاذ البرغوثي) وجامع عكاشة وجامع سوق البيزار وجامع سلمان الفارسي وجامع الشيخ جراح وجامع سويقة علوان وجامع الخانقاه بالصلاحية قرب الكنيسة وجامع باب خان الزيت. والجوامع الخربة أيضاً تسعة وهي جامع بحارة الحدادين، وآخر قرب دير اللاتين وثالث قرب بطريركية دير اللاتين ورابع اسمه الحيات وخامس جامع اليعقوبي قرب القلعة وجامع قرب دير الأرمن ومثله على مقربة من دير السريان وغيره في حارة اليهود وجامع الأزرق. وهناك ثلاثة جوامع معمورة أيضاً وهي جامع السبيل وجامع لؤلؤ وجامع أبي قصبة. وبعض هذه الجوامع لا شأن له من حيث النظافة والإتقان شأن المصليات البسيطة .

وفي الرملة عدة جوامع ومساجد قال ناصرخسرو في مسجدها الجامع : إن في وسطه صهاريج واسعة وإن مساحته ثلاثمائة قدم في مائتين. وقال الظاهري : إن من جملة مزاراتها الجامع الأبيض عجيب من العجائب. وكان فيها منارة من عجائب الدنيا بناها قلاوون. وفي لدّ عدة جوامع ومساجد وكان بها في القرن الرابع جامع يجمع به خلق كثير من أهل القصبة وما حولها من القرى وجامعها الكبير اليوم من عهد الصليبيين كان كنيسة. وفي نابلس تسعة جوامع ومساجد أهمها الجامع الكبير ومسجد أولاد يعقوب وجامع النصر والخضراء والجامع الكبير بناه يوستينانوس. وعلى قيد غلوة من أرسوف بقايا حرم سيدنا علي بن عليل أو عليم. وفي قاقون بنى الملك الظاهر بيبرس جامعاً. والظاهر هذا جدّد وبنى عدة مساجد وجوامع في الشام ومثله قلاوون وتنكز من المماليك. وفي طور كرم وجينين عدة مساجد وجوامع أكثرها محدث .

ومن الجوامع التي رمها ديوان الأوقاف في فلسطين في العهد الأخير جامع المنشية والعجمي والبحر وأرشيد والطابية في يافا، وجامع العصا في الرملة،

وجامع لدّ. ومقام النبي يحيى في قرية المزيرعة ومقام النبي روبين وجامع سويقة علّون وجامع باب خان الزيت والزاوية النقشبندية وجامع سعد وسعيد، وجامع بيت لحم ومقام النبي شموبل في القدس وأرباضها. ورمت الأوقاف في نابلس جامع النصر والجامع الكبير الصلاحي وجامع العين وجامع التينة. وجامع قرية رفيديا وقرية عقربة وقرية عصيرة الشمالية وقرية صيدا وجامع البئر في قرية زواتا وجامع سبسطية وجامع قرية برقة. وأجريت عدة إصلاحات في جامع الجزار في عكا وأنشئ في حيفا جامع الاستقلال. وأصلحت الأوقاف الجامع الكبير في غزة أصابه خراب كبير بسبب معارك الحرب العامة «وهو من المساجد العظمى في فلسطين فخم البناء كبير القيمة الأثرية جميل الشكل والهندسة يحتوي على عدة سلاسل من العقود الحجرية» وأصلح جامع سيدنا هاشم وجامع ابن عثمان وجامع المجدل وحرم سيدنا زكريا في الخليل، وشرع أهالي الخليل ينشئون مسجداً فساعدهم المجلس الإسلامي الأعلى .

وكانت المدن القديمة غاصة بالجوامع مثل قيسارية وأرسوف فذهبت بذهاب عمرانها. وفي طبرية اليوم جامعان قديمان الجامع الفوقاني من بناء عرب الزيادنة عام(١١٥٦)والثاني جدد بناؤه عام(١٢٨٠). وفي صفد عدة جوامع ومساجد. وفي قلعة الشقيف بنى الظاهر بيبرس جامعاً وكانوا يقيمون الصلوات في القلاع أيضاً، كما بنوا جوامع لهم في قلعة دمشق وفي قلعة حلب . وفي صرخد عمر الظاهر بيبرس جامعاً،وكذلك فعل في بصرى وعجلون والصلت،وفي هذه البلدان اليوم مساجد صغيرة فقد قضت الأيام على المساجد المهمة. وفي عمان جامع ومسجد وكان فيه في القرن السابع «جامع ظريف في طرف السوق مسقف الصحن شبه مكة». وقد أنشئ فيها في العهد الحديث جامع فخم .

وللدروز في الشوف من لبنان ووادي التيم الأعلى والأسفل ومرجعيون وصفد وضواحي دمشق وبيروت والجبل الأعلى وفي بعض قرى عكا خلوات أشبه بالمساجد لا منابر لها ولا مآذن، يجتمع فيها خاصتهم ليلة الجمعة ويسمونها مجالس كما أن للنصيرية (العلويين) في جبالهم خلوات صغيرة ذات قباب تكون على الغالب في أطراف قراهم،وكذلك لا تخلو أكثر قرى المتاولة

(الشيعة) في جبل عامل من مساجد صغيرة لهم لا مآذن لها ولا منابر ، ومنها ما يسمونه « حسينية » نسبة للحسين بن علي رضي الله عنهما يقيمون فيها المآتم عليه في أوقات لهم مخصوصة. وفي بعلبك عدة جوامع ومساجدها بقي بعضها من عهد عزها. أيام غلبة مذهب أهل السنة والجماعة على سكانها أكثر من التشيع. وللإسماعيلية مجالس أيضاً كما للنصيرية .

ولقد زيّن بعض عمال السلطنة العثمانية للسلطان عبد الحميد الثاني أن يبني جوامع ومساجد في جبال النصيرية وجبل الدروز عسى أن يثوب أهلها إلى مذهب أهل السنة والجماعة، بنيت عدة جوامع في هاتين المقاطعتين، منها أربعون جامعاً في جبال العلويين على أمل أن يعود النصيرية والدروز إلى التسنن ، فأصبح بعضهم يصلون شبه مكرهين، فلما آنسوا ضعف الحكومة بعد مدة قليلة أتى جهلاء النصيريين والدروز على ما بني من المساجد الجديدة ودمرها عن آخرها ودنسوا كرامتها بما لا يليق.

ومن الكتابات الأثرية في بعلبك ما زبر فوق باب قبة الأمجد على رابية الشيخ عبد الله « إنما يعمر مساجدَ الله مَن آمن بالله واليوم الآخر. أمر بعمارة هذا المسجد المبارك الأمير الاسفسهلار الكبير صارم الدين أبو سعيد خطلخ ابن عبد الله المعري الملكي الأمجدي، ضاعف الله له الثواب وغفر له يوم الحساب، في سنة ست وتسعين وخمسمائة » .

وكتب في جامع الحنابلة ببعلبك هذا: « بسم الله الرحمن الرحيم. جُدّد هذا المكان المبارك في أيام مولانا السلطان الأعظم، شاهنشاه المعظم مالك رقاب الأمم، سيد ملوك العرب والعجم والترك والديلم، الملك المنصور سلطان الإسلام والمسلمين، قامع الكفرة والمشركين، محيي العدل في العالمين، ملك البحرين، خادم الحرمين الشريفين، أبي المعالي قلاوون قسيم أمير المؤمنين، خلد الله سلطانه، وشد أزره ببقاء ولده وولي عهده، مولانا السلطان الملك الصالح علاء الدين، وأدام نصرهما، وجعل البسيطة ملكهما، بتولي الأمير نجم الدين حسن نائب قلعة بعلبك المحروسة ومدينتها، ونظر القاضي بهاء الدين بن خلكان وذلك في العشر الآخر من جمادى الأولى سنة ثنتين وثمانين وستمائة والحمد لله وحده » .

والمساجد في لبنان قليلة جداً أنشى بعضها حديثاً كجامع عالية، وأهم الجوامع في هذا الجبل جامع دير القمر للأمير فخر الدين عثمان المعني وعهدي به والمسيحيون من أهل جواره يحافظون عليه إذ ليس هناك من يصلي فيه من أهل الإسلام. وقد كتبت على واجهته كتابتان هكذا بالخط العربي النسخي، الأولى: «بسم الله الرحمن الرحيم. في بيوتٍ أذِنَ اللهُ أن تُرفعَ ويُذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدوّ والآصال رجّال لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله وإقام الصلوة وإيتاء الزكوةِ يخافون يوماً تتقلبُ فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدَهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب». والثانية: «بسم الله الرحمن الرحيم. في بيوت أذن الله ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدوّ والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله (وإقام الصلوة وإيتاء الزكوة) يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار. عمر هذا المكان المبارك ابتغاءً لوجه الله العظيم ورجاءً لثوابه العميم العبد الفقير إلى عفو ربه القدير المقرّ الفخري الأمير فخر الدين عثمان بن الحاج يونس ابن معن غفر الله له.

وكتب في ٥ من شهر الله المحرم الحرام من شهور سنة تسع وتسعين وثمان مائة للهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام».

وكانت الجوامع في حمص مهمة للغاية أوائل الإسلام وقد صالح المسلمون أهلها على ربع كنيستهم وكانت «على أربعة أركان وذلك من عجائب بنيان العالم» ومسجدها اليوم وسط السوق وليس بالكبير وفيه عقود وعمد ومحراب مزين بالفسيفساء المذهبة القديمة. وفي جهة أخرى محراب قديم معمول بالفسيفساء أيضاً. وأكد الأثريون أن بناء هذا الجامع هو من بناء الكنيسة، والغالب أنه جدد في أدوار مختلفة من عهد نور الدين زنكي إلى زمن قريب. ولا تزال في حمص منارة مأذنة من بناء بكجور الذي استولى على المدينة سنة (٣٦٧) وعليها كتابة مفيدة في باب الهندسة العربية. ومن جوامع حمص المهمة جامع سيدنا خالد خارج البلد جدد بناؤه مؤخراً وأُنشئت له مأذنة على الطرز الرومي. ولم يثبت كون المدفون في هذا الجامع هو خالد بن الوليد الفاتح، لأن هذا على أغلب الروايات مات في مدينة الرسول والغالب أن هذا القبر

هو قبر خالد بن يزيد بن معاوية على ما أكد ياقوت قال: وهو الذي بنى القصر بحمص وآثار هذا القصر في غربي الطريق باقية. وذكر المؤرخون أنه كان في جامع حمص عمود يقال: إنه من الكحل الأصفهاني .

وفي حماة ٣٤ جامعاً و١١ مسجداً ومن أهمها جامع النوري بناه نور الدين زنكي سنة (٥٥٩). ومنها جامع أبي الفداء الشهير بجامع الدهشة أو الحيات. وقد وصف الأثري هرزفلد المسجد الجامع في حماة وهو الجامع الكبير فقال: إنه أصل حرمه كان كاتدرائية للنصارى غريبة الشكل وله ثلاثة أفنية مختلفة السعة ، وثماني دعائم، وخمس قباب، ومن كل ناحية خمسة عقود أو أقبية. ويظهر أن الحائط الغربي كان حائط رواق الكنيسة، والحائط الجنوبي من العهد السابق للنصرانية، كما هو الحال في جامع دمشق كان معبداً ثم بيعة ثم جامعاً. وإلى جهة الشرق قامت منارة قديمة منفردة وهي مربعة الزوايا زبرت عليها كتابة كوفية ربما كانت من القرن الخامس، وتحيط بصحن الجامع الجميل أروقة معقودة، وهناك سدة بمحرابين أمام الحرم وسدة أخرى لها حوض ماء، ومحراب منفرد في الرواق الشمالي، وخزنة قائمة على ثمانية أعمدة قديمة ، وفي الرواق الشرقي تربة ومصلى ولها نوافذ صلبة معمولة من النحاس من عهد المماليك، ومن الرواق الغربي يصل الإنسان إلى قبة الملك المظفر محمود الثالث (٦٨٣ – ٦٩٨) وله تابوت معمول بالخشب الجميل المنقوش،وهناك منارة ثانية قامت في الخارج وسط الرواق الشمالي ويستدل من كتابته وشكله أنه من زمن المماليك، وفي جامع حماة تجلت خاصية من هندستها تجلياً عظيماً، وذلك أن ظاهر الحيطان مزين بنقوش رسمت بألوان تشبه الفسيفساء لمراوحتهم في صنعها بين الحجر البركاني الأسود والحجر الكلسي الأبيض .

وفي الجامع النوري على الشاطئ الأيسر من العاصي في أرض منحدرة وعلى بناء تحتي عال بني هذا الجامع على عهد نور الدين، وعلى ما دخله من الترميمات الكثيرة تشاهد فيه إلى اليوم أجزاء مهمة من البناء القديم، ولا سيما على طول الحرم، والعقود فيه حديثة العهد بالنسبة لمجموع الجامع ، وكذلك ثلاث قباب من الرواق الشمالي مختلفة الأشكال والأبنية التحتانية من الجهتين

الشرقية والشمالية والحائط الخارجي الشمالي من الجامع ربما كان الجزء الأسفل من المنارة بما فيه الحجارة المنحوتة البيضاء والسوداء قديم العهد أيضاً. وفي هذا الجامع بقايا منبر جميل عمل من الخشب ويرد إلى زمن نور الدين ثم محراب مزين أجمل زينة له سوار من الرخام المجزع من زمن الملك المظفر تقي الدين (٦٢٦ – ٦٤٢) وفي مكان آخر من الشرق محراب ذو سوار من المرمر زُبر في تيجانها اسم أبي الفداء .

والجامع الأول هو الذي قام على أنقاض الكنيسة أو حوّل منها في زمن الفاتح ،وهو جامع السوق الأعلى وجدّد في خلافة المهدي من خراج حمص على ما نقش على رخامة فيه ، ثم جاء المظفر عمر فزاد فيه وبنى مدرسة بجواره، ثم أتى إبراهيم الهاشمي فأنشأ منارته الشمالية سنة(٨٢٥) كما زبر ذلك على رخامة فوق بابها، ومن بنائه الحرم الصغير في جانب المسجد من جهة الشرق ورواق الجامع أيضاً بناه سنة(٨٣٢) ،وجامع الحيات أو جامع الدهشة الذي بناه الملك المؤيد وبنى لحرمه من جهة الشرق شباكين كبيرين بينهما عمود كبير من الرخام على صورة أفاعي ملتفة ولهذا يسمى جامع الحيات. وقد نقش حرمه بالذهب والفسيفساء والرخام الملون في جدرانه وأرضه وعمل له من الغرب شباكين كما في جهة الشرق،غير أنهما هدما وأُدخلا في البستان المجاور له، ولم يبق غير الشباكين. وذهبت خزانة الكتب الموقوفة وكان فيها سبعة آلاف مجلد. ويرى الداخل إلى حرمه حتى اليوم زناراً على ساريتين محفوراً من الرخام وصورته :

« أمر بعمل هذا الجامع المبارك السلطان الملك المؤيد عماد الدنيا والدين إسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين علي بن الملك المظفر تقي الدين محمود ابن الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه ابن أيوب في شهور سنة سبع وعشرين وسبعمائة » .

ومن الجوامع في حماة جامع السلطان في محلة الدباغة وهو متسع ،بناه السلطان بدر الدين حسن شقيق أبي الفداء على هيأة جامع الدهشة وفي كل منهما رخام محفور بالآيات القرآنية كتبتها يد واحدة،وله رواق كبير وفي محرابه كتبت آيات بالخط الكوفي. وفيها جامع العزة بناه محمد بن حمزة

العزي سنة (٧٢٣) وهو مهجور. وفيها جوامع بناها بعض آل الكيلاني الذين سكنوا حماة منذ القرن السابع ولها أوقاف عظيمة دارة إلى اليوم. ومن الجوامع الحديثة جامع الحميدية الخ .

جوامع العاصمة وضواحيها :

إذا صرفنا النظر عن الكلام على الجامع الأموي مفخرة دمشق على توالي الأيام والمعدود من المصانع العظيمة في العالم، وعمدنا إلى وصف بعض جوامع العاصمة ومساجدها نجد عدد المساجد في العهد الأخير بحسب إحصاء ديوان الأوقاف ثمانية وخمسين مسجداً وجامعاً، منها جامع الباشورة في الشاغور ومسجد الجديد في مسجد الأقصاب وجامع الأتابكية في الجركسية بالصالحية وجامع حسان في القماحين بباب الجابية ودرويش باشا في الدرويشة (٩٨٢) واسمه القديم الاخصاصية وسعه درويش باشا، وجامع الدقاق في الميدان الفوقاني والركنية في الصالحية ومسجد رستم في العقيبة وزيد بن ثابت في باب السريجة وجامع السقيفة في العمارة وجامع سيدي بشارة في باب المصلى وجامع سيدي صهيب في الميدان التحتاني وجامع السنجقدار وشادي بك في القنوات والطاغوسية في البحصة والعداس في القنوات ومسجد العداس الصغير في العمارة وجامع عبد الغني النابلسي في الصالحية وجامع برسباي المعروف بجامع الورد في سوق ساروجا (٨٥٢) وجامع كافل سيباي في الدرويشية .

وفي هذا الإحصاء نظر لأن جوامع دمشق ومساجدها أكثر من ذلك ولعل من مصلحة الأوقاف أن تقلل من عددها لكي يتسع لها المجال أكثر مما اتسع لاستصفاء وقوفها فقد فاتها في هذه الجريدة ذكر جامع السنانية عمره يوسف عبد الله سنان باشا سنة (٩٩٩) في محل مسجد البصل وجامع يلبغا أنشئ سنة (٨٤٧) وجامع التوبة في العقيبة وجامع الجراح في باب الصغير عمره الملك الأشرف موسى (٦٣١) وله منبر جميل مهم. وجامع الجديد وهو جامع المعلق بين الحواصل أجمل بناء في دمشق جدده نائب الشام سنة (١٠٥٨) ويظن أن أصله من القرن السابع أو السادس. وجامع الحنابلة في الجبل ويقال له جامع المظفري أنشأه ابن قدامة المقدسي (٥٩٨) وأتمه الملك المظفر كوكبوري صاحب إربل وهو جامع جليل .

ومن الجوامع الجليلة جامع المرادية في السويقة له منبر ومحراب بديعان . ومنها جامع منجك في الميدان أنشأه الأمير إبراهيم بن سيف الدين منجك (٨٠٠). جامع النحاس شرقي الركنية في الصالحية في بستان النحاس عماد الدين بن عبد الله بن الحسين بن النحاس (٦٥٤). ومن الجوامع التاريخية التي لم تشتهر كثيراً جامع الحشر في الجانب الغربي من القلعة لأرغون شاه جدده سنان جاووش يكيجري (١٠٠٨). الحيوطية للأمير علي بن حيوط (٨٨٥) العسالي لأحمد باشا كوجاك (١٠٥٤) أنشأه أحمد بن علي العسالي شيخ الخلوتية.جامع المزاز(٨١٣)لعزران شاه السيد تقي الدين الزينبي الجنوبي خرب في فتنة تيمور فجدده الطوش مرحاب. جامع الجوزة في العمارة وسعه القاضي ناظر الجيش (٨٣٠) جامع خليخان خارج باب كيسان من الجنوب أنشأه نجم الدين بن خليخان (٧٢٦) جامع الكريمي (٧٢٤) بالقبيبات أنشأه عبد الكريم بن هبة الله المصري. جامع باب المصلى أنشأه (٦٠٦) الملك العادل أبو بكر بن أيوب. وكان هذا السلطان مولعاً بالعمران أنشئت في عهده مساجد كثيرة في مملكته. جامع الحاجب في سوق ساروجا (٨٨٠) جامع السقيفة دفن فيه عثمان السقيفي من الصحابة فيما يقال أنشأه خليل الطوغاني (٨١٤)وكان محله يعرف بالسبعة. وهناكمساجد دثرت لأنها ليسفي جوارها من يتعهدها مثل جامع الأحمر في حي اليهود والبهائية في باب توما .

وفي مفكرات طارق أن اسم سوق القطن القديم بدمشق سوق النسقار وفيه جامع هشام أنشأه القاضي بدر الدين بن مزهر (٨٣٠) وأن محراب جامع التوبة مهم وكذلك منبره ونوافذه ومثل ذلك جامع الشامية وجامع التبان في المناخلية فإنفيه عمودينمهمين وفيه قاشاني ومنبر قديم وملاصق جامع السيدة سكينة جامع من بناء الملك الظاهر عليه كتابات وفي جامع ركن الدين منكورش المعروف بالركنية في حي الأكراد نقوش وكتابات مهمة .

هذا غاية ما يقال في مساجد دمشق اليوم. وقد عدد ابن عبد الهادي القسم الأعظم من مساجدها في القرن العاشر مع أنه لم يستقص أسماء كثير من الجوامع في الضاحية بما يناهز خمسمائة قال: فناهيك ببلدة يحتوي واديها فقط على

زهاء ألف وخمسمائة مسجد، وأما ما هو محيط بمعاملتها مما وراء جبالها فهو كثير للغاية اه. وذيل على كتابة الدكتور أسعد طلس فأورد وصف ثلاثمائة وثمانية مساجد في دمشق زارها كلها وبحث في حاضرها وغابرها وبعضها من المساجد التي عرضنا لها في هذا الفصل وكان فات إدارة الأوقاف ذكرها في المساجد الباقية. قال كاتب چلبي في القرن الحادي عشر: إن عدد جوامع دمشق بين كبير وصغير يبلغ مئة وخمسين جامعاً وإن الدولة العثمانية أنشأت فيها عدة جوامع على طرز جوامع ديار الروم فبنت جامع السلطان سليمان بين الشرفين الأعلى والأدنى وأنشأت جامع درويش باشا مير ميران ولاية الشام وأنشأت جامع سنان باشا خارج باب الجابية وأنشأت جامع قره مراد باشا مير ميران ولاية الشام خارج السور فوق طريق الشام على سمت طريق باب المصلى اه .

وإذا توغلنا في التاريخ إلى القرن السادس نجد ابن عساكر قد عد من المساجد التي بنيت بدمشق ٢٤١ مسجداً وجامعاً في داخلها و١٨٤ في ظاهرها مما ليس في قرية مسكونة أو معمورة. قال ابن شاكر: وقد أُحدثت بعد الحافظ ابن عساكر مساجد كثيرة داخلاً وخارجاً هذا مع ما اختصت به دمشق من كثرة المدارس والأوقاف. ومن المساجد التي عدها الحافظ منسوبة إلى أحد الصحابة مسجد ايمن بن خُرَيْم[1] بن فاتك الأسدي الصحابي، ومسجد مروان بن الحكم ومسجد واثلة بن الأسقع، وفضالة بن عبيد الصحابي الأنصاري قاضي دمشق. ولتغير المعالم بها لا تعرف أسماء الأحياء التي ذكر أنها كانت فيها. قال ابن شاكر: وأما المساجد الخارجية عن البلد فمنها مسجد بين حجيرا وراوية (قبر الست) على قبر مدرك بن زياد ومسجد في راوية على أم كلثوم من أهل البيت. ومسجد كنان قبلي قذايا. قرية كانت قبلي مقابر اليهود فخربت، ومسجد في مقبرة باب توماء عند النهر المجدول بقرب الصفوانية يعرف بخالد بن الوليد لأنه صلى به وقت الحصار، ومسجد يعرف بمسجد النبي في أرض المصيصة له منارة. والمصيصة قرية كانت عامرة فخربت شرقي

---

(١) لا يؤيد التاريخ بعض قبور الصحابة والمساجد المنسوبة إليهم . وعن الحافظ عبد الغني قال : لم يتفق المسلمون على معرفة قبر نبي وصحابي غير قبر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وقبري صاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

بيت لهيا، ومسجد عند بيت أبيات يعرف بمسجد آدم، ومسجد معاوية من أرض قَيْنِيَة على طريق المزة وداريا، ومسجد الحجر ويعرف بمسجد النارنج قرب المصلى، ومسجد القدم عند القطائع بقرب عالية وعويلية قديم له منارة .

ولقد كانت مساجد الغوطة عامرة كلها إلى دخول العثمانيين ثم أخذت تخرب في عهدهم، فقد كان في كل قرية من قرى دمشق مسجد أو مساجد جامعة بحسب ضخامة القرية، وعشرات من هذه القرى خربت برمتها في القرون الأخيرة فذهبت معها الجوامع بالطبيعة. ومن القرى التي مرت بنا وذهب اسمها ورسمها راوية وفذايا والمصيصة وبيت لهيا وبيت أبيات وقَيْنِيَة وعالية وعويلية والنيرب والربوة. ولقد كان في الربوة عدة مساجد ومدارس. وفي تاريخ الصالحية أن المقاصف كانت تعمر عمائرها للنزهة من غير طين، والعمائر المكلفة كانت للمدارس والجوامع وأن قاعة المسجد الديلمي الذي جدده نور الدين في الربوة قد بناها على شعب الجبل، سقفها نهر يزيد، وأساسها نهر ثورا من المقامات التي لا تدرك. قال: وبقي بعد الألف من هذا المسجد المأذنة وأثر العمار ثم دثر .

وكان بالنيرب تسعة مساجد عدها ابن عبد الهادي، والآن ليس فيها أثر لمسجد ولا لقرية. وكان في القابون الفوقاني ثلاثة مساجد وبالقابون التحتاني ثلاثة، وليس فيهما الآن سوى مسجد واحد حقير. وهكذا مساجد قرى الغوطة والمرج وقلمون فإنها كلها ليست ذات شأن، ومن أجملها اليوم جامع التل وعربيل ودومة وداريا. ومما دثر مسجد خاتون في منتصف الطريق بين دمشق والمزة . كما دثرت مساجد المزة وكانت بضعة مساجد وجوامع، منها مسجد بناه ابن عنين الوزير الشاعر في القرن السابع، وفي هذا القرن أيضاً بنى بها الوزير صفي الدين بن شاكر جامعاً، وهو الذي بلط جامع دمشق وأحاط سور المصلى عليه وعمل الفوارة وبنى جامع حرستا . والجوامع والمساجد اليوم صورة من عمراننا، وعمراننا كان متراجعاً إلى عهد قريب، وهو اليوم آخذ بالتقدم فلا يبعد أن تقوم المساجد بعد الآن على قانون ينم عن حسن ذوق في البناء فيعيد الصورة القديمة مضمومة إلى التحسين الحديث .

المدارس

نشأة المدارس :

اتخذ المسلمون مساجدهم للصلاة والعبادة وتلقي القرآن وعلومه والحديث وفنونه وعلوم اللسان، وما يتعلق بذلك من المطالب التي فيها قيام أمرهم، وخدمة دينهم أولاً ولغتهم ثانياً، وظلوا على ذلك في الشام حتى أنشأ بدمشق رشأ بن نظيف بن ما شاء الله الدمشقي سنة(٤٤٤) مدرسته المعروفة بالرشائية اتخذها دار قرآن، وكان الحسن بن عمار قاضي طرابلس للفاطميين والمتغلب عليها أقام في بلده دار حكمة أو شبه مدرسة جامعة على نحو دار الحكمة التي أنشأها الحاكم بأمر الله في مصر سنة أربعمائة. ولما أراد المعتضد بالله العباسي بناء قصره ببغداد استزاد في الذرع بعد أن فرغ من تقدير ما أراد فسئل عن ذلك فذكر أنه يريده ليبني فيه دوراً ومساكن ومقاصير يرتب في كل موضع رؤساء كل صناعة ومذهب من مذاهب العلوم النظرية والعملية ويجري عليهم الأرزاق السنية ليقصد كل من اختار علماً أو صناعة رئيس ما يختاره فيأخذ عنه. وأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور فبنيت بها المدرسة البيهقية ثم مدرسة الأمير نصر بن سبكتكين وتبعه غيره. وعُني السلاجقة بإنشاء المدارس في أقطار الشرق، وكان آلب أرسلان إذا رأى في بلد رجلاً متميزاً متبحراً في العلم بنى له مدرسة ووقف عليها وقفاً وقرر فيها للفقهاء معاليم وجعل فيها دار كتب، ونظام الملك أحد وزراء السلاجقة الذي أنشأ المدرسة النظامية في بغداد في القرن الخامس أيضاً .

أصبحت طرابلس بدار الحكمة التي أنشأها فيها ابن عمار كعبة علم،

كما كانت حلب على عهد سيف الدولة بن حمدان كعبة أدب. ويقال: إنه كان في طرابلس في ذاك القرن عدة مدارس وخزائن كتب لم يبلغنا خبرها . وعلى هذا فالمدارس في الإسلام نشأت في أواخر القرن الرابع وعرفت جيداً في الخامس والسادس. ونقصد بالمدارس تلك الدور المنظمة التي يأوي إليها طلاب العلم، وتدر عليهم المعاليم والأرزاق، ويتولى تدريسهم وتثقيفهم فئة صالحة من المدرسين والعلماء، وهم موسع عليهم في الرزق، يختارون بحسب شروط الواقف ممن يحسنون القيام بالغرض الذي ندبوا للدعوة إليه، ويجازون بما تعلموا من ضروب المعارف الآلهية والبشرية .

ولقد كان من نور الدين محمود بن زنكي لما استولى على الشام همة عظيمة في إنشاء المدارس لأهل السنة والجماعة كما أنشأ القائد جوهر الأزهر في القاهرة، والقاضي ابن عمار دار الحكمة في طرابلس لبث التشيع، وأخذ نور الدين يستدعي فحول العلماء من الأقطار ويبني لهم المدارس ويدر عليهم المشاهرات حتى قالوا: إن الشام أصبح على عهده مقر العلماء والفقهاء والصوفية. بنى سنة (٥٤٥) في حلب المدرسة العصرونية واستدعى لها من سنجار شرف الدين بن أبي عصرون من أعيان فقهاء عصره وبنى له مدرسة بمنبج وأخرى بحماة وثالثة في حمص ورابعة ببعلبك وخامسة بدمشق، وفوض إليه أن يولي التدريس فيها من يشاء. وبنى لقطب الدين النيسابوري المدرسة العادلية بدمشق ولم يتمها. وأول مدرسة بنيت في حلب أنشأها بدر الدولة أبو الربيع سليمان ابن عبد الجبار بن أرتق صاحب حلب سنة عشر وخمسمائة وسميت المدرسة الزجاجية. وأول ما عرف من المدارس في القدس ما بناه صلاح الدين يوسف ابن أيوب ونُسب إلى جماعته .

وقد ذكر الرحالة ابن جبير الذي زار دمشق في سنة ثمانين وخمسمائة أنه كان فيها نحو عشرين مدرسة تقوم بالإنفاق على من يدخل فيها للتعليم والاستفادة. وقال: إن هذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الإسلام والمدارس كذلك وأن الرباطات قصور مزخرفة. وقال في كلامه على مشاهد دمشق: ولكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينة من بساتين وأرض بيضاء ورباع حتى: إن البلدة تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيها وكل مسجد يستحدث

بناؤه أو مدرسة أو خانقة يعين لها السلطان أوقافاً تقوم بها وبساكنيها والملتزمين لها، وهذه أيضاً من المفاخر المخلدة. ومن النساء الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة وتنفق فيها الأموال الواسعة وتعين لها من مالها الأوقاف، ومن الأمراء من يفعل مثل ذلك اهـ .

ومعظم المدن مدارس مدينة دمشق، كثرت في الدولتين النورية والصلاحية وقام بإنشاء بعضها العتقاء والخصيان والإماء والبنات، ومنها ما بني بالمال الحلال من أموال الغنائم، ومنها ما بناه بعض أهل الخير من بنات الملوك والملكات، ومن القواد والسادة، ومنها ما أنشأه أهل اليسار من التجار وغيرهم. وأكثر من بنوا المدارس في دمشق هم غرباء عنها، ولولا بضع مدارس أنشئت في القرن الثاني عشر في حلب ودمشق لقلنا: إن تاريخ المدارس فيهما ختم بانقراض ملوك الطوائف ودخول الدولة العثمانية الديار الشامية. ومن رأى كثرة المدارس في القرن السادس والسابع والثامن والتاسع وقلة ما شيد منها في القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر، يستنتج معنا أن الأمة إذ ذاك كانت على جانب من التدين والغنى وحب الخير أكثر من القرون التالية، وأن بعض من جمعوا ثروات كانوا يحبون أن يتصدقوا من مالهم بشيء يعتقدون أنه قربى لهم يوم الجزاء، وقد فسد الناس في القرون الأخيرة وتوفروا على التهام تلك المدارس وأوقافها. وهي على الأكثر تقسم إلى أقسام، فمنها مدارس للشافعية يقرأ فيها فقه الإمام أحمد بن إدريس الشافعي، وأخرى للحنفية يتلى فيها فقه الإمام الأعظم أبي حنيفة، وغيرها للحنابلة لفقه الإمام أحمد بن حنبل، وبعضها للمالكية أي فقه الإمام مالك بن أنس، ومنها مدارس أو دور للقرآن يتلقون فيها القراءات على الأصول وما يتعلق بذلك، ومنها دور للحديث يأخذون فيها فنون الحديث ويروونه. وكان في دمشق خاصة مدارس لتعليم الطب والصيدلة والكحالة ومدرسة للهندسة يتخرج فيها مهندسون وبناؤون، ولم يتصل بنا أنه أنشئ في عواصم ذاك العهد: قصبة الوسط دمشق، وقصبة الشمال حلب، وقصبة الجنوب القدس، مدارس لتعليم الفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضية، ولعل بعض العلوم وخصوصاً الفلك والجغرافيا والتاريخ كانت تدرس في تلك المدارس كما كانت تدرس في الجوامع في بعض الأدوار،

وكان أبو شامة في القرن السادس يقرئ التاريخ درساً عاماً في الجامع الأموي بدمشق،وقد وصف أبو الفضل بن منقذ الكناني هذه المدارس بقوله :

ومدارس لم تأتها في مشكل — إلا وجدت فتىً يحل المشكلا
ما أمّها مرءٌ يكابد حيْرة — وخصاصة إلا اهتدى وتمولا
وبها وقوف لا يزال مَغلها — يستنقذ الأسرى ويغني العيّلا
وأئمة تلقي الدروس وسادة — تشفي النفوس وداؤها قد أعضلا
ومعاشر تخذوا الصنائع مكسباً — وأفاضل حفظوا العلوم تجملا

وقال السابق أبو اليمن المعري في وصف مدارس حلب ومنه استدللنا أنها كانت تدرس العلوم المختلفة :

فلديها كل الفنون وفيها — ما اشتهاه الشرعي والفلسفي

لا جرم أنه كان لإلقاء العلوم في تلك المدارس نُظُم ومناهج، ويقرأ الطلبة أشهراً مخصوصة ويفحصون فيما تعلموه، ولا ينال الإجازة بالتدريس والخطابة والإمامة إلا من ثبتت لمشايخه كفايته، وكان على استعداد لأن يزداد علماً بعد إنجاز الطلب وإجازة الطلاب بمسموعات مشايخهم ومروياتهم .

دور القرآن بدمشق :

في مدينة الرسول بنيت أول دار للقرآن في الإسلام. وذكر الواقدي أن عبد الله بن أم كلثوم قدم مهاجراً إلى المدينة مع مصعب بن عمير رضي الله عنهما وقيل: قدم بعد بدر بيسير فنزل دار القرآن. وكان في دمشق سبع دور للقرآن على ما في الدارس وهي :

(١) « الخيضرية » شمالي دار الحديث السكرية بالقصاعين وتنسب إليها اليوم محلة الخيضرية، أنشأها قاضي القضاة قطب الدين الخيضري الدمشقي سنة(٨٧٨) ووقف عليها وعلى مسجد آخر أوقافاً جمة، وقد بقي اليوم جزء صغير منها استحال زاوية للشاذلية .

(٢) « الدلامية » بالقرب من الماردانية على الجسر الأبيض بالجانب الشرقي من الشارع الآخذ إليه بالصالحية فوق نهر ثورة على طريق الجركسية، أنشأها زين الدين دلامة بن عز الدين نصر الله البغدادي البصري وكان من أجل

أعيان الخواجكية بالشام ووقفها سنة(٨٤٧) وهي الآن عبارةعن مصلى ومنزلين بالقرب من جامع كعكع . وفي كتاب وقفها أن صاحبها رتب بها إماماً وله من المعلوم مائة د، هم، وقيماً وله مثل الإمام، وستة أنفار من الفقراء الغرباء المهاجرين لقراءة القرآن، ولكل منهم ثلاثون درهماً في كل شهر، ومن شرط الإمام الراتب أن يتصدى لإقراء القرآن للمذكورين وله على ذلك زيادة على معلوم الإمامة عشرون درهماً، وستة أيتام بالمكتب الذي على بابها ولكل منهم عشرة دراهم في كل شهر أيضاً وقرر لهم شيخاً وله من المعلوم ستون درهماً في كل شهر ،ولقراءة البخاري في الشهور الثلاثة وللقارئ من المعلوم مائة درهم، وعاملاً وله من المعلوم كل سنة ستمائة درهم، ورتب للزيت في كل عام مثلها ، وللشمع لقراءة البخاري والتراويح مائة درهم، ولأرباب الوظائف خمسة عشر رطلاً من الحلواء ورأسي غنم أضحية ، ولكل من الأيتام جبة قطنية وقميصاً .

(٣) « الجزرية » قيل: إنها كانت بدرب الحجر نُسب إيقافها لمحمد بن محمد الجزري المقري المحدث. ولعل درب الحجر هو طريق الجركسية قرب الدلامية فتكون دار الشيخ محمد في حارة الشرباتي .

(٤) « الرشائية » شمالي الخانقاه السميساطية الملاصقة للجامع الأموي من شماليه أنشأها في حدود سنة أربع وأربعين وأربعمائة رشأ بن نظيف ابن ماشاء الله الدمشقي المقري. وقد درست الآن وبنيت المدرسة الاخنائية مكانها كما في الكواكب السائرة. وقيل: كانت بباب الناطفانيين أو بالعصرونية. قال الكتبي : هي التي جوار الخانقاه السميساطية من الشمال. قال ابن قاضي شهبة: وقد زالت عينها وأُدخلت في غيرها .

(٥) « السنجارية » كانت تجاه باب الجامع الأموي الشمالي أنشأها علي بن إسماعيل السنجاري أحد التجار الأخيار المتوفى سنة(٧٣٥) وهي أمام الاخنائية استحالت داراً ولم يبق غير بابها وعليه وقفها[1] .

(٦) « الصابونية » خارج باب الجابية قبالة تربة الباب الصغير لشهاب

---

(١) أشكر للشيخ عبد المحسن الأسطواني لتفضله بإطلاعي على مفكراته في مدارس هذه المدينة ومطالعاته الخاصة فيها .

الدين أحمد بن علم الدين بن سليمان بن محمد البكري المعروف بالصابوني تم إنشاؤها سنة (٨٦٨) وبنى أيضاً تجاهها بشرق مكتباً لأيتام عشرة بشيخ لهم يقرئهم القرآن العظيم بمعالم شرطها لهم معلومة تصرف عليهم من جهات عديدة منها عدة قرى غربي مدينة بيروت تحت يد أمير الغرب تعرف بالصابونية ولا تزال هذه الدار باقية إلى اليوم وهي مدفن السادة بني البكري .

(٧) « الوجيهية » قبلي المدرسة العصرونية والمسرورية وغربي الصمصامية التي شمالي الخاتونية أنشأها وجيه الدين محمد بن عثمان بن المنجا الرئيس شيخ الحنابلة الدمشقي التنوخي سنة (٦٩٠) درست وأصبحت مخازن ودوراً .

وفي ترجمة تنكز أنه عمل داراً للقرآن إلى جانب داره دار الذهب بدمشق وعلى ذلك فتكون دور القرآن ثمانية. وما أجمل ما قال علي بن منصور السروجي في دمشق :

في كل قصر بها للعلم مدرسة	وجامع جامع للدين معمور
كأن حيطانه زهر الربيع فما	يملّه الطرف فهو الدهر منظور
يتلى القُرآن به في كل ناحية	والعلم يذكر فيه والتفاسير

دور الحديث بدمشق :

عُني المسلمون أي عناية برواية الحديث الشريف لفهم السنة والكتاب وللتبرك والتفقه. وأول من بنى دار حديث في الشام وربما كانت مدرسته الأولى من نوعها في بلاد الإسلام نور الدين محمود بن زنكي وكثرت دور الحديث بعد ذلك. وكان في دمشق على ما ذكر في الدارس ثماني عشرة داراً للحديث وهي : .

(٨) « الأشرفية » جوار باب القلعة الشرقي غربي العصرونية، وشمالي القايمازية الحنفية، وفي رواية أن القايمازية مدرسة، وكانت دار الأمير قايماز ابن عبد الله النجمي فاشتراها الملك الأشرف موسى بن العادل وبناها دار حديث ونجز بناؤها سنة (٦٣٠)، درس بها جلة من العلماء مثل ابن الصلاح وابن الحرستاني وأبي شامة والنواوي والشريشي والفارقي وابن الوكيل وابن الزملكاني والحافظ المزي والسبكي وابن كثير وغيرهم، وكانت يد

التعدي تسطو على هذه المدرسة في أواخر القرن الماضي كما سطت على غيرها من المدارس فقام الشيخ يوسف البيباني المغربي واستخلصها وأعادها مدرسة وسكنها من بعده نجله الشيخ بدر الدين الحسني جعلها مقره تقرأ فيها دروسه وقد حرقت في حريق سنة (١٣٣٠هـ) الذي دمر أربعة شوارع من شوارع المدينة ودمر ما فيها من المدارس ثم رممت ترميماً خفيفاً وعاد بعض الطلبة والغرباء فسكنوها .

(٩) « الأشرفية البرانية » بسفح جبل قاسيون على ضفة نهر يزيد تجاه تربة الوزير تقي الدين التكريتي وشرقي المرشدية الحنفية وغربي الأتابكية الشافعية، بناها الملك الأشرف المظفر موسى بن العادل باني دار الحديث المتقدمة قبل سنة (٦٤٣) ودرس فيها جلة من العلماء أخذها المجمع العلمي العربي من الأوقاف ليجعل فيها خزانة كتب يختلف إليها أهل تلك المحلة ولم يتم له ترميمها لقلة المال .

(١٠) « البهائية »داخل باب توماء كانت دار بهاء الدين أبي محمد القاسم ابن بدر الدين أبي غالب المظفر المتوفى سنة (٧٢٣) وليس لها اليوم أثر .

(١١) « الحمصية » كانت معروفة بحلقة صاحب حمص في الجامع الأموي فقدت وجهل مكانها، وفي مفكرات طارق أن الحمصية في سويقة صاروجا أمام جامع الشامية بدئ باختلاسها منذ سنة (٩٠٠) .

(١٢) « الدوادارية » دار حديث ومدرسة ورباط داخل باب الفرج وهو باب المناخلية اليوم، لعلم الدين سنجر الدوادار المحدث الحافظ المتوفى سنة (٦٩٩) من نجباء الترك وعلمائهم وهي غير معروفة لعهدنا ولعلها الدار الكائنة أمام بحرة الدفاقة فظاهرها يدل على ذلك .

(١٣) « السامرّيّة » وبها خانقاه بالقرب من محلة مأذنة الشحم في زقاق الشيخ الدسوقي ،أنشأها أحمد بن محمد البغدادي السامرّي وهو مدفون بها . والسامرّي نسبة إلى سُرّ من رأى بلد على دجلة. قال الصلاحي الكتبي : إن سيف الدين السامرّي كان يسكن داره المليحة التي وقف عليها خانقاهاً ووقف عليها باقي أملاكه وكان السلطان صادرها (٦٩٦) . وهي موجودة اليوم ولكن لم يبق منها غير المدفن ويقال للحي زقاق السلمي .

ومن دور الحديث الداثرة .

(١٤) « السكرية » بالقصاعين وهو أول سوق الخلق (القميلة) وكان أمس سوق القطن داخل باب الجابية ، وهي ما يظهر داخل الدخلة التي شرقي جامع شركس ، درست وكان درّس بها ابن تيمية ووالده والحافظ الذهبي .

(١٥) « الشقيشقية » بدرب البانياسي في ظاهر المدينة أنشأها نصر الله الشيباني الصفّار المعروف بابن الشقيشقة وهي من الدوارس،ومن الدوارس أيضاً .

(١٦) « العرُوية » بمشهد عروة من الصحن الشرقي من الجامع الأموي قبالة الحلبية المعروفة قديماً بمشهد علي ، أنشأها محمد بن عروة الموصلي ووقف عليها مكتبة عظيمة توفي سنة(٦٢٠) ومحلها معروف وهي مستودع للجامع .

(١٧) « الفاضلية » بالكلاسة منسوبة للقاضي الفاضل البيساني من رجال صلاح الدين والمدرسة جوار تربة هذا السلطان وهي الآن مساكن .

(١٨) « القلانسية » غربي مدرسة أبي عمر بالصالحية بها رباط ومنارة يمر في وسطها نهر يزيد ، إنشاء أبي يعلى حمزة التميمي المعروف بابن القلانسي من كبراء دمشق المتوفى سنة (٧٢٩) وكان في رباطه هذا مأذنة ودار حديث وبر وصدقة ، وقد جعلت هذه المدرسة مسجداً صغيراً بمعاونة رجل اسمه إسماعيل التكريتي .

(١٩) « القوصية » بالقرب من الرحبة قال بعضهم : إنها في الجامع الأموي بجوار الشافعية وهي إحدى حلقات الجامع قديماً .

(٢٠) « الكرّوسية » غربي مأذنة الشحم لمحمد بن عقيل بن كرّوس السلمي محتسب دمشق المتوفى سنة (٦٤١) كان فيها ثلاثة قبور وجعلت دوراً وهي شمالي السامرية .

(٢١) « النورية » هي من دور الحديث الباقية وأول دار أنشئت لهذا الغرض أنشأها نور الدين محمود بن زنكي ، وهي الآن مسجد جامع وبها قبره يزار ويتبرك به ، تولى مشيختها في عصره الحافظ أبو القاسم بن عساكر

هذه هي النورية الكبرى .

(٢٢) أما « النورية الصغرى » فهي في العصرونية بين دار الحديث الأشرفية ومدرسة العصرونية أمام العادلية الصغرى وقد حرقت في الحريق الأخير . وفي النورية الكبرى فيما نظن يقول عرقلة الدمشقي :

ومدرسة سيدرس كل شيء وتبقى في حمى علم ونسك
تضوّع ذكرها شرقاً وغرباً بنور الدين محمود بن زنكي
يقول وقوله حق وصدق بغير كناية وبغير شك
دمشق في المدائن بيت ملكي وهذي في المدارس بيت ملكي

(٢٣) « النفيسية » قبلي البيمارستان الدقاقي (كذا) وباب الزيادة أي القوافين اليوم على يمنة الخارج منه شمالي غربي المدرسة الأمينية إنشاء النفيس إسماعيل بن محمد الحرّاني ناظر الأيتام المتوفى سنة (٦٩٦) حدثنا الثقة أنه رأى حجر بابها باقياً بحاله وقد طمس بالطين حتى لا يظهر أثرها وأصبحت دوراً .

(٢٤) « الناصرية » كان بها رباط قبلي جامع الأفرم بسفح قاسيون وهي الناصرية البرانية إنشاء الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز سنة (٦٥٤) أمست حديقة الآن وكانت أنقاضها ظاهرة الى عهد قريب وأدخلت أحجارها في ترصيف ضفة يزيد وفيها جسر معقود جميل ربما كان الموصل إلى دمشق ويتجاوز عرضه ثلاثين متراً .

(٢٥) « التنكزية » دار قرآن وحديث شرقي حمام نور الدين الشهيد وراء سوق البزورية أنشأها نائب السلطنة تنكز سنة (٧٢٨) وهي الآن مدرسة للصبيان سميت الهاشمية وكان هندسها المعمار أيدمر المعني .

(٢٦) « الصبابية » دار قرآن وحديث قبلي العادلية الكبرى وشمالي الطبرية أنشأها شمس الدين بن الصباب . قال في مختصر الدارس إنها احترقت في الفتنة أي فتنة تيمورلنك ولم يبق لها أثر سوى سبيل الماء .

(٢٧) « المعبدية » دار حديث وقرآن والمشهور إنها دار قرآن، إنشاء الأمير علي بن معبد البعلبكي ليست معروفة .

مدارس الشافعية بدمشق :

في الدارس أنه كان في دمشق سبع وخمسون مدرسة للشافعية وهي :

(٢٨) « الأتابكية » بالصالحية غربيها المرشدية ودار الحديث الأشرفية المقدسية ، أنشأتها أخت نور الدين أرسلان بن أتابك صاحب الموصل المتوفاة سنة(٦٤٠) وبها قبرها وقد جعلت لعهدنا مصلى درس بها زمرة من مشاهير علماء الشافعية .

(٢٩) « الإسعردية » بالجسر الأبيض بالصالحية دثرت وهي في وسط البساتين ، أنشأها إبراهيم بن مبارك شاه الإسعردي من أرباب الثراء والسخاء توفي سنة(٨٢٦) ودفن بتربة مدرسته . قال ابن قاضي شهبة : كان الإسعردي هذا والشمس ابن المزلق أكبر تجار دمشق وله المتاجر السائرة في البلدان قد أعطاه الله المال والبنين ، وكان عنده كرم وإحسان إلى الفقراء ، وكان صاحب هذه المدرسة الإسعردية يقول: عجائب الدنيا أربعة وأحسنها غوطة دمشق ، وأحسن الغوطة الصالحية، وأحسن الصالحية الجسر الأبيض !

(٣٠) « الأسدية » بالشرف القبلي ظاهر دمشق مطلة على الميدان الأخضر وهي على الفريقين الشافعية والحنفية ، إنشاء أسد الدين شيركوه من قواد نور الدين وهي في حديقة الشرف وأنقاضها ماثلة للعيان .

(٣١) « الأصفهانية » كانت بمحلة الغرباء بالقرب من درب الشعارين لتاجر من أصفهان،وفي رواية أنها خلف المدرسة القاچمازية وغرباً،محلتها ومكانها غير معروف على التحقيق ، ويذهب بعضهم إلى أنها كانت موضع تكية أحمد باشا وقد أدخلت فيها .

(٣٢) « الإقبالية » داخل باب الفرج وباب الفراديس وبينهما شمالي الجامع الأموي والظاهرية الجوانية وشرقي الجاروخية وغربي التقوية لشمال ، أنشأها جمال الدولة إقبال خادم نور الدين وعتيق ست الشام ، وقد استحالت داراً ثم استخلصت على يد الحاكم وألحقت بأملاك المعارف ولم يبق منها إلا الحجر الذي كان على بابها وفيه أوقافها وهي شمالي حمام العقيقي .

(٣٣) « الاكزية » قبالة الشبلية الحنفية ، إنشاء اكز حاجب نور الدين

محمود وهي غربي الطيبة والتنكزية وشرقي أم الصالح، غيرت معالمها وبابها موجود، وقد استحالت داراً .

(٣٤) « الأمجدية » بالشرف الأعلى الشمالي مطلة على المرجة قرب مدرسة التجهيز، إنشاء الملك المظفر عمران بن عبد الملك الأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك وهي دار فروخشاه وكان الملك الأمجد أشعر بني أيوب، قال ابن الشحنة: دفن الأمجد بمدرسة والده التي على الشرف بدمشق، وكانت هذه المدرسة عامرة إلى القرن الثاني عشر درس بها إبراهيم بن حمزة، ولكثرة ما في جوار هذه الدار من المدارس سمي اليوم الزقاق الموصل إليها وهو الذي يبتدئ من أمام جامع الطاووسية ومستودع الترامواي الكهربائي وينتهي بمستودع البارود بزقاق المدارس .

(٣٥) « الأمينية » قبلي باب الزيادة المعروف اليوم بباب القوافين من أبواب الجامع الأموي، وهي شرقي المجاهدية جوار قيسارية القواسين بظهر سوق السلاح وكان به بابها وتعرف هذه المحلة قديماً بباب القباب، وهناك دار مسلمة بن عبد الملك، قيل: إنها أول مدرسة بنيت بدمشق للشافعية بناها أتابك العساكر الملقب بأمين الدولة ربيع الإسلام أمين الدين كمشتكين ابن عبد الله الطغتكيني المتوفى سنة (٥٤١) وقد بنيت المدرسة سنة (٥١٤) وفي تاريخ دمشق أن الحسن بن محمد النهربيّي المقري الفقيه سمع الحديث بدمشق في المدرسة الأمينية وأول من درس بها علي بن المسلم الدمشقي سنة (٥١٤) وهي الآن في سوق الحرير جعلت كتاب صبيان واختلس الجيران بعضها .

(٣٦) « الباذرائية » جاء في الدارس أنها داخل باب الفراديس والسلامة شمالي جيرون وشرقي الناصرية الجوانية، وفي المختصر أنها على باب الجامع الأموي الشرقي المؤدي إلى العمارة، وكانت قبل ذلك داراً تعرف بأسامة وهو أسامة الجبلي أحد كبار الأمراء المتوفى سنة (٦٠٩) أنشأها أبو محمد الباذرائي البغدادي المتوفى سنة (٦٥٥) قال الذهبي: الباذَرَائي قاضي القضاة سفير الخلافة نجم الدين عبد الله بن الحسن الباذرائي الشافعي صاحب المدرسة التي بخط جيرون. ولا تزال أسوارها باقية وهي سائرة نحو الخراب وقد اقتطع جانب منها وجعل دوراً .

(٣٧) « البهنسية » بسفح قاسيون أنشأها مجد الدين المعروف بأبي الأشبال وزير الملك الأشرف مظفر الدين موسى المتوفى سنة(٦٢٨)وهي على طريق المهاجرين بطرف السكة بجوار حاكورة العدس .

(٣٨) « التقوية » داخل باب الفراديس (العمارة) شمالي الجامع شرقي الظاهرية والإقبالية كانت من أجلّ مدارس دمشق، بناها سنة(٥٧٤)الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ودرس بها جلة العلماء وفي عرف البشام أن المدرسة القصاعية والمدرسة التقوية كانتا عامرتين في القرن العاشر تقام بها الأذكار الآن باسم خانقاه ولها مخصصات شهرية من الحكومة .

(٣٩) « الجاروخية » داخل بابي الفرج والفراديس وفي حي السبعة طوالع بالقرب من الإقبالية الحنفية شمالي الجامع الأموي والظاهرية الجوانية المعروفة. بناها جاروخ التركماني برسم محمود بن المبارك المعروف بالمجير الواسطي البغدادي سنة(٥٩٠) درس بها كثير من العلماء ومنهم زمرة من الفقهاء بني جهبل. وهي دار بني الكيلاني اليوم .

(٤٠) « الحمصية » تجاه الشامية البرانية قال ابن كثير : في سنة(٧٢٦) فتحت المدرسةالحمصية ودرس بها محيي الدين الطرابلسي الملقب بأبي رباح . في مختصر الدارس أنها خربت بعد قليلمن تشييدها، والغالب أنها درست وجعلت دوراً ولم يبق منها إلا قطعة خربة .

(٤١) « الحلبية » بمحلة السبعة طوالع وهي خلف دار الكتب الظاهرية أو المدرسة الظاهرية مجهول حالها ومنشئها من القديم. قال في الدارس:إن شهاب الدين ابن عبد الخالق المتوفى سنة(٨١٥)وقف إلى جانبالمدرسة الحلبية مسجداً وأضافه إلى المدرسة ووقف عليها، وممن وقف عليها الأمير سيف الدين من مماليك برقوق.

(٤٢) « الخبيصية » قبلي الزنجاري، وخان الزنجاري هو جامع التوبة الآن، تولى مشيختها ابن قاضي أذرعات وقد استحالت دوراً .

(٤٣) « الخليلية » بانيها سيف الدين بكتمر الخليلي المتوفى (٧٤٦) ولا يعرف عنها شيء .

(٤٤) « الدماغية » كانت داخل باب الفرج وغربي الباب الثاني الذي

قبلي باب الطاحون وهي قبلي وشرقي الطريق الآخذ إلى باب القلعة الشرقي وهذا الطريق بينها وبين الخندق وهي أيضاً شمالي العمادية بين الشافعية والحنفية، أنشأتها عائشة جدة فارس الدين بن الدماغ زوجة شجاع الدين بن الدماغ (٦٣٨) درس بها جلة من العظماء وهي الآن قاعة النشا التي في المناخلية. وفي الصالحية مدرسة أخرى اسمها الدماغية أنشأها أو درس بها افتخار الكاشغري .

(٤٥) « الدولعية » بجيرون قبلي المدرسة الباذرائية لجمال الدين محمد الثعلبي الدولعي خطيب دمشق، وقد كانت الدولعية والشبلية عامرتين في القرن الحادي عشر، درس بهما إسماعيل الحائك، والدولعية في الدخلة المشهورة بدخلة الداغستاني في نصف الطريق الآخذ من دار بني منجك إلى زقاق الباذرائية، اختلست وجعلت دوراً وفي إحدى الدور قبر مدفون فيه واقف المدرسة محمد بن أبي الفضل بن زيد الخطيب التغلبي الأرقمي الدولعي ثم الدمشقي (٦٣٥) قاله الصفدي ودفن في الصفة الغربية من المدرسة وهاك نسخة التوقيع الذي كتب للفخر المصري المتوفى (٧٥١) بتدريس الدولعية ونظرها: رسم بالأمر العالي لا زال يرتفع به العلم الشريف إلى فخره ، ويعيده إلى خير حبر تقتبس الفوائد من نوره وتغترف من بحره، ويحمد الزمان بولاية من هو علم عصره وفخر مصره، أن يعاد المجلس العالي الفخري إلى كذا وكذا وضعاً للشيء في محله، ورفعاً للوابل على طله، ودفعاً لسيف النظر إلى يد هي مألف هزّه وسله، ومنعاً لشعب مكة أن ينزله غير أهله، إذ هو لأصحاب الشافعي رضي الله تعالى عنه حجة، ولبحر مذهبه الزاخر لجة، إلى أن قال : فليباشر ما فوض إليه جرياً على ما عُهد من إفادته، وألف من رياسته لهذه العصابة وزيادته، وعرف من زيادة يومه على أمسه، فكان كنيل بلاده ولا يتعجب في زيادته، حتى يحيا بدرسه ما درس ، ويثمر عود الفروع فهو الذي أنبته بهذه المدرسة وغرس، مجتهداً في نظر وقفها، معتمداً على تتبع ورقات حسابها وصحفها، عاملاً بشروط الواقف فيما شرط، قابضاً ما قبضه وباسطاً ما بسط الخ .

(٤٦) « الركنية الجوانية » شمالي الإقباليتين شرقي العزية الجوانية والفلكية غربي المقدمية، واقفها ركن الدين منكورس عتيق فلك الدين سليمان، درس

بها جلة من العظماء منهم ابن خلكان وأبو شامة وبنو حمزة وهي اليوم في زقاق بني مفلح أمام المقدمية وبينهما الطريق ويعرف بدخلة بني عبد الهادي في العمارة وهي منضمة إلى دار بني العمري ولم يبق لها أثر .

(٤٧) « الرواحية » شرقي مسجد ابن عروة بالجامع الأموي ولصيقه شمالي جيرون وغربي الدولعية وقبلي السيفية الحنبلية . بانيها زكي الدين بن رواحة الحموي التاجر الغني المعدّل المتوفى سنة (٦٢٢) درس بها ابن الصلاح والسهروردي وابن البازري وابن الزملكاني وأبناء السبكي وغيرهم ، وقد أُنشئت هذه المدرسة نحو سنة (٦٠٠) . قال المؤرخون : إن زكي الدين بن رواحة بنى بحلب مدرسة للشافعية وبدمشق مثلها داخل باب الفراديس ووقف عليهما أوقافاً حسنة وقنع بعد ذلك باليسير ، وكان يسكن في بيت المدرسة الدمشقية وهو الذي في إيوانها من الشرق ويقابله من الغرب خزانة الكتب التي وقفها وهي كتب جليلة كان من أرباب الثروة . وأصبحت المدرسة الرواحية الآن داراً .

(٤٨) « الزاوية الخضراء » بمقصورة الخضراء غربي الجامع الأموي وهي مكان داخل الجامع أشبه بالحلقات .

(٤٩) « الشامية البرانية » بمحلة العقيبة ، إنشاء ست الشام بنت نجم الدين أيوب بن شادي المتوفاة سنة (٦١٦) وتعرف هذه المدرسة بالحسامية لأن ابنها حسام الدين دفن فيها كما أنها هي أيضاً دفنت فيها . وهي اليوم مدرسة ابتدائية للأيتام تقوم بها جمعية الإسعاف الخيري ، وكان درّس بها من المشاهير ابن الصلاح وابن أبي عصرون ، وابن الزكي والفارقي والشريشي وابن الوكيل وابن قاضي شهبة وغيرهم .

(٥٠) « الشامية الجوانية » قبلي البيمارستان النوري ، إنشاء ست الشام أيضاً درّس بها من عظماء الشافعية ابن الصلاح قال ابن خلكان في ترجمته : إن الملك الأشرف بن الملك العادل بن أيوب لما بنى دار الحديث بدمشق فوض تدريسها إليه ، ثم تولى تدريس مدرسة ست الشام زمرد خاتون بنت أيوب وهي شقيقة شمس الدولة توران شاه بن أيوب التي هي داخل البلد قبلي البيمارستان النوري ، وهي بَنَتْ المدرسة الأخرى ظاهر دمشق وبها قبرها وقبر أخيها المذكور وزوجها ناصر الدين بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص ،

فكان يقوم بوظائف الجهات الثلاث. قلنا: وكثير من هؤلاء الفقهاء والمحدثين كانوا يدرسون في المدرستين والثلاث وربما أكثر. ومن مدرسيها سالم بن أبي الدر أمين الدين (٧٢٦) وزين الدين الفارقي شيخ دار الحديث الأشرفية. وقد خربت هذه المدرسة ولم يبق فيها سوى بابها وواجهتها الحجرية واتخذت داراً. ومن أوقافها قرية جرمانا .

(٥١) « الشاهينية » بالقرب من جامع التوبة بحارة العقيبة إنشاء الدوادار[1] شاهين الشجاعي أحرقت (٨١٦) فأعاد عمارتها هو أيضاً .

(٥٢) « الشومانية » إنشاء خاتون بنت ظهير الدين شومان وهي المسماة بالطيبة، والطيبة كما في الدارس قبلي النورية الكبرى ليست معروفة .

(٥٣) « الشريفية » كانت عند حيّ الغرباء بدرب الشعارين عند باب السلام،وفي تاريخ مبرات الشام أنها قبلي الجامع الأموي بالصاغة لم يعرف واقفها، درست وأصبحت حوانيت .

(٥٤) « الصالحية » غربي الطيبة والجوهرية الحنفية وقبلي الشامية الجوانية بشرق وتعرف بتربة أُم الصالح إسماعيل صارت مساكن ولم يعرف لها أثر، وكان من جملة مدرسيها الذهبي وابن كثير .

(٥٥) « الصارمية » داخل بابي النصر والجابية قبليالعذراوية بشرق، إنشاء صارم الدين أزبك مملوك قايماز النجمي (٦٢٢) أصبحت دوراً وكان درس بها طبقة عالية من المدرسين .

(٥٦) « الصلاحية » بالقرب من البيمارستان النوري،وهي من إنشاء نور الدين محمود بن زنكي وإليه نسبها ابن قاضي شهبة ومنسوبة للسلطان صلاح الدين. لم يبق لها أثر.

(٥٧) « التقطائية » داخل باب الصغير في الشاغور بنحو مائة ذراع إلى شرق شمال غربي بيت الخواجا الناصري قبلي منارة الشحم،عمر بعضها ومجهول بانيها وليس لها أثر .

(٥٨) « الطبرية » بجوار باب البريد،أنشأها نور الدين الشهيد درّس

---

(١) الدوادار هو مبلغ الرسائل عن السلطان ومقدم القصص إليه وله المشارفة على من يحضر إلى الباب الشريف وتقديم البريد ويأخذ الخط على عامة المناشير والتواقيع والكتب .

بها الشرف ابن هبة الله. لا يعرف عنها شيء وليس لها من أثر .

(٥٩) « الطيبة » قبلي النورية الحنفية وشرقي تربة زوجة تنكز بقرب الخواصين، وهي المسماة بالشومانية وإنما غير اسمها تيمناً، درّس بها جلة من الفقهاء، وهي الآن دار لبني العظمة وبني كيوان .

(٦٠) « الظبيانية » قبلي المدرسة الشامية الجوانية التي هي قبلي البيمارستان النوري وغربي المدرسة الصالحية الواقعة غربي مدرسة الطيبة خربت .

(٦١) « الظاهرية البرانية » خارج باب النصر شرقي الخاتونية الحنفية وغربي الخانقاه الحسامية بين نهري بانياس وقنوات بالشرف القبلي، بناها الملك الظاهر بن الملك الناصر صلاح الدين، درّس بها كثير من المشاهير منهم امام الدين وجلال الدين القزويني وابن صصرى وابن جملة. ولم يبق لها أثر .

(٦٢) « الظاهرية الجوانية » وهي للحنفية والشافعية داخل باب الفرج والفراديس جوار الجامع شمالي باب البريد وقبلي الإقباليتين والجاروخية وشرقي العادلية الكبري، أنشأها مدرسة ودار حديث الملك الظاهر بيبرس وهي التي دفن بها هو وابنه الملك السعيد سنة (٦٧٦) كتب على واجهة بنائها جريدة وقفها بحروف غليظة وزُبر اسم مهندسها في الزاوية الشمالية من المدخل « عمل إبراهيم بن غنائم المهندس »، وممن درّس بها نائب السلطة أيدمر الظاهري والأذرعي والإخنائي والسويدي والأسدي والرعيني والواسطي. وهي اليوم بيد المجمع العلمي العربي جعلت مخطوطاتها في القبة الظاهرية المعمولة حيطانها بالفسيفساء البديعة وقد أنشئت خزانة كتب منذ أواخر القرن الماضي .

(٦٣) « العادلية الكبرى » شمالي الجامع بغرب وشرقي خانقاه الشهابية وقبلي الجاروخية تجاه باب الظاهرية يفصل بينهما الطريق المؤدي إلى باب البريد، بدأ بإنشائها نور الدين محمود بن زنكي ولم تتم، ثم عمل فيها الملك العادل سيف الدين ولم تتم، ثم ولده الملك المعظم، ووقف عليها الأوقاف ونسبها لوالده الذي دفن فيها. أنشأها نور الدين للإمام قطب الدين النيسابوري فعاجل الأجل الباني والمبني له قبل إتمامها. قال صاحب الروضتين : وقد رأيت أنا ما كان بناه نور الدين ومن بعده منها وهو موضع المسجد والمحراب

الآن، ثم لما بناها الملك العادل أزال تلك العمارة وبناها هذا البناء المتقن المحكم الذي لا نظير له في بنيان المدارس، وهي المأوى وبها المثوى، وفيها قدر الله تعالى جمع هذا الكتاب (الروضتين) فلا أقفر ذلك المنزل ولا أقوى اه . وقال أيضاً: وفي سنة(٦١٢) شرع في عمارة المدرسة العادلية المقابلة لدار العقيقي من الغرب وحضر السلطان لترتيب وضعها بين الصلاتين يوم السبت، ثم أحرقت بالنار في رمضان المبارك سنة أربع عشرة .

وقال ابن أبي شامة أيضاً في ذيل الروضتين في حوادث سنة(٦١٩): وفيها نقل تابوت العادل بن أيوب من قلعة دمشق إلى تربته المقابلة لدار العقيقي، أخرجوا جنازته من القلعة والتابوت مغشى بمرقعة، وأرباب الدولة حوله، إلى أن قال: ولم تكن المدرسة كملت عمارتها وألقى فيها الدرس في هذه السنة القاضي جمال الدين الحصيري وحضر درسه أعيان الشيوخ والقضاة والفقهاء وحضر السلطان الملك المعظم عيسى بن العادل وتكلم في الدرس مع الجماعة . وكان الاجتماع بإيوان المدرسة وجلس عن يمين السلطان إلى جانبه شيخ الحنفية جمال الدين الحصيري ويليه شيخ الشافعية شيخنا فخر الدين بن عساكر ثم القاضي شمس الدين الشيرازي ثم القاضي محيي الدين يحيى بن الزكي، وجلس عن يسار السلطان إلى جانبه مدرس المدرسة قاضي القضاة جمال الدين الحصيري وإلى جانبه شيخنا سيف الدين الآمدي ثم القاضي شمس الدين بن سني الدولة ثم القاضي نجم الدين خليل قاضي العسكر، ودارت حلقة صغيرة والناس وراءهم مصلون ملء الإيوان. وكان في دور تلك الحلقة أعيان المدرسين والفقهاء. وقبالة السلطان فيها شيخنا تقي الدين بن الصلاح وغيره، وكان مجلساً جليلاً لم يقع مثله إلا في سنة ثلاث وعشرين وستمائة اه. قال ابن كثير: وفي سنة أربع وسبعمائة جلس قاضي القضاة نجم الدين بن الحصيري بالمدرسة العادلية الكبرى وعملت التخوت بعدما جددت عمارة المدرسة ولم يكن أحد يحكم بها بعد وقعة غازان بسبب خرابها. وهذه المدرسة من أعظم مدارس الشافعية بدمشق وكان يحكم بها قاضي القضاة ويجلس نواب القاضي بالمدرسة الظاهرية المناوحة لها .

درس بها وسكنها جلة من العلماء: منهم ابن خلكان والجلال القزويني

والعلاء القونوي وأبناء السبكي وكمال الدين التفليسي وابن مالك النحوي وابن جماعة، وممن درس بها وسكنها الشهاب أحمد المنيني صاحب التآليف المشهور من أهل المئة الثانية عشرة وسكنها ودرس بها أولاده من بعده. وقد أخذها المجمع العلمي العربي لما أسس في سنة (١٩١٩م) وجعلها مقره ورممها بما يقربها من الهندسة الأصلية . وقد حرقت هذه المدرسة مرتين الأولى في فتنة غازان التتري سنة (٦٩٩) مع ما حرق من مدارس المدينة، والثانية في سنة (٧٧٨) ولعلها أحرقت في فتنة تيمور أيضاً (٨٠٣) هذا عدا ما تناوبها من الزلازل. ومع هذا لم يزل حائطها القبلي وحائطها الشرقي قائمين. أما الجداران الآخران الغربي والشمالي فقد خربا وما بني بجانبهما جديد. ومن الأسف أنا لم نعثر فيها على كتابة ولو ضئيلة تدل على شيء من تاريخها ووقفها وإنشائها حتى ولا على قبر الملك العادل الذي نبش على ما يظهر في القرن الأخير لأخذ الذخائر التي كانت تدفن مع الملوك والعظماء. وكانت فيها خزانة كتب مهمة .

والعادلية اليوم العضو الأثري المهم من تلك المدارس التي كانت في القرون الوسطى مفخر الشام والإسلام. قلت في التقرير الرابع للمجمع العلمي عن سنة (١٩٢٥–١٩٢٦–١٩٢٧) : وفي العادلية وضع المقدسي تاريخ الروضتين في أخبار الدولتين، وفي العادلية عمل ابن خلكان تاريخه المشهور، وعلى باب العادلية كان يقف ابن مالك النحوي ويدعو الناس لحضور درسه، ينادي هل من متعلم هل من مستفيد، والتاريخ يعيد نفسه، وفي العادلية نزل ابن خلدون فيلسوف العرب أوائل المئة التاسعة. وكأن المولى تعلقت إرادته فقضى أن لا يخلي العادلية والظاهرية من علم ينشر، وأدب يذكر، فاختارهما مباءة للمجمع العلمي يقيم فيهما سوق العلم والأدب بعد الكساد على النحو الذي كانتا عليه منذ وضع أساسهما نور الدين بن زنكي والظاهر بيبرس .

(٦٤) « العادلية الصغرى » داخل باب الفرج شرقي باب القلعة الشرقي قبلي الدماغية والعمادية، أنشأتها زهرة خاتون بنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب وقد حرقت مؤخراً وبقيت جدرانها قائمة .

(٦٥) « العذراوية » بحارة الغرباء داخل باب النصر الذي كان يسمى بباب دار السعادة كما في الدارس، وفي مختصره أنها في جوار دار العدل التي

سميت في القرن الماضي دار المشيرية حيث يقيم مشير العساكر في الدولة العثمانية،وجعل في عهد الانتداب مركزاً لدواوينه ودمر بالحريق، إنشاء عذراء بنت السلطان صلاح الدين يوسف في رواية. وهي للفريقين الشافعية والحنفية، درّس بها الفخر ابن عساكر وابن أبي عصرون وابن الزكي والشمس بن خلكان وابن قاضي شهبة وغيرهم.وهي باقية اتخذت داراً يجتمع فيها النساء لسماع الوعظ. وكان فخر الدين بن عساكر أول من درس بالمدرسة العذراوية، ودرس بالنورية والجاروخية وهذه الثلاث مدارس بدمشق،والمدرسة الصلاحية بالقدس يقيم بالقدس أشهراً وبدمشق أشهراً .

(٦٦) « العزيزية » شرقي التربة الصالحية وغربي التربة الأشرفية وشمالي دار الحديث الفاضلية،أول من أسسها الملك الأفضل وأتمها الملك العزيز، وممن درس بها سيف الدين الآمدي وغيره من المشهورين،هدمها ضيا باشا والي سورية وجعلها حديقة ضمت إلى مدفن صلاح الدين أواخر القرن الماضي. وفي بعض التواريخ أن القاضي ابن الزكي أمر بأن تبنى دار الأمير أسامة مدرسة للتربة. وهي المدرسة المعروفة بالعزيزية ووقفها قرية عظيمة تعرف بمحجة. وذكر ابن خلكان أن السلطان صلاح الدين بقي مدفوناً بقلعة دمشق إلى أن بنيت له قبة في شمالي الكلاسة التي في شمالي جامع دمشق ولها بابان: أحدهما إلى الكلاسة والآخر في زقاق غير نافذ وهو مجاور المدرسة العزيزية، ثم نقل صلاح الدين من مدفنه بالقلعة إلى هذه القبة، ثم إن ولده الملك العزيز عماد الدين عثمان لما أخذ دمشق من أخيه الملك الأفضل بنى إلى جانب هذه القبة المدرسة العزيزية ووقف عليها وقفاً جيداً. وللقبة المذكورة شباك إلى هذه المدرسة وهي من أعيان مدارس دمشق اه .

(٦٧) « العصرونية » داخل بابي الفرج والنصر شرقيّ القلعة وغربي الجامع، لقاضي القضاة شرف الدين أبي سعيد عبد الله بن محمد بن أبي عصرون ابن أبي اليسر التميمي الحوني ثم الموصلي الدمشقي المتوفى (٥٨٥)، درس بها جماعة منهم المشايخ بنو عصرون وغيرهم. حرقت في الحريق الكبير سنة (١٣٢٨هـ) ولم تعد إلى ما كانت وبقي اسم السوق منسوباً إليها ورُمّ قبر من أسسها بعض الشيء .

(٦٨) « العمادية » داخل باب الفرج والفراديس قرب الدماغية من قبلة، بناء عماد الدين والواقف عليها السلطان صلاح الدين درس بها عماد الدين الكاتب وغيره، وهي الآن كتاب للصبيان في زقاق الخندق .

(٦٩) « الغزالية » في الزاوية الشمالية الغربية شمالي مشهد عثمان بالجامع الأموي وتعرف بالشيخ نصر المقدسي وهو أول من درس بها. وممن درس بها من المشهورين الدولعي وابن عبد السلام والقطب النيسابوري والشرف بن أبي عصرون وأبو حامد الغزالي وهي الآن مشهد من مشاهد الجامع .

(٧٠) « الفارسية » غربي الجوزية الحنبلية تجاه الخارج من باب الزيادة بالبزورية وقفها فارس الدوادار التميمي(٨٠٨). وفي المدرسة الآن قبران. وهاك أبياتاً من نظم بانيها أمر أن تكتب على تربته بعد وفاته وأظنها لغيره من المتقدمين وقد رأيتها مكتوبة على مدفن بني الشحنة مؤرخي حلب في باب المقام بحلب والأبيات هي:

هذه دارنا التي نحن فيها	دار حق وما سواها يزولُ
فاعتمر للممات داراً إليها	عن قريب يفضي بك التحويلُ
واعتمل صالحاً يؤانسك فيها	مثلما يؤنس الخليلَ الخليلُ

(٧١) « الفتحية » إنشاء الملك فتح الدين صاحب بارين وبها قبره كانت مدرستين إحداهما للشافعية وثانيتهما للحنفية نسيتا ونسي مكانهما .

(٧٢) « الفخرية » بين السورين إنشاء فخر الدين، تم بناؤها سنة(٨٢١) وهي على أهل المذاهب الأربعة فيما يظهر، وبها درس جماعة منهم عز الدين الإربلي والشيخ المراغي .

(٧٣) « الفلكية » غربي الركنية الجوانية بالعمارة، إنشاء أخي الملك العادل فلك الدين سليمان ، دفن فيها سنة (٥٩٩) . وفي بعض المظان أن المدرسة الفلكية بنواحي باب الفراديس تنسب إلى أبي منصور سليمان بن شروه ابن جلدك .

(٧٤) « القليجية » داخل باب شرقي وباب توماء شرقي المسمارية إنشاء مجاهد الدين بن قليج محمد. قال البوريني : إن أحمد بن سليمان الدمشقي الصوفي عزل التراب الذي في المدرسة القليجية الذي كان من بقايا الخراب

في فتنة اللنك (أي تيمورلنك) وقطن بها وأسكن في حجراتها عدة من الفقراء، والمدرسة المذكورة كانت تعرف في القرن الحادي عشر بمزار سيدي سيف الدين، وسيف الدين هذا هو الأمير سيف الدين الاسفسهلار من الأمراء النوزية، ويطل على تربته شباكان على رأس كل واحد منهما حجر فيه أسطر منقوشة، فأما الأول فعليه من الكتابة هكذا: قال الأمير الكبير المجاهد المرابط الاسفسهلار سيف الدين علي بن قليج رحمه الله هذه الأبيات وأمر أن تكتب على قبره. وعلى الحجر الثاني الأبيات وذكر الأبيات الثلاثة. الواردة في الكلام على المدرسة الفارسية، وبذلك رأينا أن هذه الأبيات ادعاها كثيرون وأحبها غير واحد من العظماء .

(٧٥) « القواسية » بالعقيبة الصغرى قرب مسجد الزيتونة إنشاء الأمير عز الدين بن القواس درس بها جماعة .

(٧٦) « القوصية » هي حلقة بالجامع الأموي قرب مشهد يحيى، كانت محلاً للتدريس، أنشأها رجل يقال له. جمال الإسلام في رواية وقف عليها أوقافاً جمة درس بها بعض المشاهير .

(٧٧) « القيمرية الجوانية » بحارة القيمرية، أنشأها الأمير ناصر الدين القيمر أحد أمراء الجند، درس بها جلة من فقهاء الشافعية ولا تزال معروفة .

(٧٨) « القيمرية البرانية » ويقال لها القيمرية الصغرى في القباقبية العتيقة غربي المقدمية وشمالي الحنبلية، خربت وأنقاضها إلى اليوم ظاهرة. ويقول طارق : إن بانيها الأمير علي بن يوسف بن يوسك القيمري سنة (٦٥٣) .

(٧٩) « النجيبية » قال ابن كثير في سنة (٦٩٠) : درس الخطيب عز الدين الفارقي بالمدرسة النجيبية عوضاً عن كمال الدين بن خلكان ولم يذكر في الدارس لها وقفاً ولا وقت بنائها ولا محلها .

(٨٠) « الكَرَوّسية » بجانب السامُريّة الشافعية وقفها سنة (٦٤١) محمد ابن كَرَوّس محتسب دمشق، وممن درس بها كمال الدين بن الزملكاني والشريشي .

(٨١) « الكلاسية » متصلة بالجامع الأموي من شماله ولها باب إليه، أنشأها سنة (٥٥٥) نور الدين الشهيد سميت بذلك لأنها كانت موضع عمل الكلس

أيام بناء الجامع، ثم أمر بتجديدها السلطان صلاح الدين درس بها جلة من الفقهاء وهي أطلال .

(٨٢) « المجاهدية الجوانية » بجوار تربة نور الدين وفي الدارس قرب باب الخواصين، واقفها مجاهد الدين أبو الفوارس الكردي أحد أمراء الدولة النورية. وفي الروضتين أنه الأمير مجاهد الدين بزان بن مامين أحد مقدمي الأكراد المتوفى سنة (٥٥٥) له أوقاف على أبواب البر بدمشق منها المدرستان المنسوبتان إليه، إحداهما التي دفن فيها وهي لصيق باب الفراديس المجدد، والأخرى قبالة باب دار سيف الغربي في صف مدرسة نور الدين، وله وقف على من يقرأ السبع كل يوم بمقصورة الخضر بجامع دمشق وغير ذلك. وقد درس بها قطب الدين النيسابوري وكثير غيره من الأعلام .

(٨٣) « المجاهدية البرانية » أيضاً بباب الفراديس كما في الدارس واليوم في زقاق حمام أسامة غربي الباذرائية لواقفها المشار إليه ، وفي مختصر الدارس أنها بجوار سوق البطيخ وبها قبر واقفها، درس بها غير واحد من المشهورين وهي جامع السادات .

(٨٤) « المسرورية » بباب البريد، إنشاء مسرور الخصي الطواشي صاحب خان مسرور بالقاهرة، وقيل: مسرور الملك الناصر العادلي وقفها عليه شبل الدولة الحسامي واقف الشبلية. درس بها جماعة من نبهاء الفقهاء .

(٨٥) « المنكلائية » لا يعلم عنها إلا كونها قرب المدرسة القيمرية الجوانية كما في مختصر الدارس وإلى اليوم لا يزال في تلك البقعة مقام للشيخ عبد الله المنكلائي .

(٨٦) « الناصرية الجوانية » داخل باب الفراديس شمال الجامع والرواحية بشرق، وغربي الباذرائية بشمال وشرقي القيمرية الصغرى والمقدمية الجوانية من آثار الملك الناصر صلاح الدين وهي اليوم دار. درس فيها بعض المشهورين من العلماء .

(٨٧) « المقدمية الجوانية » إنشاء الملك الناصر صلاح الدين يوسف، ولعلها هي التي كانت عامرة في القرن العاشر كما يؤخذ من ترجمة الشمس البهنسي من أن المقدمية والقصاعية والسيبائية كانت عامرة في عصره، وقد

خربت المقدمية أوائل هذا القرن واستحالت دوراً .

(٨٨) « المجنونية » شرقي الشامية البرانية بالعقيبة، إنشاء شرف الدين ابن شرف الرازي المعروف بالسبعة مجانين، وهي معروفة بالسبعة المجاهدين أيضاً وذلك بعد الثلاثين والستمائة .

(٨٩) « النجيبية » ملاصقة للمدرسة النورية وضريح نور الدين من جهة الشمال، أنشأها النجيبي جمال الدين اقوش الصالحي أستاذ الملك الصالح .

مدارس الحنفية بدمشق :

كان بدمشق أوائل القرن العاشر إحدى وخمسون مدرسة للحنفية كما في الدارس وهي:

(٩٠) « الأسدية » تقدم محلها وهي في المرجة الخضراء في الشرف القبلي .

(٩١) « الإقبالية » تقدم محلها وهي على الأحناف والشوافعة، وقد زالت ولا يعرف غير أطلالها وحجر بابها .

(٩٢) « الآمدية » بالصالحية جوار الميطورية من الغرب، جاء في الدارس أنه مجهول حالها من القديم وهي على ما فهم في بستان الميطور قرب حي الأكراد .

(٩٣) « البدرية » قبالة الشبلية بالجبل عند جسر كحيل ويعرف بجسر الشبلية، وهي في بستان السنبوسكي بطريق عين الكرش، لم يبق منها إلا قبة تهدّم أعلاها بجانب نهر ثورا، إنشاء الأمير بدر الدين المعروف بلالا ابن الداية من أمراء نور الدين سنة (٦٣٨) .

(٩٤) « البلخية » داخل الصادرية وبابها من حمام باب البريد، أنشأها الأمير ككز الدقاق للشيخ إبراهيم البلخي بعد سنة (٥٢٥) درست واتخذت مع الصادرية دوراً في عهدنا .

(٩٥) « التاجية » بزاوية الجامع الأموي الشرقية غربي دار الحديث العُروبية، وكانت زاوية للدراويش عرفت قديماً بابن سنان وبالسلارية جددت في سنة (٦٢٤) وهي غير موجودة .

(٩٦) « الناشية » إنشاءُ الملك الناشي الدقاقي سنة نيف وخمسين وخمسمائة وهي مجهولة اليوم .

(٩٧) « الجلالية » لقاضي القضاة جلال الدين أبي المفاخر أحمد بن قاضي القضاة حسام الدين الرازي، كانت ملاصقة للبيمارستان النوري وهي الآن خراب .

(٩٨) « الجمالية » كانت بسفح قاسيون للأمير جمال الدين يوسف وكان يسكنها في القرن العاشر أيام الصيف عبد الصمد العكاري درست مع الدوارس وأخذت أنقاضها للدور .

(٩٩) « الجقمقية » هي شمالي الجامع الأموي، أسسها سنجر الهلالي وولده شمس الدين فانتزعها الملك الناصر حسن سنة (٧٦١) وأمر بعمارتها فبنيت بالحجر الأبلق وجاءت في غاية الحسن واحترقت في فتنة تيمور فجدد بنيانها سيف الدين جاقماق وخص الخانقاه بالصوفية وأضاف إليها مدرسة للأيتام وتربة، ودرس بها جماعة وجعلت في القرن الماضي مدرسة للذكور وهي اليوم في حالة خراب أو ما يقرب منه، تزعزعت بعض أركانها بمدافع الفرنسيين سنة (١٩٤١) .

(١٠٠) « الجركسية » ويقال لها الجهاركسية وهي مشتركة بين الحنفية والشافعية وقيل: هي للحنفية فقط، واقفها جركس فخر الدين الصلاحي وكان نائباً عن الملك العادل ببانياس وبلاد الشقيف وتبنين وهونين، وهو من أرباب الهمم العالية مشهور بصداقته وصدقاته، وهذه المدرسة فوق نهر يزيد بالصالحية بالقرب من الجامع الجديد معروفة يأوي إليها المهاجرون والدراويش وتنسب إليها المحلة كلها، اندرست ولم يبق منها سوى قبتين عظيمتين أعلاهما متهدم وجدرانها حجر نحيت .

(١٠١) «الجوهرية» شرقي تربة أم الصالح داخل دمشق بحارة بلاطة المعروف اليوم بزقاق المحكمة. إنشاء الصدر نجم الدين بن عباس التميمي الجوهري سنة (٦٧٦) كان بعضهم أواخر القرن الماضي قسمها ثلاث دور وجعل عليها مرصداً، وقام ولداه بعده فأخذا ما أنفق والدهما عليها وأعاداها إلى الوقف فجعلت مدرسة للصبيان وحصل الانتفاع بها .

(١٠٢) « الحاجبية » والخانقاه بها قبلي المدرسة العمرية بالصالحية على

مقربة من مرقد الشيخ عبد الغني النابلسي ،إنشاء الأمير ناصر الدين محمد بن مبارك الإينالي سنة(٨٦٥).وقد تداعت فأخذت أنقاضها منذ نحو سبعين سنة لتبليط الطريق،وهي أمام جامع الحاجب بالجركسية،أصبحت الآن عرصة محاطة بجدار وحوض مائها لا يزال موجوداً ومأذنتها كانت جميلة .

(١٠٣) « الخاتونية البرانية » مسجد خاتون على الشرف القبلي في مكان كان يسمى صنعاء دمشق مطل على وادي الشقراء، وقفتها زمرد خاتون أخت الملك دقاق صاحب دمشق،وهي أم شمس الملوك إسماعيل ومحمود زوجة تاج الملوك بوري توفيت سنة(٥٥٧)،وكانت حافظة للقرآن سمعت الحديث من أبي الحسن بن قيس واستنسخت الكتب وقد خربت هذه المدرسة في أواخر حكم المماليك فنقلت أنقاضها لتعمر بها مدرسة غيرها في باب الجابية،وكان من مدرسيها علي البلخي وشرف الدين عبد الوهاب الحوراني وصدر الدين البصروي وصدر الدين الأدمي .

(١٠٤) « الخاتونية الجوانية » كانت بمحلة حجر الذهب محلة البيمارستان النوري،إنشاء خاتون ابنة سعيد الدين إتسز وزوجة نور الدين الشهيد، وقفها أخوه سعد الدين عليها ، وممن درس بها ابن شداد وابن أبي جرادة .

(١٠٥) « الدماغية » تقدم محلها عند جسر ثورة قرب معمل الغزل القديم وأنها على الفريقين الحنفية والشافعية،درس بها الافتخار الكاشغري والسنجاري وابن سحنون خطيب النيرب وغيرهم،أصبحت اليوم حدائق .

(١٠٦) « الركنية » ويقال لها الركنية البرانية تمييزاً لها عن الركنية الجوانية المار ذكرها،وهي من إنشاء الأمير ركن الدين منكورش عتيق فلك الدين سنة خمس وعشرين وستمائة،درس بها جلة من الفقهاء وهي في حي الأكراد بالسفح،اختلست منها قطعة وجعلت دوراً،ولا تزال تقرأ في حائطها كتابات كوفية .

(١٠٧) «الريحانية » جوار النورية،إنشاء ريحان الطواشي من أكبر خدام نور الدين سنة(٥٦٥) وهي كتاب للذكور. ولا يزال على بابها حجر زبر عليه بخط جميل الأوقاف المرصدة لها .

(١٠٨) « الزنجارية » خارج باب توماء وباب السلامة ويقال لها الزنجيلية

كانت تجاه دار الأطعمة من أحسن المدارس. وفي مختصر الدارس أنها هي التي على بابها هذا الرخام من عجائب الدنيا وهذه الصناعة التي كانت كأنها بين أيديهم كالعجين. أنشأها نائب عدن فخر الدين الزنجيلي صاحب اليمن أيام الملك العادل أنشئت سنة(٦٢٦) وفي رواية أنه الأمير عز الدين عثمان ابن الزنجيلي صاحب عدن، درس بها أجلة الفقهاء ولا يعرف محل هذه المدرسة ولعلها كانت شرقي السقيفة وهي اليوم حدائق .

(١٠٩) « السيفية » بجوار الجامع الأموي ومن القديم لا يعرف عنها غير هذا .

(١١٠) « السبائية » خارج باب الجابية وشمالي بئر الصارم والتربة والزاوية بها وهي في آخر شارع الدرويشة، إنشاء نائب الشام سيباي أمير السلاح بمصر سنة(٩٢١) جعلها جامعاً ومدرسة وزاوية وتربة. قال في المختصر عمرها بالحجر الأبلق ولم يدع بدمشق مسجداً مهجوراً ولا مدفناً معموراً إلا وأخذ منه من الأحجار والآلات والرخام والأعمدة ما أحب حتى سماها علماء دمشق « جمع الجوامع » وهي منذ سبعين سنة مكتب ابتدائي للذكور، وتقام فيها الصلوات والأذكار .

(١١١) « الشبلية البرانية الحسامية » بسفح قاسيون بالقرب من جسر ثورة، إنشاء شبل الدولة كافور الحسامي الرومي طواشي حسام الدين بن لاجين والد ست الشام سنة(٦٢٦) وقد دفن بها، وهي فوق جسر ثورة من طريق عين الكرش، لم يبق منها إلا قطعة يسيرة، درس بها وأعاد بها عظماء من الفقهاء منهم الصفي السنجاري والشمس ابن الجوزي وابن قاضي آمد وابن الغويرة والبصروي والأذرعي والكاشغري والطوسي والكفيري والتركماني والعماد الجيلي وابن بشارة. قال ابن خلكان: إن ست الشام بنت أيوب أنشأت مدرسة بظاهر دمشق وقد دفن فيها الملك المعظم وهي أيضاً وولده حسام الدين عمر بن لاجين وزوجها ناصر الدين أبي عبد الله محمد بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص، وحسام الدين هو سيد شبل الدولة كافور بن عبد الله الحسامي الخادم صاحب المدرسة والخانقاه الشبلية اللتين في ظاهر دمشق على طريق قاسيون ، ولهما شهرة في مكانهما وأوقاف كثيرة اهـ . وإلى اليوم لا تزال

القبور ظاهرة للعيان ، وهناك حوض ماء وإيوان .

(١١٢) الشبلية الجوانية » قبالة الأكزية داخل باب الجابية،إنشاء شبل الدولة كافور المعظمي صاحب المدرسة قبلها،وهي أمام محكمة الباب الشرعية القديمة وقد أصبحت دوراً .

(١١٣) « الصادرية » داخل باب البريد على باب الجامع الأموي الغربي، إنشاء شجاع الدين والدولة صادر بن عبد الله قال صاحب الدارس : وهي أول مدرسة أنشئت في دمشق (٤٩١) درس بها ابن زنكي الكاشاني والبلخي وأبو العيش وأوحد الدين الدمشقي والغزنوي رشيد الدين وابن مسعود والكعكي والرضي الملتاني الهندي والبرهان الغزنوي المعروف بأبي الهول وابن الشجاع وابن أسد الدين الدمشقي. وهي دور مساكن منذ استصفاها المستصفون من عهد قريب .

(١١٤) « الطرخانية » قبلي الباذرائية إنشاء ناصر الدولة طرخان أحد كبار أمراء دمشق وهي منازل ومساكن .

(١١٥) « الطومانية » تجاه دار الحديث الأشرفية غربي الشريفية والفقاعية بسوق العصرونية ولعل واقفها طومان النوري. وقد جعلت في أواخر القرن الماضي حانة تباع فيها الخمور ثم صارت حوانيت وداراً .

(١١٦) « العذراوية » مر محلها وأنها على الحنفية والشافعية. درس بها العز السنجاري والسمرقندي والرازي .

(١١٧) « العزيزية » أنشئت (٦٣٥) جوار المدرسة المعظمية إنشاء الملك العزيز عثمان بن العادل شقيق الملك المعظم،وفي العزيزية دفن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ولا يزال قبره معروفاً يزار ويقصده العالم من الأقطار .

(١١٨) « العزيزية البرانية » بالشرف الأعلى شمالي ميدان القصر خارج دمشق وهي البستان الذي أصبح معملاً للكهرباء وقد زال أثرها. أنشأها الأمير عز الدين استاد دار[1] المعظمي المعروف بصاحب صرخد (٦٢٦)

(١) هو من يتكلم في إقطاع الأمير مع الدواوين والفلاحين وغيرهم . وبعضهم يرسمها استاد الدار .

درس بها جماعة منهم محمد الكريمي المتوفى سنة(١٠٦٨)أي إنها كانت عامرة إلى القرن الحادي عشر .

(١١٩) « العزية الجوانية » المعروفة بالكوشك أي القصر إنشاء المقدم ذكره وهي غير معروفة .

(١٢٠) « العزية » بجامع دمشق منسوبة له أيضاً، قال في الدارس: وشرط واقفها أنه بنى مدرسة بالقدس الشريف على أنه متى كان القدس بيد المسلمين يكون الوقف على المكان المذكور ، وإن تعطل أي تعطيل القدس كان مدرسة بالجامع الأموي المعمور جوار مشهد علي. درس بها حين تعطل القدس القاضي مجد الدين قاضي الطور وهي غير موجودة .

(١٢١) « العَلَمية » شرقي جبل الصالحية وغربي الميطورية إنشاء الأمير علم الدين سنجر المعظمي سنة(٦٢٨)لم يبق لها أثر .

(١٢٢) « الفتحية » نسي مكانها منذ قرون قال ابن شداد: وهي برحيبة خالد وهي مجهولة أيضاً، ومنشئها الملك فتح الدين صاحب بارين .

(١٢٣) « الفرُّخشاهية » تعرف بمعز الدين فرخشاه وواقفتها حظ الخير خاتون ابنة إبراهيم بن عبد الله والدة عز الدين فرخشاه وهي زوجة شاهنشاه ابن أخي صلاح الدين سنة(٥٧٨)وهي مقابلة التكية السليمانية بالشرف الأعلى شمالي حديقة الأمة، دثرت .

(١٢٤) « القجماسية » داخل باب النصر ودار السعادة إنشاءُ نائب الشام قجماس الإسحاقي الجركسي المتوفى سنة(٨٩٢). وأول من درس بها شمس الدين أبو تراب محمد الأمامي وهي عامرة في الجملة .

(١٢٥) « القصاعية » بحارة القصاعين إنشاء خطلشاه خاتون بن ككجا سنة(٥٩٣) كانت عامرة في القرن العاشر، ودرس بها محب الدين العلواني وهو آخر من درس بها من الفقهاء وهي في جهة الخيضيرية جعلت دوراً .

(١٢٦) « القاهرية » بالصالحية على طريق الترام في الزقاق الذي وراء سوق الجمعة على ضفة نهر يزيد لصيق دار الحديث القلانسية المشهورة بالخانقاه وغربي العمرية يفصل بينهما الطريق، وهي مساكن ولم يبرح اسمها معروفاً بالقاهرية وهي أسرة اسمها بنو القاهرية وهي الآن دار بني الحشاش .

(١٢٧) « الظاهرية الجوانية » تقدم محلها في مدارس الشافعية وأنها للحنفية أيضاً ، أول من درس بها الصدر سليمان وابن النحاس وابنه شهاب الدين والسمرقندي والجوبري وابن العز وعفيف الدين الآمدي وقوام لطف الله الحنفي.

(١٢٨) « القليجية » واقفها سيف الدين بن قليج النوري بين الخضراء والصدرية السالفتين بالبزورية سنة (٦٢٠) ، وجدد بناءها قاضي الشام محمد جلبي سنة (٩٢٣). درس بها الشمس علي بن قاضي العسكر وفخر الدين بن خليفة البصروي وتقي الدين أحمد وعلاء الدين علي القونوي وغيرهم، وهي في سوق التبن اتخذت بيتاً ملاصقاً لدار بني العظم، ولعلها هي التي كانت مجمع الفضلاء والعقلاء للاستشارة إذا دهم أهل دمشق أمر مهم لا القليجية التي كانت داخل باب توماء كما روى بعض المؤرخين .

(١٢٩) « القايمازية » داخل بابي الفرج والنصر، إنشاء صارم الدين قايماز النجمي المتوفى سنة (٥٩٦) ، كان من عمال السلطان صلاح الدين يتولى أسبابه في مخيمه وبيتوتته ويعمل عمل أستاذ الدار، وكلما فتح السلطان بلدة سلمها إليه ليروضها. وهي بالمناخلية درست عندما جرى توسيع الطريق .

(١٣٠) « المرشدية » على نهر يزيد بالصالحية جوار دار الحديث الأشرفية إنشاء خديجة خاتون بنت الملك المعظم بن العادل أخت الناصر داوود سنة (٦٥٦) ، وهي من المدارس التي بقيت إلا أن داخلها متهدم ومجموعها مختلس .

(١٣١) « المعظمية » بالصالحية بسفح قاسيون الغربي جوار المدرسة العزيزية، أنشئت (٦٢١) نسبة إلى الملك المعظم شرف الدين عيسى بن العادل صاحب دمشق وهي مدفن .

(١٣٢) « المعينية » بالطريق الآخذ إلى باب المدرسة العصرونية، إنشاء معين الدين أتسز ، وهي دراسة .

(١٣٣) « الماردانية » على ضفة نهر ثورة لصيق الجسر الأبيض معروفة، أنشأتها عزيزة الدين أخشا خاتون بنت الملك قطب الدين صاحب ماردين زوجة الملك المعظم (٦١٠) درس بها جلة من الفقهاء ، وهي جامع عامر بالصلوات وفيه مدفن بني المؤيد .

(١٣٤) « المقدمية الجوانية » داخل باب العمارة إنشاء الأمير شمس الدين

محمد بن المقدم في الأيام الصلاحية أنشئت سنة(٥٧٥)،وهي في حكم المفقود استصفي قسم منها وجعل دوراً وداخلها غرف تؤجر وحرمها مخزن .

(١٣٥) «المقدمية البرانية» تجاه الركنية بسفح قاسيون شرقي الصالحية إنشاء فخر الدين إبراهيم بن المقدم،غير موجودة ولعلها دار الشريباتي وحوض مائها لم يزل كما كان أمام حمام المقدم .

(١٣٦) «المنجكية» بجوار خانقاه الصوفية بالجاقماقية ، وفي الدارس أنها بالخلخال. وكان الخلخال حديقة أخذت للثكنة الحميدية غربي المدينة . وهي قبلي الصوفية وغربيها،إنشاء الأمير سيف الدين منجك من مماليك الناصر محمد بن قلاوون أسست سنة(٧٧٦)وهي اليوم حدائق ولا أثر لها .

(١٣٧) «الميطورية» شرقي جبل الصالحية في حي الأكراد، وقفتها فاطمة خاتون بنت السلار سنة (٦٢٩) خربت .

(١٣٨) «المقصورة الحنفية» وهي محل التدريس في حرم الجامع الأموي وقف عليها كاتب الممالك القاضي فخر الدين أوقافاً .

(١٣٩) «النورية الكبرى» إنشاء نور الدين سنة(٥٦٣)، والصحيح أنها إنشاء ولده الصالح إسماعيل وهي بعض دار هشام بن عبد الملك الأموي،وفي الدارس أنها كانت قديماً دار معاوية بن أبي سفيان وكانت لمعاوية دار أخرى بباب الفراديس تحت السقيفة يقال:إنها الدار التي كانت معروفة بدار ابن المقدم. ولا تزال المدرسة عامرة إلى يومنا إلا أن بعض جيرانها اختلسوا بعضها من الشمال .

(١٤٠) (النورية الصغرى) كان في القلعة جامع تقام فيه الجمعة إلى القرن العاشر وبه مدرسة حنفية تسمى النورية الصغرى،قال:ابن شداد هي مدرسة بجامع القلعة،وكان مدرس القلعة أوائل القرن التاسع القاضي شمس الدين الزرعي وهو الذي ألزم ببناء مأذنة الجامع بالقلعة سنة(٨٢٤)التي كانت أحدثت سنة(٧٦٢).

(١٤١) «اليغمورية» بالصالحية.إنشاء الأمير جمال الدين بن يغمور الباروقي اختلست .

مدارس المالكية بدمشق :

كان بدمشق أربع مدارس للمالكية وهي :

(١٤٢) « الزاوية المالكية » وقف السلطان صلاح الدين ملاصقة المقصورة الحنفية من غربي الجامع الأموي درس بها بعض فقهاء المالكية .

(١٤٣) « الشرابيشية » في القنوات وفي الدارس أنها بدرب الشعارين لصيقة حمام صالح شمالي الميطوريين داخل باب الجابية، وكانت قبل أن تصبح مدرسة للأيتام محكمة شرعية واختلس الجيران بعضها. وهي إنشاء شهاب الدين بن نور الدولة بن محاسن الشرابيشي التاجر السفّار ولا يعلم عنها غير هذا .

(١٤٤) « الصمصامية » شرقي دار القرآن الوجيهية وقرب المسرورية، وقف عليها الصاحب شمس الدين غبريال الأسلمي، وذكر المؤرخون أن سنان القرماني والد القرماني صاحب التاريخ خرب مدرسة المالكية بالقرب من البيمارستان النوري وتعرف بالصمصامية وحصل به الضرر بمدرسة النورية ببعلبك، وولي نظارة البيمارستان ونظارة الجامع الأموي وانتقد عليه أنه باع بسط الجامع وحصره فقتل بسبب ذلك هو وناظر السليمية حسين سنة (٩٦٦) خنقا معاً بدار السعادة بشاشيهما وعمامتاهما على رأسيهما. ولو نفذ حكم الشرع هكذا في المختلسين والغاصبين لما ذهبت كل هذه المدارس مع أمس الدابر.

(١٤٥) « الصلاحية » إنشاء السلطان صلاح الدين بالقرب من البيمارستان النوري غير معروفة أيضاً .

وكان في زقاق حمام القاضي مدرسة للمالكية على ما في مفكرات طارق .

مدارس الحنابلة بدمشق :

كان بدمشق عشر مدارس للحنابلة وهي :

(١٤٦) « الجوزية » في البزورية كانت في عهدنا محكمة شرعية ثم جعلتها جمعية الإسعاف الخيري مدرسة للأيتام ثم حرقت في الثورة السورية، إنشاء محيي الدين بن جمال الدين بن الجوزي .

(١٤٧) (الجاموسية) غربي العقيبة خارج دمشق ابتلعها وأوقافها كما ابتلع غيرها المتولون عليها .

(١٤٨) (الشريفية) عند القباقبية العتيقة قديماً ودار بني الغزي في العمارة أمام الفرن بالجانب الشرقي وهي الآن دار. من إنشاء شرف الإسلام عبد الوهاب أبي الفرج الحنبلي شيخ الحنابلة بدمشق المتوفى سنة(٥٣٦)وظلت يتعاقب عليها أولاده وأحفاده حيناً من الدهر .

(١٤٩) (الصاحبة) بسفح قاسيون من شرق الصالحية. إنشاء ربيعة خاتون بنت نجم الدين أيوب أخت صلاح الدين وست الشام، دفنت في فنائها سنة(٦٥٣) وجعلت اليوم مكتباً ابتدائياً للذكور .

(١٥٠) (الصدرية) إنشاء صدر الدين أبي الفتح أسعد المنجا التنوخي العدل سنة(٦٣٠)وكانت بجوار الجامع في زقاق الريحان والعامة تزعم أن قبر معاوية بن أبي سفيان بها وليس بصحيح .

(١٥١) (الضيائية المحمدية) شرقي جامع المظفرية بجبل قاسيون. إنشاء ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي سنة(٦٢٠) كان علامة عصره درس بها بانيها أولاً ولا يعرف عنها شيء .

(١٥٢) (الضيائية المحاسنية) بسفح قاسيون شرقي جامع المظفرية وأمام جامع الحنابلة، بقي منها أربع نوافذ وجدار، أنشأها ضياء الدين محاسن ووقفها على من يكون أمير الحنابلة .

(١٥٣) «العمرية الشيخية» وسط دير الحنابلة بسفح الجبل، إنشاء أبي عمر الكبير الحنبلي الزاهد المعروف بابن قدامة سنة(٥٥٠)وهو الذي نسبت الصالحية إليه لنزوله بمسجد أبي صالح بظاهر باب شرقي، وهي الآن خراب أكل النظار عليها أوقافها واستباحوا أخذ خزانة كتبها المهمة. وفي تاريخ الصالحية أنها أكبر المدارس بدمشق والصالحية لأنها مشتملة على ثلاثمائة وستين خلوة على ما قيل، والعامر منها الآن (عصر مؤلف تاريخ الصالحية) أقل من ذلك اهـ. وقال في تاريخ الصالحية أيضاً: إن أبا عمر بنى المدرسة ووالده الشيخ

أحمد بنى المصنع ثم كثر البناء المتسع بالصالحية حول المدرسة حتى بلغ من القبلة حد المدينة ومن الشرق برزة إلى الميطور – وبستان الميطور الآن معروف بالقرب من جسر النحاس قرب حي الأكراد. أما الآن فهي خراب يباب، وقد درس بها أئمة أعلام فيما سلف .

(١٥٤) (العالمة) مدرسة للحنابلة ودار للحديث شرقي الرباط الناصري تحت جامع الأفرم غربي سفح قاسيون، وقفتها الشيخة الصالحة العالمة أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلي سنة (٦٣٠) وهي خراب بلقع .

(١٥٥) (المسمارية) قبلي القيمرية الكبرى داخل دمشق قبلي الفتحية قرب مأذنة فيروز. واقفها التاجر الحسن بن مسمار الهلالي الحوراني المغربي من أهل القرن السادس جعلت الآن مخفراً للشرطة .

(١٥٦) (المنجائية) زاوية بالجامع الأموي تعرف بابن منجا .

وكان في سوق القمح بدمشق :

(١٥٧) (المدرسة الحنبلية) تولى عمارتها سعد الدين بن عبد العزيز إمام الملك الأشرف موسى بن الملك العادل .

المدارس الحديثة :

هذا ما ذكره صاحب الدارس من دور القرآن ودور الحديث ومدارس الشافعية والحنفية والمالكية والحنابلة، وقد أنشئت بعد عهده في دمشق عدة مدارس في القرن الثاني عشر وهي :

(١٥٨) « المرادية » جنوب الظاهرية الجوانية وتفصل بينهما الآن سكة ضيقة لصاحبها الشيخ مراد المرادي (مراد بن علي بن داود بن كمال الدين بن صالح البخاري النقشبندي سنة (١١٣٢) وكانت قبل ذلك خاناً يسكنه أهل الفسق والفجور وقد خربت زمن الحرب العامة وهي الآن خراب .

(١٥٩) « النقشبندية البرانية » هي في سوق ساروجا بناها الشيخ مراد المرادي وكانت داره، وبنى إلى جنبها مسجداً وهي الآن تكية ومنزل لأحفاده .

(١٦٠) « السليمانية » مدرسة سليمان باشا العظم، أسست في باب البريد (١١٥٠) جعلت زمناً مكتباً للإناث وقد رمت بعد خرابها وسكنها دراويش .

(١٦١) «العبدلية» مدرسة عبد الله باشا العظم، أسست في سوق السلاح سنة (١١٩٣) ولا تزال موجودة.

(١٦٢) «الإسماعيلية» مدرسة إسماعيل باشا العظم في سوق الخياطين، أسست سنة (١١٤١) والطابق السفلي منها من بناء إسماعيل باشا العظم والعلوي من بناء أسعد باشا العظم، ولكل منهما وقف خاص به، وكانت المدرستان الأخيرتان من المدارس العامرة إلى عهد قريب فأصبحتا مأوى الفقراء وذهبت أوقافهما أو كادت.

وهناك مدارس حدثت بعد عهد صاحب الدارس يعثر على أسمائها مبعثرة في كتب التاريخ والمدونات الحديثة ولا أثر لها لعدم مكانتها أو لطارئ طرأ عليها. والطوارئ على مثل هذه المدارس قد تحدث في كل عقد أو عقدين من السنين مثل:

(١٦٣) «المدرسة الحجازية» التي نزل بها أحمد بن شمس الدين الصفوري ولا نعرفها الآن.

(١٦٤) «المدرسة الجوزية» انقطع إليها إبراهيم السقا سنة (١٠٥٨) ودرس بها إبراهيم بن حمزة سنة (١١١٩).

(١٦٥) «المدرسة الحافظية» بصالحية دمشق درس بها حمزة بن محمد نقيب الشام المتوفى سنة (١٠٦٧).

(١٦٦) «مدرسة أحمد شمسي باشا» في سوق الأروام.

(١٦٧) ومن المدارس التي لم يذكرها صاحب الدارس مدرسة السلطان المؤيد التي بناها سنة (٨١٧) الملك المؤيد في دمشق وسماها «المؤيدية» وأنشأ سوقاً نسب إليه ولا نعلم عنها غير هذا.

ومنها (١٦٨) «القارية» مدرسة ابن القاري قال ابن طولون: لم يكن في الصف الشمالي مسجد غير مسجد البيع من باب الجابية إلى باب شرقي يوجه إلى القبلة، قيل: إن الصحابة بايعوا فيه، وهو الآن مدرسة بناها الخواجا محمد بن يوسف القاري سنة (٨٨٧) وبنى إلى جانبها داراً عظيمة بالغ في إتقانها وقد أصبحت هذه الدار والمدرسة دوراً صغيرة وحواصل للخشب.

ومنها (١٦٩) «المدرسة المزلقية» بطريق مقابر باب الصغير الآخذ إلى

الصابونية، أنشأها تاجر الخاص الشريف شمس الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن أبي بكر المعروف بابن المزلق ميلاده سنة(٧٥٤) كان أبوه لباناً حكى عن نفسه أن أول سفرة سافرها في البحر كسب فيها مائة ألف دينار وثمانمائة ألف درهم وانفتحت عليه الدنيا وعمر أملاكاً كثيرة وأنشأ على درب الشام إلى مصر خانات عظيمة بالقنيطرة وجسر بنات يعقوب وعيون التجار، أنفق على عمارها ما يزيد على مائة ألف دينار، وكل هذه الخانات فيها الماء وجاءت في غاية الحسن ولم يسبقه أحد من الملوك والخلفاء إلى مثل ذلك، وهو صاحب المآثر الحسنة بدرب الحجاز ووقف على سكان الحرمين الشريفين الأوقاف الكثيرة .

ومن المدارس الحديثة بناء مدرسة الحقوق على شاطئ بردى في المرجة، وهي من بناء الترك في آخر أيامهم وهي من أجزاء الجامعة السورية. ومدارس الدولة إلى اليوم تقوم على أنقاض البيوت القديمة أو الحديثة أو بقايا الجوامع والمدارس. وهمم الأفراد فاترة لسد هذه الثلمة. ومدارس الطوائف والتبشير تجعل في الكنائس والبيع على الأغلب. ومن أهم مدارس الحكومة مدرسة التجهيز والمعلمين وهي دار خاصة في شرقي المدينة كانت لغني إسرائيلي اسمه عنبر، فوقعت في ملك الحكومة العثمانية لدين كان لها على صاحبها وجعلت مدرسة إعدادية في سنة(١٣٠٤) شرقية، وفيها من ضروب الصناعات في البناء شيء كثير وقد خلفتها المدرسة التجهيزية غربي البلد على الشرف الأعلى وهي من أجمل أبنية دمشق على عهدها الحديث، أما سائر المدارس الحديثة فيستحي المرء من ذكرها إذ لا شأن لها وليس للأمة ولا للحكومة يد في إنشائها .

مدارس الطب بدمشق :

كان بدمشق أربع مدارس للطب وهي :

(١٧٠) « الدخوارية » بالصاغة العتيقة قرب الخضراء قبلي الجامع وفي رواية شرقي سوق المناخليين: إنشاء مهذب الدين عبد الرحيم بن علي المعروف بالدخوار، وفي رواية: عبد المنعم بن علي المعروف بالدخوار سنة(٦٢١) جعلها مدرسة يدرس فيها من بعده صناعة الطب، ووقف لها ضياعاً وعدة أماكن

يستغل منها ما ينصرف في مصالحها وفي راتب المدرس والمشتغلين بها . ووصى أن يكون المدرس بها شرف الدين علي بن الرحبي. قال ابن أبي أصيبعة في ترجمة شرف الدين بن الرحبي من كبار أطباء دمشق المتوفى سنة (٦٦٧) إن مهذب الدين عبد الرحيم بن علي وقف على الدار الشمالية وجعلها مدرسة للطب وربما هي الدخوارية بعينها. وفي رواية أنها وبستان الدخوار عند أراضي الجامع الأموي من قصر اللباد شماليها نهر ثورة، درس بها واقفها وبدر الدين محمد بن قاضي بعلبك والدنيسري وابن حيدرة الرجيحي وكمال الدين الطبيب والجمال أحمد بن عبد الله بن الحسين الدمشقي وسليمان بن داود ومحمد ابن شهاب الدين أحمد الكحال وعز الدين السويدي . وهي اليوم دور ولا يعلم زمن دمارها .

(١٧١) « الدنيسرية » غربي باب البيمارستان النوري والصالحية وبآخر الطريق من قبلة لصاحبها عماد الدين محمد الدنيسري من مدرسي المدرسة السابقة ولم يعرف عنها غير هذا .

(١٧٢) « الربيعية » لم يذكرها في الدارس وقال في مختصره: إنها غربي البيمارستان النوري والمدرسة الصلاحية بآخر الطريق قبلة يقال: إنها هي المسجد الذي أنشأه قاضي القضاة محمد بك وكان بها أيضاً صيدلية منظمة إنشاء عماد الدين محمد بن عباس الربعي المتوفى سنة (٦٨٦). وجاء في الدارس: وفي سنة (٧٤٩) أقامها جديدة عبد الله بعد أن صارت تل تراب وجعلها برسم تأديب الأطفال قاضي القضاة محمد بك الرومي الحنفي من مماليك السلطان بايزيد بن عثمان ثم جعلت دار بني البكري ونسفت في الثورة الأخيرة بالديناميت .

(١٧٣) « اللبودية » خارج البلد ملاصقة بستان الفلك وحمام الفلك، إنشاء نجم الدين يحيى بن اللبودي (٦٦٤) درس بها جمال الدين الزواوي . قال في الوافي: هو يحيى بن محمد الوزير الصدر نجم الدين بن اللبودي الدمشقي الطبيب ترقى بالطب عند صاحب حمص إبراهيم ووزر له ثم اتصل بالناصر صاحب الشام فجعله ناظر الدواوين توفي سنة سبعين وستمائة ودفن في تربته التي بالقرب من بركة الحميريين وجعل تربته دار طب وهندسة وقرر لها شيخاً وقراء. وقال فيه: إنه ألف في الرد على الموفق عبد اللطيف البغدادي

كتاباً وهو في الثالثة عشرة وهو صاحب دار الطب والهندسة. ومدرسته اليوم،متهدمة واسم البستان بستان اللبودي شرقي بستان الشموليات من أراضي باب السريجة. هذه هي المدارس الطبية بدمشق وقد دثرت ودثرت أسماؤها .

ومن عرف أن القدماء كانوا يعنون بالطب أكثر مما نتصور لا يستكثر على دمشق أربع مدارس في الطب في الدهر الغابر. فقد ذكر المؤرخون أنه كان لكل من أبي المجد بن الحكم ومهذب الدين النقاش ورفيع الدين الجيلي مجالس عامة للمشتغلين عليهم بالطب في دمشق. قال السبكي في معيد النعم : ومن حقهم – أي السلاطين – إقامة فقيه في كل قرية لا فقيه فيها يعلم أهلها أمر دينهم، ومن العجب أن أولياء الأمور يستخدمون في كل حصن طبيباً ويستصحبون أطباء في أسفارهم بمعلوم من بيت المال ولا يتخذون فقيهاً يعلمهم الدين،وما ذاك إلا أن أمر أبدانهم أهم عليهم من أمر أديانهم نعوذ بالله من الخذلان اه .

وفي المحرم من عام(١٣٢١) صدرت إرادة السلطان عبد الحميد الثاني بإنشاء مدرسة طبية ملكية بدمشق وأن يخصص لبنائها عشرة آلاف ليرة ومثلها لنفقتها السنوية ولوازمها لمنافسة مدرستي الطب في بيروت الأميركية واليسوعية. فشرع في خريف تلك السنة بالتدريس في دار استؤجرت موقتاً في طريق الصالحية ريثما تبنى المدرسة الجديدة.

وفي أوائل دخول الجيش العربي والإنكليزي آخر أيام الحرب العامة أنشئت .

(١٧٤) « مدرسة طبية » على أنقاض مدرسة الأتراك جعلت في مستشفى الغرباء التي كانت في مقابر الصوفية أو مقبرة البرامكة ثم أنشئ لها مدرج باسم مدرج الجامعة السورية .

مدارس حلب(*) :

نشأت المدارس في حلب في العهد الذي أنشئت فيه بدمشق ولكن على

(*) تفضل الشيخ مسعود الكواكبي فألقى نظره على هذا الفصل في المدارس وعلى الفصل الآتي في الزوايا والربط .

صورة مصغرة، وقد بنيت أول مدرسة فيها سنة(٥١٧)وهي :

(١٧٥) «المدرسة الزجاجية» بناها بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار صاحب حلب، ولما أراد بناءها لم يمكنه الحلبيون من ذلك إذ كان الغالب عليهم التشيع ، فكان جماعته يبنون في النهار والشيعة تنقض ما بنوه في الليل . وقال بعض المؤرخين : إنها من بناء عبد الرحمن بن العجمي لأصحاب الشافعي ، وقد خربت وأصبحت دوراً للسكنى ، ويغلب أن يكون مكانها في محل خان الطاف من محلة الجلوم (إعلام النبلاء) .

(١٧٦) «النورية» أنشأها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي سنة(٥٤٤)وتعرف بالنفرية أيضاً وهي تجاه المدرسة الصاحبية .

(١٧٧) «العصرونية» كانت داراً لأبي الحسن علي بن أبي الثريا وزير بني مرداس فصيرها الملك العادل نور الدين سنة(٥٥٠)مدرسة وجعل فيها مساكن للمرتبين بها من الفقهاء، وقد كانوا سنة(٨٧٤) فوق المئة، واستدعى لها من سنجار شرف الدين بن أبي عصرون فولاه تدريسها والنظر فيها، وهو أول من درس بها فعرفت به، وبنى له نور الدين مدارس بمنبج وحماة وحمص وبعلبك ودمشق، وقد كان لها بقية إلى سنة(١٣٤٣) إذ شرعت إدارة الأوقاف بخرابها وإقامة دور للسكنى مكانها يضاف ريعها للأوقاف .

(١٧٨) «الصاحبية» أنشأها القاضي بهاء الدين يوسف المعروف بابن شداد، قال ابن خلكان: إن حلب كانت قبل أن يتصل ابن شداد بخدمة الملك الظاهر قليلة المدارس وليس بها من العلماء إلا نفر يسير ، فاعتنى بترتيب أمورها ، وجمع الفقهاء بها، وعمرت في أيامه المدارس الكثيرة، وكان الملك الظاهر قد قرر له إقطاعاً جيداً يحصل منه جملة مستكثرة، فعمر مدرسة بالقرب من باب العراق قبالة مدرسة نور الدين محمود بن زنكي للشافعية، وذلك في سنة إحدى وستمائة، ثم عمر في جوارها داراً للحديث وجعل بين المكانين تربة يدفن فيها، ولما صارت حلب على هذه الصورة قصدها الفقهاء وحصلت بها الاستفادة والاشتغال وكثر الجمع بها. وتقع هذه المدرسة في الزاوية الغربية من الجنينة المعروفة الآن بجنينة الفريق شرقي محلة السفاحية،ولم يبق منها ولا من دار الحديث سوى حجر مكتوب وقد

كانتا عامرتين في القرن العاشر كما في إعلام النبلاء .

(١٧٩) « الظاهرية » وتعرف أيضاً بالسلطانية،وهي للشافعية والحنفية أسسها الملك الظاهر (٦١٣) وتوفي ولم تتم وأكملها شهاب الدين طغرل أتابك وعلى بابها أنها أنشئت سنة(٦٢٠)وهي اليوم خراب إلا بضع حُجَر جددت يسكنها بعض الفقراء ومحرابها من بدائع الصنعة .

(١٨٠) « الأسدية » أنشأها الأمير أسد الدين شيركوه المتوفى سنة (٥٦٤)وهو عم صلاح الدين. وهي في محلة باب قنسرين باقٍ منها قبلية وقبة وقد جدد فيها سنة(١٣١٦) ثماني حجرات .

(١٨١) « الشعيبية » كانت فيما قالوا مسجداً أول ما اختطه المسلمون عند فتح حلب يعرف بالغضايري نسبة لعلي بن عبد الحميد الغضايري. فلما ملك نور الدين حلب وصل الشيخ شعيب بن أبي الحسن الفقيه الأندلسي فصيرت له مدرسة فعرفت به، وعلى جدارها تاريخ بناء نور الدين سنة (٥٤٥)وهي في القرب من باب أنطاكية مسجد تقام فيه الصلوات وهي في إدارة الأوقاف (إعلام النبلاء) .

(١٨٢) « الشرفية » أنشأها شرف الدين عبد الرحمن بن العجمي، وأنفق عليها ما يربو على أربعمائة ألف درهم، ووقف عليها أوقافاً جليلة، وكان فيها غرف وإيوان وقاعة للدرس، وفي بنائها وأبوابها من بدائع الصنعة ما يفتخر به الصناع، وعلى بئرها قنطرة من الحديد مكتوب عليها بالقلم المجوز أنها صنعت سنة أربعين وستمائة وهي من بدائع الرسم. وفي سنة(١٣٤٣) شرع في تعميرها واتخذ من الجهة الشرقية منها بهو كبير بأربعة أعمدة يصلح للمحاضرات وأماكن أخرى .

(١٨٣) « الرواحية » أنشأها ركن الدين هبة الله محمد بن عبد الواحد الحموي وقال في الوافي: زكي الدين بن رواحة الحموي الشاعر المعدل كان كثير الأموال محتشماً،أنشأ مدرسة بدمشق وأخرى بحلب وشرط على الفقهاء والمدرسين شروطاً صعبة، وأن لا يدخل مدرسته يهودي ولا نصراني ولا حنبلي حشوي توفي سنة اثنتين وعشرين وستمائة، وقد اندثرت في وقعة تيمور ثم أصلحت في زمن قصروه كافل حلب. أما الآن فقد صارت دوراً ولم

يبق منها سوى باب ذي أحجار ثلاثة سود، وباب مسدود يعلوه حجرة عظيمة، وهي واقعة في أول الزقاق المعروف بزقاق الزهراوي شمالي المدرسة الشرفية الآنفة الذكر .

(١٨٤) « البدرية » أنشأها بدر الدين عتيق عماد الدين شادي في صدر درب البازيار ويعرف الآن بزقاق الزهراوي وهي داثرة .

(١٨٥) « السيفية » أنشأها الأمير سيف الدين علي بن علم الدين سليمان ابن جندر (٦١٧) مشتركة بين الشافعية والحنفية،وقد دثرت هي وسميتها التي جعلت لتدريس مذهبي مالك وأحمد بن حنبل كما يأتي، لكن يتعين موقع إحداهما في قبلي تربة الكليباتي بجانب محلة الكلاسة، بما هو موجود من تربة الباني التي لم يذكر التاريخ أنها في جوار مدرسته،وهي اليوم قبة قديمة سقفها خرب فيها قبره .

(١٨٦) « الزيدية » وتعرف بالألواحية لنزول الألواحي فيها، هي داخل باب أنطاكية بالقرب من المدرسة الشعيبية، أنشأها إبراهيم بن إبراهيم المعروف بأخي زيد الكيال انتهت سنة(٦٥٥)درس فيها أحمد بن محيي الدين العجمي .

(١٨٧) « القوامية » داخل باب الأربعين بالقرب من حارة الفرافرة تجاه قسطل الملك العادل غياث الدين وداخلها ربط للقلندرية .

(١٨٨) « الشادبختية » أنشأها جمال الدين شادبخت نائب نور الدين محمود بحلب (٥٨٩)، وممن ولي تدريسها أحمد بن كمال الدين بن العديم المتوفى (٦٣٨) وكانت حلب يومئذ أعمر ما كانت بالعلماء والمشايخ والفضلاء الرواسخ. وقد تولى تدريسها بعده كثيرون من الفضلاء من بني الشحنة .

(١٨٩) « الظاهرية أيضاً » أنشأها الملك الظاهر غياث الدين صاحب حلب (٦١٦) للشافعية وأنشأ إلى جانبها تربة ليدفن فيها من يموت من الملوك والأمراء، وهي قبلي حلب مما يلي باب المقام لم يبق منها سوى المحراب وعمودين وحوض مثمن بديع .

(١٩٠) « الهروية » أنشأها الملك الظاهر غازي لأجل الشيخ الذي كانت له عنده منزلة رفيعة وهو علي الهروي السائح وهي قبلي حلب،خربت في فتنة

التتر ولم يبق منها سوى قبره في قبة داخل كرم فستق،وكانت وفاته سنة إحدى عشرة وستمائة .

(١٩١) « الفردوس » أنشأتها الملكة ضيفة خاتون بنت الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب وهي جليلة، وجعلتها تربة ومدرسة وربطاً ورتبت فيها خلقاً من القراء والفقهاء والصوفية، ولا تزال أسوارها باقية وجامعها عامراً، لكنها جعلت مدفناً للفلاحين النازلين في جوارها وتحتاج إلى ترميم، وهي مثال جميل من أمثلة الهندسة العربية، كتب على حائط فنائها بعد البسملة وآيات من سورة الزخرف: « هذا ما أمرت بإنشائه ذات الستر الرفيع ، والجناب المنيع ، الملكة الرحيمة ، عصمة الدنيا والدين ، ضيفة خاتون ابنة السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب تغمدهم الله برحمته ، وذلك في أيام مولانا السلطان الملك الناصر العالم العادل المجاهد المرابط المؤيد المظفر المنصور صلاح الدنيا والدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب ناصر أمير المؤمنين عز نصره ، بتولي العبد الفقير عبد المحسن العزيزي الناصري رحمه الله في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ». وقد كتب على محرابها البديع (عمل حسان بن عفان) .

(١٩٢) « البلدقية » أنشأها الأمير حسام الدين بلدق عتيق الملك الظاهر سنة (٦٣٥) خربت سنة (١٠٢٤) وهي ظاهر حلب ونقلت حجارتها لبناء دار السعادة المنشأة في تلك السنة .

(١٩٣) « القيمرية » أنشأها الأمير حسام الدين القيمري سنة (٦٤٦) وهي خراب منذ قرون .

وهناك أربع مدارس ذكرها ابن الشحنة :

(١٩٤) الأولى بالجبيل لشمس الدين أحمد بن العجمي وقد دفن بها أبو ذر المؤرخ سبط ابن العجمي وهي مشتركة بين الشافعية والمالكية أنشئت سنة(٥٩٥)وتسمى الآن جامع أبي ذر فيها قبلية ومنبر .

(١٩٥) الثانية أنشأها الأمير شمس الدين لولو .

(١٩٦) الثالثة بالمقام أنشأها بهاء الدين المعروف بابن أبي سبال .

(١٩٧) الرابعة أنشأها عز الدين مظفر الحموي (٦٣٢) .

هذه هي مدارس الشافعية في داخل المدينة وخارجها. أما مدارس الحنفية في المدينة فهي :

(١٩٨) «البلدقية أيضاً» وهي بجانب سميتها المتقدمة الذكر بنيت كذلك سنة (٦٣٥) .

(١٩٩) «الحلاوية» كانت كنيسة من بناء هيلانة أم قسطنطين ولما بعثر الفرنج قبور المسلمين وأحرقوهم (٥١٨) انتقم المسلمون بأن أحالوا هذه الكنيسة مع ثلاث أخرى مدرسة، وفيها إلى الآن عمد الرخام في تيجانها نقوش تمثل أنواعاً من النبات تشبه نقوش قلعة سمعان، وكانت تعرف قديماً بمسجد السراجين جعلها نور الدين مدرسة، وجدد بها مساكن يأوي إليها الفقراء (٥٤٣) وهي من أعظم المدارس ، ومن أكثرها طلبة وأغزرها رواتب وجرايات، درس بها جملة من العلماء. وهي منفصلة عن الجامع الكبير بزقاق ضيق في السوق قبالته من الغرب. وقد ذكرها أحد علماء الآثار فقال: إن الجزء الجنوبي منها يحتوي على بقايا بناء ديني من عهد النصرانية الأولى، وقد أثبت ذلك التقليد القائل بأن هيلانة بنت في حلب كنيسة، ونقوش البناء تشبه نقوش الكنائس ذات السطح المتوسط في ديار بكر والرصافة . كل هذا يدل بالنظر لصورة تيجان الكنيسة أن أصلها من بناء قام في آخر القرن السادس. ويقول هرزفيلد: إن عهد الفراغ الذي قامت فيه القبة يرد إلى تاريخ قاعتها. وكذلك الرواقان المتلاصقان من الجنوب والشمال، وإن الناظر في مجموع هذا البناء يرى الجزء الغربي منه بيعة تغشاها قبتان أو ثلاث كان محراباً متصلاً بالزقاق الآخذ اليوم إلى المدرسة والجامع الأعظم. وذكر القزويني أن في مدرسة الحلاوي بحلب حجراً على طرف بركتها كأنه سرير ووسطه منقور قليلاً يعتقد الفرنج فيه اعتقاداً عظيماً وبذلوا فيه أموالاً فلم يجابوا إليه. ومحراب هذه المدرسة العامرة اليوم بالطلبة من أجمل المحاريب عمل بخشب الآبنوس على صورة بديعة، وكان على قبتها طائر من نحاس يدور مع الشمس .

(٢٠٠) «الأتابكية» أنشأها شهاب الدين طغرل بك عتيق الملك الظاهر غياث الدين غازي نائب السلطنة سنة(٦١٨)وخربت في فتنة التتر ثم رممت وما

زالت عامرة إلى القرن العاشر ثم خربت، والآن لا يعرف إلا مكانها الذي أصبح عرصة خالية شرقي جامع العادلية وقبلي خان الفرايين يفصلها عنهما الطريق الآخذ إلى السفاحية والطريق الآخذ إلى الخسروية .

(٢٠١) « الحدادية » أنشأها حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ابن أخت صلاح الدين،وهي من الكنائس الأربع التي صيرها ابن الخشاب مساجد فهدمها وبناها بناء وثيقاً،تولاها كثير من المدرسين وكانت عامرة في أواخر القرن العاشر. وهي في محلة السفاحية لم يبق من آثارها سوى عضادتي باب كبير مكتوب على طرفه الأيمن (الحمد لله) .

(٢٠٢) « الجردكية » وهي ملاصقة للصاحبية، أنشأها الأميرجرديك النوري بسوق البلاط كملت سنة(٦٠١) كانت عامرة إلى آخر القرن الثامن . وفي أواخر القرن الثالث عشر كانت قهوة ثم تحولت مكتباً ثم صارت دكاناً ثم عمرتها دائرة المعارف مخزناً واسعاً للتجارة وهو الآن كذلك .

(٢٠٣) « المقدمية » أنشأها عز الدين عبد الملك بن المقدم من أمراء صلاح الدين سنة(٥٦٤)وكانت إحدى الكنائس الأربع التي صيرها ابن الخشاب مساجد فجعلها مدرسة وأضاف إليها داراً كانت إلى جانبها. وهي في محلة الجلوم في زقاق يسمى خان التتن باق منها قبليتها وبابها الذي فيه صنعة حسنة. وهي أخت المقدمية في دمشق التي بناها ابن المقدم أيضاً،والأوقاف التي في دمشق مشتركة بين الاثنتين .

(٢٠٤) « الجاولية » أنشأها عفيف الدين عبد الرحمن الجاولي النوري، وهي في محلة سويقة حاتم وقد كان الباقي منها قبليتها. أما الآن فقد هدمتها دائرة الأوقاف وعمرت في مكانها عقارات للاستغلال .

(٢٠٥) « الطمانية » أنشأها الأمير حسام الدين طمان النوري وخربت في القرن الثامن أو قبله، وكانت في درب الأسفريس الذي هو بجانب جامع منكلي بغا المعروف الآن بجامع الرومي من باب قنسرين .

(٢٠٦) « الحسامية » أنشأها الأمير حسام الدين محمود بن ختلو غربي قلعة حلب سنة (٦١٥) ، وأمام بابها القديم باب حادث كتب عليه أنه عمر سنة(١٢٨١)، والباقي منها قبليتها وثلاث حجرات صغار. وهي خربة في إدارة

الأوقاف مسدودة الباب، أول من درس بها بدر الدين يعقوب النحاس ثم ولده محمد ثم العلماء بنو الشحنة .

(٢٠٧) « الأسدية » ثم الخسروية تجاه القلعة المعروفة حينئذ بالطواشية أنشأها بدر الدين الخادم عتيق أسد الدين شيركوه كانت داراً يسكنها فوقفها بعد موته، وكان مكتوباً على بابها جددت سنة(٦٣٢)قال ابن الشحنة: إن هذه المدرسة خربها المنلا محمد ناظر الأوقاف بحلب سنة خمس وثلاثين وتسعمائة ولم يبق لها عين ولا أثر،ودخلت في عمارة المدرسة التي أنشأها الوزير خسرو باشا المشتملة على مسجد وجامع ومدرسة وخانقاه معدة للضيوف، وهي أول عمارة أنشئت بحلب منذ دخول الترك. وفي در الحبب أن خسرو باشا كافل حلب لما تولى الوزارة أمر بإنشاء جامع وتكية في حلب بمشارفة معمار رومي،وأدخل عدة أوقاف فيها منها الدار التي عمرها ووقفها أبو الفضل ابن الشحنة والمدرسة الأسدية الملاصقة لها ومسجد ابن عنتر الملاصق لها وكانت هذه الدار أحدى دور حلب العظام مشتملة على حديقة وبحرة وسبع قاعات وفرن وآبار لخزن الغلال ودهليز يصل إلى حمامه المشهور بحمام القاضي . واتفق في هذه المدرسة أن جعلت ميضآت للتكية المذكورة. وفي أعمدة التكية المذكورة عمودان كانا للمدرسة القديمة بزقاق سالار بحلب فأخذهما، ومتوليها إذ ذاك محمد چلبي ابن المرعشي ولم ينتطح فيها عنزان اه .

قلنا : وهذا مثال صريح من العمران التركي فهو والخراب اسمان لمسمى واحد. وهذه المدرسة تسمى اليوم بالخسروية وهي عامرة بطلبة العلم بفضل النهضة الأخيرة ، ومحرابها ومنبرها وقبتها من أجمل آثار الصناعة الحلبية في القرن العاشر بقيت بحالها لم تمسسها أيدي المتولين والمتلاعبين،وفيها القيشاني من صنع حلب .

(٢٠٨) « القليجية » أنشأها الأمير مجاهد الدين محمد بن شمس الدين محمود بن قليج النوري سنة(٦٥٠) ملاصقة لدار العدل ثم تجدد من جوانبها الثلاثة دور مضافة إلى دار العدل، خربت في القرن العاشر .

(٢٠٩) « الفطيسية » أنشأها سعد الدين مسعود بن الأمير عز الدين أيبك المعروف بفطيس عتيق عز الدين فرخ شاه،كانت داراً يسكنها فوقفها توفي

سنة(٦٤٩). وأول من درس بها أحمد القراولي المارداني المعروف بالفصيح وعليه انقضت الدولة الناصرية، وهي مما دخل في دار العدل وحكم القاضي شمس الدين بن أمين الدولة بانتقال وقفها إلى القليجية أقرب مدرسة إليها، قال ابن الشحنة: إنها درست في الفتنة التيمورية ولم يبق لها عين ولا أثر ولا يعلم أين كانت. وكذا صار في مدارس عديدة فإنني ما زلت أسمع أنه كان بحلب أربعون مدرسة للحنفية خاصة ولم يدّع ابن شداد ذلك .

(٢١٠) « المجدية الجوانية » منسوبة إلى مجد الدين بن الداية في محلة بزة بالقرب من ضريح النبي بلوقيا خربت في سنة (٩٣٦) .

(٢١١) « المجدية البرانية » منسوبة إليه أيضاً دثرت بالكلية .

(٢١٢) « الكلتاوية » بناها الأمير طقتمر الكلتاوي المتوفى سنة(٧٨٧) داخل بانقوسا في محلة تسمى بالكلتاوية ،وهي للحنفية لم يبق منها سوى قسم من قبليتها وكان فيها قبر الواقف لكنه دارس .

(٢١٣) « الالجانية » لصيق جامع الطواشي نسبة إلى الجاي أمين السلاح زمن اشقتمر أنشئت سنة (٧٤٤) .

(٢١٤) « الكينوشية » أو الكهنبوشية داخل باب النيرب ويقال بل هي زاوية .

(٢١٥) « الشهابية » تجاه الناصرية للحنفية . ولا أثر لها الآن، ولعلها دخلت في بناء خان الوزير .

(٢١٦) « الكاملية » بالقرب من الناصرية بناها ابن كامل. ولا أثر لها، ولعلها دخلت في بناء خان الوزير أيضاً .

(٢١٧) « الصاحبية » شمالي الجردكية أنشأها شهاب الدين أحمد بن الصاحب سنة(٧٦٥) وهي باقية إلا أنها متوهنة وفيها نقوش وآثار تعد من النفائس .

(٢١٨) « المدرسة التي في شرقي الجامع العمري » في بحسيتا فيها قبر الشيخ حسن الفول .

(٢١٩) « اليشبكية » بناها الأمير يشبك المؤيدي نائب حلب على أنها مكتب أيتام وبنى له فيها مدفناً دفن فيه سنة(٨٢٣)ووقف عليها سوقه الذي

بناه بالقرب منها ولا أثر لها، أما المسجد الذي بني معها فهو باق في سوق العبي.

(٢٢٠) «تغري الدرمشية» تحت القلعة بناها الأمير تغري درمش نائب حلب.

(٢٢١) «السفاحية» بناها القاضي شهاب الدين سبط بني السفاح ووقفها على الشافعية وشرط أن لا يكون لحنفي فيها حظ إلا في الصلاة.

(٢٢٢) «مدرسة أقجا» أنشأها أقجا خازن يشبك اليوسفي وهي قبلي السفاحية بالخط المذكور ولا أثر لها اليوم.

(٢٢٣) «الدلغادرية» بناها الأمير ناصر الدين باك محمد بن دلغادر ظاهر البلد من شماليه على كتف الخندق، ووقفها على الحنفية وقرر بها شهاب الدين أحمد بن موسى المرعشي.

(٢٢٤) «الأشودية» أنشأها الأمير عز الدين أشود التركماني دثرت في القرن العاشر.

(٢٢٥) «النقيب» أنشأها السيد الشريف المرتضى النقيب عز الدين أبو الفتوح أحمد بن محمد الإسحاقي المؤتمني الحسيني المتوفى سنة(٦٥٣)على جبل جوشن، وكانت عمارتها من البدائع يقال لها تاج حلب.

(٢٢٦) «الدقاقية» أنشأها مهذب الدين أبو الحسن علي بن الدقاق سنة(٦٣٠)خربت بعد القرن التاسع على الغالب، كانت شمالي الفيض.

(٢٢٧) «الجمالية» أنشأها جمال الدولة إقبال الظاهري عتيق ضيفة خاتون وهي قبلي الفردوس.

(٢٢٨) «العلائية» أنشأها علاء الدين علي بن أبي الرجا شاد[1] ديوان الملكة ضيفة خاتون بنت الملك العادل. وهذه إما أن تكون ليست مدرسة بل مسجداً وهو موجود الآن في محلة الكلاسة مكتوب عليه اسم الباني هذا سنة (٦٣٣) وهو مدفون في حجرة شرقي القبلية، أو تكون المدرسة غيره وقد زال أثرها.

(٢٢٩) «الكمالية العديمية» أنشأها الصاحب كمال الدين عمر بن

(١) رتبة جليلة في قصر الملك كان يكون صاحبها مرافقاً للوزير والشد على أجناس، منها شد المهمات وشد الدواوين وشد الأوقاف وشد الزكاة وشد العشر وشد دار الطعم.

العديم شرقي حلب خارج باب النيرب وبنى إلى جوارها تربة وجوسقاً وبستاناً ، ابتدأ بعمارتها سنة (٦٣٩) وتمت في سنة(٦٤٩) .

(٢٣٠) «الأتابكية» أيضاً أنشأها الأتابك شهاب الدين طغرل عتيق الملك الظاهر سنة(٦٢٠)أول من درس بها الصفي عمر الحموي ثم نظام الدين البلخي والفخر عبد الرحمن بن إدريس وهي في محلة الجبيلة في صدرها قبلية في طرفها الأيمن إيوان في وسطه ضريح الواقف وقد اتخذتها دائرة المعارف مدرسة ابتدائية مكتوب على بابها اسم بانيها أبي سعيد طغرل وأنها على المدرس والحنفية .

(٢٣١) «الصهيبية» وراء باب أنطاكية مباشرة تجد بقايا بناء عرفه قدماء السياح بأنه قوس قديمة ثم نقشت عليه بعد كتابة كوفية ويسمى جامع التوتي. وهي المدرسة الصهيبية التي قامت على انقاض جامع في حلب بناه أبو عبيدة. قال سبرنهايم: إن النقوش الكثيرة والهندسة القديمة والكتابات الكوفية الموجودة في هذا البناء تجعله في الدرجة الأولى من المكانة، ومنه يدرس التحويل التام المجهول سره حتى الآن والذي تم على عهد نور الدين في أسلوب الهندسة من حيث صور الكتابة والطرز السياسي في الكتابات .

(٢٣٢) «السيفية» أيضاً أنشأها الأمير سيف الدين علي بن سليمان ابن جندر تحت القلعة لتدريس مذهبي مالك وأحمد بن حنبل. هذا ما ورد في الدر المنتخب في الكلام على مدارس المالكية والحنابلة .

(٢٣٣) «الناصرية» كانت قديماً كنيسة لليهود تعرف بكنيسة مثقال ثم في سنة(٧٢٧) ثبت أنها محدثة في دار الإسلام فقلبت مدرسة وعمل بها منارة وهي معروفة الآن بجامع الحيات لرسوم حيات من الحجر في قنطرة بابها وقد عراها الوهن (إعلام النبلاء) .

(٢٣٤) «الشادبختية» أيضاً وهذه هي الجوانية أنشأها الأمير جمال الدين شادبخت الخادم الهندي الأتابكي نائب نور الدين بحلب، أول من درس فيها موفق الدين محمود بن النحاس ثم ابن العديم ثم بنو الشحنة، وهي في سوق الضرب ويقال الآن الزرب تحريفاً مكتوباً على بابها أنها موقوفة على الحنفية سنة(٥٨٩) وتعرف اليوم بجامع الشيخ معروف ، محراب قبليتها بديع كتب عليه

أنه عمل أبي الرجا وعبد الله بن يحيى .

(٢٣٥) « الطرنطائية » منسوبة إلى مجددها طرنطاي بن عبد الله الأمير سيف الدين نائب دمشق المتوفى سنة(٧٩٢)وهي في آخر محلة باب النيرب، جسيمة مكتوب على بابها كتابة حديثة بالاستناد إلى بعض الكتب: وقف هذين الجامع والمدرسة عفيف بن محمد شمس الدين سنة(٧٨٥)،وفيها رواقان وحجر وفوق الرواقين رواقان صغيران ووراء كل منهما خمس حجر وشمالي باب المدرسة باب قديم داخله دار يظهر أنها خانقاه تابع للمدرسة .

وكان في حلب داران للحديث أنشأهما الملك العادل وخمس دور تعد من مدارس المالكية والحنابلة :

(٢٣٦) الأولى أنشأها القاضي ابن شداد .

(٢٣٧) والثانية أنشأها مجد الدين بن الداية .

(٢٣٨) والثالثة أنشأها بدر الدين الأسدي .

(٢٣٩) والرابعة أنشأتها أم الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود .

(٢٤٠) والخامسة أنشأها الصاحب مؤيد الدين إبراهيم بن يوسف القفطي كانت تعرف بالفردوس .

هذا ما رواه ابن الشحنة عن ابن شداد وغيره في مدارس حلب الشهباء . وأنت ترى أنها من هذا القبيل تعد ثانية دمشق. وأن مدارسها على الأكثر نشأت في الدولتين النورية والصلاحية أو عمرت بأيدي الأمراء والأميرات، ولم يكتب لها البقاء كلها لأنها عمل أفراد كما قلنا. ولولا ذلك لكانت أقرب إلى مقاومة الحوادث. وهذا من جملة آفات هذا الشرق التعس. وأكثر هذه المدارس مما بدأ فيه الخراب في أيام العثمانيين كما هو الحال في مدارس دمشق وقد جاء في تقويم سنة ١٣٣٢ أن في الشهباء (٣٢) مدرسة، وما نظن العامر منها يتجاوز العشر وقد أنشئت فيها على عهد العثمانيين .

(٢٤١) « العثمانية » أنشأها أحد ولاة حلب في القرن العاشر وما زالت عامرة يسكنها الطلبة .

(٢٤٢) « الشعبانية » .

(٢٤٣) « القرناصية » .

(٢٤٤) « السيافية »

(٢٤٥) « الإسماعيلية »

(٢٤٦) « المنصورية »

٢٤٧) « البهائية »

(٢٤٨) « الخسروية » التي مرت

(٢٤٩) « الكواكبية » أنشأها سنة (١١٦٧) السيد أحمد بن السيد أبي السعود ابن السيد أحمد الكواكبي في محلة الجلوم الصغرى وأودعها كتباً قيمة تفرقت أيدي سبا .

(٢٥٠) « الأحمدية » أنشأها سنة(١١٦٦) على صلحاء أكراد ما وراء الموصل . وفيها نحو ثلاثة آلاف كتاب ، القاضي أحمدبن طه زاده المشتهر بالچلبي .

(٢٥١) « الهاشمية » في محلة الفرافرة، أنشأها هاشم الدلال باشي من أصحاب الأملاك بحلب سنة عشر وثلاثمائة وألف .

(٢٥٢) « الدليوانية » كانت مسجداً فرممه محمد أسعد باشا الجابري سنة(١٣٢٣) وجعل فيها ست حجر للطلبة وحجرة للمدرس يدرس فيها الفقه الشافعي، وشرط أن يكون الطلبة غرباء .

(٢٥٣) « البلاطية » هي زاوية مشروط فيها إقامة عشرة من الطلبة الحنفية ولها إمام ومؤذن ومدرس ولهم طعام، وقفها الأمير زين الدين الحاج بلاط الدوادار وهي خارج باب المقام، بقي من آثارها إيوان كبير وست حجر يسكنها الفقراء، عمرت في منتصف القرن التاسع .

(٢٥٤) « التجهيز » أنشئت في صفر سنة عشر وثلاثمائة وألف باسم المكتب السلطاني،وهي في غربي حلب في محلة اسمها السليمية أو الجميلية وهي دار التجهيز والمعلمين .

(٢٥٥) « الصنائع » أسست هذه المدرسة سنة(١٣١٩)في دار الصابوني من محلة باب قنسرين، ثم اتخذ لها بناء خاص في محلة السليمية .

(٢٥٦) « الأميري » هو جامع لكن فيه حجر للدرس ومدرس للحديث والفقه والنحو .

هذا عدا المدارس الابتدائية والمدارس التي لغير المسلمين وهي عديدة .

وليس في تاريخ حلب ما يدل على أنه كان فيها كما كان في دمشق دور للقرآن، بل كان فيها دار القرآن الحبشية المنسوبة إلى أبي العشائر المطل شباكها على الجامع الكبير درس بها أبو الوفاء العُرضي سنة (١٠٧١) .

وذكر ابن جبير في المئة السادسة أنه كان يتصل من الجانب الغربي من جامع حلب مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسناً وإتقان صنعة، فهما في الحسن روضة تجاور أخرى قال: وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناء وغرابة صنعة، ومن أطرف ما يلحظ فيها أن جدارها القبلي مفتح كله بيوتاً وغرفاً وله طيقان يتصل بعضها ببعض، وقد امتد بطول الجدار عريش كرم مثمر عنباً، فحصل لكل طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متدلياً أمامها فيمد الساكن فيها يده ويجتنيه متكئاً دون كلفة ولا مشقة . وللبلدة سوى هذه المدارس نحو أربع مدارس أو خمس. قلنا: ولعله يقصد بكلامه المدرسة الحلاوية العامرة إلى اليوم .

وقد درّس في هذه المدارس أجلة علماء الشهباء والوافدين عليها من الأئمة، وكانت كمدارس دمشق والقدس تقرئ الطالب ما ينفعه في دينه ودنياه. ويقول منش: إن المدارس تكاثرت في حلب على عهد أولاد صلاح الدين وازدهرت معارفها وآدابها حتى بلغت أربعاً وأربعين مدرسة أو تزيد، ثلاث منها لعلوم الطب ولم يتعرض من كتبوا على مدارس حلب لوصف مدارس الطب .

(٢٥٧) « القرموطية » إنشاء عبد القادر بن قرموط سنة (٨٨٢) جددها عبد الرحمن بن قرموط سنة (٩٧٨) وهي الآن مكتب .

(٢٥٨) « الشاذلية » وقيل هي دار حديث قرب مسجد النحويين في سويقة الحجارين، كانت ضيقة فتجددت قبليتها وبابها واستخرج منها دكانان .

(٢٥٩) « البولادية » في محلة باب المقام في الصف الشرقي من الجادة، خربة يسكنها الفقراء .

(٢٦٠) مدرسة للشافعية هي تربة العلمي في محلة الدحديلة .

(٢٦١) « القلقاسية » قبلي القلعة مندثرة .

(٢٦٢) « الصروى » ملحقة في جامع الصروي في محلة البياضة أنشئت سنة (٩٢٠) .

(٢٦٣) « الرحيمية » أنشأتها رحمة بنت عبد القادر بن أحمد بك في محلة مستدمبك سنة (١١٥٦) .

(٢٦٤) « مدرسة تجاه زاوية الكيال » لا يعرف اسم بانيها هي اليوم مسكن للفقراء .

(٢٦٥) مدرسة من مشتملات جامع السكاكيني في محلة الأعجام .

(٢٦٦) « الدفتردار » منسوبة لبيت العقاد بجانب سبيل البيك داخل محلة باب المقام .

(٢٦٧) مدرسة داخل بوابة النبي لا أثر لها .

(٢٦٨) مدرسة خارج بوابة النبي لا أثر لها .

(٢٦٩) مدرسة بجانب الالچاپية السالفة الذكر تعرف بالصاحبية أنشأها بهاء الدين يوسف بن رافع المعروف بابن شداد لا أثر لها .

(٢٧٠) مدرسة تجاه سابقتها لنور الدين زنكي لا أثر لها .

(٢٧١) « تربة ألطونبغا » وتعرف الآن بالمدرسة بلا اسم .

(٢٧٢) « نصرالله » في محلة بحسيتا تجاه كنيس اليهود بزقاق المدرسة معطلة موهنة .

مدارس القدس (*):

مدارس بيت المقدس كمدارس دمشق وحلب من حيث البناء والترتيب والوقوف عليها، ومعظمها مما أقامه الملوك والأمراء والأغنياء والعلماء، ولم يكتب لها البقاء كثيراً لأنها كلها من عمل الأفراد، وعمل الأفراد مهدد بالوهن في كل قرن، ضربها الدهر ضرباته، وعبث بجمالها وقطع أوصالها، ولو كانت من عمل الجماعات كمدارس الغرب في بيت المقدس نفسه، لكتب لها البقاء أكثر، ولكانت أحكم وأعظم .

(*) ألقى السيد عمر الصالح البرغوثي نظرة على ما كتبت في المدارس القدسية .

وأقدم مدارس بيت المقدس ما بني على عهد صلاح الدين يوسف بن أيوب عقيب استخلاصه هذه المدينة من أيدي الصليبيين، ثم توفر أهل الخير من الأمراء والأغنياء، ومنهم النساء والإماء، فأنشأوا منها ما أنشأوا عنوان الغيرة على العلم وبث الفضائل . وقد عدد مجير الدين الحنبلي ما كان على عهده منها في القدس والخليل فقال: إنه كان في بيت المقدس من المدارس:

(٢٧٣) « المدرسة الفارسية » بجوار المسجد الأقصى بالقرب من بئر الورقة منسوبة لوقف المدرسة الفارسية التي شرقي المسجد وقفها الأمير فارس البكي، وهي عامرة فيها دار كتب المسجد الأقصى .

(٢٧٤) « النحوية » على طرف صحن الصخرة من جهة القبلة إلى الغرب بانيها الملك المعظم عيسى سنة أربع وستمائة كان يُدرس فيها الكتاب لسيبويه .

(٢٧٥) « النصرية » كانت على برج باب الرحمة مدرسة تعرف بالنصرية للشيخ نصر المقدسي، ثم عرفت بالغزالية نسبة لأبي حامد الغزالي وقد اعتكف فيها وأتم تأليف كتابه إحياء العلوم فيما قيل. ثم أنشأها الملك المعظم عيسى وجعلها زاوية لقراءة القرآن والاشتغال بالنحو ووقف عليها كتباً وتاريخ وقفها سنة(٦١٠)ويقول مجير الدين:إنها دثرت في عصره وهي الآن غرفتان عامرتان معدتان للزيارة .

(٢٧٦) « التنكزية » واقفها الأمير تنكز الناصري نائب الشام، وهي مدرسة عظيمة ليس في المدارس أتقن من بنائها عمرت سنة(٧٢٩)وهي بجانب باب الحرم بجوار باب السلسلة مجاورة للسور من جهة الغرب،ولا تزال عامرة وهي مقر المحكمة الشرعية .

(٢٧٧) « البلدية » بجانب باب الحرم جوار باب السلسلة، واقفها الأمير منكلي بغا الأحمدي نائب حلب ودفن فيها سنة(٧٨٢) وما برحت عامرة ولكنها دار للسكنى .

(٢٧٨) « الأشرفية » داخل المسجد الأقصى بالقرب من باب السلسلة، عمرها الملك الأشرف قايتباي وبدئ بحفر أساسها (٨٨٥)، وكانت قبتها ثالث القباب المهمة في القدس. والأولى قبة الصخرة والثانية قبة الأقصى .

وقد تكاملت هذه المدرسة (٨٨٧) وكانت طبقتين سفلية وعلوية، ولعلها آخر المدارس الإسلامية الفخمة التي أنشئت من هذا الطراز في بيت المقدس، على كثرة ما وقف عليها من الأوقاف لم يبق منها إلا سطحها وبابها وعليه كتابة من عهد الأشرف .

(٢٧٩) « العثمانية » بباب المتوضإ بجوار الحرم، واقفتها امرأة من أكابر الروم اسمها أصفهان شاه خاتون وتدعى خانم، وعلىها أوقاف ببلاد الروم وغيرها، وعلى بابها تاريخها في سنة أربعين وثمانمائة وهي لا تزال عامرة وتسكنها أسرة .

(٢٨٠) « الخاتونية » بباب الحديد جوار الحرم واقفتها أغل خاتون بنت شمس الدين محمد بن سيف الدين القازانية البغدادية، ثم أكملت عمارتها ووقفت عليها أصفهان شاه بنت الأمير قازان شاه(٧٨٢)وما حُبس عليها من المغل غير معلوم، وهي اليوم دار سكن فيها قبر السيدة خاتون القازانية البغدادية .

(٢٨١) « الأرغونية » بباب الحديد جوار الحرم، واقفها أرغون الكاملي نائب الشام وهو الذي استجد باب الحديد أحد أبواب المسجد، أكملت عمارتها سنة(٧٥٩)وهي الآن دار سكنى وقد ضاعت أوقافها وأحباسها وفيها قبر أرغون شاه .

(٢٨٢) « المزهرية » بباب الحديد جوار الحرم،وقفها المقر الزيني أبو بكر بن مزهر الأنصاري صاحب ديوان الإنشاء بالديار المصرية، وبعضها راكب على ظهر الأرغونية، ولها مجمع على أروقة المسجد وكان الفراغ من بنائها في سنة(٨٨٥)وقد غدت داراً للسكنى وقسم منها خراب .

(٢٨٣) « الجوهرية » بباب الحديد جوار الحرم الشريف وبعضها على رباط كرد . واقفها الصفوي جوهر زمام الادر الشريفة في سنة(٨٤٤)وهي الآن دار للسكنى .

(٢٨٤) « المنجكية » بباب الناظر جوار الحرم وقفها الأمير منجك نائب الشام ونقل مجير الدين أن الأمير كان وصل إلى القدس الشريف ليبني المدرسة للسلطان الملك الناصر حسن،فلما قتل السلطان في سنة اثنتين وستين وسبعمائة بناها لنفسه ونسبت إليه، ووقف عليها ورتب لها فقهاء وأرباب

وظائف ثم تلاشت ثم عمرت، ولا تزال معمورة إلى هذا العصر، وقد أتقن عمارها في العهد الأخير وأقام فيها المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى .

(٢٨٥) « الجاولية » في الجهة الشمالية، واقفها الأمير علم الدين سنجر الجاولي نائب غزة توفي (٧٤٥) ضاعت أوقافها وهي اليوم قسم من كلية روضة المعارف الوطنية .

(٢٨٦) « النصيبية » في الجهة الشمالية، واقفها الأمير علاء الدين علي ابن ناصر الدين محمد نائب قلعة نصيبين، ولي نيابة القدس وعمر بها المدرسة وتوفي بدمشق سنة (٨٠٩) ونقل إلى هذه المدرسة وهي اليوم قسم من كلية روضة المعارف الوطنية .

(٢٨٧) « الإسعردية » جوار الحرم إلى الشمال، واقفها الخواجة مجد الدين عبد الغني الإسعردي وتاريخ وقفها (٧٧٠) ولا تزال عامرة. وقد شرع في ترميمها منذ عهد غير بعيد لنقل دار كتب المسجد الأقصى إليها وإقامة قاعة للمحاضرات فيها .

(٢٨٨) « المالكية » إلى شمالي الحرم، عمرها الحاج ملك الجوكندار، وكان بناؤها في مستهل المحرم سنة إحدى وأربعين وسبعمائة. وهي تابعة للإسعردية وما برحت عامرة .

(٢٨٩) « الفارسية » إلى شمالي الحرم، واقفها الأمير فارس البكي ابن الأمير قطلو ملك بن عبد الله نائب السلطنة بالأعمال الساحلية والجبلية ونائب غزة، وهو الذي نسبت إليه الفارسية بداخل المسجد الأقصى وهذه الآن دار سكن وكان يدرس فيها الخالدية .

(٢٩٠) « الأمينية » بباب شرف الأنبياء المعروف بباب الدويدارية بجوار المسجد، واقفها الصاحب أمين الدين عبد الله في سنة ثلاثين وسبعمائة وهي دار سكن .

(٢٩١) « الدويدارية » بباب شرف الأنبياء جوار الجامع، واقفها الأمير علم الدين أبو موسى سنجر الصالحي النجمي وتاريخ وقفها سنة(٦٩٦) وفيها اليوم مدرسة البنات الإسلامية .

(٢٩٢) « الباسطية » بباب شرف الأنبياء، بعضها على المدرسة الدويدارية،

واقفها زين الدين عبد الباسط بن خليل الدمشقي ناظر الجيوش المنصورة وعزيز المملكة وقفها سنة (٨٣٤)لا تزال موجودة تابعة للدويدارية وفيها مدرسة البنات الإسلامية .

(٢٩٣) « الكريمية » بباب حطة جوار الحرم،واقفها الصاحب كريم الدين بن المعلم هبة الله بن مكانس ناظر الخواص الشريفة بالديار المصرية سنة(٧١٨)وهي الآن دار سكن .

(٢٩٤) « الدلغادرية » بباب حطة جوار الحرم،واقفها الأمير ناصر الدين ابن دلغادر بعد أن عمرتها زوجته مصر خاتون وقفها سنة(٨٩٧)وهي دارسة .

(٢٩٥) « الطولونية » داخل المسجد على الرواق الشمالي،كان يصعد إليها من السلم الموصل منه إلى منارة باب الأسباط،أنشأها أحمد بن الناصري محمد الطولوني الظاهر زمن الملك الظاهر برقوق سنة(٨٢٧)وهي من المدارس الداثرة .

(٢٩٦) « الفنرية » مقابل الطولونية من جهة الشرق،كان يصعد إليها من السلم المتصل منها إلى منارة باب الأسباط أيضاً،وهي من إنشاء الطولوني عمرها مع مدرسته المقدم ذكرها وجعلها للملك الظاهر برقوق،فلما توفي الظاهر وآل الأمر لولده الملك الناصر فرج رتب لها قرى وأقام نظامها وجعل لها معاليم تصرف عليها،ثم لما توفي الناصر فرج لم يكن لها كتاب وقف فاشتراها بعد وفاته رجل من الترك يقال له محمد شاه بن الفنري الرومي ووقفها ونسبت إليه،وقد درست وأصبحت مساكن .

(٢٩٧) « الحسنية » على باب الأسباط،وقف شاهين الحسني الطواشي من دولة الملك الناصر حسن المتوفى سنة(٧٦٢)هي الآن دارسة .

(٢٩٨) « الصلاحية » بالقرب من السور من جهة الشمال بباب الأسباط وقف صلاح الدين على الشافعية. ذكر المؤرخون أن صلاح الدين كان نازلاً في كنيسة صهيون ففاوض جلساءه من العلماء الأكابر في أن يبني مدرسة للفقهاء الشافعية ورباطاً للصلحاء الصوفية، فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة بصندحنة عند باب أسباط،وعين دار البطرك وهي بقرب كنيسة

القمامةللرباط ،ووقف عليها وقوفاً،وارتاد أيضاً مدارس للطوائف ،وقيل: كان موضع هذه المدرسة ديراً للراهبات أقيم في مكان بيت القديسين يواكيم وحنة فهدمه الملك وأقام المدرسة مكانه. وتاريخ وقفها (٥٨٨) ووظيفة مشيختها من الوظائف السنية بمملكة الإسلام. وكان الأتراك نزلوا عن هذه المدرسة للآباء البيض في القرن الماضي فجعلوها مدرسة أكليركية، وفي الحرب العامة أخذها الترك وجعلوها مدرسة للعلوم الدينية،فلما سقطت القدس في أيدي الحلفاء رجعت إلى المسيحيين كنيسة .

(٢٩٩) « الكاملية » بخط باب حطة بجوار الكريمية من جهة الشمال، واقفها الحاج كامل من أهالي طرابلس كتب محضر بوقفها سنة (٨١٠)تعد في الدوارس .

(٣٠٠) « المعظمية » وقف الملك المعظم عيسى مقابل باب شرف الأنبياء المعروف بباب الدويدارية،تاريخ وقفها سنة ستين وستمائة وهي معمورة وكان يدرس فيها الخالدية خصوصاً الكافية والهداية .

(٣٠١) « السلامية » بباب شرف الأنبياء تجاه المعظمية وهي بجوار المدرسة الدويدارية من جهة الشمال ، واقفها الخواجا مجد الدين أبو الفداء إسماعيل السلامي والظاهر أنها وقفت بعد السبعمائة وهي دار قرآن ولا تزال دار سكن .

(٣٠٢) « الوجيهية » بخط درج المولة. وقف وجيه الدين محمد بن عثمان بن أسعد بن المنجا الحنبلي المتوفى في سنة(٧٤٥)هي الآن دار للسكن .

(٣٠٣) « المحدثية » بالقرب من الوجيهية عند قبو باب الفواغة بجوار الحرم ، واقفها عز الدين أبو محمد عبد العزيز العجمي الأردبيلي سنة (٧٦٢) وهي اليوم قسم من كلية روضة المعارف الوطنية .

(٣٠٤) « الحسنية » بباب الناظر على رباط علاء الدين البصير ،واقفها ناظر الحرمين الشريفين ونائب السلطنة بالقدس،وكان بناؤها في سنة(٨٣٧) وهي لعهدنا دار سكن .

(٣٠٥) « التُشتمرية » بباب الناظر بالقرب من الحسنية، واقفها الأمير تشتمر السيفي ، تاريخ وقفها (٧٥٩)وهي دار سكن .

(٣٠٦) « البارودية » بباب الناظر بالقرب من التشتمرية، واقفتها الست الحاجة سفري خاتون ابنة شرف الدين أبي بكر بن محمود المعروف والدها بالبارودي تاريخ وقفها سنة (٧٦٨) هي اليوم دار سكن .

(٣٠٧) « الجهاركسية » بجوار اليونسية من جهة الشمال، كانت كنيسة من بناء الروم قسمت نصفين، جعل الأول المدرسة الجهاركسية والثاني الزاوية اليونسية. والجهاركسية نسبة لواقفها الأمير جركس الخليلي المتوفى سنة (٧٩١) ، لا تزال معمورة .

(٣٠٨) « الحنبلية » بباب الحديد، واقفها الأمير بيدمر نائب الشام فرغ من بنائها (٧٨١) وهي دار سكن .

(٣٠٩) « دار الحديث » بجوار التربة الجالقية من جهة الغرب نسبة لركن الدين الكبير العجمي المعروف بالجالق. واقفها الأمير شرف الدين عيسى بن بدر الدين أبي القاسم الهكاري (٦٦٦) .

(٣١٠) « دار القرآن السلامية » تجاه دار الحديث، واقفها سراج الدين عمر بن أبي بكر أبي القاسم السلامي (٧٦١) لم تبرح معروفة .

(٣١١) « الطازية » بخط داود بالقرب من باب السلسلة، وقف الأمير طاز المتوفى (٧٦٣) موجودة إلى الآن دار سكن .

(٣١٢) « الأفضلية » وتعرف قديماً بالقبة بحارة المغاربة، وقف الملك الأفضل نور الدين أبي الحسن علي بن الملك صلاح الدين على فقهاء المالكية بالقدس، ووقف أيضاً حارة المغاربة على طائفة المغاربة على اختلاف أجناسهم ذكورهم وإناثهم، وهي دار سكن الآن .

(٣١٣) « اللؤلؤية » بخط مرزبان بجوار حمام علاء الدين البصير من جهة الشمال أو بباب العامود، واقفها الأمير لؤلؤ غازي عتيق الملك الأشرف شعبان بن حسن لا تزال موجودة وقسم منها زاوية .

(٣١٤) « البدرية » قرب اللؤلؤية بخط مرزبان، وقفها بدر الدين محمد ابن أبي القاسم الهكاري وهي دار سكن .

(٣١٥) « الميمونية » عند باب الساهرة وكانت كنيسة من بناء الروم، واقفها الأمير فارس الدين أبو سعيد ميمون القصري (٥٩٣) حولت إلى

مدرسة في عهد العثمانيين،وهي الآن مدرسة بنات للمعارف وجعل اسمها « المأمونية » .

(٣١٦) « الأباصيرية » مدرسة تنسب للأمير علاء الدين الأباصيري، كانت بجوار باب الناظر وهي معمورة يسكنها فقراء السودان وكانت في عهد الأتراك قسماً من السجن .

(٣١٧) « الموصلية » بباب شرف الأنبياء بجوار المسجد الأقصى ، ونسبت للخواجة فخر الدين الموصلي وهي عامرة .

هذه خمس وأربعون مدرسة عمرت كلها قبل عهد العثمانيين وما ندري إن كانت أنشئت في زمنهم الطويل مدرسة للفقه أو دار للحديث أو القرآن، وأكثر هذه المدارس من البناء الحجري الجيد وفيها يتجلى جمال الهندسة العربية وبعضها لم يقو على عوادي الأيام فتداعى في عصر واقفه، وبعضه مما سطا عليه أكلة الأوقاف فاضمحل بالطبيعة، لم تشفع فيه متانة بنائه وإحكام بنيانه، وأكثره مما صبر على الأيام وبقي إلى الآن مثالاً ناطقاً بفضل البانين والواقفين لكنه تعطل عما كان وقف عليه من التدريس والملازمة. وكيف دارت الحال فعدد الباقي من مدارس بيت المقدس بالنسبة لما بقي من نوعه في دمشق وحلب أكثر ولا يعلل ذلك إلا أن أرباب العدوان على الوقوف والأحباس لم يتيسر لهم أن يتسلطوا عليها وكان لهم من عناية غير المسلمين بمدارسهم وداراتهم في القدس عبرة وعظة .

وكان في قرية الطور (٣١٨) « المدرسة المنصورية » وهي خراب .

وبمحلة الواد (٣١٩) « المدرسة العثمانية » .

وبباب السلسلة (٣٢٠) « المدرسة الكيلانية » .

(٣٢١) « الدقمرية » .

(٣٢٢) « المرمرية » .

(٣٢٣) « البرقوقية » .

(٣٢٤) « الرشيدية » .

وبباب المناظر (٣٢٥) « الفرهادية » .

وبباب حطة (٣٢٦) « الصلاحية » .

وفي القدس اليوم مدارس مهمة لطوائف النصارى ولجماعة الصهيونيين تحتاج إلى درس خاص ففيها من حيث العمران ما هو ذو شأن وإن كان حديثاً على طراز غربي في البناء لا صلة بينه وبين هندسة هذه الديار، لذلك ليس له في النفس تلك الروعة التي يجدها المرء لمدارسنا القديمة المتقنة الأوضاع .

بقية مدارس القطر :

ذكر من زاروا حماة في القرنين السابع والثامن أنه كان فيها ثلاث مدارس وبيمارستان وأن فيها زوايا وربطاً.وليس لهذه المدارس من أثر اليوم. ومن جملة مدارسها :

(٣٢٧) «المدرسة الخاتونية» لمؤسستها مؤنسة خاتون بنت الملك المظفر صاحب حماة أنشأتها ونسبت إليها فسميت الخاتونية ووقفت عليها وقفاً جليلاً وكتباً، وهي الآن بستان في مبدإ طريق محلة الجراجمة على يسار المنحدر إلى باب النهر .

(٤٢) «المدرسة الطواشية» في محلة المدينة ، وقفها الطواشي مرشد في دولة الملك المنصور تجاه باب الجامع الكبير الشمالي في جانب حمام الذهب الشرقي،خربت بعد الألف وهي الآن دارسة، وكانت عظيمة جداً ولها أوقاف مهمة ولم يبق منها إلا آثار الجدران في البستان .

(٣٢٨) «المدرسة البارزية» وهي للشافعية وقد خربت أيضاً .

(٣٢٩) «المدرسة العصرونية» في باب حمص على ضفة العاصي قرب بستان الجبل،كانت دار قرآن وكان لها جامع وداران متصلان بها، وفي جدارها كتابة حجرية إلى اليوم مقروءة وخلاصتها أن الأمير نجم الدين التوتان بن ياروق أنشأها سنة(٥٨٤)وعمر مسجدها وكتب عليها: أمر بعمل هذه الدار المباركة السيد الفقير إلى الله تعالى محمد بن محمد بن أبي بكر الشافعي خلا قبلها وما استثنى،جعلها دار قرآن ووقف عليها أوقافاً كثيرة لتسكن في هذه الديار من فقراء المسلمين الغرباء مقيمين بها ليلاً ونهاراً يتلون كتاب الله ويتذاكرونه بينهم ويدعون للواقف ولوالديه وللمسلمين. وقرر بها شيخين يعلمونهم القرآن الكريم ويكون مقام الفقير فيها مدة خمس سنين

فإن ختم القرآن أو مضت المدة المعينة فيكسى ثوباً أو جبة، جعلها الله خالصة لوجهه الكريم في شوال سنة خمس عشرة وسبعمائة .

(٣٣٠) « المدرسة العزية » كانت في محلة باب الجسر، بناها محمد ابن حمزة العزي بجوار جامع العزي في شهور سنة (٧٢٧) وهي خراب .

(٣٣١) « المدرسة النورية » كانت قريبة من جامع نور الدين وبعد أن عفت آثارها جددها سيف الدين الكيلاني وجعلت تكية .

(٣٣٢) « المدرسة الحنفية » هي القطعة الشرقية من حرم جامع نور الدين، بناها الملك المؤيد صاحب حماة. وهذه إحدى المدارس التي أشار إليها ابن جبير التي كانت حذاء المارستان والثانية النورية والثالثة لا يعرف مكانها .

(٣٣٣) « المدرسة الشيخية » وهي الزاوية السفاحية في الموقف بناها قاضي القضاة نجم الدين عبد الظاهر بن السفاح الحلبي وكانت تسمى مدرسة الشيخة وقد وقف لها حولها أوقافاً كثيرة .

(٣٣٤) « المدرسة المظفرية » كانت في جانب الجامع الكبير إلى الغرب، في محلة المدينة، بناها الملك المظفر تقي الدين عمر .

وكان لجميع هذه المدارس أوقاف دارة على الطلبة والمدرسين ومعاليم لهم، وقد كتب على باب جامع النوري في الحجر ما يستفاد منه أن أحد الملوك وقف على طلبة العلم فيه خمسةعشر ألف درهم في كل سنة استجلاباً لأدعيتهم وإعانة لهم على طلب العلم. ويقال على الجملة: إن مدارس حماة حسنة من حسنات بيت أيوب فإن بضعة منهم تولوا مملكتها فعمروها بعلمهم وعلمهم ونشطوا العلماء وأفضلوا على المعوزين .

وليس في حمص مدارس قديمة، وقد ذكر ابن جبير في المئة السادسة أن بها مدرسة واحدة وليس بها مستشفى على رسم مدن هذه الجهات. وقال ياقوت في القرن السابع : إنه كان بها مدارس. وقال الظاهري في القرن التاسع : إن بها مدارس. وهذه المدارس لا أثر لها .

ومن أهم مدارس طرابلس (٣٣٥) « المدرسة القرطائية » أفخم مدارس طرابلس كلها وهي ملاصقة للجامع الكبير من الجهة الشرقية، وقد ذهب

اسم بانيها بالتحقيق وزمن بنائها مع الكتابة التي طمست لإخفاء أوقافها التي كانت محفورة على ظهر جدارها القبلي، والمظنون أن بانيها هو قرطاي[١] ابن عبد الله الناصري الذي أقام المنبر بالجامع الكبير الأشرفي وذكر اسمه هناك، وكان تاريخ بنائه في شهر ذي القعدة (٧٢٦) وهذه المدرسة تشبه من وجوه كثيرة جامع البرطاي وتقام فيها الصلوات وهي ملحقة بالجامع الكبير .

(٣٣٦) «مدرسة تغري برمش» بباب الحديد على الطريق الآخذة إلى المولوية، والمشهور عند أهل طرابلس أن بانيها الملك الظاهر بيبرس، وليس الأمر كذلك وهذه صورة الكتابة التاريخية التي فوق بابها :

«بسم الله الرحمن الرحيم. المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا، قوله الحق وله الملك. عمر هذا المكان المبارك المقر السيفي تغري برمش الظاهري أعز الله أنصاره مسجداً لله تعالى وتربة لدفن ولديه الأخوين الشقيقين السعيدين سيدي الأمير قالتمر وسيدي الأمير تغري بردي الطفلين المنغصين على الدنيا المتجاورين في دار الآخرة تغمدهما الله برحمته وأسكنهما فسيح جنته، وجمع بينهما في دار كرامته. وذلك في ثالث شهر الله المحرم سنة تسع وتسعين وسبعمائة ورحم الله من يترحم عليهما». وهذه المدرسة متداعية للسقوط .

(٣٣٧) «المدرسة الزريقية» هي في محلة السويقة داخل طرابلس وهي متسعة ولا تقام فيها الصلوات وهذه صورة الكتابة التاريخية التي عليها: «أمر بإنشاء هذه الزاوية المباركة العبد الفقير إلى الله تعالى سيف الدين كرناي السيفي وذلك بتاريخ شهر شوال سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة» .

(٣٣٨) «المدرسة السقرقية» تقع في طرف المدينة للجهة الغربية على الطريق الآخذة إلى جبانة باب الرمل، بناها آقطرق الحاجب مسجداً لله تعالى وتربة للدفن وعلى حائطها لجهة الجنوب الشرقي كتب الوقفية بأحرف غليظة ظاهرة فيها اسم بانيها وتعداد العقارات الموقوفة على المسجد وشروط الواقف

(١) المعروف أن الأمير سيف الدين أرقطاي من مماليك المنصور قلاوون أنشأ مدرسة في طرابلس ودفن فيها .

لصرف ريعها وفيها أن كتاب الوقف مؤرخ بمنتصف ذي القعدة الحرام سنة (٧٥٧) .

(٣٣٩) « الخاتونية » تقع أمام المدرسة السقرقية، بنتها أرغون خاتون بالاشتراك مع زوجها ومعتقها عز الدين ايدمر الأشرفي والي طرابلس، وكان الفراغ من بنائها في سنة (٧٧٥) كما هو مذكور في كتاب الوقف المحفور عند مدخل المدرسة المذكورة وفيها أسماء العقارات الموقوفة عليها وشروط الواقفة لصرف ريعها وإقام الصلوات فيها .

(٣٤٠) « مدرسة دُبّها » بناها الشيخ عبد الله الدبها الحلبي من أصحاب الطريقة النقشبندية قريباً من سوق الصاغة سنة (١٢٣٤) على ما زبر ذلك على بابها، ووقف عليها أوقافاً حسنة ودفن فيها وتقام فيها الصلوات .

وفي طرابلس مدارس وزوايا وخوانق أخرى لا يعلم اسم بانيها ولا زمن بنائها وبعضها مهجور مقفر وآخر متداع .

ومن مدارس الشام (٣٤١) « مدرسة حصن الأكراد » أنشأها والي هذه البليدة بكتمر بن عبد الله الحر الأشرفي زاوية ومدرسة وبيمارستاناً بأموال جسيمة على الصادي والغادي من أبناء السبيل وذلك في سنة (٧١٩) .

ومنها (٣٤٢) « رباط خليل الرحمن » أنشأه قلاوون سنة (٦٧٩) صاحب الآثار في دمشق والقدس والخليل وغيرها .

ومنها (٣٤٣) « مدرسة غزة » أنشأها للشافعية الأمير الكبير علم الدين الجاولي الذي سمع مسند الشافعي بالكرك على دانيال، وعمل نيابة السلطنة في غزة وبنى بها مدرسة وجامعاً حسناً، وله عمائر كثيرة وخانات توفي سنة (٧٤٥) .

ومنها (٣٤٤) « خانقاه النجمية » في بعلبك، عمره نجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين يوسف أيام ولايته عليها وخصه بالصوفية .

ومنها (٣٤٥) « السيفية » بمدينة الصلت لمنشئها الأمير سيف الدين بكتمر والي الولاية سنة (٧٢٤) .

ومنها (٣٤٦) « الزبدانية » لواقفها محمد بن عبد الصمد بن عبد الله بن

حيدرة (٦٥٦) درس فيها في سنة (٦٩٨) ابن العدل محي الدين يحيى بن محمد بن عبد الصمد وهي مدرسة جده .

ومنها (٣٤٧) «الأمينية» بمدينة بصرى، وكانت عامرة في القرن السادس ولم نعلم اسم بانيها .

وكان في المعرة (٣٤٨) «مدرسة المعرة» قديمة للشافعية بنيت على ما يفهم مما كتب على رتاجها الجميل زمن الملك المنصور محمد أحد ملوك الأيوبيين في حماة سنة (٥٩٥) وعمر فيها ابن الوردي مدرسة في النصف الأول من المئة الثامنة .

ومنها (٣٤٩) «مدرسة عزاز» أنشأها إسماعيل بن عبد الرحمن العزازي وساق إليها القناة الحلوة وانتفع الجامع وكثير من المساجد بهذه القناة وله آثار حسنة غيرها توفي سنة (٧٤٨) .

قال ابن طولون : كان في ربوة دمشق مدرسة يقال لها المضجية (٣٥٠) وفي الأصل (المنبجة) موقوفة على مدرس حنفي وطلبته .

وكان في منبج مدرسة بناها نور الدين محمود بن زنكي لابن أبي عصرون في جملة ما بنى له من المدارس، وفي آثار البلاد أنه كان فيها مدارس ورُبُط . وفي جباع وميس وعيناتا وجزين ومشغرة والشقراء من جبل عامل مدارس دينية تخرج فيها جلة فقهاء الشيعة وأدبائهم، وقد خربت واضطر أهل عامل إلى إرسال بعض الطلبة إلى النجف الأشرف يدرسون في مدارسها التي هي للشيعة بمثابة الأزهر في القاهرة والزيتونة في تونس لأهل السنة . .

ولا نعلم في سائر مدن الشام ساحلها وداخلها شيئاً من تاريخ المدارس وخططها فإن كانت فهي ضئيلة لأن قوة المسلمين في هذه الديار كانت في العواصم الكبرى حيث ينزل الملوك والأمراء والأغنياء، وسائر المدن ضعيفة الشأن في هذا المعنى. ومن الصعب أن تقوم المدارس للطلبة في القرى. وكانت الكرك وصفد وبصرى والزبداني ومنبج والرملة وغزة، وأكثرها اليوم أشبه بالقرى منها بالمدن أكثر من بيروت وصيدا وصور ويافا وحيفا وعكا واللاذقية وجبلة والسويدية والإسكندرونة عمراناً، فقد ذكر الظاهري في القرن التاسع أنه كان في كل من غزة وصفد وبعلبك مدارس بصيغة الجمع ، ومنها ما

كان مركزاً من مراكز العلم مثل صفد. ومانخال بعض المدن التي أصبحت قرى كانت خالية أيضاً من مدارس مثل كفرطاب بين المعرة وشيزر ولكن أخبارها ضاعت .

ومن مدارس القطر مدرسة قايتباي في غزة درست ويظن أنها قرب المسجد،وفيها مدرسة هاشم حديثة العهد وفيها طلاب متعممون، ومدرسة أبي نبوت في يافا،ومدرسة الجزار في عكا،ومدرسة في الجامع الكبير المارستانية في نابلس،ومدرسة جامع الحنابلة،ومدرسة البيك والصلاحية في نابلس أيضاً وبجوارها الشيخ بدران شيخ المدرسة،كانت محكمة شرعية والآن تحولت مقهى .

الخوانق والربط والزوايا

خوانق دمشق :

الخانقاه كلمة فارسية قيل: أصلها خونكاه أي الموضع الذي يأكل فيه الملك. وهي زوايا الصوفية لم تعهد على هذا النمط إلا في القرن السادس، وأول من بناها من الملوك بمصر كما قال السيوطي السلطان صلاح الدين يوسف ورتب للفقراء الواردين أرزاقاً معلومة. وقال المقريزي: إن الخوانك حدثت في الإسلام في حدود الأربعمائة من سني الهجرة، وجعلت ليتخلّى الصوفية فيها لعبادة الله تعالى ، وإن أول من اتخذ بيتاً للعبادة زيد بن صوحان بن صبرة، وذلك أنه عمد إلى رجال من أهل البصرة قد تفرغوا للعبادة وليس لهم تجارات ولا غلات فبنى دوراً وأسكنهم فيها وجعل لهم ما يقوم بمصالحهم من مطعم ومشرب وملبس وغيره .

وقيل: إن أول خانقاه بنيت في الإسلام للصوفية زاوية برملة بيت المقدس بناها أمير النصارى حين استولى الفرنج على الديار القدسية، وسبب ذلك أنه رأى طائفة من الصوفية وألفتهم في طريقتهم، فسأل عنهم ما هذه الألفة والصحبة والأخوة الخاصة بينكم فقالوا له: الألفة والصحبة لله طريقتنا. فقال لهم: أبني لكم مكاناً لطيفاً تتآلفون فيه وتتعبدون، فبنى لهم تلك الزاوية . وفي التاج أن معاوية كان يكتب إلى أطرافه وعماله وإلى زياد بالعراق بإطعام السابلة والفقراء وذوي الحاجة وله في كل يوم أربعون مائدة يتقسمها وجوه جند الشام .

ولقد كان بدمشق من هذه الخوانق أو الخانقات ست وعشرون خانقاهاً على ما في الدارس وهي .:

(٣٥١) « الأسدية » داخل باب الجابية في المحل المعروف بدرب الهاشمية قديماً إنشاء أسد الدين شيركوه، ولي مشيختها نجم الدين بن القرشية العباسي وغيره وهي غير معروفة .

(٣٥٢) « الإسكافية » كانت على نهر يزيد بسفح قاسيون، إنشاء شرف الدين بن الإسكافي مجهول محلها .

(٣٥٣) « الأندلسية » شرقي العزيزية والأشرفية قرب الكلاسة ملاصقة للجقمقية غربي السميساطية وهي المعروفة بأبي عبد الله الأندلسي ومن صوفيتها[١] شهاب الدين أحمد القباني. وهذه الخانقاه الآن عمد قائمة ليس إلا .

(٣٥٤) « الباسطية » كانت بالجسر الأبيض غربي الإسعردية وشمالي العزية إنشاء عبد الباسط بن خليل ناظر الجيوش بعد الثمانمائة، ولي مشيختها قاضي القضاة الباعوني وهي الآن في البساتين خراب .

(٣٥٥) « الحسامية الشبلية » شمالي الشبلية البرانية عند جسر كحيل منسوبة لأم حسام الدين عمر بن لاجين ولي مشيختها شرف الدين نعمان وهي غير معروفة .

(٣٥٦) « الخاتونية » ظاهر باب النصر المعروف بدار السعادة أول الشرف القبلي على نهر بانياس شرقي جامع تنكز وملاصقة له منسوبة إلى خاتون بنت معين الدين زوجة نور الدين وهي الآن عمائر وبنايات .

(٣٥٧) « الدويرية » كانت بدرب السلسلة بباب البريد منسوبة لمحمد ابن عبد الله الدمشقي المقري المعدّل[٢] .

(٣٥٨) « الروزنهارية » بالباب الشرقي من الجامع الأموي خارج باب الفراديس في المحل الذي كان يعرف ببرج المستجد، لأبي الحسن الروزنهاري ليست معروفة .

(٣٥٩) « السميساطية » للشمال الشرقي من الجامع الأموي، أسسها أبو

---

(١) الصوفية هم نساك هذه الأمة وزهادها ، نشأت طريقتهم بعد عصر الصحابة والتابعين . والراجح أنهم نزعوا ثياب الخز والديباج واكتسوا الصوف فسموا بالصوفية . وأول من تسمى بالصوفي منهم أبو هاشم الصوفي المتوفى في منتصف القرن الثاني ، ولبسهم الصوف أشبه بلبس نساك النصارى المسوح .

(٢) كان القضاة يفوضون أمور التعديل والتزكية لرجل يسمى قاضي التزكية وهو المعدل .

القاسم علي بن محمد السلمي المعروف بالحجيش السميساطي المتوفى سنة (٤٥٣) قالوا: إنه دفن بداره بباب الناطفانيين المعروف الآن بباب العمارة وكان قد وقفها على فقراء المؤمنين والصوفية ووقف علوها على الجامع وحبس أكثر نعمته على وجوه البر . وكانت هذه الدار دار عبد العزيز بن الوليد وهو الأصبغ الأموي وابن أخت عمر بن عبد العزيز ، وقد سكنها عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة وتولاها أناس من أكابر العلماء. وجددها تنكز في سنة (٧٢٨) بناء جميلاً ، وتنكز هذا جدد عمائر المساجد والمدارس ووسع الطرقات في دمشق وله في الشام عمائر وآثار . وقد نقضت منذ بضع سنين من أساسها وجدد بناؤها على أن تجعل مدرسة راقية للعلوم الدينية فلم يتم لها هذا ورجعت حجرها مأوى البطالين .

ذكر القلقشندي من الوظائف الدينية بدمشق في القرن التاسع وظيفة شيخ الشيوخ ، وموضوعها التحدث على جميع الخوانق والفقراء بدمشق وأعمالها ، والعادة أن يكون متوليها شيخ الخانقاه السميساطية بدمشق .

(٣٦٠) « الشومانية » أنشأها شومان ظهير الدين أحد مماليك بني أيوب ولم يذكر في الدارس غير هذا .

(٣٦١) « الشهابية » داخل باب الفرج غربي العادلية الكبرى وشمالي المعينية إنشاء الأمير ايدكين بن عبد الله مملوك الأمير الطواشي شهاب الدين رشيد النجمي سنة (٦٥٠) خربت في وقعة تيمور (٨٠٣) ولم تتجدد بعد ، وهي الآن دور وأنقاضها ظاهرة بأحجارها النحيتة .

(٣٦٢) « الشبلية » إنشاء شبل الدولة كافور المعظمي بإزاء الشبلية البرانية المتقدمة على نهر ثورة بسفح قاسيون ، وليها نجم الدين بن بركات بن القرشية البعلي وغيره ولا يعرف عنها غير هذا .

(٣٦٣) « الشنباشية » بحارة البلاطة تعرف بأبي عبد الله الشنباشي كانت مدرسة للإناث .

(٣٦٤) « الشريفية » تجاه العروية شرقي دار الحديث الأشرفية ملاصقة للطومانية شرقي باب القلعة وغربي العادلية الصغرى ، إنشاء أحمد بن الفقاعي درس بها الفارقي وهي الآن حوانيت .

(٣٦٥) « خانقاه الطاحون » خارج البلد منسوبة لنور الدين تولاها الشيخ سعيد الغثاني وهي داثرة .

(٣٦٦) « الطواويسية » منسوبة للملك دقاق أو لابنه وهي المشهورة بجانب الكوجانية والطريق الآخذ إلى المرجة والصالحية وهي اليوم جامع اقتطعت الأوقاف من غربيها قطعة جعلتها للمستغلات .

(٣٦٧) « العزية » بالجسر الأبيض على نهر ثورة بالصالحية قبلي الباسطية وغربي الماردانية ومدرسة إبراهيم الإسعردي، إنشاء عز الدين آي دمير الظاهري (٦٩٠) وهي محطة الترامواي الآن .

(٣٦٨) « خانقاه القصر » مطلة على الميدان الأخضر ،إنشاء شمس الملوك ذهبت مع ما ذهب .

(٣٦٩) « القصاعية » كانت بالقصاعين أو سوق مدحت باشا اليوم إنشاء فاطمة خاتون خطليجي، خربت ولم يبق لها عين ولا أثر .

(٣٧٠) « الكجحانية » بالشرف الأعلى بين الطواويسية والعزية وأمام شركة الكهرباء والترامواي، إنشاء إبراهيم الكجحاني لم تبرح قبتها ظاهرة .

(٣٧١) « المجاهدية » إنشاء مجاهد الدين إبراهيم على الشرف القبلي سنة (٦٥٦) ولم يعلم منها ولا مكانها .

(٣٧٢) « النهرية » المشهورة بخانقاه عمر شاه بأول شارع القنوات شرقي سيدي خمار وهي الآن دار .

(٣٧٣) « النجيبية » جاء في مختصر الدارس أنها بناحية باب البريد، إنشاء نجم الدين أيوب والد صلاح الدين ولا يعرف لها أثر .

(٣٧٤) « الناصرية » إنشاء صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد ابن غازي بن أيوب بجبل قاسيون على نهر يزيد تقدم ذكرها في دور الحديث صارت اليوم حاكورة صبار .

(٣٧٥) « الناصرية » منسوبة للناصر صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب بن شادي كانت بدرب خلف القيسارية، وهي غير معلومة .

(٣٧٦) « اليونسية » في أول الشرف الأعلى الشمالي شرقي الخانقاه الطواويسية، إنشاء الأمير الشرفي يونس سنة (٧٨٤) هدمت وجعلت طريقاً في أيامنا.

ومن الخوانق الحديثة (٣٧٧) «خانقاه أحمد باشا» الشهير بين أمراء الأروام أي العثمانيين بشمسي أحمد باشا تولى دمشق فطالت مدته وبنى فيها خانقاهاً قبالة قلعة دمشق من جانبها القبلي ملاصقة لخندقها وجعل فيها حجرات للصوفية وهي من محاسن دمشق. هذه رواية الحسن البوريني، ومازالت هذه الخانقاه عامرة ولكن لا على الصورة التي أرادها الواقف بل صارت جامعاً.

ومن خوانق دمشق القديمة (٣٧٨) «خانقاه النحاسية» أنشأها الخواجة الكبير شمس الدين بن النحاس الدمشقي سنة (٦٢٢).

رباطات دمشق :

الرباط ويقال له التكية بالتركية قال الأميري : والخانقاه بالكاف يعني الخانكاه وهي بالعجمية دار الصوفية ولم يتعرضوا للفرق بينهما وبين الزاوية والرباط وهو المكان المسبل للأفعال الصالحة والعبادة. وأول من اتخذ دار الضيافة للواردين الوليد بن عبد الملك الأموي واتخذ بعده عمر بن عبد العزيز داراً لطعام المساكين والفقراء وابن السبيل. وكان لنور الدين محمود بن زنكي يد طولى في الاستكثار من الربط والخوانق بنى منها في جميع مملكته للصوفية ووقف عليها الوقوف الكثيرة وأدر عليها الإدرارات الصالحة، وكان يكرم الصوفية والفقهاء والعلماء. وقد جدد الظاهر دور الضيافة للرسل والواردين. ويؤخذ مما قاله المقريزي أن الرباط دار يسكنها أهل طريق الله، والرباط والمرابطة ملازمة ثغر العدو ثم صار لزوم الثغر رباطاً، والرباط المواظبة على الأمر، وقيل لكل ثغر يدفع أهله عمن وراءهم رباط، فالمجاهد المرابط يدفع عمن وراءه، والمقيم في الرباط على طاعة الله يدفع بدعائه البلاء عن العباد والبلاد، فالرباط بيت الصوفية ومنزلهم، ولكل قوم دار. والرباط دارهم.

وكان بدمشق ثلاثة وعشرون رباطاً وهي :

(٣٧٩) «رباط البياني» داخل باب شرقي بحارة درب الحجر أو البيمارستان الآن. والبياني نسبة لأبي البيان محمد بن محفوظ القرشي ويعرف بابن الحوراني لا يعرف عنه شيء أنشيء سنة (٥٠١).

(٣٨٠) «رباط التكريتي» بالقرب من الرباط الناصري بقاسيون، إنشاء

محمد بن علي بن سويد التكريتي التاجر المثري سنة (٦٧٠) غير معروف .

(٣٨١) « رباط الشيخ محيي الدين » بالصالحية بناه على قبر محيي الدين ابن عربي السلطان سليم خان وجعله جامعاً وتكية لطعام الفقراء في سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة قاله القرماني. وهو موجود إلى اليوم .

(٣٨٢) « رباط صفية القلعية » بالقرب من المدرسة الظاهرية لا يعرف عنه شيء غير هذا .

(٣٨٣) « رباط زهرة » كان قرب حمام جاروخ وأمام فرن خليفة بجيرة دار الأمير مسعود ابن الست عذراء صاحبة المدرسة وهو غير معروف .

(٣٨٤) « رباط طومان » إنشاء طومان أحد أمراء السلجوقيين تحت القلعة ولا يعرف عنه شيء .

(٣٨٥) « رباط جاروخ التركماني » لا يعرف عنه إلا أنه كان بباب الجابية.

(٣٨٦) « رباط غرس الدين خليل » من ولاة دمشق، كان معروفاً بباب الجابية وهو مجهول .

(٣٨٧) « رباط المهراني » و

(٣٨٨) « رباط البخاري » كانا عند باب الجابية ولا يعلم عنهما غير ذلك.

(٣٨٩) « رباط البافلاطوني » و

(٣٩٠) « رباط الفلكي » و

(٣٩١) « رباط بنت السلار » داخل باب السلامة ولا يعلم عنها شيء .

(٣٩٢) « رباط عذرا خاتون » كان داخل باب النصر غير معروف .

(٣٩٣) « رباط بدر الدين عمر » .

(٣٩٤) « رباط الحبشية » بمحلة المعينية غير معروف .

(٣٩٥) « رباط أسد الدين شيركوه » بدرب زرعة لا يعرف ولا يعرف درب زرعة .

(٣٩٦) « رباط القصاعين » و

(٣٩٧) « رباط بنت الدفين » كانا داخل المدرسة الفلكية .

(٣٩٨) « رباط بنت عز الدين مسعود صاحب الموصل» و

(٣٩٩) « رباط الداوداري » داخل باب الفرج ، ولي مشيخته

نور الدين بن قوام وهما غير معروفين .

(٤٠٠) « رباط الفقاعي » من رباطات السفح سفح قاسيون .

(٤٠١) « رباط الوزار » بمحلة سويقة صاروجا .

وبعض هذه الرباطات قد ذكرت أولاً باسم مدارس وبنيت في محلها والغالب أن الرباطات كانت تستحيل في الأحايين جوامع أو مساجد أو مدارس كما شوهد ذلك في زماننا. ومما أغفله صاحب الدارس من الرباطات

(٤٠٢) « رباط نجم الدين أيوب » والد صلاح الدين ، وقفه وكان داخل الدرب بزقاق العونية بباب البريد .

زوايا دمشق :

الزوايا كالخانقاهات والرباطات إلا أنها تقام فيها الأذكار وقد كثرت بكثرة الطرق والمشايخ المعتقدين وذلك بعد القرن السادس. وكان بدمشق على عهد صاحب الدارس ست وعشرون زاوية :

(٤٠٣) « الأرموية » بسفح قاسيون،إنشاء عبد الله بن يونس الأرموي المتوفى سنة (٦٣١) وهي خراب .

(٤٠٤) « الأرموية الشرفية » بالسفح أيضاً،إنشاء الشيخ شرف الدين ابن عثمان بن علي الرملي غير معلومة .

(٤٠٥) « الحريرية » ظاهر دمشق بالشرف القبلي،إنشاء علي الحريري أبي محمد ابن أبي الحسن بن مسعود سنة (٦٣٠) لم نحققها .

(٤٠٦) « الحريرية الأعففية » لأحمد الأعفف الحريري .

(٤٠٧) « الدهستانية » لإبراهيم الدهستاني ،كانت عند سوق الخيل العتيق .

(٤٠٨) « الحصنية » إنشاء تقي الدين الحصني بالشاغور وهي موجودة . وفي ظهر نسخة من كتاب العنوان في ضبط مواليد ووفيات أهل الزمان للنعيميّ ما نصه : « الحمد لله: كان ابتداء عمارة الزاوية أعلى خان السبيل المعروف بخان الحصني قدّس سره نهار الاثنين من شعبان سنة(١٠٩٢)اثنتين وتسعين وألف في مدّة قليلة، ومطلعها من مسجده المعروف بالحصنيّة المجاورة

للخان المذكور ، وقد أنشأ العبد الفقير فيه أيضاً عمارات كثيرة وكذلك عمارة ميضأته التي اختلسها بنو العجمي الغادرون وانتزعت منهم وأعيدت أحسن ما كانت بإمداد الله تعالى ومعونته ورفقه والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وكتبه العبد الفقير تقي الدين الحسيني الحصني الشافعي لطف الله تعالى به والمسلمين ».

(٤٠٩) « الدينورية » بالسفح إنشاء عمر بن عبد الملك الدينوري المتوفى سنة (٦٢٩) .

(٤١٠) « الدينورية الشيخية » بالسفح أيضاً إنشاء أبي بكر الدينوري باني الزاوية بالصالحية .

(٤١١) « السيوفية » بالسفح على نهر يزيد غربي دار الحديث الناصرية والعالمة، إنشاء الشيخ السيوفي نجم الدين بن عيسى بن شاه أرمن الرومي .

(٤١٢) « الداودية » بالسفح أيضاً تحت كهف جبرائيل ، إنشاء زين الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن داود القادري .

(٤١٣) « السراجية » بالصاغة العتيقة منسوبة لابن سراج .

(٤١٤) « الشريفية التعارانية » شرقي الناصرية الجوانية، إنشاء محمد الحسيني التعاراني .

(٤١٥) « الطالبية الرفاعية » بقصر حجاج، إنشاء طالب الرومي .

(٤١٦) « الوطية » شمالي جامع جراح للمغاربة وتعرف بزاوية المغاربة، إنشاء الرئيس علي الشهير بابن وطية الموقت سنة (٨٠٢) .

(٤١٧) « الطيبة » شمالي القيمرية الكبرى داخل مدرسة القطاط، إنشاء طه المصري شرقي حمام أسامة سنة (٦٣١) .

(٤١٨) « العمادية المقدسية » عند كهف جبرائيل بالسفح، إنشاء أحمد ابن عماد الدين بن العماد المقدسي المتوفى سنة (٦٨٨) .

(٤١٩) « الغسولية » بالسفح أيضاً، إنشاء أبي عبد الله محمد ابن أبي الزهر الغسولي .

(٤٢٠) « الفقاعية » بالسفح أيضاً، إنشاء الشيخ يوسف الفقاعي .

(٤٢١) « الغويثية » بالسفح ، لصاحبها الشيخ علي الغويثي .

(٤٢٢) « اللوثنية » بالسفح أيضاً، إنشاء علي اللوثني .

(٤٢٣) « القوامية البالسية » غربي جبل قاسيون والزاوية السيوفية ودار الحديث الناصرية على حافة نهر يزيد، لصاحبها أبي بكر بن قوام البالسي .

(٤٢٤) « القلندرية الدركزينية » بمقبرة باب الصغير لمحمد بن يونس الساوجي من مشايخ القلندرية. وقلندر لفظة فارسية معناها الدرويش الذي نفض يده من الدنيا وزهدت نفسه في زخارفها .

(٤٢٥) « القلندرية الحيدرية » كانت بمحلة العونية .

(٤٢٦) « اليونسية » بالشرف الشمالي غربي الوراقية والعزية البرانية للشيخ يونس بن يوسف القني أنشئت سنة (٦١٩) .

(٤٢٧) « زاوية ابن اللقيمية » إنشاء ناصر الدين بميدان الحصا، وهو من ذرية صلاح الدين أيوب غير معلومة .

(٤٢٨) « زاوية عبد القادر الموصلي » .

هذه أسماء الزوايا وبعضها لم يزل باقياً لم يُصب بما أُصيبت به المدارس.

ومن الزوايا التي كانت في المزة :

(٤٢٩) « زاوية خضر العدوي » على باب دمشق، وكان هذا مشهوراً بشيخ الملك الظاهر بيبرس وكان يعتقده، بنى له كما قال ابن طولون عدة زوايا في مصر والشام منها زاوية المزة ، وبدمشق زاوية وبظاهر بعلبك زاوية وبحماة زاوية . ومن الزوايا الحديثة :

(٤٣٠) « تكية السلطان سليم » التي بناها أيام بنى القبة على قبر محيي الدين ابن عربي بالصالحية (٩٢٢) ووقف عليها أوقافاً دارة ولا يزال بعضها إلى الآن وقد بقي الرسم من هذه التكية وأُضيفت إلى معاهد الجامعة السورية .

(٤٣١) « التكية السليمانية » بجانبها منسوبة للسلطان سليمان القانوني، جاء في كتاب الجوامع والمدارس أن فيها من الأحجار والآلات والرخام الصافي والملوّن والصنائع والقباب والترصيص ما يحير الناظر ويسر الخاطر . ثم مدح بحرتها ومأذنتها فقال: إنه يحصل للمسافر أنس بهما لأن غالب المهندسين متشرفون بدين الإسلام. ثم قال: تجددت مدرسة إلى جانب التكية السليمانية من الشرف برسم المدرس في سنة(٩٧٤)وهي من زوائد التكية وجاء مدرسها من الباب العالي اه. وقد رمت هذه التكية في الحرب العامة على آخر أيام

الترك وأزيل ما كان علق بقبتها ومسجدها وحجرها من الكلس والجبس وأعيدت إلى حالتها الأولى فظهر حسن هندستها وطرز بنائها الرومي ، ومنارتاها شاهدتان بأنها من طرز بناء الجوامع في فروق، وكانت تتداعى منارتها الشرقية فنقضت وأعيدت كما كانت ، واستولت إدارة الجامعة السورية على جزء منها في العهد الأخير جعلته مخابر لمدرسة الطب، ولها أوقاف قيل: إنها تبلغ نحو مئة ألف ليرة مسانهة. وهذه التكية من أجمل آثار العثمانيين، هندسها معمار سنان أشهر مهندس في دولة الترك المتوفى (٩٦٦) ولم يحصل الانتفاع بها مع أنها في الغاية بناء وهندسة وأوقافاً .

ومن التكايا التي عمرت أواخر القرن العاشر :

(٤٣٢) « تكية مولويخانة » تكية الدراويش بالقرب من جامع تنكز، وهي في غاية الحسن عمرت سنة (٩٩٣) والمولوية هي طريقة الدراويش المنسوبين لجلال الدين الرومي ، وكان مقرها في قونية وطريقتهم تمتاز بالرقص والتواجد والإنشاد وقد ألغى الكماليون طريقة المولوية من مملكتهم ولم يبق منها إلا بعض تكايا في الشام أكلت أوقافها ومن أهمها تكية حلب .

ومن الزوايا التي عمرت بعد صاحب الدارس على ما يظهر :

(٤٣٣) « الزاوية الغزالية » بالجامع الأموي شمالي مشهد عثمان، كان مدرسها سنة (١٠٨٣) مصطفى المحاسني .

(٤٣٤) «الزاوية المزلقية » بطريق مقابر باب الصغير الآخذ إلى الصابونية لشمس الدين بن المزلق مولده سنة (٧٥٤)وكان من الأغنياء،عمر على درب الشام إلى مصر خانات عظيمة بالقنيطرة وجسر بنات يعقوب وعيون التجار وغيرها،وأنفق على عمارتها ما يزيد على مائة ألف دينار ولم يسبقه أحد إلى مثل ذلك،وهو صاحب المآثر بدرب الحجاز،وقف جميع أملاكه من القرى وغيرها،وجعل النظر في ذلك لمن كان حاجب الحجاب ولمن كان خطيباً بالجامع الأموي،ولم يمض قرن وبعض الثاني حتى لم يبق جارياً من مبراته سنة (١٠٨٣) المعينة في كتاب الوقف سوى شيء قليل. قاله المحاسني. والغالب أن اسم واقف هذه المدرسة محمد بن علي بن المزلق المتوفى سنة(٨٤٨)وهي عند مسجد الذبان. ومن الزوايا الحديثة :

(٤٣٥) « زاوية الصمادية » في الشاغور أنشئت سنة (١٠٥٣) أنشأها زاوية ومسجداً محمد بن خليل الصمادي .

(٤٣٦) « الزاوية الشاذلية » أُنشئت (١٢٩٠) في القنوات لأهل الطريقة الشاذلية وما زال يقام فيها الذكر .

(٤٣٧) « الغواصية » زاوية أُنشئت في الميدان لأصحاب الطريقة الرفاعية، حرقت في الثورة الأخيرة، وكانت عمرت في أواخر عهد السلطان عبد الحميد الثاني .

(٤٣٨) « زاوية السعدية » في زقاق الحمارات وهي لأهل طريقة سعد الدين الجباوي .

ويؤخذ من مجموع الإحصاء الرسمي أن بدمشق الآن إحدى عشرة تكية، ولعل الزوايا داخلة في هذا المجموع. وفي القنيطرة تكية أنشأها لالا مصطفى باشا الذي تولى دمشق سنة (٩٧١) .

خوانق حلب وربطها وزواياها :

(٤٣٩) « خانقاه البلاط » هذه أول خانقاه بنيت في حلب، سميت بذلك لأنها في سوق البلاط (الآن سوق الصابون) أنشأها شمس الخواص لؤلؤ الخادم عتيق الملك رضوان سنة تسع وخمسمائة، كان لها بابان أحدهما من السوق المذكورة ثم سد وجعل صغيراً، والآخر من شارع شرقيها، قيل: هي موقوفة على الفقراء المتجردين دون المتأهلين بحلب، ثم هجرت واتخذت بيتاً، إلى أن أحياها الشيخ علاء الدين الجبرتي بنفقة الأمير تغري بردي، ثم إن الحكومة التركية اتخذت منها مخفراً ثم أجرته دائرة الأوقاف مدة طويلة فعمر مخزناً للتجارة ونقل باب الخانقاه القديم إلى شمالي باب المخزن وعمل له دهليز يدخل منه إلى الصحن والقبلية، ووقع في هذين ترميمات بسعي أهل الخير ومعاونة مديرية الأوقاف فعاد للمحل بعض الحياة .

(٤٤٠) « خانقاه القديم » أنشأها نور الدين محمود بن زنكي سنة خمسمائة وثلاث وأربعين، كانت تحت القلعة إلى جانب الخندق ملاصقة لدار العدل، ثم عرفت بالمقشاتية ثم خربت ودخلت في عمارة المستشفى الوطني.

(٤٤١) « خانقاه القصر » من إنشاء نور الدين أيضاً سنة خمسمائة وثلاث وخمسين، وهي تحت القلعة سميت بالقصر الذي كان هنالك من بناء شجاع الدين فاتك .

(٤٤٢) « خانقاه الست » أنشأتها زوجة نور الدين أم الملك الصالح إسماعيل سنة خمسمائة وثمان وسبعين، وبنت إلى جانبها تربة دفنت بها ولدها الملك الصالح. ثم كثرت الخوانق والربط من ذاك العهد. وعد ابن الشحنة منها عدا ما تقدم خمسة وعشرين رباطاً أنشئت في الدولتين النورية والصلاحية ثم في دولة المماليك،وكلها قامت بأيدي أهل الخير من الملوك والأمراء والأميرات وبعض أرباب الدولة .

(٤٤٣) « خانقاه الملك المعظم مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي كوجك صاحب إربل » في المحلة التي كانت تعرف بالسهيلة ثم عرفت بسويقة حاتم. هكذا في الدر المنتخب وهي تعرف بالزينبية بزقاق يقال له زقاق الفرن،مكتوب على بابها أنها جددت في دولة الملك الظاهر أبي المظفر ابن الملك الناصر يوسف بن أيوب،وأن واقفها الأمير زين الدين علي ابن بكتكين سنة (٦٣٠) . والآن فيها قبلية وست حجر .

(٤٤٤) « خانقاه بعرصة الفراتي » أنشأها مجد الدين أبو بكر محمد بن محمد الداية ابن نوشتكين المتوفى سنة خمسمائة وخمس وستين، أخو نور الدين من الرضاع .

(٤٤٥) « خانقاه بمقام إبراهيم »أنشأها مجد الدين ابن الداية المذكور أيضاً.

(٤٤٦) « خانقاه سعد الدين كمشتكين الخادم » مولى بنت الأتابك عماد الدين المتوفى سنة خمسمائة وثلاث وسبعين، كانت ملاصقة للمدرسة الصلاحية (البهائية اليوم) ثم عرفت بالقلقاسية ويرجح أنها والآتية دخلتا في خان خيري بك .

(٤٤٧) « خانقاه طاوس » بجانب السابقة .

(٤٤٨) « خانقاه ابن التنبي » أنشأها الأمير عبد القاهر ابن عيسى المعروف بابن التنبي وقفها سنة (٦٣٩)عند وفاته،وهي ذيل محلة العقبة والآن صارت دارين وتحتهما في حجرة قبر الواقف .

(٤٤٩) « خانقاه الأمير علاء الدين طاي بغا » كانت داراً يسكنها فوقفها على الصوفية عند موته سنة(٥٥٠)وهي مما دخل في دار العدل ثم دثر وقام في محله المستشفى الوطني .

(٤٥٠) « خانقاه العجمي » أنشأها أبو بكر أحمد بن العجمي وكانت داراً يسكنها، فوقفها أخوه الشيخ شرف الدين على الصوفية .

(٤٥١) « خانقاه حوشي » أنشأها بيرم مولى ست حارم بنت التعسنا (التعسلني) خالة صلاح الدين في دهليز دار الملك المعظم وتعرف بخانقاه حوشي .

(٤٥٢) « خانقاه بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن شداد » المتوفى سنة (٦٣٢) كانت داراً يسكنها فوقفها للصوفية .

(٤٥٣) « خانقاه الفطيسية » أنشأها مسعود بن عز الدين أيبك المعروف بفطيس المتوفى سنة(٦٤٩)وهو عتيق عز الدين فرخشاه،وكانت في مدرسته المعروفة بهذا الاسم ثم دخلتا في دار العدل كما ذكر في خبر المدرسة .

(٤٥٤) « خانقاه سنقرجاه » وهي برأس زقاق البهاء قبلي دار العدل عمرت سنة(٥٥٤) ثم دثرت مع دار العدل ودخل الجميع في بناء المستشفى الوطني وما يليه .

(٤٥٥) « خانقاه الكاملية » مكتوب على بابها وقفت هذه الخانقاه فاطمة بنت الملك الكامل محمد توفيت سنة (٦٥٦)،وهي في محلة الجلوم الكبرى في زقاق يسمى بزقاق الشيخ عبد الله، ليس فيها اليوم سوى ثلاث حجر صغيرة مشرفة على الخراب .

(٤٥٦) « خانقاه بنت صاحب شيزر » وهو سابق الدين عثمان أنشأتها قبالة دورهم، لا أثر لها وقد كانت في العرصة التي إلى شرقي جامع العادلية وقبلي خان الفرايين .

(٤٥٧) « خانقاه بدرب البنات » شمالي البيمارستان الكاملي وقفتها ست العراق ابنة نجم الدين أيوب بن شاذي عن ولدها سيف الدين سنة(٥٧٤) وهذا الدرب يعرف اليوم ببوابة خان القاضي من محلة باب قنسرين لا أثر لها.

(٤٥٨) « خانقاه بدرب البنات » كذلك أنشأتها زمرد خاتون وأختها ابنتا حسام الدين لاجين عمر بن النوري وأمها أخت صلاح الدين يوسف .

(٤٥٩) « خانقاه نور الدين » محمود بن زنكي ذكرها أبو ذر قال : أظنها أنشئت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، قال ابن شداد: أظنها التي بجوار المدرسة الشاذبختية الجوانية، وفي هامش بخط محمد بن عمر الموقع أنها أصبحت تعرف بالشيجرية، ليس لها أثر .

(٤٦٠) « خانقاه ضيفة خاتون » بنتها سنة خمس وثلاثين وستمائة داخل باب الأربعين تجاه مسجد حافظ عبد الرحمن بن الأستاذ، هذه الخانقاه الآن بمحلة الفرافرة أمام جامع الزينبية ومدرسة الهاشمية، تسمى الناصرية لأن على بابها أنها أنشئت زمن الناصر يوسف بن أيوب، فيها إيوان عظيم ومحراب بديع ، وهي مائلة إلى الاندثار يسكنها بعض الفقراء من العبيد المعتقين .

(٤٦١) « خانقاه بنت والي قوص » مندثرة مجهولة المحل .

(٤٦٢) « خانقاه القوامية » كانت تجاه خانقاه ضيفة خاتون، ليس لها أثر.

(٤٦٣) « خانقاه محمد بن عبد الملك بن المقدم » بدرب الحطابين الذي عرف بعد ذلك بدرب ابن سالار سنة أربع وأربعين وخمسمائة، ودرب ابن سالار هو المعروف الآن بزقاق خان التتن من محلة الجلوم، فيرجح أنها كانت بجانب مدرسة المقدمية التي مر ذكرها المنسوبة إلى محمد بن عبد الملك بن محمد الذي يظهر أنه ابن صاحب الخانقاه. لا أثر لها .

(٤٦٤) « خانقاه الشمسية » في رأس درب البازيار ملاصقة لبيت أبي ذر المؤرخ، أنشأها أبو بكر أحمد وأوصى أخاه صاحب الشرفية أن يقفها على الصوفية، الدرب المذكور يعرف الآن بزقاق الزهراوي .

(٤٦٥) « خانقاه الخادم » هي إلى جانب المتقدمة من شماليها وقفها الخادم من عتقاء بني العجمي على سكنى بني العجمي الإناث .

(٤٦٦) « خانقاه تجاه المتقدمة » لا يعلم لمن تنسب ولعلها هي ما جاء في بعض التواريخ أنها إنشاء جمال الدولة إقبال الظاهري، قال أبو ذر عن هاتين الأخيرتين إن في كل قبراً، والآن تحول جميع ذلك إلى دور مسكونة .

(٤٦٧) « خانقاه طغرل بك » هو الأمير شهاب الدين طغرل الأتابك

وهي في خارج باب الأربعين بالجبيل، هي الآن مدرسة النجاة .

(٤٦٨) « خانقاه الدورية » أنشأها محمد بن جمال الدين يوسف الدوري عين التجار بحلب ووقف لها ابنه وقفاً وهي موقوفة على شمس الدين الأطعاني، كانت على شاطئ نهر قويق من جهة الناعورة، وهي داثرة مكانها مجهول .

(٤٦٩) « خانقاه السحلولية » على شاطئ قويق قرب بستان حجازي وقفها كافل حماة الإسعردي على عبد الرحمن بن سحلول المتوفى سنة (٧٨٢) وجعل لها مدرساً هدمت في حادثة تيمور لا يعلم محلها .

(٤٧٠) « خانقاه الكاملة » أنشأته الكاملة زوجة علاء الدين بن أبي الرجاء خارج حلب .

(٤٧٢) « رباط » أنشأه سيف الدين علي بن سليمان بن جندر بالرحبة الكبيرة، وكان في دار تعرف ببدر الدين محمود بن شكري الذي خنقه الملك الظاهر غازي ، هو مندثر الآن ويرجح أنه كان في محلة باب قنسرين تجاه جامع الكريمية .

(٤٧٣) « رباط » قرب مدرسة النورية التي تعرف أيضاً بالنفرية، كانت في محلة السفاحية تجاه المدرسة الصاحبية في الزاوية الغربية من الجنينة المعروفة اليوم بجنينة الفريق وهي مندثرة .

(٤٧٤) « رباطان » تحت القلعة للخدم أحدهما برأس درب الملك الحافظ، والآخر اسمه الجمالية برأس زقاق المبلط بينه وبين السلطانية طريق، وهذا من إنشاء جمال الدولة إقبال الظاهري في حدود الأربعين وستمائة .

(٤٧٥) « رباط قراسنقر » ذكره ابن خطيب الناصرية في ترجمة بانيه المتوفى سنة (٧٢٨) وقال: له وقف كبير، وهو مندثر لا يعلم محله .

(٤٧٦) « رباط الخدام » تحت القلعة، مندثر .

(٤٧٧) « رباط » بشرقي تربة ابن الصاحب أمام الظاهرية ، أُنشئ في دولة الناصر حسين علي بن أحمد .

(٤٧٨) « رباط » بجانب مدرسة ضيفة خاتون في الفردوس، أُنشئ سنة (٦٣٣) .

(٤٧٩) « رباط » قرب الظاهرية التي في خارج حلب، أنشئ أيام يوسف الناصر .

(٤٨٠) « رباط للقلندرية » في داخل المدرسة المقدمية التي كانت في الفرافرة تجاه قسطل الملك العادل، مندثر .

(٤٨١) « الثكنة العسكرية » أسسها إبراهيم باشا المصري (١٢٤٨) ثم أصلحت سنة (١٢٩٧)وتسمى بقشلة الشيخ يبرق لزاوية هذا الدفين بجانبها، وهي في الجهة الشمالية الشرقية من حلب طولها ثلاثمائة وأربعون ذراعاً وعرضها زهاء مائتين .

(٤٨٢) « ثكنة على قمة جبل البختي » بدئ بتأسيسها (١٣٣٠) ثم زيد عليها بعد انسحاب الترك زيادات ولم تزل غير كاملة .

وقد درس كثير من الرباطات في باب المقام وغيره .

(٤٨٣) « زاوية معروفة ببني الخشاب » مكتوب على حجر في جدارها : جدد عمارة هذه الزاوية المعروفة ببني الخشاب الحسن بن إبراهيم بن سعيد ابن الخشاب (٦٣٣) وفيها تربة كانت تسمى بالتربة الخشابية، هي اليوم في زقاق اسمه زقاق أبي درجين من محلة الجلوم،جددها في سنة (١٣١٥) مصطفى الهلالي وجعل لها حجرة درس ومنبراً .

(٤٨٤) « الزاوية الهلالية » في محلة الجلوم بزقاق الهلالية،كانت مسجداً صغيراً قطنه هلال الرام حمداني، ثم وسعت وصارت تقام فيها الجمعة والأذكار.

(٤٨٥) (زاوية البزازية) في الجلوم بزقاق خان البيض،تصلى فيها الأوقات الجهرية ولها قبلية .

(٤٨٦) (الزاوية الكمالية) في محلة العقبة في زقاق الكيزواني .

(٤٨٧) (زاوية الأخضر) في محلة السفاحية تجاه جامع الموازيني وقفها الشيخ الأخضر ودفن فيها سنة (١٢٨٧) .

(٤٨٨) (زاوية الشيخ تراب) .

(٤٨٩) « زاوية الطواشي » .

(٤٩٠) « زاوية النسيمي » تحت القلعة ، كانت مسجداً قديماً جددها قانصوه الغوري (٩١٠) .

(٤٩١) «الزاوية الجوشنية الاقصراوية» نسبة لمنشئها سنة(٧٤٧)علي الشيخ إبراهيم شهريار الكازروني .

(٤٩٢) « زاوية الصالحية » في سويقة الحجارين وتعرف بالقادرية أيضاً، وكانت قديماً تعرف بالبهشنية من أقدم الزوايا متولوها بنو الحلوى .

(٤٩٣) « زاوية البيلوني » في سويقة حاتم صغيرة معطلة يسكنها الفقراء، إنشاء أحد بني البيلوني .

(٤٩٤) « زاوية محي الدين » في باب الجنين .

(٤٩٥) «زاوية الكيالي » في سويقة حاتم .

(٤٩٦) «زاوية الجعفرية » في زقاق فرن جقجوقة من سويقة حاتم أنشئت (٧٩٦) .

(٤٩٧) «زاوية الهبراوي » في محلة الكلاسة كانت داراً وقفها محمد خير الهبراوي وسع ببعضها الجامع وجعل الباقي زاوية .

(٤٩٨) «زاوية لبني الهبراوي أيضاً » كانت تسمى مسجد الراعي .

(٤٩٩) «زاوية في المقامات » مندرسة .

(٥٠٠) «زاوية محمد الأطعاني » البسطامي في محلة الشماعين من المشارقة أنشئت سنة (٧٠٠) .

(٥٠١) «زاوية خضر » تجاه بستان الكلاب في جنوبي بستان إبراهيم آغا ، أنشأها بدر الدين بن زهرة متنزهاً ، ثم اغتصبها من بعده جلبان كافل حلب وجعلها زاوية سنة (٧٧٠) وهي مندثرة .

(٥٠٢) «زاوية للقادرية » تنسب للأمير جلبان أيضاً على رأس باب الجنان ، منشأة سنة (٧٧٠) .

(٥٠٣) «تكية المولوية » من أعظم التكايا،أنشأها مرزا فولاذ ومرزا علوان فارسيان من أتباع شاه إسماعيل الصفوي،ثم أحدث فيها زيادات كثيرة .

(٥٠٤) «زاوية » غربي قبلية جامع قارلق، أنشئت سنة (١٢٠٧) .

(٥٠٥) « زاوية الحربلي » في قارلق، أنشأها علي الحربلي سنة(١٣١٢).
(٥٠٦) « زاوية الشيخ طه بطيخ » في قارلق أنشئت سنة (١٢٨٠) .
(٥٠٧) « تكية الحداد » في محلة تاتارلر .
(٥٠٨) « زاوية للخلوتية » بالجانب الغربي من الجامع الأحمدي في محلة الدلالين، وقف أحمد صديق .
(٥٠٩) « زاوية » بجانب سابقتها للطريقة النقشبندية للواقف المذكور .
(٥١٠) « زاوية لطريقة سعد اليماني » في محلة المشاطية .
(٥١١) « زاوية الشيخ بلال » في محلة البلاط .
(٥١٢) « زاوية بيت خير الله » في محلة بانقوسا .
(٥١٣) « زاوية قطليجا » في محلة محمد بك أنشئت سنة (٧٥٧) .
(٥١٤) « زاوية أبي الجدايل » بزقاق المزوّق .
(٥١٥) « الزاوية الصيادية » أنشأها أبو الهدى الصيادي سنة(١٢٩٥) ثم زيدت إلى سنة (١٣٢٧) .
(٥١٦) « التكية الإخلاصية » نسبة لإخلاص الخلوتي المتوفى سنة(١٠٧٤) عمرها له محمد باشا الأرناءوط .
(٥١٧) « تكية القرقلر » مبنية فوق مغارة الأربعين تحت القلعة .
(٥١٨) « زاوية الشيخ يبرق » في داخل الثكنة العسكرية، أنشئت سنة (٦٧١) .
(٥١٩) « تكية بابا بيرم » للقلندرية أنشئت سنة (٧٦٤) .
(٥٢٠) « زاوية المصريين » في محلة اقيول .
(٥٢١) « زاوية هي مسجد الفرا » أنشئ في حدود الألف، ثم اتخذ زاوية لبني الأنجق في محلة الألماحي .
(٥٢٢) « زاوية الشيخ عبد الله » هي مسجد في محلة الشرعسوس .
(٥٢٣) « زاوية تغري برمش » كافل حلب قرب جامع الأطروش، أنشأها سنة (٨٤١) .
(٥٢٤) « زاوية العقيلية » في محلة محب .
(٥٢٥) « تكية المخملجي » في ترب الغرباء ، أنشئت سنة (٦٤٣) .

(٥٢٦) « تكية الشيخ أبي بكر » للطريقة الوفائية أسسها حمد بن عمر القاري في القرن العاشر .

(٥٢٧) « زاوية البعاج » في محلة الطبلة .

(٥٢٨) « زاوية الشيخ جاكير » هي مدفن الشيخ تشبه زاوية .

وفي حلب خانقاهات ومدارس وزوايا كثيرة اندثر معظمها، جاء في ترجمة مظفر الدين صاحب إربل أنه بنى أربع خانقاهات للزمنى والعميان وداراً للأرامل وداراً للأيتام وداراً للملاقيط وخانقاهين للصوفية .

ربُطُ القدس وزواياها :

كان في بيت المقدس عدة زوايا وربط منها :

(٥٢٩) « الزاوية المعظمية » وقد مر ذكرها في المدارس بقي منها غرفتان والباقي دارس .

(٥٣٠) « الزاوية الحنفية » بجوار المسجد الأقصى خلف المنبر وقفها صلاح الدين سنة (٥٨٧) على جلال الدين الشاشي ، ثم من بعده على من يحذو حذوه ، وقد وقف صلاح الدين نصف دار الأسبتار رباطاً للمتصوفة وللوافدين من أهل الطريقة والمعرفة، ونصفها مدرسة للمتفقهة، وللطلبة المتعففة المتنزهة، فجمع بين العلم والعمل، وكتب الرزق لهم إلى كتاب الأجل — قاله العماد الكاتب، ودار الاسبّتار اليوم أو هذا الرباط الآن خراب بلقع .

(٥٣١) « الخانقاه الفخرية » داخل سور الحرم، وبجوار جامع المغاربة، واقفها أبو عبد الله محمد بن فضل ناظر الجيوش الإسلامية، وكانت له أوقاف كثيرة وبر وإحسان لأهل العلم (٧٣٢) ولا تزال عامرة إلى يومنا هذا وهي زاوية ودار سكن .

(٥٣٢) « الرباط الزمني » بباب المتوضإ تجاه المدرسة العثمانية. واقفه الخواجا شمس الدين محمد بن الزمن وكان بناؤه في سنة إحدى وثمانين وثمانمائة.

(٥٣٣) «رباط كرد » بباب الحديد بجوار السور تجاه المدرسة الأرغونية، واقفه المقر السيفي كرد في (٦٩٣) استحال الآن دار سكن .

(٥٣٤) « الزاوية الوفائية » بباب الناظر تجاه المدرسة المنجيكية وعلوها

دار من معاليما تعرف بدار الشيخ شهاب الدين بن الهائم، ثم عرفت ببني الوفا لسكناهم بها، وتعرف قديماً بدار معاوية، وهي الآن دار سكن .

(٥٣٥) « الزاوية الشيخونية » بالقرب من الصلاحية عند سويقة باب حطة، واقفها الأمير قطيشا بن علي من رجال حلقة دمشق، جعل نظرها لنفسه ثم من بعده لولده شيخون، فسميت بالشيخونية تاريخ وقفها (٧٦١) .

(٥٣٦) « الرباط المارديني » بباب حطة مقابل الكاملية وهي بجوار التربة الأوحدية، وقفه منسوب لامرأتين من عتقاء الملك الصالح صاحب ماردين، وشرطه أن يكون لمن يرد من ماردين تاريخ وقفه (٧٦٣) وهو موجود .

(٥٣٧) « الزاوية المهمازية » غرب المدرسة المعظمية من الغرب، منسوبة للشيخ كمال الدين المهمازي، ووقفت على مربع من الملك الصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون في (٧٤٥) وهي معروفة .

(٥٣٨) « الرباط المنصوري » بباب الناظر، وقف قلاوون الصالحي (٦٨١) . كان سجناً في عهد الأتراك واليوم ينزله فقراء السودان .

(٥٣٩) « رباط علاء الدين البصير » تجاه الرباط المنصوري واقفه، علاء الدين آيدغدي (٦٦٦) .

(٥٤٠) « الزاوية المحمدية » بجوار البارودية من جهة الغرب، واقفها محمد بن زكريا الناصري سنة (٧٥١) وهي خراب .

(٥٤١) « الزاوية اليونسية » مقابل البارودية، ونسبتها للفقراء اليونسية، مجهول واقفها وهي موجودة .

(٥٤٢) « زاوية الطواشية » بحارة الشريف وتعرف قديماً بحارة الأكراد ، واقفها محمد بن جلال الدين عرب سنة (٧٥٣) .

(٥٤٣) « زاوية المغاربة » بأعلى حارتهم، وقف عمر بن عبد الله المصمودي المجرد سنة (٧٠٣) .

(٥٤٤) « زاوية البلاسي » بظاهر القدس من جهة القبلة، وهي قديمة نسبتها لأحمد البلاسي .

(٥٤٥) « زاوية الأزرق » بظاهر القدس من جهة القبلة شرقي زاوية البلاسي ، نسبتها لإبراهيم الأزرق (٧٨٠) وتعرف أيضاً بزاوية السرائي .

(٥٤٦) «زاوية الدركاه» بجوار البيمارستان الصلاحي، وكانت في زمن الفرنج دار الاسبتار، وهي من بناء هيلانة أم قسطنطين التي عمرت كنيسة القيامة. واقفها الملك المظفر شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين وذلك في سنة (٦١٣) قسم منها داخل في كنيسة الألمان (الدباغة) والباقي خراب.

(٥٤٧) «زاوية الشيخ يعقوب العجمي» بالقرب من القلعة، وهي كنيسة من بناء الروم تلاشت أحوالها.

(٥٤٨) «الخانقاه الصالحية» علو كنيسة القيامة وقف صلاح الدين على الصوفية (٥٨٥) وهي موجودة.

(٥٤٩) «زاوية الجشنية» كانت بجوار المسجد الأقصى، وقفها صلاح الدين على جلال الدين الشاشي الزاهد ولا يعرف عنها شيء.

(٥٥٠) «الزاوية الحمراء» بالقرب من الخانقاه الصلاحية بجوار جامع عمر، منسوبة للفقراء الوفائية وهي باقية.

(٥٥١) «الزاوية الميمونية» بجوار باب الساهرة، وهي كنيسة من بناء الروم، واقفها ميمون القصري (٥٩٣) دخلت في المدرسة المأمونية.

(٥٥٢) «الزاوية اللؤلؤية» بباب العمود أحد أبواب المدينة وهي وقف بدر الدين لؤلؤ غازى واقف اللؤلؤية المتقدم ذكرها.

(٥٥٣) «الزاوية البسطامية» بحارة المشارقة[1] واقفها عبد الله البسطامي وكانت موجودة قبل (٧٧٠).

(٥٥٤) «زاوية الصمادية» بجوار البسطامية من جهة الشمال، وهي بلصق درج البراق سد بابها في المئة التاسعة.

(٥٥٥) «زاوية الهنود» بظاهر باب الأسباط، وهي قديمة كانت للفقراء الرفاعية ثم نزل بها طائفة الهنود فعرفت بهم.

(٥٥٦) «زاوية الجراحية» بظاهر القدس من جهة الشمال، نسبة لواقفها الحسين بن شرف الدين عيسى الجراحي (٥٩٨).

---

(١) قال الزوزني: والنه سارى الشرقيون في القدس أصلهم من أرض البلقاء وعمان عرفوا بالمشرقيين لأنهم من شرقي القدس، ولما استوطن بيت المقدس منهم من استوطنه سكنوا محلة هي شرقي القدس تعرف بمحلة المشارقة.

(٥٥٧) « تكية خاصكي سلطان » أنشأتها أم السلطان سليمان، ولا تزال عامرة تفرق الحساء والخبز،ولا يزال يأخذ قسم من وجهاء القدس وأشرافها هذه الصدقة والإحسان .

الربط والزوايا في المدن الصغرى :

في خليل الرحمن لعهدنا ثلاث تكايا وزوايا وهي :

(٥٥٨) « تكية سيدنا الخليل » لها مخصصات من دائرة الأوقاف وتعمل الحساء والطعام .

(٥٥٩) « زاوية الأشراف » تقوم الأوقاف بالإدرار عليها .

(٥٦٠) « زاوية أبي بكر الشبلي» تدر عليها الأوقاف معاوناتها .

(٥٦١) « الزاوية القادرية » .

(٥٦٢) « زاوية الشيخ سعيد » .

(٥٦٣) « زاوية المجاهد » .

(٥٦٤) « زاوية حارة قيطون » .

(٥٦٥) «زاوية الشيخ الجعبري» .

(٥٦٦) « زاوية الشيخ الخيري » .

(٥٦١–٥٦٦) وفيها زوايا خاصة لإقامة الذكر ووضع أنواع الأعلام، ما يتبعها ويجلسون فيها ويضيفون.

وكان في الخليل على عهد مجير الدين الحنبلي (٥٦٧) « زاوية الشيخ عمر المجرد » و(٥٦٨) «زاوية المغاربة » بجوار عين الطواشي و(٥٦٩) « زاوية الشيخ علي البكا » و(٥٧٠) « زاوية القواسمة » نسبة لأحمد القاسمي الجنيدي من ذرية أبي القاسم الجنيد وهو مدفون بها و(٥٧١) « الرباط المنصوري » تجاه باب القلعة، وقف الملك منصور قلاوون. و(٥٧٢) « زاوية الشيخ إبراهيم المزي » بين حارتي الأكراد والدارية و(٥٧٣) « زاوية الشيخ عبد الرحمن الأرزرومي » في حارة الأكراد. و(٥٧٤) « زاوية البسطامية » بجوار المسجد الجاولي من جهة الشمال و(٥٧٥) «زاوية السمانية » بجوار زاوية الشيخ عمر المجرد. و (٥٧٦) « زاوية أبي عقافة » و(٥٧٧) « رباط الطواشي » و (٥٧٨) « زاوية شيخون» و(٥٧٩) « رباط مكي » و(٥٨٠) «زاوية الشيخ رضوان » و(٥٨١) « زاوية الشيخ خضر» و(٥٨٢) « زاوية الصلاطقة »

بجوار البركة، وهي داخل زاوية الأدهمية و(٥٨٣) « زاوية الرامي » و(٥٨٤) «زاوية الشيخ علي كنعوش الأدهمي»و(٥٨٥) « زاوية الشيخ محمد البيضة» و(٥٨٦) « زاوية الموقع » و(٥٨٧) « زاوية الشيخ إبراهيم الحنفي » و(٥٨٨) « رباط الجماعيلي » و(٥٨٩) « زاوية الخضر » بالقرب من متوضإ المسجد و(٥٩٠) « زاوية الحدابنة» و(٥٩١) « زاوية القادرية » بظاهر البلد .

ومن رُبُط فلسطين (٥٩٢) « الخانقاه الصلاحي » في قرية حطين، إنشاء السلطان صلاح الدين ولم يبق منه الآن إلا مطبخه وأنقاضه .

ومنها (٥٩٣) « خانقاه الرملة » مهدم غير معلوم أثره .

. وفي أنطاكية ٥ تكايا وفي إدلب وعملها ١٥ تكية وزاوية، وفي كل من حارم وبيلان والجسر تكية،وفي كل من جبل سمعان ومنبج تكيتان. وفي حماة الزاوية الكيلانية،بنى الجامع القبلي منها ياسين الكيلاني (١١١٨) ولم يعرف اسم بانيها الأول. وفيها رباط مرتضى الكيلاني ورباط محمد الحريري ورباط السبسبي ورباط الكيالي. ومما كان في حماة ويصح أن يعين في جملة الربط دار الإكرام، كانت معدة للضيافة وسكنى الملوك، خربت وصار محلها مدابغ وأنشأ فيها مبارز الدين أقوش داراً لضيافة الملوك وهي مما خرب. وكان فيها دار الضيافة المسماة بالطيارة الحمراء على سور باب النقفي والطيارة الحمراء كانت فوق القبو،والباسطية شرقي الجامع النوري. وكان في حماة أيضاً دار الفرح كانت وقفاً للأفراح، فمن أراد أن يتزوج مثلاً يأخذها من متوليها وكان فيها ٣٥ بيتاً وهي اليوم ببيوت السادة الكيلانية. وفي ربض حمص زاوية قام بإنشائها أبو الهدى الصيادي ولكنها لم تتم وهي حسنة البناء والطراز .

وكان في حمص (دار صدقة) لأبي عبد الله صالح بن ثوبان من عبيد الرسول وهو الذي روى في مسجد دمشق: أنا الذي صببت الماء على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطيته قدحاً فأفطر .

وفي طرابلس ٨ تكايا وزوايا للخلوتية والقادرية والرفاعية والشاذلية والنقشبندية . وفي عكار تكية واحدة، وفي اللاذقية ٤ تكايا وزوايا .

مراقد العظماء ربط وخوانق :

هذه أسماء من هلك في أرض الشام من الصحابة الكرام: أبي بن كعب . أبو الدرداء. أبو أمامة. أبو عبيدة. أبو هاشم بن عتبة. أوس بن أوس. بلال الحبشي. تميم الداري. جعفر بن أبي طالب . جبارة بن مالك . الحارث بن هشام . الحباب بن منذر. حرملة بن زيد. خالد بن الوليد (؟). خزيمة بن ثابت زيد بن حارثة. سعد بن عبادة. سبرة بن فاتك. سهيل الأنصاري . سهيل بن عمرو. شرحبيل بن حسنة. وشمعون وصهيب الرومي. الضحاك ابن قيس. ضرار بن الخطاب. ضرار بن الأزور. عبد الله بن حوالة. عبدون ابن السعدي. عبد المطلب الهاشمي. عبد الله بن سعد. عبد الله بن رواحة . عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق. محمد بن أبي حذيفة. مدرك الفزاري . معاوية بن أبي سفيان. المقدام بن معدي كرب. معاذ بن جبل. واثلة بن الأسقع . عبد الرحمن بن عوف. فضالة بن عبيد .

أكثر مراقد العظماء من الصحابة والتابعين والعلماء العاملين والزهاد أشبه بزوايا وتكايا يقصدها الناس للزيارة والتبرك وإن كان منها ما لم يثبت أن فلاناً بعينه دفنت تجاليده في البقعة التي يعنونها . فمن المقامات والمزارات قبر يحيى بن زكريا والحسين بن علي في الجامع الأموي بدمشق، وقبر صلاح الدين يوسف بن أيوب شمالي هذا الجامع ، ومقام ذي الكفل وهود في سفح جبل قاسيون بدمشق،ومقام زين العابدين وبلال الحبشي وبلال بن حمامة وخديجة ورقية وأم كلثوم وأم حبيبة وزينب الكبرى والسيدة سكينة وغيرهم في مقبرة باب الصغير بدمشق . ومقام أبي الدرداء في قلعة دمشق. ومقام حجر بن عدي في مسجد الأقصاب بدمشق. ومقام شريح بن حسنه وخولة وأبي وضرار وبنت الأزور والبدر الغزي والشيخ رسلان في باب توماء وباب شرقي بدمشق. وزيد بن ثابت في باب السريجة. وشمعون ابن خناقة في حي الشاغور. وصهيب الرومي وتقي الدين الحصني وغيرهما في الميدان. وعدي بن مسافر في بستان الورد، والشيخ السروجي في الشاغور . وعبد الرحمن الكردي في حي العمارة. وعبد الرحمن بن أبي بكر وكمال

الدين الحمزاوي وعبد الرحمن الدحداح والشهاب المنيني والشهاب العطار في مقبرة مرج الدحداح. ومقام محيي الدين بن عربي وعبد الغني النابلسي وأصحاب الكهف وعائشة الباعونية بصالحية دمشق. ونور الدين الشهيد والإمام ابن دقيق العيد في سوق الخياطين. ومقام سعد بن عبادة في المنيحة . وعبد الله بن سلام في سقبا. والشيخ حرملة في جوبر. ومقام حزقيل في داريا . ودحية الكلبي في المزة. وهذه القرى الخمس من قرى غوطة دمشق. وتميم الداري في قرية الطيبة. والشيخ حسن الراعي في قطنا. ومعاذ بن جبل في القصير. والشيخ جندل في منين. ومقام السلطان أبي يزيد البسطامي في المرج . ومقام أيوب وسعد الأسود في قرية الشيخ سعد في حوران. وسلمان الفارسي في قرية السهوة. ومقام عكاشة في الجولان. والمقداد بن الأسود في تل المقداد . وسعد الدين الجباوي في جبة. وعمار بن ياسر في اللجاة. وقبر أبي عبيدة ابن الجراح ومعاذ بن جبل في الغور. ومقام جعفر بن أبي طالب وعبد الله ابن رواحة وزيد بن حارثة قرب قرية مؤتة في المزار من عمل الكرك .

ومقام الإمام الأوزاعي في بيروت،ومقام يوشع وشمعون في صور ، ومقام هرون ويعقوب في صفد،ومقام الخضر والياس في حيفا. ومقامات شعيب والسيدة سكينة ومعاذ بن جبل ونصر الدين الطيار في طبرية. ومقامات صالح وأبي عتيبة في عكا. ومقامات العزير ولوط ويونس في الناصرة. ومقامات يعقوب وأولاده والخضر والشيخ مسلم وبشير ومسعود ورجال العمود والشيخ بدر والسلطان عماد الدين في نابلس. ومقامات دانيال ويامن ومعاوية وإسكندر ذي القرنين وابن سيرين والشيخ حمدان وغيرهم في جينين. ومقامات يامن وشمعون ويعقوب والياس وأبي خميس وأبي شعير وعامر وعمار وعدنان في بني صعب. ومقامات يحيى وذي الكفل ويوشع وناتون وإبراهيم وشيث والشيخ أبي الجود وأبي رماح وأبي عابد والجنيد والدجاني في جماعيل. ومقامات زكريا ويوسف وأنبياء بني إسرائيل والشيخ حاتم وغانم المقدسي في المشاريق. ومقامات الشيخ زين ونصر الله في الشعراوية . ومقامات إبراهيم بن أدهم وأبي يزيد البسطامي في وادي الشعير. ومقامات خالد بن الوليد وعمر بن عبد العزيز وأبي أمامة الباهلي وأبي ذر الغفاري

والنعمان بن بشير في حمص والمعرة وما إليهما. ومقام الشيخ أبي الليث السمرقندي والشيخ علوان في حماة .

ذكر مجير الدين قبة راحيل والدة يوسف الصديق إلى جانب الطريق بين بيت لحم وبيت جالا. وبظاهر الرملة من جهة الغرب بالقرب من البحر مشهد يقال له روبيل بن يعقوب. وبظاهر لدّ من جهة الشرق مشهد عبد الرحمن ابن عوف الصحابي، وبظاهر القدس في قرية العازرية مشهد العازار. وقبر شمويل بقرية ظاهر القدس من جهة الشمال على طريق الرملة في قرية رامة .

وللشيعة عدة مقامات في حلب وأرجائها وفي غيرها نسبت لعلي بن أبي طالب وللحسن وللحسين. كما أن للخضر عدة مقامات في كثير من الأرجاء ويشترك في تعظيمها النصارى والمسلمون غالباً. — ومما ذكره ابن الشحنة من المقامات القديمة في حلب مسجد النور بالقرب من باب قنسرين كان أبو نمير عبد الرزاق بن عبد السلام (٤٢٥) يتعبد فيه تنذر له النذور ويزار . ومسجد الغضايري ويعرف بمسجد شعيب وقبر كليب العابد ومسجد الأنصاري والمشهد الآخر في رأس جبل جوشن ومشهد قرية براق ومقام إبراهيم الخليل في قرية نوابل وكلتاهما من عمل حلب .

وبقرية روحين من جبل سمعان مشهد فيه ثلاثة قبور: الأوسط منها قبر قس بن ساعدة الأيادي، والقبران الآخران قبرا سمعان وشمعون من الحواريين، وقيل: كانا من المتوحدين الرهبان. وبجبل برصايا من عمل اعزاز قبر برصيصا أي مقصورة العابد. وبقورس قبر أوريا. وبمنبج مشهد خالد ابن سنان العبسي صاحب الأخدود. وبجبل بزاعا من غربي الباب مشهد يطل على الباب. وبجبل الطور المجاور لقنسرين مقام يقال: إنه مقام النبي، وبدير سمعان من عمل المعرة قبر عمر بن عبد العزيز ووراءه قبر الشيخ أبي زكريا يحيى بن منصور. وبجبلة قبر إبراهيم بن أدهم الزاهد. ومعظم هذه المزارات ما زالت معروفة يختلف إليها الناس وقام عليها شبه زوايا أو تكايا. وفي عبيه من شوف لبنان مزار الأمير جمال الدين عبد الله التنوخي يزوره معظم الطوائف الإسلامية وعليه مدرسة .

المستشفيات والبيمارستانات

مستشفيات دمشق :

إقامة دور للبائسين ومآوي للضعفاء وأصحاب العاهات والزمانات من أمارات الحضارة ودلائل ارتقاء الإنسان في العطف على من خانتهم الطبيعة. روى البلاذري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرّ عند مقدمه الجابية من أرض دمشق بقوم مجذمين من النصارى فأمر أن يعطوا من الصدقات وأن يجرى عليهم القوت. ووقف عثمان بن عفان محلة سلوان في ربض القدس على ضعفاء البلد. وأول من اتخذ المستشفيات صدر الإسلام الوليد بن عبد الملك، فإنه أقام في دمشق على ما يروى مستشفى للمجذومين بالقرب من الباب الشرقي في محل يسمى الآن بالأعاطلة، ذلك لأن في ماء دمشق على ما قالوا خاصية دفع مرض الجذام عن أهلها فلا يصيبهم إلا في الندر، وإذا حل الغريب المصاب به تكسر عنه عاديته أو يتوقف سيره في جسمه. قال ابن عساكر: كان الوليد عند أهل الشام من أفضل خلفائهم ، فرض للمجذومين وقال: لا تسألوا الناس، وأعطى كل مقعد خادماً وكل أعمى قائداً. وذكر بعضهم أن الوليد لما ولى إسحاق بن قبيصة الخزاعي ديوان الزمنى بدمشق قال: لأدعن الزمن أحب إلى أهله من الصحيح، وكان يؤتى بالزمن حتى توضع في يده الصدقة. وفي سنة (١٦٢) أمر المهدي أن يجرى على المجذمين وأهل السجون في جميع الآفاق. وبذلك عرفنا أن القوم يخصون المجذمين بأماكن خاصة لئلا تسري العدوى منهم إلى غيرهم. أما المستشفيات فللأمراض الأخرى.

ولقد كان بدمشق ثلاثة مستشفيات أو بيمارستانات — والبيمارستان

كلمة فارسية مركبة معناها محل المرضى – الأول (٥٩٥) أنشأه نور الدين محمود بن زنكي كما أنشأ غيره في الشام. وكان بيمارستان دمشق أعظمها وأكثرها خرجاً ودخلاً. قال صاحب الروضتين بلغني في أصل بنائه نادرة وهي أن نور الدين رحمه الله وقع في أسره بعض أكابر ملوك الإفرنج فقطع على نفسه في فدائه مالاً عظيماً فشاور نور الدين أمراءه فكل أشار بعدم إطلاقه لما كان فيه من الضرر على المسلمين ، ومال نور الدين إلى الفداء بعد ما استخار الله تعالى فأطلقه ليلاً ، فلما بلغ الفرنجي مأمنه مات،وبلغ نور الدين موت الفرنجي فبنى بذلك المال هذا البيمارستان ومنع المال الأمراء لأنه لم يكن عن إرادتهم. تولى بناءه كمال الدين الشهرزوري وكان الحاكم المتحكم في الدولة النورية بدمشق،وهو الذي تولى بناء أسوارها وسن دار العدل لتنفذ أحكامه بحضرة السلطان فلا يبقى عليه مغمز وملمز .

وذكر ابن جبير أنه كان في القرن السادس بدمشق مارستانان قديم وحديث، والحديث أحفلهما وأكبرهما وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر ديناراً وله قَوَمة بأيديهم الأزمة المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك،والأطباء يبكرون إليه في كل يوم ويتفقدون المرضى ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل إنسان منهم،والمارستان الآخر على هذا الرسم لكن الاحتفال في الجديد أكثر. وأغلب الظن أن البيمارستان الكبير هو النوري ،والآخر غيره[1] (٥٩٦) كان في باب البريد وخدم في هذا رشيد

---

(١) قال الظاهري:وفي دمشق بيمارستان لم ير مثله في الدنيا قط. واتفقت نكتة أحببت ذكرها وهي أني دخلت دمشق في سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة وكان يصحبني شخص عجمي من أهل الفضل والذوق واللطافة، وكان قاصد الحج في تلك السنة وألف مناسك الحج على أربعة مذاهب، فلما دخل البيمارستان المذكور ونظر ما فيه ن المآكل والتحف واللطائف التي لا تحصر قصد اختبار حال البيمارستان المذكور، فتضاعف وأقام به ثلاثة أيام ورئيس الطب يتردد إليه ليختبر ضعفه،فلما جس نبضه وعلم حاله وصف له ما يناسبه من الأطعمة الحسنة والدجاج المسمنة والحلواء والأشربة والفواكة المتنوعة،ثم بعد ثلاثة أيام كتب له ورقة من معناها أن الضيف لا يقيم فوق ثلاثة أيام . وهذا في غاية الحذاقة والظرافة. وقيل: إن البيمارستان المذكور منذ عمر لم تطفأ فيه النار اه .

الدين بن علي بن خليفة وعزالدين السويدي من الأطباء المشهورين .

وفي شذرات الذهب أن المارستان الصغير بدمشق أقدم من المارستان النوري كان مكانه في قبلة مطهرة الجامع الأموي وأول من عمره بيتاً وخرب رسوم المارستان منه أبو الفضل الاخنائي ثم ملكه بعده أخوه البرهان الأخنائي وهو تحت المأذنة الغربية بالجامع الأموي من جهة الغرب، وينسب إلى أنه عمارة معاوية أو ابنه .

أما المستشفى الثالث (٥٩٧) فهو المستشفى القيمري في الصالحية بجوار جامع محيي الدين بن عربي نسبة لمنشئه أبي الحسن القيمري المتوفى سنة (٦٥٣)، وواجهة الباب من أجمل الأبواب هندسة ، وقد رمّه حسن باشا المعروف بشور يزي حسن ونظر إلى أوقافه وأقام شعائره كما فعل في البيمارستان النوري، وقد رمم في العهد الأخير وأعيد إلى ما كان عليه .

وقرأت في كتاب الجوامع والمدارس صورة وقف البيمارستان القيمري فإذا فيه : هذا وقف أبي الحسن بن أبي الفوارس القيمري على بيمارستانه في الصالحية على معالجة المرضى والمعاجين والأشربة وأجرة الطبيب، يصرف إلى الطبيب في كل شهر لواحد سبعون درهماً ونصف غرارة من قمح، والأدنى ستون درهماً ونصف غرارة قمح، وللمشارف في كل شهر أربعون درهماً ونصف غرارة قمح، وللكحال في كل شهر خمسة وأربعون درهماً ونصف غرارة قمح، وللحوائج في كل شهر ثلاثة عشر درهماً وربع غرارة قمح، وإلى ثلاثة رجال يقوم لكل من الرجال في كل شهر ثلاثة عشر درهماً وسدس غرارة قمح، ولمن يقوم بمريضات النساء والمجنونات في كل شهر لكل واحدة عشرة دراهم وسدس غرارة قمح، وإلى الشراب وبائعه لعمل الأشربة والمعاجين في كل شهر ستة وعشرون درهماً وثلث غرارة قمح، ولأمين المشارفين والمتولين في الوقف إلى كل واحد في كل شهر ستون درهماً وغرارة قمح وغرارة شعير، وللإمام في كل شهر أربعون درهماً وثلث غرارة قمح، وللمعمار المرتب لعمارته في كل شهر ثلاثة عشر درهماً وسدس غرارة قمح، ويكون بواباً، وللحوايج في كل شهر ثمانية دراهم وسدس غرارة، وللناظر. العشر عن المغل، وريع الوقف ويصرف إلى رجلين اثنين

بخدمة البيمارستان عن ثمن قدور ونحاس وفرش ولحف ومخدة، وفي كل شهر إلى قيمه والمؤذن بالمسجد بقرب البيمارستان خمسة وعشرون درهماً، فإن فضل يصرف إلى فكاك الأسارى من الكفار، وبعد ذلك عاد وقفاً على الفقراء. وتاريخ الوقفية سنة (٦٥٢) وتاريخ المسجد سنة (٨٨٠) ثم ذكر القرى والبساتين والحوانيت والطواحين التي وقفها على بيمارستانه.

وظل المستشفى النوري عامراً إلى سنة (١٣١٧هـ) وكان أطباؤه وصيادلته لا يقلون عن عشرين رجلاً حتى قامت بلدية دمشق بإنشاء مستشفى للغرباء (٥٩٨) في الجانب الغربي من التكية السليمانية المطلة على المرج الأخضر، وجمعت له إعانات وأخذ مبلغ من واردات البلدية وأوقاف المستشفى النوري واحتفل في ١٥ ذي القعدة (١٣١٧) بافتتاح المستشفى الجديد وخصصت أوقاف المستشفى النوري ومبلغ خمسمائة ليرة تؤخذ مسانهة من ريع البلدية تصرف على المستشفى الذي سمي بادئ بدء بالمستشفى الحميدي نسبةً إلى السلطان الذي بني في عهده. أما بناية المستشفى النوري فقد جعلت مدرسة وواجهتها لا تزال بحالها وفيها بعض الحجر والنوافذ من البناء القديم، والغالب أن الأيام سطت على بقية البناء فتغيرت معالمه. وقد رمت واجهته مؤخراً.

وزاد المستشفى الجديد رونقاً ورواءً مقبرة الصوفية التي ضمت إليه وجعلت حديقة للمستشفى. وقد سمي المستشفى على عهد الحكومة العربية بالمستشفى الوطني وأقيمت مدرسة الطب بجانبه والحكومة متكفلة بالإنفاق عليه.

وفي دمشق لهذا العهد عدة مستشفيات، الأول:

(٥٩٩) «المستشفى العسكري» وهو من بناء إبراهيم باشا المصري في القرن الماضي.

(٦٠٠) «المستشفى الأسكتلندي» وفي ١١ ذي القعدة ١٣١٥ (٢٤ أيار ١٨٩٩) احتفلت جمعية اسكتلندا الإنكليزية بافتتاح المستشفى الذي أسسته في أرض الزينبية على طريق بغداد وهو على غاية من حسن الهندسة وجمال الحديقة وسعتها.

(٦٠١) «المستشفى اللعازري» بنته أخوية اللعازريين الإفرنسية قبالة المستشفى الاسكتلندي وهو حسن البناء والنظام أيضاً.

(٦٠٢) « مستشفى الراهبات اللعازريات » وهو قديم قرب مدرسة اللعازرية .

« المستشفى الوطني » أو مستشفى مدرسة الطب وقد مر ذكره .

(٦٠٣) « المستشفى الطلياني » في الصالحية قبل الجسر .

(٦٠٤) « مستشفى المجاذيب » المسمى بمستشفى ابن سينا أنشئ له مكان في قصير دومة .

مستشفيات حلب :

(٦٠٥) « بيمارستان بني الدقاق » كان يعرف بهذا الاسم ثم دخل في دار سودون الدوادار غربي المدرسة الحلاوية لا أثر له اليوم .

(٦٠٦) « بيمارستان بني الدقاق » على باب الجامع الكبير ، كان له بوابة عظيمة ينسب لابن خرخان ، لما تعطل كان يجلس فيه الكحالون فعرف بدار الكحالة . بقي منه ثلاثة مخادع صغيرة يسكنها بعض الفقراء .

(٦٠٧) « بيمارستان نور الدين » هو في الزقاق المعروف الآن بزقاق البهرمية من محلة الجلوم الكبرى ، مكتوب على بابه أنه أمر بعمله محمود بن زنكي بتولي ابن أبي الصعاليك . ويظهر أنه حصل فيه إصلاحات كثيرة ، فإنه كان فيه قاعة للنساء مكتوب عليها أنها عمرت في دولة صلاح الدين يوسف سنة (٦٥٥) ومكتوب على إيوانه أنه عمر أيام الأشرف شعبان المتوفى سنة (٧٧٩) وعلى الشباك الذي على بابه أنه أحدث سنة (٨٤٠) وكانت قاعة المنسهلين سماوية فسقفها القاضي شهاب الدين بن الزهدي . أما الآن فقد صارت حجراته تلالاً ولم يبق إلا بضع منها يسكنها بعض الفقراء . وقد جاء في بعض التواريخ أن هذا البيمارستان كان في الأصل من وضع ابن بطلان الطبيب البغدادي المتوفى سنة (٤٥٨) ثم جدده نور الدين ووقف عليه أوقافاً كثيرة وهو في أصح بقعة هواء . حدثني الثقة أنه اطلع على صك وقف أحد المستشفيات في حلب قال : جاء فيه أن كل مجنون يخص بخادمين يخدمانه فينزعان عنه ثيابه كل صباح ويحممانه بالماء البارد ، ثم يلبسانه ثياباً

نظيفة ويحملانه على أداء الصلاة ويسمعانه قراءة القرآن يقرأه قارئ حسن الصوت، ثم يفسحانه في الهواء الطلق ويسمع في الآخر الأصوات الجميلة والنغمات الموسيقية الطيبة .

(٦٠٨) « بيمارستان أرغون الكاملي » هو في محلة اسمها الآن باب قنسرين، أنشأه أرغون الصغير الكاملي نائب حلب سنة سبعمائة وخمس وخمسين ، رتب كل ما يحتاج إليه من رزق وآلات وأدوية وخدام، شرط واقفه أن التولية لكافل حلب فكان في كفالة تغري برمش على أتم الوجوه، فيه حجر وأروقة ومحابس للمجانين مظلمة، يروى أنه كانت توضع فيه الرياحين ويؤتى بآلات الطرب والمغنين لتكون هذه المشاهد والأنغام من تمام العناية بالمداواة، ثم في أواخر عهد الأتراك نقل من كان فيه من المجانين إلى مستشفى الغرباء وأصبح هو مأوى لبعض الفقراء. وفي مدخله أفاريز ونقوش من أجمل ما نقش النقاشون تزينه .

(٦٠٩) « مستشفى الرمضانية » أنشأه إبراهيم باشا المصري، وهو مخصص لمرضى العسكر .

(٦١٠) « المستشفى الوطني » بدئ به سنة ثلاثمائة وألف وبعد بلوغه نحو النصف ترك، ثم أكمل بعد نحو عشر سنين وجعل للمرضى الغرباء والفقراء .

(٦١١) « المستشفى الزهري » أنشأته إدارة الصحة للأمراض الزهرية بعد تأليف الحكومة العربية .

بقية المستشفيات :

المارستان النوري هو المستشفى الوحيد في حماة، بناه نور الدين محمود وكانت التولية عليه سنة ألف للشيخ صفا العلواني وكان مجموع نفقته كل يوم ثمانية وثمانين عثمانياً (العثماني أو السلطاني نحو سبعة قروش)، وهو الآن شبيه بالمدرس يستعمله بعضهم للسكنى وذهبت أوقافه إلا قليلاً. وقد وجد على حجر في المارستان بالجانب الغربي من أعلى البنيان كتابتان الأولى سنة خمس وسبعمائة وهي: رسم الملك لأمر بختشاي الكاذني بحماة بإبطال ما كان

يؤخذ من البيمارستان بغير طريقه وأن وقفه يصرف على ما وقفه الواقف على السكر والأشربة وذلك بأمر السيفي. والثاني: لما كان بتاريخ الشهر المحرم سنة ثلاث وثمانمائة حضر الجناب العالي السيفي المارستان النوري بحماة المحروسة داود بن المقر السيفي درداس الخاصكي كافل المملكة الحموية أعز الله أنصاره وتبرع بمعلومه على الضعفاء المقيمين به وهو في كل شهر مائة درهم لاغتنام الأجر والدعاء اه .

وفي حماة اليوم مستشفى واحد، ومثله في حمص، وآخر في درعا، ورابع في القنيطرة، وخامس في يبرود، وسادس في دير الزور، وفي إسكندرونة مستشفى وذلك ما عدا المستوصفات في كثير من الأقاليم، وكل هذه المستشفيات والمستوصفات بإدارة الصحة والإسعاف العام ويقوم بإدارتها وتمريض مرضاها أطباء وطنيون .

وكان في طرابلس « مارستان » أنشأه بدر الدين محمد بن الحاج أبي بكر أحد الأمراء بحلب المتوفى سنة (٧٤٢). وفي طرابلس اليوم مستشفى كان سمي مستشفى عزمي بك أحد عمالها الذي قام بتنشيطه .

وقبل ٥٥ سنة جاء نابلس مبشر إنكليزي وأسس فيها مستشفى، وأخذ يعالج المرضى بأجور طفيفة ويكرههم على استماع وعظه فتحسس المسلمون وأسسوا سنة (١٣٢٦) شرقية المستشفى الوطني وهو إلى اليوم سائر سيراً حسناً يقوم بأموالهم وريع البلدية .

أسس البرتستانت عدة مستشفيات ومستوصفات في الشام منها في طبرية والناصرة وصفد والصلت وصيدا والقدس ويافا وحيفا وبيروت ودمشق وغيرها من البلدان، ولا تكاد تخلو المدن المهمة من مستشفى أو شبه مستشفى مثل اللاذقية وطرطوس ومنها مستشفى خاص بمرض السل ومستشفى العصفورية للمجاذيب في لبنان، وكان في الخليل مستشفى جميل اسمه المنصوري وقفه الملك المنصور قلاوون، ومستشفيات الصهيونيين في القدس وحيفا ويافا وغيرها مهمة في بابها .

وقد أقام الصليبيون في المدن التي احتلوها بعض مستشفيات منها واحد في صور وكان لهم في القدس مارستان وهو من الأماكن التاريخية كان عبارة

عن ١٥٥ متراً طولاً و١٣٧ متراً عرضاً وعليه قامت في القرون الوسطى الملاجئ والمستشفيات الخاصة بزوار الغرب ولا سيما رهبنة فرسان القديس يوحنا ومستشفياته. وحوّل ابن أخت صلاح الدين كنيسة الملجإ إلى مستشفى وبقي اسمه العربي الفارسي أي المارستان يطلق منذ ذاك العهد على مجموع تلك الأماكن. وفي بسنة (١٨٦٩م) أعطى سلطان العثمانيين النصف الشرقي من المارستان إلى تاج بروسيا بمناسبة زيارة ولي عهد بروسيا للقدس. وقد كان صلاح الدين جعل دار الأسقف في القدس لما فتحها بيمارستان المرضى .

ومستشفيات القدس اليوم كمستشفيات بيروت مهمة لكثرتها ووفرة ريعها وتنافس المبشرين في تجويدها وتخيرهم لها أحذق الأطباء، وفي بعض قرى لبنان مستشفيات صغيرة ومصاح منها مصح بحنس ومستشفى جمعية الفرندس في برمانا، ومصح ضهر الباشق وغيرها، وفي عمل دومة من دمشق مستشفى ابن سينا لأصحاب الأمراض العقلية .

لهفة على المدارس وغيرها :

أرأيت أيها الناظر في هذا الكتاب، كيف كان عمل الأجداد في إنشاء المدارس والربط والخوانق والمستشفيات، وكيف تساوى في تأييدها والوقف عليها الملوك والعظماء وجمهور الناس من الرجال والنساء. وكيف جودوا بناءها وأحكموا وقوفها الدارة، ومع هذا لم تقو على مقاومة المخربين والغاصبين فعاد أكثرها دوراً وحوانيت. أزهرت في أربعة قرون واستصفيت في أربعة، استصفاها من ارتكبوا العار في الاستيلاء عليها من دون حرج، عملوا هذا وهم متنمسون بالدين يصلون ويصومون، ويقال عنهم : إنهم المسلمون، وربما كان على أبدان بعضهم شعار العلماء وما هم في الواقع إلا من أهل الرسم لا من أهل العلم، وقد يكون أقرب الناس إلى مخالفة الشرع القائمون عليه .

ترى هل تلام الحكومات على هذا العبث بالمدارس وانتهاك حرمتها أم تلام الأمة ؟ لا شك أن الحكومات ينالها قسط كبير من الملامة لأنها هيأت سبل السرقات، وربما كانت مشتركة بالسرقة أحياناً، ولكن اللوم كل اللوم

على الجماعة والمدارس مدارسهم والدين دينهم. ومنذ عبث العابثون بالمدارس، وسرق السارقون عينها ومغلها، تراجعت دروس الدين وتراجعت معها دروس العلوم الأخرى ففشا الجهل المطبق في الأمة، وكادت تعود سيرتها الأولى من الجاهلية الجهلاء، وأصبح من وسموا بالعلم إذا سئلوا أفتوا بغير علم، وجوزوا ما حرمه الشرع وحرموا ما جوزه، ومن مساويهم أكل أموال الأوقاف واستصفاء أعيانها، ومعدهم تهضم خصوصاً المساجد والمدارس.

أضاع الخلف ما أبقاه السلف معموراً زاهراً من المدارس التي كانت في العصور الغابرة غاية ما وصل إليه العقل البشري ظرفاً ومظروفاً، وبها أثبت أجدادنا أنهم كانوا شيئاً مذكوراً في إتقان الهندسة والبناء، وأنهم على جانب من سلامة الذوق، وأنهم حراص على مجد أمتهم، وأن الأعمال العظيمة لم تقم بنفسها لو لم يفكر فيها عقول كبيرة، وما كانت تلك المدارس تعمر لو لم يدرس فيها نوابغ من رجال العلم والآداب، ولو لم تكن ذات قانون معقول. نعم لم نعرف سر هذه الصناعة التي مثلتها لنا هذه المدارس، ولعله يقوم في الجيل المقبل من أبنائنا علماء بالآثار والبحث يكشفون سر أعمال الأجداد كما توفر علماء الآثار في أوربا مائة سنة حتى كشفوا لأممهم أسرار البيع العظمى التي قامت خلال القرون الوسطى، وعسى أن يبرهن الباحثون منا أنه لم يقم في الأرض شيء من العظمة إلا كان إلى جانبه عظماء يتعهدونه ويغذونه بعقولهم، ويفيضون عليه من معين قرائحهم .

قلت مرة من محاضرة ألقيتها في الشهباء في ربيع سنة (١٣٤١هـ ١٩٢٣م) وقابلت فيها بين مدارس حلب ودمشق: من تأمل مدارس أرباب الخير من المسلمين في الشهباء والفيحاء، وقرأ ما كتب عليها بتأمل، وزارها المرة بعد المرة على تغير معالمها، وتشويه طرأ على محاسنها، وفساد عرا أذواق الأبناء والأحفاد، إذا قيس إلى سلامة ذوق الأجداد، وجعل نسبة بين عدد ما عمر منها وما بقي في البلدتين الشقيقتين يؤكد معنا أن الفساد استحوذ عليها في دمشق أكثر من حلب، وأن من تجردوا من الوجدان فاستحلوا استصفاء تلك المدارس كانوا في الفيحاء أكثر من أمثالهم في الشهباء، ولذلك كان عدد الباقي في حلب أكثر وأجود من المدارس في دمشق .

ولا ينكر أن مادة البناء قد تختلف في بلد عن آخر. وقد كان الاعتماد في تلك القرون على الحجر الصلد، وفي دمشق عدة مقالع جميلة منوعة منه كما في حلب، ولم يكثر الآجر والطوب والخشب إلا في القرون الحديثة، ولذلك لم تخرب المدارس الدمشقية لعدم متانة في بنائها، فإن الأمثلة الظاهرة منها إلى اليوم لا تجعلها تختلف في شيء عن مدارس حلب. ولكن القائمين على هذه المدارس في هذه المدينة كانوا يعتدلون في العبث بها، ومتانة الأخلاق من جملة ما امتاز به الحلبيون، يضاف إليها حب الاحتفاظ بتراث الأجداد على صورة كانت ظاهرة في قرون الارتقاء، كامنة في عصور الشقاء والرجوع إلى الوراء.

والناظر إلى مدارس دمشق وحلب وهي لا تقل عن ثلاثمائة مدرسة، منها زهاء مائتين في دمشق يدرك أنها من عمل السلاطين والعمال وقليل من التجار وأهل الخير. وكان منهم من يتوخى منها أن تكون توليتها لبنيه من بعده ليعيشوا منها إذا صودرت أملاكهم. بنى قليل من التجار المدارس لأن الشعب كان يفنى في أغلب العصور في كبرائه، فلم يكن شأن في مظاهر النعمة والغبطة مدة قرون لغير أرباب الدولة أو من كان يعد في جملتهم، وكان الناس يحاذرون أن تنشأ لهم شهرة في الثروة، والثروة تتجلى في الدار والفرش والدابة واللباس، وفي بذل المال لإقامة دور العلم وإيواء اليتامى والمحاويج، فكانوا يتظاهرون بالفقر لينجوا من مخالب العمال.

وقلّ أن رأينا جماعة اتفقوا على إقامة عمل من هذا القبيل يفتخر به اللهم إلا قليلاً من المساجد، ولو فعلوا لأمنت أعمال الجماعات من اعتداء المعتدين أكثر من عمل الأفراد، ولما استصفيت واستحل هدمها، ولا غير خططها ومعالمها من لا يخافون الله ولا عباده، ولجاءت ممثلة للعظمة الحقيقية في الأمة، على نحو ما قامت البيع والأديار والمدارس في الغرب، بإرشاد رجال الدين من كرادلة وأساقفة وقساوسة، فكانوا يجمعون قليلاً من صدقات الملوك والأغنياء والفرسان والشعب، فيجيء مجموعها عظيماً يدار بأيدي هيأة منظمة على كل حال، ويختطون خطة لا يخرج عنها الخلف إلا قليلاً.

للأثر القديم من الموقع في النفس ما ليس للأثر الحديث، فإن الأول

يذكر بأمور كثيرة، يذكر بمجد السلف وأياديهم البيضاء وإرادتهم الصحيحة. يذكرنا بأن فلاناً الذي تحترمه الأمة بنى ذاك المصنع وتلك الدار، وأن فلاناً العالم درّس هناك أو كان يألف المكان الفلاني، وكم من أثر تاريخي أو مصنع من مصانعنا نمرّ به دون أن نحفل بما فيه من عبر، ولو كنا على شيء من مدنية أجدادنا ما زهدنا هذا الزهد البشع في تراثهم، ولو اقتبسنا المدنية الحديثة بمحاسنها ومساوئها لرأيتنا أسرع إلى التقاط آثار الجدود والاحتفاظ بها من الماء إلى الحدور .

لا تستطيع أمة أن تقطع الصلة بينها وبين ماضيها ، خصوصاً إذا كانت ذات غابرٍ عظيم كغابر الأمة العربية، قام على أساس متين، وتقاليد جميلة، ومقدسات متسلسلة، أما ونحن لا نرقى بدون القديم والأخذ من نافع الحديث، فواجب العقلاء أن يفكروا في أقرب الطرق إلى هذه الغاية، وهذا لا يتم بغير إحياء دور العلم ومعاهد الفضل، وإحياؤهاموقوف على قليل من العناية .

ليس للمدرسة الحديثة التي ننشئها اليوم تلك النضارة، ولا تتجلى فيها معاني الحسن والإحسان التي نشعر بها ونكاد نلمسها في المعاهد القديمة مثل مدرسة ضيفة خاتون رحمها الله فإنك إذا رأيتها تمثلت أمامك صفحة من تاريخ هذه الأمة المجيد، تمثلت بيت بني أيوب وأفضالهم على ربوع الشام، وكفى بهم وبصلاح الدين حسنة عقم الدهر أن يلد مثلها. كثير من المصانع بناها الملوك بالسخرة وإرهاق الرعية، وإعنات الأسرى والمعتقلين، ولم نقرأ في التاريخ أن أحداً من آل البيت الصلاحي عمر مدرسة أو جامعاً أو مستشفى أو رباطاً من مال مشبوه، أو سخرة ممقوتة، فأكرم وأنعم بكل فرد أصيلاً كان في هذا البيت الشريف أو دخيلاً عليه ....

عمر أهل الخيرات من سلف هذه الأمة هذا القدر العظيم الذي نعجب به من معاهد التعليم الديني دع المساجد والجوامع، ولو كتب البقاء لبعضها لأغنت القوم بعض الشيء بمعارفها ونشرت النور بينهم. وكانت المدارس والجوامع في تلك القرون المظلمة في الغرب المستنيرة في هذا الشرق هي المتكفلة بتعليم الناس وإخراجهم من الأمية، وكان لمعظم المدارس والجوامع كتاتيب مرتبطة بها وخارجة عنها لتعليم الأطفال تؤهلهم لتلقي دروس

المدارس والجوامع ، ولا نغالي إذا قلنا : إن عدد الأميين كان في تلك العصور أقل مما هو الآن في هذه الديار. ولو اطرد العمل اطراده في مدارس الغرب مثلاً لأصبحنا في هذا القرن والأميون أقل مما هم في ممالك المدنية الحديثة .

ولكن الجهل قضى على تلك المدارس وأكل المتولون أوقافها فخربت وتغيرت معالمها. وكم من وقف يستمتع به النظار عليه يصرفون ما وقف على الخير في سبيل شهواتهم بدون محاسب من ذممهم ولا رقيب من أصحاب السلطان. ولو كتب لهم أن يأكلوا منها بالمعروف ويصرفوا حقوق تلك المعاهد أو بعض مغلها على رمها وإجراء الرزق على ساكنيها والدارسين فيها لأتت بثمرات جنية، ولما أكلوا في بطونهم النار ، وركبوا متن العار والشنار ، وكم من بيت كان موسوماً في القديم بالعلم والتقى فخلف من بعد السلف خلف عبثوا بالحرمات فاستحلوا أموال المدارس والمعابد فدثر البيت وانقرضت الأسرة وذهبوا وما يملكون جملة. لم يُرحموا لأنهم لم يَرحموا .

ضبطت الحكومة السابقة أكثر أوقاف الملوك والسلاطين وكان ريعها كثيراً جداً في هذه الديار ، فلم تصرفها فيما خصصت له ولم تنجح في الغاية التي توختها منها ، واستقل بعض أرباب النفوذ بالأوقاف التي ائتمنوا عليها أو انتهت إليهم بحكم الوارثة فأساؤوا الاستعمال إلا من عصم الله. فالسبب إذاً في خراب مدارسنا الجميلة سوء إدارة الحكومات السالفة وعبث المتولين عليها وإخراجها عما وضعت له من عمل الخير بصنع أولئك الذين يعدون أنفسهم في جملة حماة هذا المجتمع وهم أعدى عداته اه .

دور الآثار

المتاحف والعرب :

المتاحف العامة على الصورة التي نراها في الغرب لعهدنا ليست مما عهد في هذا الشرق. فإن آثينة منذ الزمن الأطول كان لها متحف دعته رواق الصور . وعرضت رومية أجمل ما أخذته من الصور من آثينة. ولم يكن حتى في القرون الوسطى في أوربا متاحف. وكانت بدائع الصنائع البشرية تحفظ في دور الملوك وفي قاعات البيع والأديار. حتى إذا كانت القرون الحديثة ونشأ كبار المصورين في إيطاليا وغيرها كثرت المتاحف التي تعرض فيها التصاوير العجيبة ومبدعات العقول والأنامل، بحيث كاد أن يكون لكل مدينة معرض منها. وأخذت تغص بما يهديها إياه الكبراء والملوك ، ولما كثر الإخصاء عمّ المتاحف أيضاً. فصار للأمم العظمى متحف لغرائب الصناعة في النقش، وآخر في الرسم، وغيرها في أدوات الحرب، وآخر في أدوات الزينة، وغيره في أدوات الموسيقى إلى غير ذلك .

ولا نعلم إن كانت للعرب متاحف أيام مدنيتهم على الصورة التي هي اليوم في كل بلد تذوّق الحضارة، بل كانت متاحفهم في جوامعهم وقصورهم التي اختاروا لنقشها وتزويقها أمهر صناع أيامهم على نحو ما كان في جامع بني أمية في دمشق، والأقصى في القدس، وبعض جوامع بغداد والقاهرة، وفي الحمراء والزهراء في الأندلس، وفي قصور الخلفاء ببغداد وقصورهم في الأندلس وقصور الفاطميين في القاهرة. وكانت دور العظماء في الشرق كما كانت في الغرب تتنافس في بدائع الصناعة وتجعلها بحيث يراها من يختلفون

إلى قصورهم، ولا تزال البيوت القديمة إلى اليوم في الشام تفاخر بما عندها من مجموعات الصيني والقاشاني والسلاح القديم والحلي والأواني الفضية والذهبية القديمة على كثرة ما طرأ على القطر من الحوادث التي عزت فيها الحاجيات دع الرغبة في الكماليات. وكان اقتناء هذه البدائع في هذه الديار من دلائل الظرف وآيات التعين والرياسة، كما كان اقتناء الكتب في قرطبة بل في حلب ودمشق إلى عهد قريب .

كان الفاتحون يغنمون في جملة ما يغنمون الطرائف البديعة وأدوات الزينة والتحف. هكذا فعل تيمور فحمل معه من دمشق صناع هذه البدائع وما أبدعوه، وهكذا فعل سليم العثماني فاتح مصر فنهب منها أجمل آثارها التي استطاع حملها وزين بها قصره وقصور جماعته في القسطنطينية. وذكر المؤرخون أن بعض ملوك الأندلس من العرب كانوا يعرضون في قصورهم التماثيل الجميلة من غير نكير، وفيها صور الآدميين وغيرهم .

وكان أهل أوربا زمن الحرب الصليبية وبعدها يتنافسون فيما يجلبونه من الأقمشة والبسط وأدوات الزينة من الشام، ولما جاء القرن الأخير أخذوا ينقلون إلى متاحفهم ما أبقته صنع الأيدي من أهل المدنيات القديمة من تماثيل ونصب وأحجار زُبر عليها رقم، وفي بعض متاحف أوربا ولا سيما في متحف اللوفر في باريز والمتحف البريطاني في لندرا ومتحف برلين ومتاحف إيطاليا وغيرها كثير مما عثر عليه الباحثون من العاديات الحجرية في اليمن والشام ومصر ولا سيما من الديار الشامية. وقد أخذت عادياتنا تسافر من أرضنا منذ أخذ علماء الآثار يبحثون في سهولها وجبالها، وما كتبه كثير من علماء المشرقيات والعاديات في القرن التاسع عشر دليل يؤيد ذلك، وقد نشروا أبحاثهم في كتب خاصة ومقالات لهم في المجلات الأثرية والعادية والعلمية .

أما نحن سكان هذه الديار فلم تكن لنا عناية بهذا الشأن بل قلّ جداً من اهتدى إلى الاحتفاظ بما خبأته الأيام في بطون هذا الصقع. وكنا أزهد الناس فيها حتى نقلت آثارنا ونفائسنا أمام أعيننا كما نقلت مخطوطاتنا ونحن ضاحكون مستبشرون، وانتفع بها القوم هناك وأكملوا بها تاريخ المدنية، ولما وقع الانتباه في الحكومة العثمانية أخذت تمانع بعض الشيء في نقل هذه التحف

والطرف، ونقلت بعض ما عثر عليه من المصانع في خرائب صيدا وتدمر وغيرها فزينت بها متحف الاستانة. وقد ندب بعض علماء الآثار من الإنكليز وحفروا بطرق عجيبة مغارة الصخرة في المسجد الأقصى فذهب ما فيها ولم يعلم عنه شيء .

وكم من بعثة أثرية قامت بحفريات وأخذت ما عثرت عليه ولم تأخذ الدولة العثمانية حقها منه ولسان حال الباحثين ما ورد في الأمثال العربية «لا يحزنك دم ضيعه أهله».وقد طلب منها في مؤتمر الصلح بباريز إعادة ما أخذته هي وألمانيا خلال الحرب العامة من هذه الديار من الآثار. وفي ذلك برهان على مكانة العاديات في نظر الغربيين .

ولقد كنا نزين للحكومة التركية منذ ست وأربعين سنة أن تنشئ لدمشق متحفاً صغيراً تجعل فيه العاديات وبدائع الصنائع ، فكان عمالها يتشاغلون عن ذلك لأنهم يحبون أن يكون كل فضل في الاستانة، وأن تكون سائر الولايات قرى ومزارع للاستعمار على طريقتهم، حتى إذا نادت سورية بالحكومة العربية صحت عزيمة هذه على إنشاء متحف فاتخذت له سنة(١٣٣٧هـ – ١٩١٩م) دار المدرسة العادلية من أجمل قصور الفيحاء، وأخذت تجمع بعناية المجمع العلمي ما بقي من الآثار النفيسة. فهو أول متحف عربي في هذه الديار ، سار القائمون به على قدم الغربيين في نظامه، ثم بني له بناء خاص في غربي المدينة في المرج الأخضر واغتنى في أسرع مدة غنى يغبط عليه بما اكتشف المنقبون عن العاديات من علماء الغرب .

حياة المتحف العربي بمعاضدة الأمة له. ولم يقصر بعض من لديهم مثل هذه التحف والطرف في إهدائها لتجعل في دار آثار الأمة عنوان ارتقائها ونموذجاً على معرفتها بتاريخها. لا جرم أن هذا المتحف هو البذرة الأولى التي ألقيت في هذه التربة المخصبة المهيأة لأنواع النماء والإثراء يستفيد منه أهل الأجيال الخالفة ما يغني غناءه في تربية عقولهم وعيونهم وأناملهم ويعتبرون بماضي الصناعة عند الأقدمين ، وما كان لأجدادنا من الأيادي البيضاء في الفنون الجميلة بين المحدثين .

نشأة علم الآثار(*) :

عنيت الأمم منذ القديم بالفنون الجميلة، وكان حظ كل أمة من هذا الشأن بحسب رقيها وحضارتها. كان الأفراد يجمعون الآثار ويتنافسون باقتنائها لا لغاية علمية بل للزينة والتفاخر. ودام هذا حالهم حتى سنة (١٧٦٤م) لما ظهر كتاب تاريخ الفن عند الأقدمين لمؤلفه وانكمان الألماني، وهو أول من وضع أسس هذا العلم الحديث .

إن علم الآثار القديمة فرع من فروع التاريخ، ومن أصعبها مراساً، إذ يحتاج صاحبه إلى قوة انتباه وذوق سليم. فإن هذا العلم لا يقتصر فيه فقط على جمع الآثار القديمة في المتاحف ووصفها، بل يتطلب حل رموزها وفهم كنهها، واستجواب تلك الشهود الصامتة، واستنتاج الحقائق منها .

ولقد أصبح النظر في أبحاث علماء الآثار وتحقيقاتهم محتماً على كل مؤرخ ومحقق، ويستنير بها كل لغوي ومفسر. وكم معضلة تاريخية ولغوية حسمت بفضل هذا العلم. وها هي كلمة فرعون التي لا يجهل اليوم الأحداث معناها، ذهب المتقدمون من علماء اللغة في تفسيرها مذاهب حتى قام علماء الآثار فأظهروا وثائق تثبت أنها لقب كل من ملك مصر. وكم من حوادث جاءت في كتب السلف وفي الكتب المنزلة فذهب الناس في تأويلها، وشك بعضهم في صحتها، ولولا علم الآثار الذي أماط عنها اللثام، وأظهرها للعيان ملموسة محسوسة، لقالوا: إنها أساطير الأولين. أليست جهود الذين اكتشفوا آثار آشور والكلدان ومصر وفارس ويونان وبعثوا ذكرها بعد أن كانت نسياً منسياً ألوفاً من السنين، شاهداً عدلاً على أخبار تلك الممالك .

لم يدون الأقدمون غير النزر اليسير الذي وصلهم من أخبار الشعوب القديمة، وأغفلوا ذكر أكثر الأمم البائدة التي ذهبت أخبارها بزوال أصحابها، ولو اكتفينا بهذه النصوص المشوهة لما كنا أوفر حظاً ممن تقدمنا بمعرفة أخبار السلف، وبفضل هذا العلم نعرف اليوم أخبار أكثر هذه الأمم، كما نعرف حوادث الأمم في القرون الوسطى، وقد توصلوا لمعرفة ما كان عليه الإنسان

(*) وضع هذا الفصل الأمير جعفر الجزائري .

قبل عشرات الألوف من السنين، يوم كان يأوي إلى الكهوف، ويقتات بالنبات ، ويفترس الوحوش، مع أننا نجهل ونحن في القرن العشرين كثيراً من عقائد بعض الشعوب الضاربة في مجاهل إفريقية وهي معاصرة لنا .

ومن الإنصاف أن لا ننكر فضل من نقلوا إلينا أخبار القدماء لأن هذا الشيء اليسير هو الذي أثار في فئة من الناس حب الاستطلاع ،وكانت هذه النصوص نوراً يستضاء به ، ومرجعاً يستأنس به. وعلماء الآثار أصدق الناس في هذه الروايات،وهم وإن لم ينكروا وقوعها فلا يجزمون بصحتها إلا متى عثروا على دليل من ذلك العصر يؤيدها. ولأبحاث علماء الآثار ميزة جديرة بالاعتبار فإنها تكون في أكثر الأحايين منزهة عن الأغراض والغايات النفسانية. وقد يخطئ الأثري في استنتاجه، ولكنه لا يعتمد تشويه الحقائق، لأن همه الوحيد أن يحيي هذا الماضي البعيد، ويصبح معاصروه كأنهم يعيشون في ذاك العصر وذاك المحيط. ومن منا لا يشعر بمثل هذا الشعور عندما يزور متحفاً أو معبداً أو أطلالاً قديمة. وكيف يمكنه أن ينكر الحقيقة ولسان حال هاته الأمم البائدة يقول :

إن آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

لقي هذا العلم الحديث إقبالاً عظيماً في الغرب فعنيت حكوماتها به، وأرصدت للمشتغلين به أموالاً طائلة، وأنشأت له المدارس والمجامع العلمية أسوة ببقية العلوم. وقد أبدى الأثريون على قلة عددهم نشاطاً عظيماً، ووضعوا في برهة قصيرة كثيراً من المؤلفات المفيدة. وقد نال الشام قسط وافر من هذه الأبحاث، فهي أول بقعة اتجهت نحوها الأنظار وخصوصاً فلسطين، لمكانة الشعوب التي استوطنتها منذ الزمن الأطول، وأهمهم الشعب الإسرائيلي، لعلاقة الأمم الغربية بكتابهم المقدس .

البعثات الأثرية الغربية :

أوفدت أكثر حكومات الغرب بعثات علمية للتنقيب عن آثار الشام نخص منها بالذكر البعثة الإفرنسية التي رافقت حملتها في سنة(١٨٦٠م) والجمعية الإنكليزية للبحث عن آثار فلسطين. ثم تضاعفت الهمم فجاء من

الفرنسيين رنان والدوق دولوين ودوسلسي ودوفوكوين وكلرمون غانو ودوسو وفانزان وغيران، ومن الإنكليز روبنسون ومادن وسايس وويلسون وفارين، ومن الألمان أوتوتينيوس، ومن السويسريين ماكس فان برشيم . وأهم الأمكنة التي نقبوا فيها هي تل الحسي وتل زكريا وتل الصافي وتل الجديدة وتل الجزر وتل تعناك وتل المتسلم وعكا ويافا والقدس وصيدا وصور وجبيل وعمريت وجزيرة أرواد وبعلبك إلى عدة أصقاع في الشام الشمالية.

وبينا هذه البعثات مجدة في عملها، كانت الدولة العثمانية في سبات عميق مكتفية بمراقبة هذه البعثات لاقتسام الغنيمة وإيداعها متحف الاستانة الوحيد. ولم تفكر بعمل حفريات قط ، كما أنها كانت تأبى إنشاء فروع لمتحفها في الشام أو في غيرها من السلطنة العثمانية، وحجتها في ذلك أن الآثار إذا جمعت في مركز واحد، وضم بعضها إلى بعض نتجت من ذلك فوائد علمية وعملية لا ترجى من تعدد دور الآثار، وذلك أسوة بمتاحف أكثر الأمم الغربية، وعملاً برأي أكثر علماء الآثار. ولكنها تجاهلت بأن ما يصلح لأرض لها وحدة تاريخية لا يعمل به في أرض ضمت تحت لوائها شعوباً مختلفة ومدنيات متباينة كالامبراطورية العثمانية .

ولذلك كان جل اهتمام الدولة العثمانية مصروفاً إلى إنماء متحف الاستانة فأهملت أمر الآثار القديمة في ديارها، ولم تعهد إلى أناس يتعهدونها أو يراقبون سيرها، فدرس كثير من البنايات الأثرية البديعة، وأقبل الأهلون في كل ناحية ينقبون عن الآثار القديمة بغية الاتجار بها. فأصبحت هذه التجارة ذات شأن في القطر، وغصت متاحف أوربا بآثار الشام، واقتنى غواة العاديات الأجانب كثيراً منها. وبهذه الصورة وبفضل الامتيازات الأجنبية تمكنت كل من الجامعة الأميركية والكلية اليسوعية في بيروت وغيرهما من المعاهد من إنشاء متحف خاص، وجمع الدكتور فورد في صيدا، وغيره في حلب من الأجانب مجاميع مهمة من آثار الشام. ولم يعرف من الشاميين من اشتهر بجمع الآثار القديمة وكانوا لا يعبأون بها، ولا يقيمون لها وزناً. ومن كان منهم يملك طرفة أو أثراً يتنازل عنها مقابل دريهمات معدودة، حتى تجردت أكثر البيوت والأسر من نفائسها .

آثارنا وآثار جيراننا :

ولقد تبين من الحفريات التي أجريت في الشام ومن الآثار التي اكتشفت فيها أن آثارها تختلف كثيراً عما وجد من نوعها في الأقطار المجاورة، ولا يرجى أن نعثر في هذه الديار على آثار تثير بجسامتها إعجاب العامة قبل الخاصة، كما هو شأن آثار مصر وآشور وفارس. والسذاجة في الصناعات تغلب على الشاميين منذ القديم، وهذا ناشئ عن طبائعهم ومعتقداتهم. فالشامي في جميع أدواره التاريخية يميل إلى الساذج، وهذا يظهر في صناعته وفلسفته الدينية، وتتجلى في هذه البساطة مواهبه الفنية، جمع بين الساذج والجميل فأحسن الصنع وأبدع. وتقل الآثار المنقولة النفيسة التي اكتشفت في الشام بالنسبة لما وجد في غيرها من الأقطار، وهذا القليل يشهد ببراعة الصانع الشامي وذوقه السليم، حاز بهما مكانة بين أقرانه من فناني بقية الشعوب .

وليس معنى قلة العاديات عدم انتشارها في القطر، بل لأنها لم تصل إلينا لأسباب وعوامل شتى. ذلك أن تربة الشام رطبة لا تحفظ ما يودع فيها. وأن الشاميين قلما يجعلون في مدافن موتاهم نفائسهم، كما هو شأن المصريين وغيرهم من الأمم القديمة. بل يكتفون بالأشياء الساذجة المنوعة. فإذا أضفنا إلى خلو القبور من الأعلاق، وما قد كتبه اشمونزار ملك صيدا على تابوته مخاطباً به نابشي القبور، ناصحاً لهم أن لا يهتكوا حرمته ، مؤكداً أن لا ذهب ولا فضة في قبره — ندرك من هذا سرّ ندرتها بين أيدينا. فإذا كان هذا حال ملوكهم فما بالك بالرعية. وخلو القبور منها هو حجة للشام لا عليها، ودليل على سمو عقيدة سكانها، ونضج فكرتهم منذ القديم، لأن الشامي كبقية الشعوب السامية يغلب عليه الاعتقاد بأن الجسم مادة تتلاشى مع الزمن ليست جديرة بالإكرام الذي يبالغ به غيرهم من الشعوب. ومع هذا فقد انتشرت في الشام عادة وضع بعض الأشياء في القبور وذلك بمؤثرات خارجية، واقتباس عادات الغالب، والشام في أكثر أدوار تاريخها خضعت لسلطان أجنبي .

الشام معهد ثلاث ديانات يدين بها اليوم معظم البشر. وهذه الديانات

لم تكن ابنة ساعتها، بل هنالك عوامل مهدت لها السبيل مدة قرون عديدة قبل ظهورها. ولذلك يهم كلاً منا معرفة تطورها .

وهذا ما يزيد في مكانة آثار الشام ويجعل إقبال العلماء عليها أكثر من سواها لعلاقتها الكبيرة بنظامنا الاجتماعي الحاضر. وقد أدركت جمعية الأمم هذا الأمر واحتاطت له خوفاً من المزاحمة واستئثار دولة بهذه الآثار دون سواها، فاشترطت في المادة (١٤) من صك الانتداب أن القانون الذي سيسن لحماية العاديات يجب أن يستمد روحه مما يدعو إلى التنشيط أكثر منه إلى التثبيط، كما أنها اشترطت على الحكومة المنتدبة عند منحها إجازات بالحفر أن لا تتصرف بشكل يرمي إلى حرمان علماء أي شعب كان تلك الإجازات دون أسباب موجبة، وهكذا أصبح الباب مفتحاً لجميع الأمم .

تأسيس دور الآثار :

وقد تضاعف نشاط البعثات الأثرية الأجنبية عقب الهدنة في سنة (١٩١٨)، وأظهرت قيادة جيوش الحلفاء في الشرق عناية كبرى بالآثار، وعهدت للإخصائيين في جيوشها بدرس آثار الشام ورفع التقارير عنها، وشددت النكير على العابثين بها. ومن جملة مقررات المؤتمر الفرنسي الذي عقد في مرسيليا سنة (١٩١٩) للبحث بشؤون الشام العامة اقتراح على الحكومة الفرنسية بإنشاء ديوان للآثار القديمة، والتشبث باسترجاع ما أخذته الحكومة العثمانية من آثار الشام، وقد حققت المفوضية الفرنسية في الشام الاقتراح الأول، فأنشأت لها ديواناً للآثار القديمة، وحذت المفوضية الإنكليزية حذوها في فلسطين وشرق الأردن .

ولم تكن الشام في عهد الملك فيصل أقل عناية من تينك الدولتين. فقد اغتنم هذه الفرصة بعض المفكرين وفي مقدمتهم الأستاذ مؤلف « خطط الشام » فاقترحوا على الملك إنشاء متحف في دمشق، فقوبل هذا الاقتراح بارتياح عظيم. وما لبث الملك أن أصدر أمره بذلك إلى الأستاذ بأمر تحقيقه على أن يكون فرعاً للمجمع العلمي العربي الذي أسسه الرئيس أيضاً. وأنشأت الحكومة السورية متحفاً آخر في حلب، وأنشأت حكومات لبنان وجبل الدروز والعلويين

متاحف في بيروت والسويداء وطرطوس، وكذلك أنشأت كل من حكومتي فلسطين والشرق العربي متحفاً جعلته الأولى في القدس والثانية في عمان . وجميع هذه المتاحف نمت بسرعة عظيمة بفضل ما اشترته واستهدته من الآثار، وما نالها مما اكتشفته البعثات الأثرية في مناطقها فأصبحت الشام بتشجيع الحكومات المحلية والساطات المنتدبة ساحة عمل دولي كبير .

وقامت البعثات الفرنسية بالبحث عن الآثار في صيدا وأم العواميد وكفر الجرة وبيروت وجبيل والقرية ولبيا في منطقة الحكومة اللبنانية، وفي السويداء وقنوات والشهباء، وفي تل النبي مند (قدش القديمة) وفي المشرفة (قطنا القديمة) والنيرب وأرسلان طاش والقصر الأحمر، وقامت بعثتان مختلطتان بأعمال التنقيب في قلعة الصالحية (دوراسا أو روبوس القديمة) على شاطئ الفرات، وفي مدينة تدمر. وتحرت البعثة التشكوسلوفاكية آثار الشيخ سعد وتل أرفاد، ونقبت بعثة ألمانية في رأس العين شمالي الشام. وحصرت البعثات الإنكليزية والأميركية أعمالها في منطقة فلسطين والشرق العربي، فنقبوا عن الآثار في تل (مجدو القديمة) وبيسان وسبسطية (سمرة القديمة) وسيشم وبيت جبرين والقدس والتابغة وجرش .

متحف دمشق :

تختلف مجموعة دار الآثار في دمشق عن مجاميع متحف الشام للعناية التي بذلتها بآثار القطر الشامي على اختلاف أدواره التاريخية وخاصة العهد الإسلامي. وحريّ بدمشق عاصمة الأمويين، ومهد الحضارة العربية، أن يكون لها متحف يحيي ذكرى هذا الماضي المجيد. ورغم ندرة العاديات الإسلامية المنقولة في ربوع الشام وأسعارها الباهظة، تمكنت دار الآثار من جمع أعلاق قيمة. منها مجموعة نقود إسلامية، ومجموعة خزف عربي، ومجموعة مصاحف مخطوطة ومذهبة. ومجموعة خشبية أخص بالذكر منها جانباً من سدة جامع من خشب الحور الرومي آية في جمال الصنع وحسن الذوق، مزينة بنقوش عربية بديعة، وكتابات قرآنية كوفية مزهرة متناسقة جميلة جداً، وقد كتبت في أعلاها هذه الفقرة: « بن محمد بن الحسين بن

علي صفي أمير المؤمنين تقبل الله منه وذلك في شهور سنة سبع وتسعين وأربعمائة » وتابوت مزين مجموع بشكل حشوات صغيرة منقوشة نقشاً بديعاً وقد كتب على جوانبه « هذا ضريح الست الجليلة الكبيرة المعظمة الملكة فخر الخواتين عصمة الدنيا والدين، بختي خاتون ابنة السلطان الملك معز الدين قيصرشاه ابن السلطان السعيد الشهيد ملك ملوك الروم والأرمن قليج أرسلان قدس الله روحه ونور ضريحه، وذلك في مستهل ربيع الأول سنة ثمان وأربعين وستمائة » وبين مجموعة الكتابات الحجرية لوحتان سلجوقيتان كتب عليهما تاريخ ترميم جانب من جامع بني أمية في شهور سنة(٤٧٥) وأخرى أيوبية تاريخها سنة(٥٧٥) ومجموعة وافرة من شواهد قبور أمراء الشام وعلمائها في القرن السابع والثامن هـ. ومما يلفت النظر جرة من رخام أبيض، وعلى القسم الأسفل منها نقوش عربية وعهدها من القرن الثامن للهجرة . وأخرى من الفخار عليها نقوش أشخاص وحيوانات وطيور وزهور محكمة الصنع وكتب في وسطها هذه العبارة (عز وإقبال وسلامة وسعادة وكرم وغبطة ورفعة)، وهذه الجرة فريدة في بابها وهي من صنع العراق في القرن الثالث عشر (م) .

ومن أهم الآثار غير الإسلامية مجموعة زجاجية وهي أجمل مجموعات العالم، ومجموعة مهمة من الآثار التدمرية وهناك رأس تمثال أحد عظماء الحثيين يرجع عهده للألف الثانية قبل الميلاد. ونصب الفرعون سيتي الأول وعليه ذكر انتصاره على الحثيين، وطائفة من الآثار الرومانية واليونانية .

متاحف بيروت والسويداء وحلب وطرطوس والقدس وعمان :

وجمع في متحف بيروت كثير من الآثار الفينيقية وغيرها أهمها الأواني والحلي التي عثر عليها في مدافن جبيل وفي أقبية معبدها. ويرجع عهد بعضها إلى الألف الثالثة وبعضها إلى ١٨٠٠ سنة قبل الميلاد منها ناووس الملك أحيرام المتوفى في القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وقد نقشت على جوانبه صورة الملك يتناول القرابين من أتباعه وبعض الشعائر الدينية، وهو قائم على أربعة

أسود . ومما يزيد في شأن هذا الأثر الكتابة الفينيقية التي زُبرت عليه وهي أقدم كتابة عرفت من نوعها حتى اليوم وهذه ترجمتها « عمل هذا الأران (التابوت) افسبعل بن احرام ملك جبيل لأبيه كي يكون مقره الأبدي، فإذا نصب ملك من الملوك أو حاكم من الحكام العداء لجبيل وأخرج هذا التابوت من تحت التبليط فيكون خاتور خصمه فيدك عرش ملكه ويعم الخراب جبيل إذا محا هذه الكتابة .... » وبين هذه الآثار آنية خزفية نقش عليها اسم الفرعون امنمعحت الثالث (١٨٥٠ — ١٨٠٠) قبل المسيح . وآنيتان عليهما أسم امنمعحت الرابع وآنية من الرخام جميلة الصنع مع غطائها، وكتب عليها بالهيروغليفية ما يأتي : « خدام الإله ابن الشمس فليعش امنمعحت إلى الأبد » وصندوق صغير للحلي من حجر كريم أسود محلى بالذهب وشكله على طراز الناووس وعلى الغطاء كتابة هيروغليفية هذه ترجمتها : « فليعش الإله بون سيد الأرضين ملك مصر البحرية والقبلية مع خرون راع المحبوب من ثوم سيد هيليوبوليس الممنوحة له الحياة الأبدية ». وجمع في هذا المتحف مقدار كبير من الفخار أهمه الأواني التي عثر عليها في كفر الجرة ويرجع تاريخ صنعها إلى الألف الثاني قبل الميلاد. ولآثار جبيل مكانة تاريخية عظيمة وهي من أهم ما عثر عليه حتى الآن في الشام .

وكان في متحف السويداء مجموعة حجرية نفيسة أكثرها من العهد اليوناني والروماني ضاع معظمها مع الأسف إبان الثورة السورية. ومتحف طرطوس حديث العهد ليس فيه إلا مجموعة صغيرة ليست ذات شأن كبير. وأما متحف حلب فلم يخصص له مكان بعد، ولكن مجاميعه جاهزة ستحفظ فيه متى هيئ لها المكان. وأكثر هذه الآثار حثية وأشورية من التي استخرجت في حفريات أرسلان طاش وتل الأحمر وتل أرفاد والنيرب .

وفي متحف القدس مجاميع خزفية ومعدنية تبين تطور نهضة فلسطين والأدوار التي مرت عليها في أهم عصورها التاريخية، كما أنه يحتوي على عدد من النواويس من العهد اليوناني والروماني وأجملها مما نقش عليه صورة معركة بين اليونان والنساء المترجلات (أمازون) وطائفة آثار من الحجر البركاني من عهد الفرعون سيتي الأول ورعمسيس الثالث التي وجدت في

بيسان. وقد حفظت قطع الجمجمة التي وجدت في التابغة ويرجع عهدها إلى ما قبل التاريخ. وأما مجموعة متحف عمان فأكثرها مما يرجع تاريخه إلى العهد الروماني والبيزنطي.

وبعد فقد عرفنا بما تقدم مقدار العناية التي بذلتها البعثات الأجنبية بآثار الشام غير الإسلامية وإعراضهم عن هذه الأخيرة. لا جرم أن معظم الآثار الإسلامية في القطر محفوظة في الجوامع والمساجد والمدارس تحت إشراف ديوان الأوقاف. ولذلك يتحاشى الأجانب ما أمكن أن يثيروا عواطف عوام المسلمين حتى إن السلطات المنتدبة تركت لدوائر الأوقاف حرية التصرف بهذه الأماكن المقدسة. وقد اكتفت بأن تسدي إليها من حين إلى آخر النصائح لبذل العناية بهذه الآثار. ولكن أكثر هذه الدوائر في شغل شاغل عنها. فكل يوم نسمع بضياع أثر أو تشويهه لا عن قصد منهم بل لأنهم لا يقدرون قيمة ما هو تحت أيديهم، حتى أصبحت أكثر هذه الأمكنة الأثرية في حالة يخشى عليها من الاندراس، وبذلك يفقد القطر هذه المفاخر التي تشهد بمدنية السلف العظيمة في أزهى العصور الشامية. فعسى أن تحذو الشام حذو شقيقتها مصر وتؤلف لجنة للآثار الإسلامية تعنى بجمعها وتتفقد شؤون الأبنية منها.

وقد أنشأت الجمهورية الفرنسية في دمشق معهداً إفرنسياً لدرس الآثار وخاصة منها الإسلامية على منوال المعهد الإفرنسي في القاهرة. وقد سبق للبعثات الأجنبية أن أسست في القدس معاهد لدرس الآثار مثل المدرسة الأثرية الفرنسية، والمدرسة الأثرية الإنكليزية، والمدرسة الأميركية للأبحاث الشرقية، ولهذه المعاهد فضل كبير بكشف غوامض تاريخ الشام القديم.

لم تدع السلطتان الفرنسية والإنكليزية في منطقتي سورية وفلسطين باباً إلا وطرقتاه لنشر الدعاية في الممالك الأجنبية عن آثار الشام ومكانتها. وقد تجلى ذلك في دعوتهم لمؤتمر الآثار الدولي الذي عقد في سورية وفلسطين في شهر نيسان سنة (١٩٢٦) فكانت نتائجه مرضية. وبفضل هذه الدعاية نرى عدد السياح بازدياد في كل سنة. ولا شك أن الشام إذا صرفت العناية بفنادقها وطرق مواصلاتها تصبح مقصد السياح من أهل الأرض، وتجني من ذلك فوائد مادية وأدبية لا تقدر.

دور الكتب

نشأة الكتب :

عرفنا من سير القدماء أنهم كانوا يقيدون علومهم ومآثرهم وتواريخهم وأيامهم في صنوف من المواد، تكون على مقربة منهم، وتكثر في أرضهم وديارهم. فالبابليون كتبوا كتبهم على الآجر أي بالطين المشوي، وكتب الهنود على النحاس والحجارة والحرير الأبيض والطومار المصري، والعرب عمدوا إلى أكتاف الإبل واللخاف، أي الحجارة البيض الرقاق وعسب النخل. وبقي الأمر على ذلك حتّى شاع الورق المعمول من الكتان في خراسان وسمرقند وبغداد ودمشق، منذ القرن الأول للهجرة على ما يظهر .

ولما شاع الورق قُضي على الرّق لسهولة تناول القرطاس والمُهرق، وهي الصحيفة البيضاء يكتب فيها. وكان من الحرير الأبيض ما يسقى الصمغ ويصقل ثم يكتب فيه، وقد اعتمدوا عليه قبل القراطيس بالعراق، وكتب بعض أهل الغرب في صفائح من معدن رقيق. وكان أهل فرغامة في الروم أول من استنبطوا الرّق، كانت له تجارة رابحة بارت بظهور الورق، وكانت الكتب في العراق تجعل في جلود دباغ النورة أي الكلس، وهي شديدة الجفاف، ثم كانت الدباغة الكوفية، تدبغ الجلود بالتمر وفيها لين ولا رائحة لها .

ولما فتح الإسكندر فارس كان العلم منقوشاً مكتوباً في صخور وخشب. فأخذ حاجته منها وأحرق الباقي. ولما تولى أردشير بابك وابنه سابور على فارس والعراق جمع ما تفرق من الكتب فيهما، واستنسخ من الهند والصين والروم

كتبهم .ولما ملك بَطَلميوس (بطولوماوس) فيلادلفوس من ملوك الإسكندرية فحص عن كتب العلم فعهد إلى رجل اسمه زُميرة فجمع من ذلك على ما حكي أربعةً وخمسين ألف كتاب ومائة وعشرين كتاباً. وقال له: قد بقي في الدنيا شيء كثير في السند والهند وفارس وجرجان والارمان وبابل والموصل وعند الروم. وذكروا أن النعمان ملك الحيرة أمر فنسخت له أشعار العرب في الطُّنوج أي الكراريس فكتبت له ثم دفنها في قصره الأبيض، فلما كان المختار ابن عُبيد قيل له: إن تحت القصر كنزاً فاحتفره فأخرج تلك الأسفار. قالوا: فمن ثم كان أهل الكوفة أعلم بالأشعار من أهل البصرة . وبلغ من عناية ملوك الفرس بصيانة العلوم، وحرصهم على بقائها على وجه الدهر، وإشفاقهم عليها من أحداث الجو وآفات الأرض، أن اختاروا لها من المكاتب أصبرها على الأحداث، وأبقاها على الأيام، وأبعدها عن التعفن والدروس، فكتبوا في لحاء شجر الخدنك، ولحاؤه يسمى التّوز، وكانت تعمل منه القسي، وبهم اقتدى في ذلك أهل الهند والصين ومن يليهم من الأمم .

ولما حصل الفرس العلوم طلبوا لها من يفاع الأرض أصحها تربة وأقلها رطوبة، وأبعدها من الزلازل والخسوف ،وأعلكها طيناً، وأبقاها على الأيام بناء ، يقيمون فيها خزائنهم ودور كتبهم فاختاروا مدينة جيّ من عمل أصفهان جعلوها في قُهُندرز أي حصن، فانهارت هذه المصنعة في الإسلام فظهروا فيها على أزج معقود من طين الشقيف، أي بيت مستطيل من الخزف، فوجدوا فيها كتباً كثيرة من كتب الأوائل مكتوبة كلها في لحاء التوز بالكتابة الفارسية القديمة،وقالوا: إن الفرس كانوا يودعون كتبهم في سارويه، أحد الأبنية الوثيقة القديمة المعجزة البناء، وتشبه الأهرام في الجلالة وإعجاز البناء، وكانت الكتب تكتب على صفحة صفحة أي من وجه واحد .

هذا ما يؤخذ من كلام ابن النديم وغيره في منشإ الكتب عند القدماء، ومع هذا لم تحفظ لغات الأقدمين لولا ما وجد منها مكتوباً على الأحجار، وكان بعض تلك اللغات اندثر في القرون الأخيرة حتى لا يحلها إنسان، مثل اللغة الهيروغليفية لغة قدماء المصريين المقدسة فعثروا في رشيد من ثغور مصر

في سنة (١٨٢٦) على حجر كان مكتوباً بالهيروغليفي والديموطيقي واليوناني، فحل شمبوليون الخط الهيروغليفي، وهو الخط الخاص بالآثار عند قدماء المصريين، وكان الخط المعتاد عندهم الخط الهيراطيقي يكتبون به حاجاتهم العادية وفنونهم وآدابهم. وهذا يكتب على البَرْديّ بقلم من البوص المعروف بالغاب، يغمس في مداد أسود أو أحمر ومنه أدراج طويلة قد يبلغ طول الواحدة منها ثلاثين متراً، ومنها نماذج حفظت في متاحف الغرب ومتحف مصر، وكذلك ما عثروا عليه في رسائل تل العمارنة في المنيا بمصر في سنة (١٨٨٨) وقد كتبت بالآجر بالحروف المسمارية البابلية، وفيها سجلات الدولة في عهد فرعون مصر أمينوفيس الرابع وأبيه أمينوفيس الثالث، وانحلت بهذه الآجرّات عُقد من التاريخ القديم استدل بها على علاقة الشام بمصر.

ومثل ذلك يقال في الأثر النفيس الذي اكتشفه أحد أمراء روسيا في تدمر سنة (١٨٨٢) وانحلت به مشاكل كثيرة من الحضارة التدمرية. وقد حل الخط التدمري بارتلمي، واكتشف دوسو في الجنوب الشرقي من النمرة في الصفا حجراً مكتوباً بالخط الآرامي وهو بالعربية، وحل لغة الصفا بيمان وهاليفي. واكتشفت في البتراء المصانع المكتوبة بالآرامية، وحلّ علماء الآثار اللغة الحميرية السبئية في اليمن. وحلّ لغة البابليين دي مورغان، ومن أهم ما عثر عليه من آثارهم مسلّة عظيمة عملت بمسحوق الحجر البركاني وقد زُبرت عليها شريعة حمورابي أحد أعاظم ملوك البابليين، وكان من أصل عربي كما يقول هومل.

وأهم الكتابات الفينيقية التي ظهرت ما وجد مزبوراً على ناووس أحد ملوك صيدا سنة (١٨٥٥)، والخط الفينيقي أشبه بالخط العبراني، والخط المسند هو الذي كتبت به مصانع الفرس القدماء ومصانع أشور وبابل وأرمينية وخوزستان وما إلى ذلك من أرض العراق. ولا يزال العلماء يكتشفون الآثار والعاديات في أرض الشام، وإلى اليوم لم ينحل خط الحثيين أقدم شعوب هذه الديار، ولا يزال علماء الآثار منذ عثر بروكهار في حماة على حجر مكتوب بهذا الخط سنة (١٨١٢) متوفرين على حل هذا القلم وقد ظفروا بكثير من آثار الحثيين في هيرابوليس أو قرقميش عاصمة الحثيين وفي طرابلس

وحلب وأرفاد وحمص وغيرها .

ومعنى كل هذا أنه لم يصل إلى أهل العلم الحديث بعد تطاول الأعصار من تلك اللغات القديمة إلا ما كان مزبوراً على الأحجار والآجر، ثم ما كان على الخشب والرّق ثم الورق، وكانت للعرب في الكتابة على الرّق والورق يد طولى نقلوا بواسطتهما ما أمكن من علوم القدماء، وأعطوه لأهل الحضارات الحديثة بأمانة وإخلاص. فالقدماء إذاً وضعوا الكتب أيام عرفوا الكتابة، فكان لبعضهم كالفرس واليهود والهنود كتب مقدسة، وخلف الرومان واليونان تواريخ وقصائد وخطباً ومقالات فلسفية. قال سنيوبوس: وقلما نجد في الكتب المواد اللازمة لمباحثنا إذ ليس لدينا كتاب أشوري ولا فينيقي . أما ما بقي من أسفار الشعوب الأخرى فتافه جداً. وكان القدماء يكتبون ولكن أقلّ منا، ولذلك كانت تآليفهم أندر، ولم يكن لهم من كل مصنف غير نسخ قليلة لما أن الحال كانت تقضي باستنساخها كلها باليد، وقد دثر غالب هذه النسخ أو ضاع وتعذرت قراءة ما بقي منه، ويسمى علم حلها باليوغرافيا أي علم الخطوط والكتابات القديمة .

نشأة الخزائن والعناية بحفظها :

عرفنا بما تقدم أننا لا نستطيع أن نحكم على العصور التي سبقت الإسلام في الشام في أمر الكتب والخزائن فلا أنطاكية نطقت بما كان فيها من علوم القدماء، وانتقلت إليها من حران والإسكندرية، ولا بيروت ولا مدرسة الفقه التي كانت فيها قبل الإسلام، اطلعتانا على ما كان فيهما من خزائن وأسفار، فإن أخبار هاتين المدينتين أنطاكية وبيروت انطمست منذ القديم كما انطمست معالمهما بالزلازل المدهشة التي قضت على دور العلم فيهما، وأتت أيضاً على مدن برمتها في العصور الأولى للإسلام، والزلازل كالحريق تتلف الكتب وتدمر دورها .

ثبت أن العرب لم يدونوا في الجاهلية شيئاً من مآثرهم بالعربية، لأن الخط العربي محدث انتقل إليهم من الأنبار قُبيل الإسلام، ولكنهم كانوا أول من أسرع إلى التدوين خارج جزيرتهم، ولاسيما في العراق والشام أوائل الإسلام.

ومن أهم الكتب القديمة في الشام مصحف سيدنا عثمان الذي أرسله عام ثلاثين للهجرة إلى دمشق ليكون الاعتماد عليه كما أرسل مثله إلى الأمصار الكبرى في الأقطار الأخرى. والغالب أنه نقلت عنه عدة مصاحف عُدّت من الأمهات منها ما جعل في طبرية، ومنها ما وضع في قنسرين. وكثرت النسخ بعد ذلك، لكن هذه المصاحف ذهبت في الحريق الذي أُصيبت به الجوامع في عصور مختلفة، وكلما حرق مصحف قديم قال القوم: إنه مصحف عثمان، والأصح أن يقال المصحف المنقول عن مصحف عثمان. وحدثني الشيخ مسعود الكواكبي أنه تشرف غير مرة بزيارة مصحف كتب عليه حرره عثمان بن عفان وهو محفوظ في مكتبة جامع أياصوفيا في الاستانة .

ثبت أن أول خزانة كتب في الإسلام أُنشئت في دمشق أو في حلب أنشأها حكيم آل مروان خالد بن يزيد الأموي المتوفى سنة خمس وثمانين، ولم يصل إلينا من أخبارها شيء، ولا شك أنها كانت تحوي بعض العلوم التي نقلها من القبطية واليونانية والسريانية، في الكيمياء والطب والنجوم وغيرها، وربما كان فيها شيء من كتب الجغرافيا لأنه ثبت مما قاله ابن السنبدي الذي زار خزانة الكتب بالقاهرة في سنة(٤٣٥هـ)أنه كان فيها كرة من نحاس من عمل بَطلَميوس، كتب عليها حملت هذه الكرة من الأمير خالد بن يزيد ابن معاوية. وقال: إنه كان في تلك الخزانة من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة ستة آلاف وخمسمائة جزء . ولا شك أن خزانة خالد بن يزيد كان فيها أيضاً كتاب عَبيد بن شَرْيَة الجرهمي الذي كان استحضره جده معاوية من صنعاء اليمن وسأله عن الأخبار المتقدمة، وملوك العرب والعجم، وسبب تبلبل الألسنة، وأمر افتراق الناس في البلدان. فأجابه إلى ما أراد، فأمر معاوية أن يُدوَّن وينسب إلى عبيد بن شرية . ولعبيد كتاب الأمثال وكتاب الملوك وأخبار الماضين. وهذا من أول التدوين في النصف الأول من القرن الأول . ولوهب بن منبه المتوفى سنة(١١٠) أو ١٤ أو ١٦ تصنيف ترجمه بذكر الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم، رآه ابن خلكان في القرن الثامن وقال: إنه من الكتب المفيدة .

وجاء القرن الثاني والشام تهتز أعصابها بانتقال الملك من بني أُمية إلى

بني العباس فلم يؤثر عنها أنه كان فيها خزانة كتب، ولا عرف أحد من الخاصة بأنه كان مولعاً بجمع الأسفار، فكانت الكتب القليلة التي لهم تجعل في الجوامع أو في بعض دور الخاصة على ما كانت الحال في أكثر المدن الإسلامية. وإذ وقع التدوين في القرن الأول لم يدخل القرن الثاني حتى كثرت الكتب، وقد ورد في سيرة الزهري المتوفى سنة (١٢٤هـ) أنه كان إذا جلس في بيته وضع كتبه حوله مشتغلاً بها عن كل أحد، فقالت له زوجته: والله لهذه الكتب أشد عليّ من ثلاث ضرائر. وهذا دليل على تكاثر الكتب حتى صارت للزهري مجموعة منها ينصرف إليها بكليته، وامرأته تريده على أن يكون لها فقط. وكل هذه الكتب لم تبق الأيام عليها. والغرب كان أمهر منا في الاحتفاظ بما دون فإن أقدم كتاب في أوربا يرد إلى القرن الثاني للمسيح.

ولم يعرف قبل عهد الرشيد والمأمون أن جمعت الكتب في خزانة وسميت دار الحكمة أو بيت الحكمة أو بيت المعرفة. وكانت دار الحكمة أشبه بجامعة فيها دار كتب يجتمع فيها رجال يتفاوضون ويطالعون وينسخون. ويدير شؤون تلك الدور من يثق الخليفة بعقلهم وأمانتهم وعلمهم. كان هذا في القرن الثاني واعتوره في القرن الثالث بعض الفتور، وظل بيت الحكمة في القرنين الرابع والخامس في بغداد مفتح الأبواب. وأنشأ أحد وزراء العباسيين أبو نصر سابور بن أردشير في القرن الخامس داراً بالكرخ في بغداد سماها دار العلم، وقفها على العلماء ونقل إليها كتباً كثيرة. وأنشأ الفاطميون في القاهرة دار العلم في القرن الرابع تشبهاً بالعباسيين في بغداد، أنشأها الحاكم بأمر الله سنة (٤٠٠) وفرشها ونقل إليها الكتب العظيمة وأسكنها من شيوخ السنة شيخين. قال ابن قاضي شهبة: وبقي الحاكم كذلك ثلاث سنين ثم أخذ يقتل أهل العلم وأغلق دار العلم. ولم تعهد الشام دار حكمة إلا في القرن الخامس أنشأها بنو عمار في طرابلس. وكان في كل من كفرطاب والمعرة في زمن أبي العلاء المعري خزانة كتب وقد زارهما كما زار خزانة طرابلس. وهذه الخزانة كانت قبل خزانة بني عمار بمدة خلافاً لما وهم بعض المؤلفين المعاصرين، لأن بني عمار لم يستولوا على طرابلس إلا بعد الأربعين وأربعمائة.

وكان أبو العلاء زار طرابلس قبل هذا التاريخ أي في أواخر القرن الرابع، وانتفع بخزانتها وكتبها الموقوفة.

وكانت في الشرقية التي بجامع حلب خزانة كتب مهمة اسمها خزانة الصوفية. واتفقت فتنة في بعض أيام عاشوراء بين أهل السنة والشيعة ونهبت خزانة الكتب، ولم يبق في خزانة الكتب إلا قليل. قال ابن العديم: وجدد الكتب بعد ذلك الوزير أبو النجم هبة الله بن بديع وزير الملك رضوان ثم وقف غيره كتباً أخر. وقد ذكر ابن سنان الخفاجي (٤٦٦) هذه الخزانة في قصيدته اليائية التي كتبها من القسطنطينية يداعب أحد أصدقائه قال فيها :

أبلغ أبا حسن السلام وقل له   هذا الجفاء عداوة الشيعية
فلأطرفن بما صنعت مكابراً   وأبثّ ما لاقيت منك شكية
ولأجلسنك للقضية بيننا   في يوم عاشوراء بالشرقية
حتى أثير عليك فيها فتنة   تنسيك يوم «خزانة الصوفية»

وقد ظلت هذه الخزانة في حلب عامرة إلى القرن السابع وهي مسبلة على المطالعة، ولم يعلم هل كانت الخزانة المهمة التي أنشأها في حلب سيف الدولة بن حمدان وجمع فيها الأمهات الجيدة عامةً للناس أيضاً كخزانة الصوفية أم هي خاصة به وبجماعته في قصره، وقد اشتهر عنه ولوعه بالكتب إلى الغاية. وناهيك بخزانة كان من جملة خزانها الخالديان الشاعران المشهوران. وربما ذهبت هذه الخزانة في هجمة الروم على حلب وتخريبهم قصر سيف الدولة.

وقلّت عناية الملوك بخزائن الكتب، لما كثرت المدارس في هذه الديار في القرن الخامس «اكتفاء بخزائن كتب المدارس التي أثبتوها من حيث أنها بذلك أمسّ» ولم تكد تخلو مدرسة من المدارس في الشام من خزانة كتب. وكان لحلب ودمشق والقدس الحظ الأوفر من ذلك، لو لم تنازعها طرابلس التي كان يراد من إنشاء دار الحكمة فيها نشر التشيع على ما يقال، وساعد على كثرة الكتب في طرابلس ما كان فيها من معمل الورق الجيد. وقد عرفنا أن معامل الورق كانت تخرج الكاغد والقراطيس والطوامير الجيدة في طرابلس ودمشق وحلب ومنبج وطبرية وغيرها من المدن. ومن أشهر خزائن الملوك والأمراء في القرن السادس والسابع خزانة الكتب التي

وقفها بحلب نور الدين محمود بن زنكي على مدرسته وسلمت إلى محمد بن علي ابن ياسر الجياني الأندلسي ، زميل ابن عساكر مؤرخ دمشق، وأجريت عليه جراية ثم وقف كتبه على أصحاب الحديث توفي سنة(٥٥٣)ووقف نور الدين على البيمارستان الذي أنشأه بدمشق جملة كثيرة من الكتب الطبية كما وقف كتباً كثيرة على أهل العلم في أرجاء مملكته .

وأعطى صلاح الدين يوسف لمؤدب ولده الأفضل أبي سعيد البندهي (أو البنجديهي) كتباً كثيرة من خزانة كتب حلب، أباح له أن يأخذ منها ما شاء، وهذا جمعها وحصل من الكتب التي لم تحصل لغيره، ووقفها بخانقاه السميساطي بدمشق. وكثيراً ما كان صلاح الدين يبيح لرجاله أن يأخذوا ما شاءوا من الكتب التي وقعت إليه، كما فعل في مصر وأعطى وزيره القاضي الفاضل من خزانة الفاطميين قدراً كبيراً من كتبها، وأعطى عماد الدين الكاتب أيضاً بعض أسفارها، وكان في هذه الخزانة على ماقيل ألف ألف كتاب وفيها من تاريخ الطبري فقط ألف ومائتا نسخة. فبيعت خزانة الفاطميين وتشتتت على هذه الصورة ولم يكن في ديار الإسلام أعظم منها . ووهب صلاح الدين القاضي الفاضل ما شاء من كتب خزانة آمد لما فتحها وكان فيها ألف ألف وأربعون ألف كتاب فانتخب منها الفاضل سبعين حملاً. وهذه الألوف من الكتب التي ملكها القاضي الفاضل وقفها بعد على إحدى مدارس القاهرة وكان هو وابنه من غلاة الكتب .

ومن الخزائن التي كانت بالشام خزانة علي بن طاهر السلمي النحوي (٥٠٠) كانت له حلقة بالجامع بدمشق ووقف فيه خزانة كتب. وكان لتاج الدين الكندي في الجامع الأموي خزانة كتب فيها كل نفيس. ووقف شرف الدين بن عروة الموصلي المنسوب إليه مشهد ابن عروة في الجامع الأموي خزائن كتبه فيه . ومن الخزائن خزانة بني جرادة العلماء في حلب فقد كتب أحدهم أبو الحسن ابن أبي جرادة (٥٤٨) بخطه ثلاث خزائن من الكتب النفيسة وخزانة لولده أبي البركات وخزانة لابنه عبد الله. ومات موفق الدين ابن المطران(٥٨٧) وفي خزانته من الكتب الطبية وغيرها ما يناهز عشرة آلاف مجلد خارجاً عما استنسخه. وكان في خدمته ثلاثة نساخ يكتبون له أبداً ولهم

منه الجامكية والجراية. ومات أمين الدولة السامري وقد اجتمع عنده نحو عشرين ألف مجلد لا نظير لها في الجودة. وكان مهذب الدين الدخوار صاحب مدرسة الطب بدمشق من أهل القرن السابع اقتنى كتباً كثيرة، واقتنى من آلات النحاس التي يحتاج إليها في علم الهيأة والنجوم ما لم يكن عند غيره أي إنه كان عنده مرصد فلكي وخزانة كتب .

وجمع جمال الدين بن القفطي (٦٤٦) في حلب ما لا يوصف من الكتب، وكانت خزانته تساوي خمسين ألف دينار. وكانت خزانة قطب الدين النيسابوري مهمة وقفها على إحدى المدارس بدمشق. وكان الملك الناصر ابن الملك المعظم عيسى (٦٥٦) معنياً بتحصيل الكتب النفيسة، وكان جمع قبله محمد بن عمر ابن شاهنشاه صاحب حماة وابن صاحبها من الكتب ما لا مزيد عليه، وكان في خدمته ما يناهز مائتي متعمم من الفقهاء والأدباء والنحاة والمشتغلين بالحكمة والمنجمين والكتاب (٦١٠) ووقف الملك الأشرف موسى (٦٣٥) كتبه بالمدرسة الأشرفية بدمشق، واشتهرت في هذا القرن خزانة ابن أبي أصيبعة وتلميذه ابن القف بدمشق. ومن خزائن القرن الثامن والتاسع والعاشر التي بلغنا خبرها خزانة أبي الفداء صاحب حماة فإنه جمع من الكتب سبعة آلاف مجلد وقفها على جامع الدهشة. ولم يقم في هذا القرن بعد الملوك من بني أيوب أحد من الأمراء عُني بالكتب وتسبيلها على المطالعة، فالقرن الثامن كان خاتمة هذه الحركة المباركة في الشام .

ومن الخزائن في هذه الحقبة خزانة ناصر الدين العسقلاني (٧٢٣) فقد خلف ثماني عشرة خزانة مملوءة كتباً نفيسة. واقتنى ابن قيم الجوزية تلميذ ابن تيمية خزانة مهمة. وملك عمر القرشي الدمشقي (٧٩٢) من نفائس الكتب شيئاً كثيراً. ووقف تقي الدين اليلداني أكثر كتبه ومجاميعه بالخزانة الفاضلية بالكلاسة بدمشق سنة (٦٥٥) وحصل شمس الدين البعلي كتباً وكتب بخطه المليح شيئاً كثيراً (٧٧٤)، وخلف الفتح الفارقي (٦٩٤) ألفي مجلدة ومائتي مجلدة. وكانت خزانة ابن رواحة الحموي (٦٢٢) في مدرسته بدمشق. وخلف بدر الدين ابن غانم الدمشقي ألفي مجلدة. واجتمع لشرف الدين البارزي الحموي (٧٣٨) من الكتب ما لم يجتمع لأهل عصره. وكانت

خزانة أرغون نائب حلب (٧٣١) عامرة بالكتب النفيسة. ومن الخزائن المشهورة خزانة ابن فضل الله العمري وابن مالك النحوي وابن خلكان المؤرخ .

واقتنى بعض ولاة العثمانيين في الشام كتباً نفيسة بطرق مختلفة ومنهم سنان باشا صاحب الجامع خلف مائة وستين مصحفاً مرصعاً بالدر والجوهر وخمسة وثلاثين صندوقاً مملوءة بالكتب التي لا تقدر بثمن، وكانت الصناديق مرصعة باليواقيت والمعدن. وكل هذا أخذه صاحبه من اليمن والشام وغيرها ونقل إلى الاستانة. وكان في القرن العاشر في الجامع الأموي بدمشق خزانة كتب خاصة بالمالكية والأمين عليها مفتي أهل هذا المذهب. ووقف علي الدفتري من أهل القرن الحادي عشر كتباً نفيسة غالية بدمشق. وكان لبولس الزعيم اللبناني من أهل القرن السابع عشر للميلاد خزانة مخطوطة .

ولم يبلغنا أن قامت للكتب سوق في وراء جنوب دمشق من الأرجاء إلى أقصى حدود الشام،مع أن بعض أقاليمها أنجبت علماء أجلاء مثل قمرا وامتان وعُرّمان ونجران وشهبة وصرخد وبُصرى والصلت ووادي الأردن وجبل الشراة وعمّان ومعان والشوبك وعجلون وأذرعات وجرَش والسويداء.

وبعد فقد كانت الوراقة أو صنعة الكتب من نسخ وتجليد وتذهيب صناعة رائجة ومن أهم الصناعات في العهد القديم، والناسخ يرزق بقدر إجادته الخط أو الخطوط التي يعرفها ويحسنها. وكذلك المجلد والمذهب يكافأ كل واحد منهما بحسب غنائهما. وكان كثير من العلماء يكتبون الخط المنسوب أي الخط ذا القاعدة وينسخون نسخاً لا بأس به ويعيشون من نسخهم. ومنهم من كانوا يتعففون عن القضاء، أو تولي شيء من أمر الأمة، ويؤثرون أن يعيشوا بالنسخ أو الوراقة أو الاتجار بالكتب، ومنهم من أثروا منها. وكان في كل حاضرة سوق لبيع الكتب يختلف إليه العلماء والأدباء. ومن العلماء من نسخوا المئة بل المئات من الكتب، ومنهم من نسخ ألف مجلد في حياته. ولم يكد الكتاب يخرج من يد مؤلفه خصوصاً إذا كان من المشاهير الثقات حتى تتعاوره الأيدي بالنسخ، ويتنقل من قطر إلى قطر، ويتداول في الأيدي، ويجلد ويوضع في القماطر .

وقد جاء زمن على دمشق (من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر)

وكل مدرسة من مدارسها الكثيرة لا تخلو من خزانة وافية بغرض الأساتيذ والتلاميذ. ومن أهم المدارس التي حوت خزائن ذات شأن العمرية والعروية والناصرية والعادلية والأشرفية. جاء في فتاوى التقي السبكي صك وقف دار الحديث الأشرفية هذا: ويصرف إلى خازن الكتب ثمانية عشر درهماً في كل شهر وعليه الاهتمام بترميم الكتب، وإعلام الناظر أو نائبه ليصرف فيه من مغل الوقف ما يفي بذلك، وكذلك إذا مست الحاجة إلى تصحيح كتاب أو مقابلته. وجاء فيه: وجعل جزءاً من الوقف يصرف على مصالح المدرسة النورية ومن ذلك أن يصرف في شراء ورق وآلات نسخ من مركّب (حبر) وأقلام ودويّ ونحو ذلك ما يقع به الكفاية لمن ينسخ في الديوان الكبير أو قبالته الحديث أو شيئاً من علومه أو القرآن العظيم أو تفسيره، ويصرف إلى من يكتب في مجالس الإملاء، وإلى من يتخذ لنفسه كتباً أو استجازة، ولا يعطى من ذلك إلا لمن ينسخ لنفسه لغرض الاستفادة والتحصيل دون التكسب والانتفاع بثمنه. قال: وللشيخ الناظر أن يستنسخ للوقف أو يشتري ما تدعو الحاجة إليه من الكتب والأجزاء ثم يقف ذلك أسوة ما في الدار من كتبها. وكتب سنة ستمائة واثنتين وثلاثين اهـ .

وكان رهبان الموارنة في لبنان منذ القرن الخامس عشر يصرفون أوقات فراغهم في نسخ المخطوطات الدينية والعلمية وكان بعض بطارقتهم وأساقفتهم يحملون الشمامسة الرهبان وغيرهم على نسخ الكتب يزيدون بها مجاميع الأديار والبيع في الجبل ويتقيلون في ذلك مثال إخوانهم علماء المسلمين في المدن. وبهذه الطريقة كانت تنمو الكتب والأيدي تتناولها على أيسر وجه كأنها بعض المقدسات. وكأن القوم كانوا يتعبدون الله بحفظها وإماطة الأذى عنها وتجليدها وتخليدها، وخدمتها بالتعليق عليها ومعارضتها بالنسخ الصحيحة ووضع الفهارس لها بحسب عرفهم في تلك الأيام، يتخيرون لها ما يبقى ويخلد طويلاً من الورق المتين والمركب الجيد والجلد النفيس المجود الدبغ لندرتها، والنادر موضع العناية وهو خليق بأن تشد عليه يد الضنانة وتحتفظ النفوس به وتغتبط بتعاور الأيدي عليه من دون أن يناله سوء من عوادي الدهر .

مصائب الكتب ودورها :

ما برحت خزائن الكتب تزيد على الزمن بازدياد الحضارة في الإسلام وتنتقل الكتب من مصر إلى الشام، ومن الشام إلى العراق، ومن الحجاز إلى الشام مثلاً، ويُعنى بها العلماء والأدباء، ويتنافس في اقتنائها الملوك والأمراء، ويضعف الغرام بها يوم تضعف الحركة العلمية ويُرغب عن الفضائل، ما برحت الحال على ذلك حتى دخل الروم حلب وأحرقوها سنة (٣٥١) ثم أحرقوا حمص وغيرها من المدن. ثم وقع الحريق الأعظم الذي في الجامع الأموي سنة (٤٦١) ودثر ما كان فيه من الكتب والمصاحف. وربما حرق فيه المصحف العثماني القديم. ومن أهم النكبات التي أُصيبت بها الكتب نكبة طرابلس لما فتحها الصليبيون وإحراق صنجيل أحد أمرائهم كتب دار العلم فيها، وأخذ الصليبيون بعض ما طالت أيديهم إليه من دفاترها وكتب الخاصة في بيوتهم. واختلفت الروايات في عدد المجلدات التي كانت في خزانة بني عمار أو دار حكمتهم في طرابلس، وعلى أصح الروايات أنها ما كانت تقل عن مائة ألف مجلد، وأوصلها بعضهم إلى ألف ألف وبعضهم إلى أكثر. وقفها الحسن بن عمار وجاء بعده علي بن محمد بن عمار الذي جدد دار العلم سنة (٤٧٢) ثم عمار بن محمد حتى صارت طرابلس كما قال ابن الفرات في زمن آل عمار جميعها دار علم، وكان في تلك الدار مائة وثمانون ناسخاً ينسخون لها الكتب بالجراية والجامكية، فضلاً عما يشترى لها من الكتب المنتخبة من الأقطار. وابن الفرات هو ممن يقول بأن عدد ما كان في دار العلم هذه من الكتب نحو ثلاثة ملايين كتاب عند ما أحرقها الصليبيون سنة (٥٠٣هـ). والغالب أنه كان في طرابلس من الكتب الموقوفة غير دار العلم وقفت قبل بني عمار، وأراد ابن الفرات بهذه الثلاثة آلاف الألف عدد الكتب التي كانت في مكاتب طرابلس كلها.

ولا ينبغي أن يذهب عن الخاطر أن ما كانوا يسمونه جزءاً أو مجلداً أو مجلدة لا يتجاوز بضع كراريس من كراساتنا، والكُراسة قد لا تكون أكثر من ثماني صحائف بمعنى أن ألف المجلدة أو المجلد لا تبلغ في مصطلحنا

أكثر من خمسين كتاباً أو ستين أو سبعين كتاباً، فكان المجلد في تلك العصور قليل الأوراق، لأن الورق أو الرَّق غليظ فإذا جعل كل مجلد مئتين أو ثلاثمائة أو أربعمائة أو خمسمائة ورقة يصعب تناوله وحمله ونقله ولا يصح ما قاله ابن الفرات من أنه كان في دار العلم في طرابلس ثلاثة آلاف ألف يوم نكبتها إلا على هذه الصورة، أي إن كتبها كانت بين المائتين وثلاثمائة ألف ومنها أجزاء صغيرة ورسائل، وقد يكون الجزء من كتاب لا تتجاوز سطوره سطور مقالة من مقالاتنا أو إملاءة من أمالينا أو محاضرة أو مسامرة من محاضراتنا ومسامراتنا .

فالمصيبة الأولى العظمى التي أصابت الكتب في الشام كانت على عهد الصليبيين والمصيبة الثانية ما حملهمنها التتر في نوبة هولاكو وما أُحرق في مدارس دمشق وجوامعها من أمهاتها، فقد ذكر المؤرخون أنه امتلأت خزانة الكتب بمراغة بما نهبه هذا الطاغية من الشام والعراق وغيرهما. وقدر ما حمله بأربعمائة ألف مجلد، ومنها ما حرق في فتنة غازان سنة(٦٩٩) وفي وقعة تيمور سنة (٨٠٣) فان النار ظلت تحرق دور دمشق ومدارسها وجوامعها في الفتنة التيمورية ثلاثة أيام، فذهب في هذين الحريقين وغيرهما كتب المدرسة الضيائية والمدرسة العادلية وغيرهما من المدارس .

ومن الخزائن التي دمرت في الحروب الصليبية خزانة أُسامة بن منقذ أحد أصحاب قلعة شيزر فإنها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة أرسل بها بعد أن أخذ عهداً من الصليبيين من دمياط إلى عكا في بطسة فنهبت ونهب معها ثلاثون ألف دينار قال: إن ذهابها حزازة في قلبه ما عاش. ومن مصائب الكتب ما وقع من حريق في دار صاحب حماة سنة (٦٨٧) ذهب فيه من الكتب مقدار عظيم .

ومنذ دخل الصليبيون الشام أخذوا على ما يظهر يقتنون الكتب العربية ولكن على صورة ضعيفة لأن العلم بها كان معدوماً عندهم ، يبتاعونها على أنها عاديات قديمة غريبة الشكل، ولما لمعت في القرن السادس عشر شعلة النهضة في إيطاليا أراد البابوات اقتناء الكتب العربية، فندبوا لذلك بعض العارفين من رهبان الموارنة وحملوا إلى رومية من أديار لبنان ما كان محفوظاً فيها

من كتب الدين والعلم بالعربية والسريانية. وحمل يوسف السمعاني من لبنان (١٧٦٨م) كتباً في ثلاثة مراكب إلى رومية ملأها بالمخطوطات العربية وغيرها فغرق منها مركبان.

ومن المصائب التي أصيبت بها الكتب أن بعض دول أوربا ومنها فرنسا وجرمانيا وبريطانيا العظمى وهولاندة وروسيا أخذت تجمع منذ القرن السابع عشر كتباً تبتاعها من الشام بواسطة وكلائها وقناصلها والأساقفة والمبشرين من رجال الدين، وكان بلغ الجهل ببعض من اتسموا بشعار الدين ومن كان يرجع إليهم أمر المدارس والجوامع أن يفضلوا درهماً على أنفس كتاب فخانوا الأمانة واستحلوا بيع ما تحت أيديهم أو سرقة ما عند غيرهم والتصرف به تصرفهم بملكهم. حدثني الثقة أن أحد سماسرة الكتب في القرن الماضي كان يغشى منازل بعض أرباب العمائم في دمشق، ويختلف إلى متولي خزائن الكتب في المدارس والجوامع، فيبتاع منها ما طاب له من الكتب المخطوطة بأثمان زهيدة وكان يبيعها على الأغلب، وأكثرها في غير علوم الفقه والحديث، من قنصل بروسيا إذ ذاك بما يساوي ثمن ورقها أبيض، وبقي هذا سنين يبتاع الأسفار المخطوطة من أطراف الشام حتى اجتمع له منها خزانة مهمة رحل بها فأخذتها حكومته منه وكافأته عليها، والغالب أن معظم الكتب العربية المحفوظة في خزانة الأمة في برلين هي من هذا القطر. وفهرس هذه الخزانة فقط في عشرة مجلدات ضخمة ما عدا الملحق. يتألف من فهارس الكتب العربية في خزائن الغرب اليوم خزانة برأسها. وإن بعيداً يحسن القيام على هذا التراث الوافر لأحرى به من قريب يبدده جزافاً. وإن أمماً عرفتنا أكثر مما عرفنا أنفسنا حتى قال أحد علمائهم: إن العرب وضعوا من المصنفات ما لا يستطيع أحدنا أن يقرأه طول عمره، لجديرون بإرث الشرق في مادياته ومعنوياته كما قلنا من فصل في مجلة المقتطف منذ أربع وأربعين سنة. نعم إن كتباً تترك للأرضة تعيث فيها، والعفن يعبث بجمال جسمها ورسمها، وتحرم النور ويعفّي أثرها الغبار والأوساخ، ويحرم النظر فيها على من يحسن الاستفادة منها، أو تُفضّل عليها دريهمات معدودة حرية بأن تكون في ملك من يستفيد منها ويفيد.

ومن الخزائن المشهورة التي بعثرت في عهدنا ولم نعرف متى جمعت خزانة قبة صحن الجامع الأموي،وكانت مملوءة برقوق نفيسة فتحت سنة (١٣١٧هـ)بأمر السلطان عبد الحميد الثاني إجابة لمقترح الامبراطور غليوم الثاني الألماني فعثروا فيها على قطع من الرقوق كتبت فيها سور من القرآن الكريم بالخط الكوفي، ومنها قطع مهمة من مصاحف وربعات وقطع من الأشعار المقدسة بالآرامية الفلسطينية وكتابات دينية وأدبيات دينية وقصص رهبانية ومزامير عربية مكتوبة بالحرف اليوناني ومقاطيع شعرية لأوميروس، وكراريس وأوراق بالقبطية والكرجية والأرمنية في موضوعات دينية، وجذاذات عبرانية وسامرية فيها نسخ من التوراة وتقاويم أعياد السامريين وصلوات وصكوك للبيع والأوقاف وعهود زواج وبينها مقاطيع لاتينية وإفرنسية قديمة وقصائد شعرية يرتقي عهدها إلى أيام الصليبيين ونسخ إنجيل برقوق. فأهدى السلطان بعضها لعاهل ألمانيا ووزع قسم منها على بعض رجال الاستانة ورجال دمشق واستخلصت بعض قطع منها حفظت الآن في دار الآثار في دمشق وأهمها تلك القطعة الكوفية المكتوبة على رق من ربعة شريفة وقفها عبد المنعم بن أحمد سنة(٢٩٨)وعلى الوجه الثاني نقش مذهب باسم واقفها. ورأى شيخنا طاهر الجزائري في تلك القبة جزءاً مكتوباً عليه أنه حبس على مشهد زين العابدين صلوات الله عليه وعلى أبنائه الأئمة سنة نيف وسبعين وأربعمائة .

وكانت في دير صيدنايا من جبل قلمون خزانة كتب حافلة بالمخطوطات النادرة ولا سيما السريانية،فحاذر وكلاء الدير من كثرتها (المشرق ٢ ص ٥٨٨)أن تكون حجة بيد السريان يتقوون بها على إثبات حقوقهم في الدير، فأجمع رأيهم على إخراجها وإتلافها تخلصاً منها،فجمعوها ومعظمها من النفائس المخطوطة على رق وبدأوا يحرقونها وقوداً للفرن خبزوا عليها خبزتين وكان هذا من نحو عشرسنين ومئة سنة. وهو عمل مثّل الجهل المطبق والتعصب الممقوت. وكم وقع من حوادث إفرادية من مثل هذه فضاعت فيها الكتب ولم تبلغنا تفاصيلها. ومما أعان على تشتت الكتب أن بعض من أولعوا في العهد

العثماني بتسنم ذرى المناصب والقضاء، وكان لهم مشاكل وقضايا يريدون حلها في المراجع العليا أو لمجرد التقرب والتظرف كانوا يُمعنون في مهاداة من يتوقعون الخير منهم بالكتب، وبذلك رحلت إلى الاستانة وغيرها أحمال من المخطوطات على هذا الوجه أيضاً فعدت هذه الهدايا في جملة مصائب الخزائن .

خزائن اليوم وأهم ما حوت :

من أهم الخزائن في الشام خزانة المسجد الأقصى في القدس وفيها نصف مصحف قديم بخط كوفي كتب عليه « كتبه محمد بن الحسن بن الحسين ابن بنت رسول الله » وإحدى ثلاث نسخ من مصحف مجزإ ثلاثين جزءاً كتبها بيده أحد ملوك المغرب ابن عبد الحق على رَق وهي مجلدة على الطريقة المراكشية وموضوعة في صندوق مزخرف بالميناء على الطريقة الأندلسية . ومصاحف كبيرة جداً وصغيرة كتبت في عهد المماليك وملوك بني عثمان . ومن كتبها « نشق الأزهار » لابن إياس و« حوادث الجو » لمؤلف مجهول و« كتاب المعرفة والتاريخ » رواية ابن درستويه عن ابن القطاف .

ومن خزائن القدس مكتبة القبر المقدس ودير الروم ومكتبة دير الدومنيكان ومكتبة الآباء البيض ومكتبة دير الفرنسيسكان ودير الأرمن وخزانة الآثار الأميركية والآثار الإنكليزية ومكتبة المجمع العلمي الأثري البرتستانتي والجامعة العبرية والمكتبة الحنبلية ومكتبة الشيخ الخليلي ومكتبة البديري، وأهمها المكتبة الخالدية العمومية أنشأها في القدس راغب الخالدي من أعيان تلك المدينة بمشورة أستاذنا طاهر الجزائري ومعاونته وقد بلغت نحو أربعة آلاف مجلد، منها نحو ثلثيها من المخطوط وزادت زيادات كثيرة بما أضيف إليها من خزانة الأسرة الخالدية. جعلت سنة (١٣١٨هـ ١٩٠٠م) على مقربة من المسجد الأقصى في مقبرة أحد الأمراء . ومن نوادرها « أنموذج العلم » للمولى شمس الدين محمد بن حمزة الفناري المتوفى سنة (٨٣٤هـ) ذكر فيه أصول مائة علم. « الطبقات السنية في تراجم الحنفية » عليه خط مؤلفه تقي الدين بن عبد القادر المصري التميمي الداري المتوفى سنة (١٠١٠هـ). « الشعور بالعور » للصلاح الصفدي المتوفى سنة (٧٦٤)

في ذكر العلماء الذين أصيبوا بفقد إحدى عينيهم. « منادح الممادح وروضة المآثر والمفاخر في خصاص الملك الناصر » وهو المعروف بالمدبجات لعبد المنعم الجلياني (٦١٣). « مختصر حياة الحيوان » لجلال الدين السيوطي (٩١١). « قهوة الإنشاء لابن حجة الحموي » (٨٣٨) وهو مجموع رسائله. « اختصار السيرة النبوية » لمحيي الدين بن عربي (٦٣٨). رواية ولده أبي سعيد وولده أبي بكر بن أبي المعالي محمد وابنته فاطمة عنه. « نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين » لمرعي الحنبلي (١٠٣٣). « رونق الحفاظ بمعجم الألفاظ » للحافظ يوسف سبط أحمد بن علي بن حجر وعليه خط الحافظ قاسم بن قطلوبغا (٨٧٩) وهو المجلد الثاني ويرجح أنه بخط مؤلفه . « مثير الغرام بفضائل القدس والشام » لسرور المقدسي (٧٦٥) وفي آخره حواش فيها أسماء بعض تواريخ القدس. « إتحاف الأخصا في فضائل المسجد الأقصى » لمحمد أبي شرف الشافعي المصري (٩٠٦). « شاناق في السموم والترياق » لشاناق الهندي نقله من لغته الهندية إلى الفارسية منكه الهندي نقل للمأمون على يد العباس بن سعيد الجوهري مولاه وهو في معرفة السموم والترياق وهي نسخة ملوكية. « الوسيط » للواحدي (٤٦٨) الجزء الثالث منه . « عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير » لابن سيد الناس اليعمري (٧٣٤). « أرجوزة محمد بن أحمد الباعوني » (٨٧١) في التاريخ وقعت في نحو ألف بيت من الهجرة إلى الملك برسباي. « تعاليق شهاب الدين أحمد بن الهائم » على الخصائص النبوية بخط أحمد الشهير بابن الهائم (٨١٥). « تقويم أصول الفقه وتحديد أدلة الشرع » للدبوسي (٤٣٠). « مجموعة رسائل لابن كمال باشا » (٩٤٠). « تأويل مشكل الأحاديث والرد على الملاحدة والمعطلة وأهل الأهواء المبتدعة » من إملاء أبي بكر محمد بن حسن بن فورك (٤٠٦). « إيضاح الإشكال في من أبهم اسمه من النساء والرجال » أي رواة الحديث للحافظ محمد بن المقدسي (٥٠٧). « كتاب الأربعين الأبدال التساعيات » للبخاري ومسلم للحافظ عبد المؤمن الدمياطي (٧١٧). « ارتياح الأكباد بأرباح فقد الأولاد » للسخاوي. « كتاب قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام » لأحمد بن محمد بن عمر القدسي الشهير بابن زوجة أبي عذيبة .

« كتاب التبيان في إعراب القرآن » لأبي البقاء العكبري (٦١٦). « دمية القصر وعصرة أهل العصر » للباخرزي (٤٦٧) ذيل يتيمة الدهر للثعالبي .

ومن الخزائن المهمة في غزة خزانة المفتي ،وفي يافا الخزانة الإسلامية وخزانة أبي نبوت وفي أرباض حيفا خزانة دير الكرمل وفيها صكوك قديمة لها علاقة بالدير. ومن الخزائن الخاصة في القدس خزانة عبد الله مخلص وفي عكا خزانة جامع الجزار وفي نابلس خزانة آل الجوهري وخزانة آل صوفان وفي صفد خزانة آل النحوي وفي جبل عامل خزانة آل خاتون وإبراهيم يحيى والشيخ زين الدين وآل الصغير وأحمد رضا .

وأهم خزائن لبنان خزانة آل أرسلان في عبيه وخزانة جرجس صفا في دير القمر وخزانة دير الشرفة ودير السير ودير المخلص ودير البلمند وعين تراز وقزحيا وبزمار واللويزة ومار أشعيا ودير يوحنا مارون بكفرحي. وكان في بعض أديار اليسوعيين في لبنان مخطوطات نقلوها إلى ديرهم في بيروت كما نقلت المخطوطات المهمة في القرون الماضية من أديار الموارنة في الجبل إلى رومية العظمى .

ومن خزائن بيروت الخزانة الشرقية للآباء اليسوعيين وخزانة الجامعة الأميركية معظمها بالإنكليزية ومجموعة دار الكتب الكبرى في بيروت قليلة المخطوطات كثيرة المطبوعات وكان في بيروت مجموعة البارودي من المخطوطات فبيعت كما بيعت مجموعة حيدر أحمد الشهابي ومجموعة جميل العظم ومجموعة رُشَيْد الدحداح في بيروت وغيرها من مجاميع الأفراد التي بعثرت لقلة العناية بالعلم أو لأسباب مادية قاهرة أحياناً . ومن خزائن الساحل خزانة آل كرامة وآل الجسر وآل المغربي وآل السمين في طرابلس، وخزانة آل الأزهري في اللاذقية وخزانة سليمان أحمد في جبل العلويين وخزائن بعض المدارس في أنطاكية. وأشهر الخزائن العامة في حلب خزائن المدرسة الأحمدية والمدرسة الخسروية والمدرسة العثمانية والمدرسة القرمانية وجامع الناصرية والخزانة المارونية والأرثوذكسية والكاثوليكية وخزائن آل الكواكبي والغزي والملاح والزرقا والكتخدا ومنش والأنطاكي والعينتابي وقطر أغاسي ومجموعة سباط. وفي الخزانة الأحمدية بحلب « المباحث المشرقية » للفخر الرازي. و« الوافي » للصفدي و« مختصر

تاريخ الذهبي المسمى بالعيار » و« تاريخ الذهبي » في سبعة مجلدات و « در الحبب في تاريخ حلب » لابن خطيب الناصرية في مجلدين و « التفسير المهمل » للفيض الهندي و« مثير الغرام لزيارة القدس والشام»، ومن مخطوطات المدرسة العثمانية المعروفة بالضيائية بحلب « عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ » للحلبي السمين و« المقدمة السنية للصفدي » و« الدر الثمين في أسماء البنات والبنين » و« الحدائق الأنسية في الحقائق الأندلسية ». وكتاب « الناسخ والمنسوخ للحازمي، وفي خزانة المولوية بحلب « اختلاف الفقهاء » للوزير ابن هبيرة المسمى بشرح معاني الصحاح. وخزانة الجامع الكبير بحلب غنية بالكتب الفلكية وآلات علم الفلك وكان واقفها محمود الجزار وأبوه من علماء هذا الفن. وفي المدرسة البهائية « عيون السير » لابن سيد الناس في السيرة النبوية وحاشية عليه في ثلاثة أجزاء لإبراهيم بن محمد بن خليل سبط ابن العجمي الحلبي. وفي بعض المدارس الحلبية الأخرى كتب متفرقة لكنها غير ذات بال. وفي الكنيس الكبير في حلب توراة مخطوطة قديمة الخط جداً. وفي حماة خزانة نوري الكيلاني في جامع الشيخ إبراهيم ومجاميع الكيلاني. وفي حمص مجاميع آل الأتاسي وخزانة القديس اليان الحمصي وخزانة الخوري عيسى أسعد وخزانة بني الجندي وكامل لوقا. وفي المعرة مجموعة آل الحراكي.

وكان في دمشق عدة خزائن بعثرت منها خزانة آل حمزة، وخزانة الخضرة وآل الحسني وخزانة آل عبد القادر الحسني هدت أسرته كثيراً منها للمجمع العلمي فجعلها في الخزانة الظاهرية. وحرقت خزانة بدر الدين الحسني وخزانة الشمعة وآل مردم بك وخزانة آل القوتلي. وتشتتت خزائن آل الحسيبي والعطار والحلبي والغزي وبايزيد والأيوبي. وخزانة آل السقطي وزعت، وإلى اليوم لا تزال محفوظة خزانة كل من آل الأسطواني وكان أحرق قسم مهم منها في دار سعيد الأسطواني وذلك في حريق سوق الحميدية، وحفظت خزائن كتب آل البيطار وآل القاسمي وعابدين والمبارك وآل النابلسي وآل المنير وآل المرادي ودخل قسم مهم من كتب المنيّر والمرادي إلى دار الكتب الظاهرية. وحملت خزانة طاهر الجزائري وكان فيها الأمهات المحررة إلى مصر فأباعها من دار الكتب المصرية والخزانتين التيمورية

والزكية. ومما حفظ من المجاميع مجموعة البطريركية الأرثوذكسية ومجموعة كنيسة السريان وهما مجموعتان جديدتان جمعتا بعد فتنة سنة(١٨٦٠)التي ذهبت فيها مجاميع الكنائس والأديار في دمشق وبعض لبنان ولا سيما زحلة . وفي بعض البيوت القديمة في دمشق وحلب والقدس بل في معظم المدن القديمة مجاميع قليلة يحتفظون بها ورثوها من أجدادهم ومنهم من لا يرجعون إليها ولا عرفوا مضامينها ويتغالون بحفظها ويتنوقون في رصفها كأنها بعض الآنية اللطيفة والعروض التي يتنافس فيها ونعم الهوى هواها. وأهم الخزائن العامة في الشام خزانة دار الكتب الظاهرية وليست مكانتها منبعثة من كثرة أعداد كتبها بل من النوادر المحفوظة فيها وربما كانت مجموعتها أندر مجموعة في الشام، فيها بضعة آلاف كتاب ورسالة وفيها ما هو بخط مؤلفيه أو مقروء عليهم ومنها القديم جداً بل فيها أقدم كتاب في الشام من القرن الثالث . أنشئت هذه الخزانة سنة(١٢٩٦) بمساعي طاهر الجزائري وسليم البخاري ومعاونة غيرهما من العلماء وكان لمدحت باشا وحمدي باشا والبي سورية يد في جمعها، وأهم رجل من عمال الدولة عطف على هذا المشروع وساعده مساعدة فعلية بهاء بك مدير ديوان الرسائل في ولاية سورية. فجمع ما تفرّق من الأسفار في الخزانة العامة التي أبقت عليها الأيام وبعد ممانعات شديدة ممن يرومون كتم العلم وإبقاء الناس في عماية جمعوا مقداراً من الكتب جعلوها في شطر من مدرسة الملك الظاهر بيبرس قبالة العادلية الكبرى ونصبوا عليها قواماً ووضعوا لها مثل شرائط المكاتب الكبرى فجاءت مؤلفة من ٢٤٥٣ كتاباً منوعة عدا الدشت والكراريس والأوراق المتفرقة. أُخذت من عشر خزائن وهي :

(١ً) خزانة المدرسة العمرية بالصالحية وهي قديمة العهد وقفها بعض أهل الخير ولكن كان الناظر قد سرق جانباً عظيماً منها لا تزال عند أبنائه ومنها ما في الظاهرية الجزء الأول أو الثاني والتتمة أو الأول في دار السارق . (٢ً) خزانة مدرسة عبد الله باشا العظم وقفها سنة(١٢١١)وضم إليها كتباً وقفها والده محمد باشا العظم سنة(١١٩٠).(٣ً) خزانة سليمان باشا العظم وقفها سنة(١١٩٦) كانت بمدرسته بباب البريد.(٤ً)خزانة الملا عثمان الكردي

كانت بمدرسة السليمانية أيضاً. (٥ً) خزانة مدرسة الخياطين وقفها أسعد باشا العظم بعد سنة(١١٦٥)وكان مقرها بمدرسة والده إسماعيل باشا العظم. (٦ً) خزانة المرادية بمدرسة مراد المرادي. (٧ً) مدرسة السميساطية وهي قديمة وقفها بعض أهل الخير. (٨ً) خزانة الياغوشية كانت موضوعة في مدرسة سياوش باشا بالشاغور. (٩ً) خزانة الأوقاف وهي مؤلفة من عدة خزائن حفظت بقاياها. (١٠ً) خزانة بيت الخطابة كانت بحجرة الخطابة بالجامع الأموي. ومن كتب أخرى موقوفة.

وفي زمن رعوف باشا والي دمشق أوائل هذا القرن جمع لها نحو خمسمائة ليرة وابتاع لها مقداراً من الكتب المطبوعة في الغرب وغيرها وجلد بعض كتبها حتى إذا كانت سنة (١٩١٩م) وتألف المجمع العلمي العربي على يد كاتب هذه السطور بذلت العناية بابتياع أو استهداء الكتب المخطوطة والمطبوعة وقليل منها بغير اللغة العربية فناهز عدد الكتب المخطوطة الأربعة آلاف كتاب عدا المجاميع، وعدد المطبوعة الأربعين ألفاً عدا الخزانة التي أعدها المجمع لأعماله في الفروع التي يبحث فيها وهي تربو على أربعة آلاف، وحصلت الفائدة من تنوع الأسفار والمجلات والصحف حتى قدر معدل الداخلين للاستفادة منها كل يوم بمئة إنسان وما زالت عناية المجمع بتكثير كتبها متوفرة، ومن الكتب المخطوطة التي حفظت في دار الكتب الظاهرية «الكواكب الدراري» لابن عروة الحنبلي وهو في أكثر من مئة وعشرين مجلداً في فن التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام والرد على الفلاسفة وأسماء الرجال وعلوم شتى والموجود منه ٤٢ جزءاً. و«الغريب في الحديث» كثير منها أجوبة الإمام أحمد عن أسئلة أبي داود السجستاني كتب سنة مائتين وست وثمانين وهو أقدم كتاب عرف في الديار الشامية. و«البحر المحيط» في أصول الفقه للبدر الزركشي في خمس مجلدات والجزء الأول من «التذكرة» لأميرك من علماء المعتزلة في علم الكلام. والأول أيضاً من «الاشارات الإلهية» لأبي حيان التوحيدي في مخاطبة النفس. والأول من «سر الصناعة» لابن جني في أسرار العربية و«شعب الإيمان» في التصوف والأخلاق لعبد الجليل الأندلسي. و«الرسالة الجامعة» من جمع أصحاب

رسائل إخوان الصفا تقرأ عندهم بعد الرسائل المعروفة. و« الصحائف اليونانية في مخاطبة النفس الإنسانية » و« الضوء اللامع » للسخاوي في تراجم أهل القرن التاسع في خمس مجلدات كبيرة (طبع). والثاني من « مناقب الخلفاء الأربعة » لأبي بكر ابن الطيب الباقلاني. و« جامع بيان العلم وفضله » لابن عبد البر الأندلسي (طبع).والثالث من«الجليس والأنيس»لأبي الفرج المعافا بن زكريا. وكتاب « الأحكام السلطانية » للقاضي أبي يعلى (طبع) و« تفضيل السلف على الخلف » لإبراهيم بن هبة الله و« ديوان خالد الكاتب » (المتوفى في حدود السبعين والمائتين). و« الطب الروحاني » لابن الجوزي في علم الأخلاق(طبع).و« الأطراف فيما يتعلق بالمحدثين »سبع مجلدات للحافظ جمال الدين المزي. و« كتاب الأموال » لأبي عبيد بن سلام الأزدي (طبع). و « تاريخ دمشق » لابن عساكر (المتوفى سنة ٥٧١) في عشرين مجلداً. والجزء الخامس من « الفتاوى المصرية » لشيخ الإسلام ابن تيمية وهي في علوم شتى . و« أخبار الأذكياء » ليوسف بن عبد الهادي (المتوفى ٩٠٩) بخط مؤلفه . و« فهرس الكتب الموقوفة » بخط يوسف بن عبد الهادي بعضها من تصنيفه وبخط يده. « المناقب والمثالب » تأليف هبة الله بن عبد الواحد الخوارزمي . « مساوئ الأخلاق ومذمومها ومكروه طرائقها » لأبي بكر محمد بن جعفر الخرائطي في خمسة أجزاء. « شذرات الذهب في أخبار من ذهب » لابن العماد الدمشقي المتوفى سنة (١٠٨٩) (طبع). « الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة » لابن حجر العسقلاني المتوفى سنة (٨٥٢) بخط إبراهيم البقاعي (طبع). « عقد الجمان في مختصر أخبار الزمان » المنسوب للمسعودي المتوفى (٣٤٣) وهو للشاطبي المتوفى (٨٧٢). (إرشاد السالك إلى مناقب الإمام مالك) ليوسف بن عبد الهادى بخط المؤلف. (طبقات النحاة واللغويين) لابن قاضي شهبة الأسدي ويليه (مختصر النحاة للزبيدي). (المدهش) لأبي الفرج ابن الجوزي المتوفى سنة (٥٩٧). (طبع) (اللطف واللطائف) لأبي الفرج بن الجوزي. (أدب السلوك) لأبي الفضل عبد المنعم بن عمر ابن عبد الله الأندلسي (٦٠٣) مشتمل على مشارع كلمات الحكمة والأدب والأخلاق. (قاموس الأطباء وناموس الألباء) لمدين بن عبد الرحمن القوصوني

المصري من أطباء القرن الحادي عشر للهجرة في المفردات الطبية. (ما لا يسع الطبيب جهله) ليوسف بن إسماعيل المعروف بابن الكبير من أهل القرن الثامن. (منهاج البيان فيما يستعمله الإنسان) لأبي العباس يحيى بن عيسى الكاتب الملقب بالرئيس الأجل المتوفى (٤٩٣) وهو في جزئين دخلا في مجلد واحد. (خلاصة تحقيق الظنون في الشرح والمتون) تأليف محمد بن مصطفى الصديقي وهو ذيل لكشف الظنون أتمه (١١٨٠). (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد) لأبي الحسن علي بن أبي بكر الهيثمي (٨٠٧) جمع فيه مؤلفه زوائد الكتب الستة من مسند أحمد بن حنبل والبزاز وأبي يعلى الموصلي والمعاجم الثلاثة للطبراني نسخة في مجلد كبير. (المجمل في اللغة) لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا المتوفى (٣٩٠) اقتصر فيه مؤلفه على الألفاظ المهمة المستعملة أخذ أكثرها بالسماع عمن تقدمه واختصر الشواهد ورتبه على الأبجدية منه جزء يبتدئ من حرف العين إلى آخر الكتاب بخط أبي بكر محمد بن محمد بن خلف في سنة (٥٨٩). (جنى الداني في حروف المعاني) لحسن بن قاسم المرادي المتوفى (٧٤٩) وهو كما في كشف الظنون من مآخذ المغني لابن هشام. (شرح الإيضاح) لأبي علي حسن بن أحمد الفارسي (٣٧٧) والشرح للجرجاني (٤٧١) شرحه أولاً شرحاً مبسوطاً في نحو ثلاثين مجلداً وسماه المغني ثم لخصه في مجلد واحد وسماه المقتصد وهو في مجلد ضخم (٩٠٤ صفحات) بخط نفيس من القرن العاشر. (مجمع الآداب في معجم الأسماء والألقاب) لعبد الرزاق الفوطي المتوفى (٧٢٣) منه الجزء الرابع يبتدئ من حرف العين إلى القاف بخط مؤلفه. (الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة) للنجم الغزي المتوفى (١٠٦١) وذيله المسمى (لطف السمر وقطف الثمر) من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر. (طبقات الحنابلة) لابن رجب (٧٩٥). (نشر المحاسن اليمانية في خصائص ونسب القحطانية) لأحد أفاضل وصاب من بلاد اليمن. (أجزاء من عيون التواريخ) للصلاح الكتبي (٧٦٤).

وفي خزانة المجمع العلمي الخاصة عدة مخطوطات نادرة أخذت بالتصوير الشمسي منها نسخة من (الدارس) للنعيمي (أبي المفاخر محيي الدين) المتوفى

(٩٢٧) منقولة عن نسخة لابن المؤلف محفوظة في خزانة مونيخ. و(تراجم الأعيان) للبوريني (١٠٢٤). (الذيل على الروضتين) لابن أبي شامة (٦٦٥). (حكماء الإسلام) للبيهقي المتوفى في حدود سنة(٥٧٠). (رحلة الأمير يشبك) بن مهدي الدوادار (٨٨٥). (كتاب الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري) لكمال الدين ابن العديم الحلبي المتوفى سنة(٦٦٠) ناقص من آخره. (مجموع فيه نقش خواتم الحكماء وآدابهم، واجتماعات الفلاسفة في بيوت الحكمة وغير ذلك. (التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار) فيما يجب من حسن التدبير والنصيحة في التصرف والاختيار لمحمد بن محمد بن خليل الأسدي صاحب كتاب لوامع الأنوار ومطالع الأسرار فرغ من تصنيف كتابه سنة(٨٥٤). (المثالث والمثاني في المعالي والمعاني) لصفي الدين الحلي (٥٧٠) ومعه مجموعة أخرى للشاعر نفسه. (نظم درة الغواص) للسراج الوراق بخط محمد بن الصالحي الهلالي المتوفى سنة (١٠٠٤). (تحفة ذوي الألباب) للصفدي سنة (٧٦٤). وفي المجاميع عشرات من الرسائل النادرة الجديرة بالنشر .

هذا ما أمكن استيعابه من الكلام على خزائن الكتب المخطوطة في هذا القطر عرفنا بها في الجملة كيف نمت وجمعت وكيف مزقت وتشتتت. وكان القوم يعتقدون أن اقتناء الكتب يورث الغنى وبيعها يورث الفقر، ولذلك احتفظت بعض البيوت بكتبها وربما زادت عليها. وشوهد أثر هذه العناية في البيوتات القديمة فإن المخطوطات على كثرة ما أصابها من التفريق ما برحت محفوظة في المدن بل في القرى في بيوت أفراد من الشعب قد لا يخطر في البال أنها تُعنى بمثل هذه الكنوز. ومنهم من يتبرك بها ويفاخر باقتنائها، ومنهم من يرتقب الزمن ليبيعها بالأثمان الغالية. وقد ابتاعت مصر في العهد الأخير مقادير عظيمة منها، لغنى مصر وشيوع العلم في بنيها، وتفانيهم في إحراز آثار السلف. وقد يبتاعون السفر المخطوط بثمن فاحش وربما كان مما مثّل بالطبع مرات، لأن للمخطوط روعة غير روعة المطبوع، وقيمة تاريخية يدركها من يعاني هذه الصناعة ويقدر العاديات قدرها.

ومن الأسف أن صناعة النسخ ماتت من قطرنا وضعف بذلك التنافس

في الخطوط الجيدة المنسوبة وغيرها كما قضت الآلة الكاتبة في الغرب وفي الشرق على الخط أيضاً. ومن المؤلفين والكتاب اليوم من يملون على كُتّابهم على تلك الآلة مباشرة أو يكتبون هم بأنفسهم عليها دون أن يتعبوا أناملهم بتنميق السطور ووضع الصفحات مما يفيد في الإسراع بالأعمال، ويقضي على الفن والجمال. ولولا الحرص المغروس في الفطر ما بقيت هذه البقايا التي نفاخر بها من عمل الأجداد، وهي في نظر العقلاء أغلى من التبر والعسجد، ولا سيما بعد أن سطت عليها كل يد أثيمة وأبيع من كتب الجوامع والمدارس بالألوف فسافرت عنا تنزل على الرحب والسعة على من يعرف قيمتها ويحسن تعهدها. والكتب كما قال أحد المولعين بها كالطيور لا تطلب إلا الهواء الطلق السالم من الشوائب. ولطالما انتقلت من يد إلى يد ومن جيل إلى جيل كما تتنقل الأعلاق النفيسة أو كما تتداول النقود والحُليّ ولكن بتجلة وحرمة .

هذا وخير طريقة تحفظ بها ثمالة تركة السلف الصالح أن يعمد كل من حوت رفوفهم وقماطرهم كتباً إلى كتبهم المخطوطة فيودعوها في الخزائن العامة لأنها أقل عرضة للحريق والتلف ولكارث ووارث، وأن يستعاض عنها بالكتب المطبوعة في الخزائن الخاصة، وتجعل المخطوطات ملك الجماعات يرجع إليها العلماء والباحثون، وتسبّل عليهم فتكون منهم على طرف الثمام، وبذلك يزيد النفع منها ويحيا بالطبع والنشر ما لم تساعده الحال أن يعرف حتى الآن، وبذلك تجتمع فائدتان فائدة الانتفاع وفائدة الحفظ، كما فعل المصريون وحفظوا بقايا كتبهم في داري الكتب المصرية والأزهر وخزانة المجلس البلدي في الإسكندرية والجامع الأحمدي في طنطا. والله يرث الأرض ومن عليها .

الأديان والمذاهب

أديان القدماء :

اهتدى الفينيقيون بفطرتهم إلى الاعتقاد بالتوحيد على ما يظهر. ودعوا معبودهم البعل أي الرب والسيد وقد يسمونه أدون ومعناه السيد أيضاً. ولقبوه بملوك أو ملوخ أي الملك أو ببعل شمائيم أي رب السماء، ثم أخذوا يصورون الرب ويجسمونه على الصورة التي يختارونها، خصوصاً لما جابوا الأقطار ومصروا الأمصار، فأصبحت كل مدينة تخص الرب بها، فكان أهل صور يطلقون على معبودهم بعل صور، وأهل صيدا يقولون عن معبودهم رب صيدون، وأهل بيروت يعرف ربهم ببعل بيروت وهكذا يقولون بعل حرمون وبعل جاد وبعل تامار .

وتفننوا بعد في أربابهم فأخذوا ينسبونها إلى النار وعبادة الطبيعة وأنشأوا يؤلهون قوات الوجود ومظاهره الرائعة والأفلاك والنجوم. وكما جعل الفينيقيون لأربابهم أنداداً اخترعوا لهم أزواجاً سموها عشتروت وقد عُبِدت في سواحل الشام خاصة. ثم أخذت بعض المدن بالطبع تطلب لمعبوداتها زوجات وتنشئ لها معابد . وكان معبد بعلة جبيل يحج إليه الناس من أنحاء القطر كما يحتفلون في الربيع بمقتل الرب أدونيس أو نهر إبراهيم. وكان من كهنة الفينيقيين أن أقاموا في أوقات مخصوصة من السنة حفلات دينية تجري فيها أمور غريبة من الرقص والفحش ومن تضحية البنات والأسرى على مذابح الهياكل التي كانت أشبه بمواخير يأوي إليها الفاحشات فيختلف إليهن من يريد الفجور باسم الدين .

ويقال على الجملة: إن الفينيقيين عبدوا في كل بلد مجموعة من الأرباب، فأهل صور عبدوا عشتروت وملكوت وبعلا، وأهل صيدا أشمون وعشتروت وبعلا، وأهل بيروت عشتروت وعطارد وبعل مرقد. وتجيء بعد هذه الطبقة من الأرباب طبقة أخرى منها كالرب أبيس والرب سلمان. ومجموع الأرباب الكبرى عند الفينيقيين كمجموعة ما عبده الرومان بعد قرون في بعلبك من عطارد والمشتري وغيرهما .

وكانت ديانة الآراميين كديانة الأشوريين والبابليين يعبدون الرب العظيم ورب الفكر ورب السماء والرب الأسد. ويجسمون رب الأرباب عندهم، على صورة إنسان في نصفه الأعلى، ونصفه الأسفل على صورة سمكة. وذكروا أن شيما كانت ربة أهل حماة. وعبد الآراميون النيازك والشمس والقمر والسيارات السبع والهواء والرياح والنيران وعبدوا أترعطي الربة السورية ودعوها دِرْكيتو نصفها إنسان ونصفها السفلي سمكة. وكان عابدوها إكراماً لها يمتنعون عن تناول السمك ويتوفرون على فتح أحواض يربون الأسماك فيها. ومن معبودات الآراميين هدد وسميسيوس زوج الربة شيما وأترعطي زوج الرب هدد .

وكان الحثيون على مثال من تقدمهم من الأمم عباد أوثان أيضاً، فقد عبدوا الرب تيشوبو وهو مثل هدد الآراميين وبعل الكنعانيين. وروي أنهم عبدوا الشمس وأخذوا عن الكنعانيين عبادة عشتروت وغيرها من الأرباب وألّهوا مظاهر الطبيعة فعبدوا جمالها وجلالها .

وعبد الكلدان والأشوريون أولاً رب السماء ورب الأرباب ورب الأرض ورب البحر، وجعلوا لكل رب من هذه الأرباب ربة تكون قرينته. وبعد حين عبدوا القمر والشمس والزهرة. والزهرة هذه ينظرون إليها أنها قد تجسدت فيها الحياة والحرب ففيها اللطف والهمجية، وقد بنوا لها في مدينة أرَك هيكلاً للفحش حتى دعيت هذه المدينة بمدينة العاهرات. وعبد البابليون على عهد حمورابي مردوك رب الأكوان وعبدوا رب الحكمة والعلوم والحرب والصيد والزراعة والموت والزوابع والأنواء والأوبئة. واقتبس الأشوريون عامة معبودات البابليين وزادوا عليها ربهم أشور رب الأرباب عندهم،

ينزهونه عن الوالد والولد والزوج، ويعتقدون بحشر الأجساد أو ما يشبه ذلك في يوم الجزاء. ويرمزون إلى أربابهم بحيوانات ودواب كرمزهم بالأفاعي والطير والسمك والغزلان والبقر والخرفان .

أما قدماء المصريين فقد اهتدوا إلى عبادة رب الأرباب وتمثلوه في الشمس الحاكمة على الأكوان . وقدسوا معبودهم على صور شتى ثم أصبح لكل مدينة ربها يعتقدون بأنه واحد يظهر في مظاهر مختلفة من مظاهر الطبيعة من نبات وحيوان وجماد وكواكب وأنهار ولا سيما النيل، وأقاموا لكل واحد من أربابهم الهياكل يخدمها الكهنة والسدنة ومن أهم معبوداتهم أوزيريس وإيزيس وهوروس أي الوالد والوالدة والولد. واعتقد المصريون بالآخرة والجزاء في العالم الثاني وحشر الأجساد، ولذلك عُنوا بتحنيط موتاهم على ما لم يصل إليه أحد قبلهم، علّ الميت يأنس بصورته .

وعبد الفرس قوى الطبيعة التي وقعت تحت حسهم من شمس وقمر ونار وماء وهواء، ثم عبدوا ميترا التي هي الزهرة، ثم كان من مجوسهم على عهد زرادشت وأخلافهأن عبدوا رب الخير والشر، واسم رب الخير يزدان أو رب النور وهو الرب الأعظم مبدع الكائنات، واسم رب الشر أهرمن وهو رب الظلمة وأصل كل بلاء. قال ماني: مبدأ العالم كونان أحدهما نور والآخر ظلمة كل واحد منهما منفصل من الآخر، فالنور هو العظيم الأول ليس بالعدو وهو الإله ملك جنان النور وله خمسة أعضاء الحلم والعلم والعقل والغيب والفطنة، وخمسة أخر روحانية وهي الحب والإيمان والوفاء والمروءة والحكمة، وزعم أنه بصفاته هذه أزلي ومعه شيئان اثنان أزليان أحدهما الجو والآخر الأرض، وأعضاء الجو خمسة الحلم والعلم والعقل والغيب والفطنة وأعضاء الأرض النسيم والريح والنور والماء والنار، والكون الآخر وهو الظلمة وأعضاؤها خمسة الضباب والحريق والسموم والسم والظلمة، ومن تلك الظلمة كان الشيطان. والصابئة هم القائلون بالأصنام الأرضية للأرباب السماوية أي الكواكب متوسطون إلى رب الأرباب، وينكرون الرسالة في الصور البشرية عن الله تعالى ولا ينكرونها عن الكواكب .

هذا وقد دان اليونان كما دان كثير من الأمم القديمة قبلهم بتأليه الجمال

على اختلاف مظاهره، عبدوا الجمادات لأول أمرهم ثم ترقوا إلى غيرها من تأليه الأشجار والرجوم والأحجار، وأنشأوا يكرمون الأفعى في هياكلهم كما يكرمون بعض حيوانات البحر وطيور البر. وكانوا يبالغون في إكرام الموتى من عظمائهم حتى ألحقوهم بأربابهم، ونسبوا إليهم كل صفات البشر وأبشع رذائلهم. ويقدمون في المذابح ذبائح من الطيور والحيوانات والبشر مما كان عند الفينيقيين. وهكذا كثرت أربابهم إلى التي ليس بعدها، وكلما فتحوا أرضاً أضافوا إلى أربابهم بعض الأرباب التي وجدوها تعبد في الأقاليم المغلوبة على أمرها، وكثرت خرافاتهم حتى كان يستهدف للموت كل من يريدهم من عقلائهم على أن يقلعوا عن تخريفهم. هذا غاية ما يشار إليه من أديان قدماء الدول التي طال أمرها في هذه الديار.

ومن أجيال العرب التي حكمت هنا أجزاء مهمة قبل الإسلام النبطيون في الجنوب والايطوريون في بعض الساحل وقد عبد النبطيون اللات والعزّي، وكانت البتراء مركز عباداتهم قبل العهد اليوناني بستة قرون على الأقل. وعبد الايطوريون الكواكب والشمس والزهرة وذا الشرى، وربما تشابهت معبوداتهم ومعبودات النبطيين. وكان لهم في بعلبك مذبح قالوا: إنه بيت من بيوتهم عظيم عندهم جداً. وصنم الأقيصر كان في مشارف الشام لقضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان يحجون إليه ويحلقون رؤوسهم عنده وكلما حلق رجل منهم رأسه ألقى مع كل شعره قرة من دقيق أي قبضة. وعرف من الآثار أن أهل صرخد كانوا يعبدون اللات على ما اكتشف على باب كنيستها. ومعظم هذه الأصنام كان مما ينحت من الأحجار ومنها ما كان من الشَبَه (البرونز)، وقد نقلوا هذه الأصنام إلى الغرب خصوصاً منذ أوائل القرن الثالث قبل المسيح لما قبض على زمام الامبراطورية الرومانية أباطرة من الشاميين، وقد عثروا على بعضها في فرنسا والنمسا وإيطاليا. وكان ياهو المشهور في تاريخ الإسرائيليين حفيد يهو شافاط الذي قتل جميع أنبياء بعل وعبدته يعبد العجول في بيت ايل. وبيت ايل إلى شرقي خط يمتد من أورشليم إلى نابلس على بعد واحد من كلتا المدينتين وكانت قديماً عاصمة الكنعانيين.

وقد عبد الرومان قوى الطبيعة من الأفلاك والشمس والأرض والنبات

والحيوان وأكرموا الينابيع والأشجار العظيمة والحجارة، ثم عبدوا المشتري وأظهروه في مظاهر عديدة وكانوا يقولون رب البرق ورب الرعد ورب النور. وجعلوا للمشتري ربة اسمها جونون وعبدوا المريخ رب الحرب يقدمون له ضحايا من الخنازير والبقر والغنم بل يقدمون له الذبائح البشرية يختارونهم من أسرى الحرب على الأكثر. ولهم أرباب أخرى كرب البيت وحارسه ورب نار البيت وجعلوا لها هياكل أقاموا على حراستها بنات عذارى يتعهدن نارها حتى إذا غفلن عنها فأطفئت وأدوهن على ما كان أهل الجاهلية يئدون بناتهم خشية العار. ولما اختلط الرومان بالأمم الأخرى اقتبسوا منها ما راقهم من أربابهم ومنها عشترت المعبود الشامي .

قال كلرمون غانو: لم تكد تظهر الوثنية اليونانية الرومانية حتى أصبح الناس يحبونها في أصقاع الشام كافة ويقبلونها راضين. وذلك لأنها قائمة على أساس التسامح القابل للظهور في كل مظهر وصورة. تلتئم بمرونة عجيبة مع أشكال الديانات التي تدين بها الشعوب الأخرى. وذلك بأن تمزج هذه الديانات بنفسها أو تمزج نفسها بها. ولم تدخل في ذاك المحيط الخاضع المدهوش إلا إصلاحاً واحداً وهو معرفة الأشياء الحسنة ، ولم تقض إلا بقضاء واحد وهو الابتعاد عن البشاعة، ولم تضع إلا نظاماً واحداً وهو نظام السرور، ولا تعليماً واحداً غير تعليم الذوق، ولم توح بغير الجمال. وكانت ترفق بالأديان التي لا تستطيع الدفاع عن نفسها ولا تشتد إلا على الأديان التي تحاول مقاومتها. فالعبادات القديمة التي عرفت عند الكنعانيين استقت من هذا النبع الصافي البارد مأخوذة بشيء من الجنون اه .

لما جاء كسرى إلى حلب وعمر بيتاً للنار كان في الشام أربعة أديان أمهات، وهي: اليهودية والنصرانية وعبادة الأوثان والنيران. ولما جاء الإسلام كان الناس يدينون بهذه الأديان. وكانت النصرانية قبل الإسلام على رواية اليعقوبي في ربيعة وغسان وبعض قضاعة، واليهودية في حمير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة، والمجوسية في تميم، والزندقة في قريش أخذوها من الحيرة. وكان بنو حنيفة اتخذوا في الجاهلية إلهاً من حَيْس،

والحيس تمر يخلط بالسمن والأقط فيعجن، فعبدوه دهراً طويلاً ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه. ولما مرض عمرو بن لُحَيّ وكان يلي أمر الكعبة في الجاهلية قيل له: إن بالبلقاء من الشام حَمّة إن أتيتها برأت فأتاها فاستحم بها فبرأ ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقال: ما هذه؟ فقالوا: نستسقي بها ونستنصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة.

اليهودية [١] :

يرجع البشر على اختلاف مذاهبهم وأديانهم إلى جد واحد وهو آدم وإلى أبناء سيدنا نوح الذين تناسلوا وتكاثروا وانتشروا على سطح الأرض. ومعلوم أنّ عرب الجاهلية واليهود هم أبناء سام ولذلك سموا بالساميين واستوطنوا في الأصل الديار الكنعانية المعروفة اليوم بفلسطين ومشوا منها إلى حدود مصر جنوباً وإلى العراق ثم إلى منتصف آسيا شرقاً. والحاميون أبناء حام سكنوا مصر والحبشة وانتشر القسم الثالث أي أبناء يافث فهم في القارة الأوربية والأرض التركية.

ولما ظهر الأبُ الأولُ سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، من بلدته الرّها (أورفة) من ديار الكلدان جاء منقاداً بمشيئة الله إلى الأرض الكنعانية وأقام في بلدة حبرون أي خليل الرحمن رمزاً لمودّة الخالق له. وهنا نغضي عن سرد ما أوتي من المعجزات ونغفُل أيضاً عن ذكر من جاء بعده من الآباء والأنبياء الكرام وما أوتوا هم أيضاً من المعجزات. والكتب المقدسة حافلة بكل ما يراد معرفته بهذا الشأن. ولا نرى بدأً من الإشارة فقط إلى أن سيدنا إسماعيل بن الخليل الأكبر قد نزح وأمه هاجر من الأرض الكنعانية إلى شبه

---

(١) رجونا بعض العارفين بهذه المذاهب أن يُكتب كل واحد عن دينه فكتب على اليهودية الدكتور سليمان تاجر وعلى الأرثوذكسية الأرشمندريت توما ديبو المعلوف وعلى الكثلكة الأب لويس شيخو اليسوعي وعلى المارونية الخوري بطرس غالب وعلى البروتستانتية القس أسعد منصور وعلى أهل الإسلام السنيين الشيخ سليم البخاري وعلى المسلمين الشيعة الشيخ أحمد رضا ووصفنا نحن مذاهب الباطنية كالنصيرية والإسماعيلية والدروز والبابية ووصف السيد محمد عزة دروزة نحلة السامرة.

جزيرة العرب وبقي أخوه إسحاق في تلك الأصقاع الموصوفة بأرض الميعاد، إشارةً إلى العهد الذي أعطاه الخالق سبحانه وتعالى خليله إبراهيم القائل بإعطاء الأرض الكنعانية على رحبها إلى نسله. وقد سميت بالأرض المقدسة أيضاً عندما بدأ اليهود يحجون إلى الهيكل المقدس الذي بناه سليمان الحكيم. وقد كان بناء هذا الهيكل مدعاة لتمسك اليهود بهذه الديار ولعدم النزوح عنها إلاّ لتعاطي التجارة لمن كان مكرهاً بحكم الضرورة على الإقامة موقتاً في الأقطار المجاورة. وقد وُجِدت في الدهر الغابر آثار تاريخية كثيرة تدل على نزول اليهود حوران ودمشق وبلاد الفينيقيين الواقعة على شاطئ البحر المتوسط .

ومما لا ريب فيه أن اليهود قد أقاموا عصوراً في القطرين اللذين دوختهما جيوش النبي داود وأعني بهما سورية وشمال ما بين النهرين . ولمّا أعمل نبوخذ نصّر ملك بابل (٦٠٠ق م) سيفه باليهود هاجر قسم منهم إلى فارس وآسيا الوسطى رآب قسم آخر إلى دمشق. وعادت البقية وعلى رأسها نحميا ودانيال وجددوا بناء الهيكل المقدس ولم يلبث أن جاء تيطوس الروماني(٧٠ ب م) وهدمه. وقد أعمل هو أيضاً السيف برقابهم واضطرهم إلى النزوح إلى الأمصار البعيدة كاليونان والأندلس وشمال إفريقية. وقد رُوِيَ عن بولس الرسول أنه حاول اقناع اليهود القاطنين في الشام لاتباع السيد المسيح والتدين بدين النصرانية، وهذا مما يدل على وجودهم في تلك الأزمنة في هذه الديار .

ثم إن قائدي عساكر سيدنا عمر عندما فتحا الشام انتقيا نفراً غير قليل من اليهود والمسلمين الدمشقيين أرباب الصناعات والفنون الجميلة وجيء بهم بعدُ إلى بلاد بخارى فتوفروا على البناء المماثل تمام المماثلة للنسق الدمشقي من حيث طرز البناء ورسومه وأشكاله وأدواته حتى يخيل لمن يزور تلك الأصقاع أنه في سوق أو دار من أسواق الشام ودورها .

ثم إن نزول اليهود في دمشق منذ أمد بعيد مشهود ومحسوس من كنيس قرية جوبر التي تبعد بضع دقائق عن شرقي دمشق وقد جاء ذكره في التلمود الموضوع منذ أكثر من ألفي سنة وذلك بقوله بالحرف الواحد : « كنشتاديبه جوبر » ومعناه كنيسة جوبر القائمة إلى يومنا هذا والتي كانت مقراً للنبيين

إيليا (الخضر) وتلميذه اليشاع (اليسع).وفي بعض دور الكتب العبرية في دمشق إلى اليوم آثار مخطوطة يرجع عهدها الى القرن الحادي عشر للميلاد . وصفوة القول أن اليهود لم ينقطعوا عن الشام لا سيما عند فتح المسلمين لها إذ ثبتت أقدامهم فيها وتوفرت لهم أسباب الهناء والرخاء .

ولم تؤثر التطورات والفتوحات التي وقعت في هذا القطر في اعتقاد اليهود الديني ولا غيرت شكلاً من مراسمهم ،بل كانت بالعكس سبباً قوياً لتضافرهم وتحفزهم لدرء كل ما من شأنه أن يفسد لهم معاملاتهم وعاداتهم . وما زالوا منذ الخلقة كسائر اليهود يعبدون الله عزّ وجلّ ويوحّدونَه ويَعْرِفونَه بِيهَوَه كما تسمى إلى آدم وإلى الآباء والأنبياء بقوله لهم باللفظ العبري : « إني يَ هَ وَ هْ » أي أنا يَهوَه .

وقد فصل المجتهدون من علماء اليهود اسمه المقدس تفصيلاً وافياً خلاصته باللغة العبرانية : « هيا ، هيو ، يهْيه » ومعناه كان (في الماضي) وكائن (في الحال) وسيكون (في المستقبل) أي إنه تعالى حيٌّ قيومٌ دائمٌ إلى الأبد . وكان يرفق أحياناً اسمه الكريم في التوراة كلمة « إلوهيم أو شَدّايْ » ومعناهما الجبروت والشدة . ويحترم اليهود أيضاً الأنبياء الذين أوحي اليهم في زمن ملوكهم وعددهم ٤٨ .

يتآلف اليهود مع مواطنيهم مهما اختلفت نزعاتهم . فهم فرنسيس في فرنسا ، وروس في روسيا ، وإنكليز في بريطانيا ، وهنا أيضاً لا يختلفون عن الشاميين من حيث الأخلاق والزي . ولأسمائهم دخل قوي في الألفة مع مسلمي الشام . فهم يتسمون بأسماء لا يسمى بها غيرهم من اليهود كصبحي وصبري وعارف ومراد ويحيى وعبده وبهية وعائشة وجميلة إلى ما هنالك من الأسماء العربية المحضة ، ومما يزيد ائتلافهم مع المسلمين أنهم مضطرون بحكم الدين الموسوي أن يراعوا مثلهم أحكام الختان والغسل والطهارة .

ولغة اليهود « العبرية » أينما حلّوا ورحلوا يتعرف بها بعضهم إلى بعض وبها يؤدون فروض صلواتهم اليومية وشعائرهم الدينية ، ولغتهم هذه هي شقيقة اللغة العربية . فإن الصرفيين العرب لا يتعذر عليهم معرفة دقائق الصرف العبراني وكذلك العبرانيون لا يصعب عليهم تعلم اللغة العربية والتعمق

في دقائقها . وهي كما قلنا لغة سامية تكتب كالعربية من اليمين إلى الشمال وأغلب كلماتها هي كشقيقتها لفظاً ومعنىً . وعدد حروفها ٢٢ حرفاً وهي : ا ب ج د ه و ز ح ط ي ك ل م ن س ع ف ص ق ر ش ت أي أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت .

وقد كان للغة العبرانية الفضل الأكبر في حفظ حياة اليهود إلى هذا الزمن فهي التي جمعت شملهم في البلدان المختلفة وهي التي ذبت عن حياضهم وحافظت على كيانهم . وقد حث العلماء المعاصرون على رفعها إلى مصاف اللغات الحية مما حدا بهم على تأسيس الجامعة العبرية في القدس الشريف في ١ نيسان سنة (١٩٢٥) وبدأوا بترجمة الآثار النفيسة والكتب المفيدة إليها . ولا يمضي زمن حتى يكون لهذه اللغة على ما أرى شأن عظيم ومركز سام . ورب قائل يقول: إنه قد يحول دون توسع علماء اليهود في الترجمة والإنشاء فقدان الكلمات الفنية الحديثة من اللغة العبرانية، فالجواب، أن التلمود أتى على ذكر بعض المخترعات التي نظنها وليدة القرن الغابر أو الحاضر كالمناطيد والكهرباء وسماها بأسمائها المخصوصة . وقد أعيدت إلى اللغة في هذا العصر ومع هذا لم يحجم علماء اللغة في القرن الماضي عن استعمال الكلمات الدخيلة المحتاج إليها والتي تفي بالمعاني المقصود إدخالها على اللغة العبرانية .

السامرة[1] :

ينسب السامريون أنفسهم إلى سبط يوسف وينسب كهانهم أنفسهم إلى سبط لاوي ويقررون أن هذا السبط هو بيت الكهنوت الإسرائيلي حصراً . و « السامرية » نسبة إلى إقطاع شمرونيم الذي كان في ملك سامير الأشوري الشمرونيمي . وذلك إن الأشوريين لما غزوا فلسطين غزوتهم الأولى انتشروا في الأقاليم وامتلكوا كثيراً من الإقطاعات . وكانت فرقة شمرونيم تملكت

(١) لا شك أن المطلعين على ما جاء في التوراة المعتبرة عند اليهود والمسيحيين معاً سيجدون بوناً عظيماً بين ما ذكر في هذه الرسالة وبين ما جاء هناك ولكننا أردنا أن ننقل ما يقوله السامريون عن أنفسهم . وكتبت هذه النبذة اقتباساً من كتاب مخطوط ألفه أحد كهان الطائفة السامرية في نابلس .

إقطاع سبسطية وأخذوا يستغلون أرضه بعد أن خربوا المدينة المذكورة . ثم آل هذا الإقطاع إلى سامير أمير الفرقة فجاء إليه أحد ذوي اليسار من آل يوسف واشترى إقطاعه وأخذ يعمره هو وآله ، فلبستهم نسبة الأرض ثم ابتنوا أخيراً مدينتهم التي تسمت بالسامرية نسبة إلى أصل تسمية الإقطاع ومالكه الأشوري .

ويعزو السامريون سبب انشقاقهم عن سائر أسباط إسرائيل إلى خلاف ديني نشأ بينهم وبين هذه الأسباط . وذلك أن الإسرائيليين ظلوا إلى القرن الثالث من دخولهم أرض كنعان يقدسون جبل جرزيم الذي هو جبل « نابلس » الجنوبي ويقربون عليه قرابينهم اعتقاداً منهم أن يوشع أقام هيكل العبادة الأول في هذا الجبل . وكان إلى ذلك التاريخ مركز حجهم ومقام إمامهم الأكبر وكاهنهم الأعظم . فلما ورث الإمامة الكبرى الإمام عزي ابن بحقي وكان حديث السن فحسده الكاهن الأعظم عالي وأنف أن يكون له مرءوساً وأخذ يدس الدسائس حتى نجح في استمالة فريق من الإسرائيليين فهجروا جرزيم وانتقلوا إلى سيلون — قرب القدس — وكان ماهراً في الشعوذة وأعمال السحر ، فعظم حوله الجمع فأقام هيكلاً وصندوقاً للشواهد وادعى أنهما الأصليان وأوجب تقديسهما وصرف الوجوه عن جرزيم . وقد ساعده في عمله اختفاء الهيكل وصندوق الشواهد اللذين أقامهما يوشع على جرزيم بأعجوبة ربانية انتقاماً من اليهود لمخالفتهم الشريعة وانغماسهم في المعاصي . فاعتبر سائر اليهود قول عالي وأخذوا يقدسون هيكل سيلون .

أما سبطا يوسف ولاوي فإنهما ظلا على عهدهما من نصر الإمام عزي وتقديس جرزيم واعتباره المحل المختار الذي اختاره الله للهيكل والذبيح . ومن هذا الحين أصبح الإسرائيليون فرقتين : فرقة عزي ومركزهم جرزيم وحدوده ، وفرقة عالي ومركزهم سيلون . وقد استحكم العداء بين الفرقتين فأخذتا تبتعدان إحداهما عن الأخرى وطفقت كل فرقة تلصق بالأخرى التهم ، وجرت بينهما مناقشات ومنازعات كانت تؤدي في بعض الأوقات إلى إراقة الدم .

يقول السامريون : إن عالي الكاهن بعد أن عظم أمره أخذت مطامعه تظهر

وأساء السيرة في اليهود هو وأولاده وأخذوا يخالفون أوامر الله وشريعته ، وقد تبنى ولداً اسمه صمويل أتقن الشعوذة . واغتنم الفلسطينيون فرصة انشقاق الإسرائيليين فزحفوا على اليهود ونكلوا بهم ،فلما مات الكاهن خلفه صمويل فلم ير إلا أن يدعي النبوة ربطاً لقلوب اليهود به ،فصدقه هؤلاء لقوة شعوذته ودهائه ولكنهم طلبوا منه أن يقيم عليهم ملكاً يدير شؤونهم ويجمع شملهم دفعاً لخطر الفلسطينيين فأقام عليهم شاول الملك . وكان من أعمال هذا الملك إشهار الحرب على سبطي يوسف ولاوي لعدم اتباعهم لهم وعدم اعتبارهم هيكل سيلون وذبحهم معهم في مذبح سيلون . وقد كبس شاول السبطين في عيد المظال فقتل منهم كل من وجده وذبح إمامهم الأكبر شيشي بن عزي وخرب محل عبادتهم في جرزيم ونقض حجارة الهيكل . واحتل منطقتهم فتشتت قسم كبير من الذين سلموا من القتل منهم . وظل آل يوسف ولاوي اثنين وعشرين عاماً لا يقدرون على أداء فريضة الحج ولا يجرأون على التظاهر بشعائرهم الدينية . وقد حاول كاهنهم الأكبر باير إقناع داود حينما ملك باحترام جرزيم وبناء الهيكل فيهفلم ينجح ،وأخذ يقيم الهيكل في يابيس « القدس الآن » وادعى هو وابنه سليمان من بعده أنه المحل المختار وأناطوا به جميع المقدسات المنوطة بجرزيم دون أن يكون في أسفار التوراة الخمسة دليل على ذلك في زعم السامريين .

ولما غزا بختنصر فلسطين أجلى في من أجلاه آل يوسف إلى بابل وأسكن محلهم أمماً غريبة فسببذلك انحباس الأمطار وعطبالزيتون ، فالتمس القاطنون من الملك أن يسأل آل يوسف عن سبب ذلك فأجابه هؤلاء أن لنا جبلاً مقدساً نحج إليه ونتقرب إلى الله فيه بالقرابين لا نرى فيهحبساً ولا عطباً، فعزم على إعادتهم إلى أرضهم ليقيموا شعائرهم . وقد وقع في هذا السياق بينهم وبين آل يهوذا خلاف على المحل المختار ولكن آل يوسف أقنعوا الملك بقوة نصوصهم فرجحهم وأعادهموجعل لهم شيئاً من السلطة فجاءوا وأقاموا هيكلهم وزحفوا على يابيس وهدموا هيكلها . فكان نجاحهم هذا عاملاً جديداً في ازدياد النفرة بين الفريقين أولاً وتحريف اليهود نسخ التوراة الموجودة في أيديهم ثانياً .

وقد طعن اليهود في أصلهم فقالوا عنهم كوتيين ونعتوهم بأنهم وثنيون وأن لهم صنماً اسمه أشيما نكايةً وتغرضاً وانتقاماً . وقد كان اليهود في عهد الحكم الروماني والفارسي كثار العدد . وكان لهم يد كبرى في الثورات الوطنية التي كانت تنشب من حين إلى آخر ، وقد أفنت هذه المنازعات عدداً كبيراً . فلما دخل العرب فلسطين أخذ السامريون يدينون بالإسلام فيقل عددهم رويداً رويداً إلى أن أصبحوا طائفة قليلة جداً ربما لا يتجاوز عددها الآن مائتي نفر ذكوراً وإناثاً كباراً وصغاراً . وقد اقتبسوا من المسلمين واقتبس المسلمون منهم في نابلس على توالي الأيام كثيراً من العادات واللهجات . وهم الآن يتكلمون بالعربية النابلسية العامية . وقليل منهم يعرف العبرانية كما أن عبرانيتهم قديمة بينها وبين عبرانية اليهود اختلاف بين وإن متت اللغتان إلى أصل واحد . ولا يزال أصل بعض الأسر المسلمة في نابلس معروف النسبة والأرومة في الطائفة السامرية .

ينعت السامريون أنفسهم بالمحافظين لأنهم حافظوا ولا يزالون يحافظون على أدق شعائر العبادات والشريعة دون تأويل ولا انحراف . ويزعمون أن التوراة التي في أيديهم أصدق وأقدم توراة وأنها بخط أبيشع بن فينحس ابن العزر بن هرون نقلها أبيشع عن المدرج الذي كتبه بيده موسى عليه السلام . وتوراتهم هذه مدرج طويل من الرق له أسطوانة مفضضة محفوظة في معبدهم تكاد تكون سلوتهم الوحيدة في هذا العالم الذي أصبحوا فيه غرباء عن كل أُمَمِهِ وأثراً تاريخياً أكثر مما هو شعب حي . وهم يزعمون أن توراة اليهود قد فقدت مراراً وحرقت كثيراً وأن التوراة التي بين أيدي اليهود ملفقة بالظن والحدس على غير أساس ، وأن اليهود عدا ذلك قد تسامحوا بكثير من مظاهر الدين وأولوا نصوص الشريعة فصار بينهم فروق كثيرة . وفي أيدي السامريين كتب جدلية كثيرة في تثبيت طريقهم والطعن في طريقة اليهود وتفسيراتهم وتأويلاتهم .

وأول خلاف نشأ بينهم وبين اليهود خلاف القبلة. فالسامريون يعتبرون جبل جرزيم الجبل المقدس والمحل المختار الذي أمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده عليه والذي أمر يوشع من قبل موسى بإقامة الهيكل فيه ويقررون أن عيد

الفسح وقرابينه لا تجوز إلا في هذا الجبل وحدود منطقته التي لا تتعدى منطقة نابلس الآن. ومن الخلافات بينهم وبين اليهود وقت الختان. فالسامريون لا يقبلون عذراً لتأخير يوم الختان إلى ما بعد اليوم الثامن من الولادة على حين يتجوز اليهود في ذلك. وبين الفريقين خلاف في مواعيد الأعياد وشعائرها وفروعها وفرضية القرابين والطبقات الملزمة بها. وللسامريين أصول فلكية دقيقة يستندون إليها في حساب تولد الأهلّة وتعيين مواعيد الأعياد والشعائر .

ويخالف السامريون اليهود في تجويز بعض الأنكحة فهم يحرمون نكاح امرأة الأخ الشقيق وبنت الأخ وزوج الأخت وامرأة العم وامرأة الخال واليهود يحللونها. وكذلك هم يختلفون في بدء عيد الفطير والطقس الخمسيني ذوي الأسابيع السبعة المقدسة التي يحيي بها الإسرائيليون ذكرى أسابيع الخروج من مصر ودخول أرض كنعان. والسامريون يتشددون في شعائرهم الدينية لا سيما يوم السبت، ويزعمون أنهم يطبقون أوامر التوراة حرفياً . ويتشددون في أحكام الدم والنجاسات ومواعيد الطهارة وكيفياتها ويحملون أنفسهم عبئاً لا يملك الإنسان نفسه من الشفقة عليهم من أجله. وهم اليوم لا يغسلون موتاهم ولا يحملونهم وإنما يستأجرون لهذين الغرضين أناساً من المسلمين لأن للميت وغسله ومائه نجاسات يتعذر طهر السامري منها في الحال الحاضر. ويقولون: إن السامري لا يطهر منها إلا إذا رش بعد عزلة الأيام السبعة برماد بقرة مقررة الصفات. وقد نفد هذا الرماد الذي كانوا يتوارثونه منذ أمد طويل ولم يمكنهم تعويضه. وللسامريين صلوات مفروضة يوم السبت وغيره. ففي غير السبت لهم صلاتان مفروضتان هما صلاة الصبح وصلاة المغرب. وفي يوم السبت صلاتان زائدتان على تينك الصلاتين هما صلاة الظهر وصلاة الصرفة. وصلاتهم ذات ركوع وسجود وانتصاب يتلون فيها سوراً من التوراة. وهم يتوضأون قبيل الصلاة وضوءاً يقرب من وضوء المسلمين .

وأهم أعيادهم عيد الفسح في آخر أسبوع الفطير. ويكون في الرابع عشر من الشهر القمري الذي يجتمع مع شهر نيسان. وهو عيد سنوي جامع يشبه الحج. يصعد السامريون فيه كبارهم وصغارهم جبل جرزيم. ويوجبون

حضوره على كل سامري ولا يقبل للمتخلف عذر. فإذا كان يوم العيد وأخذت الشمس بالزوال تهيأوا للعيد في ثياب بيضاء وجبب زاهية واعتموا بعمائم بيضاء أو حرير (أغبانية) مطرزة وهيأوا سبعة أكباش سالمة من كل عيب ونقص وحفروا تنوراً عميقاً يبنونه بحجارة مرصوفة من دون طين. فإذا آن وقت الغروب يأخذون بتلاوة التوراة وقراءة الترّاتيل مصطفين على شكل إمام ومؤتمين، فحينما يأزف الوقت المقرر وهو بين الغروبين يعطي الكاهن الأكبر إشارته فيذبح الذباحون الأكباش بسرعة البرق، ثم ينتهون من هذه الصلاة الأولى ويبادرون جميعاً لتحضير الذبائح ينتفها أُناس ويملحها آخرون، وبعضهم يوقدون النار ويحمون التنور وهم في كل أعمالهم هذه في صلاة لا يفترون عن التلاوة والترّتيل. ثم يحرقون شحوم القرابين وأطرافها على مذبح يصنعونه من الحجارة ويلقون بعد ذلك الذبائح في التنور، ويقضون بعد ذلك ثلاث ساعات في الصلاة ريثما تنضج القرابين فيرفعون عنها الحجارة ويخرجونها ويأكلونها، وبعد أن ينتهوا من الأكل يحرقون الفضلات والعظام، إذ أنه لا يجوز لغريب أن يمس الذبيحة ولا أثراً منها. وقد اعتاد المسلمون في نابلس أن يصعدوا الجبل في هذا اليوم للتفرج أولاً ولزيارة شيخ لهم اسمه الشيخ غانم يظن أنه من شهداء الحروب الصليبية اهـ .

وفي كتاب ولاية بيروت أن شروط العقيدة الأصلية عند السامريين خمسة وهي الاعتقاد بوحدانية الله، ونبوة موسى، وأن التوراة كتاب منزل، وأن جبل جرزيم هو مقدس، وأن الساعة آتية لا ريب فيها. ويعتقدون أن الله منزه عن جميع الصفات ولا يؤمنون بنبوة أحد من الأنبياء سوى موسى ويُوشع ويعتقدون أن البشر يحاسبون على أعمالهم في اليوم الآخر ويؤمنون بمجيء المهدي ويطلقون عليه أسماء مختلفة فيسمونه «حاشا حيب» و«حاطا حيب» و«مرجع» وأن لظهوره علائم فيظهر كلمة الله وينقل عصا موسى وألواحه العشرة ويجيء بقدرة المن وهي الحلوى الإلهية. ويعتقد السامرة بالملائكة ويفرض على كل سامري أن يصلي ويزكي، فالصلاة صلاتان: إحداهما صلاة الصبح، والثانية صلاة الغروب، وكل صلاة إحدى عشرة ركعة،

جماعة أفضل،والصلاة مفروضة على الرجال والنساء ولكن النساء لا يخالطن الرجال خلال الصلاة،ويشترط أن يكون المصلي طاهراً والطهارة عندهم على نوعين الغسل أولاً والوضوء ثانياً، فالطهارة من الحدث شروط أُولى على كل موسوي حتى إن لمس الحائض موجب للغسل،وعلى الحائض أن تحضر ثلاثاً من النساء يقفن على رأسها حين اغتسالها، وأما الوضوء فيغسل المتوضئ أولاً يديه، وإذا كان من أصحاب الأعمال اليدوية فيغسل يديه إلى المرفقين والساعدين ثلاث مرات. ثم يتمضمض ويستنشق ثلاثاً ثم يغسل وجهه ويمسح أذنيه ويغسل رجليه ثلاثاً. ويتلون التوراة في الصلاة باللسان العبري القديم وتجوز تلاوتها باللغة السامرية. والحج عند السامريين هو عبارة عن زيارة جبل جرزيم وهو ثلاثة أشكال حج الفطير وحج العنصرة وحج المظال . ويمسكون في صومهم أربعاً وعشرين ساعة قبل حج المظال بخمسة أيام، فلا يدخل السامري كبيراً كان أو صغيراً شيئاً إلى فمه حتى الطفل الرضيع فإنه يمنع من الرضاعة طول هذه المدة،ولا ينامون مطلقاً في هذه الأربع والعشرين ساعة،بل يقضونها بالطاعة والعبادة. أما الزكاة فهي عبارة عن إعطاء واحد في العشرة من الأرباح إلى الكاهن والفقير. ويحجب السامريون نساءهم ويجوز الزواج ثانية إذا كانت المرأة عاقراً أو مريضة أو ذات عيب شرعي. وأصول مواريثهم لا تخالف أصول الشريعة المتبعة عند جميع الموسويين .

الأرثوذكسية :

ليس من دين يدين به أبناء آدم إلا فيه مذاهب متباينة بتباين منازع زعمائه . فقد خاصم أهل الختان المنتصرون رسل المسيح ليقنعوهم بوجوب اختتان الوثنيين الراغبين في التدين بالنصرانية. ولكن الرسل والكهنة اجتمعوا في أورشليم في السنة الخمسين بعد الميلاد «وحكموا بألا يُثقل بهذا الناموس على من يرجع إلى الله من الأمم » (اع ١١ : ٢ — ٣ و١٥ : ١ — ٣١ و١٦ : ١ — ٣) .

وفي القرن الثاني نشأت في الدين المسيحي بِدَع اليهود الناصريين والأنيونيين والكلساعيين والشمشونيين والفنوستيين على تفرق نحلهم فانتبذتهم الكنيسة

وعاجلهم سهم القضاء. وقام بعدهم مبتدعون كثيرون اشتهر منهم في القرن الرابع قس كنيسة الإسكندرية آريوس، إذ كفر بألوهة المسيح فجمعت عليه الكنيسة سنة(٣٢٥)مجمعاً مسكونياً في مدينة نيقية حضره أول ملوك المسيحيين القيصر قسطنطين الكبير وثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً ما عدا الكهنة والشمامسة والعلماء وحكمت عليه فعُري من الكهنوت ونفي وقُطع السبب بأتباعه .

وبتأثير ضلال آريوس كفر مكدونيوس أُسقف القسطنطينية بالروح القدس فحكمت عليه الكنيسة وعلى بدع آفنوميوس وأبوليناريوس وصباليوس وماركلوس وآفدوكسيوس وفوتينوس بالمجمع الثاني المسكوني الذي التأم سنة(٣٨١)في القسطنطينية على عهد القيصر ثيوذوسيوس الكبير وحضره مائة وخمسون أُسقفاً أثبتوا صلاحية المجمع الأول الشرعية وأكملوا دستور الإيمان الذي وضعه، قاضين بإقامته على كل أورثوذكسي فهو شعار إيماننا إلى يوم القيامة ومطلعه «أومن بإله واحد آب ضابط الكل خالق السماء والأرض ... » وحطوا مكدونيوس من رتبته الكهنوتية فسكن نسيسُ مشايعيه .

وأولع نسطوريوس أُسقف القسطنطينية بعشق الإمامة نافراً إليها في شاكلة من «خالف ليُعرف» فكفر بالمسيح وأُمه مريم فرمته الكنيسة بإقحاف رأسه في مجمعها الثالث المسكوني الذي اجتمع في مدينة أفسس سنة(٤٣١)على عهد القيصر ثيوذوسيوس الصغير وحضره نحو مئتي أُسقف قرعوا ضلال نسطوريوس بالحق فأُسقط من الكهنوت ونفي إلى مصر وباتت بدعته تَدمى في الكلدان كالخنفساء إلى اليوم .

وركب أُوطيما الراهب رأسه في محاربة ضلال نسطوريوس حتى انتشر عليه رأيه في طبيعتي المسيح ففسد إيمانه بهما وأغرق في غوايته حتى انتصفت منه الكنيسة بحكمها عليه وعلى بدعته بمجمعها المسكوني الرابع الذي اجتمع في خلكيدون سنة(٤٥١)وحضره القيصر مركيانوس وستمائة وثلاثون أُسقفاً . وضرب الدهر بين القائلين بالطبيعة الواحدة فتشردوا قِدَداً رنّقت عليها المنية لولا زعيمهم أُسقف أرفا يعقوب الزنزلي المشهور بالبرادعي. فإنه لأم صدعهم بتجديده لهم مركز البطريركية في أنطاكية فتسموا «باليعاقبة» إكراماً له وانقسموا إلى سريان وأرمن ومصريين .

وفي سنة(٥٥٣)اجتمع المجمع المسكوني الخامس في القسطنطينية على عهد القيصر يوستنيانوس الكبير وكان أعضاؤه مائة وخمسة وستين أسقفاً حكموا على غوايات أوريجانوس الشهير وما يُعرف في التاريخ الكنسي « بالقضايا الثلاث » وأثبتوا أحكام المجامع المسكونية الأربعة .

وفي سنة(٦٨٠) إلتأم المجمع المسكوني السادس في القسطنطينية وحضره القيصر قسطنطين اللحياني ومائة وسبعون أسقفاً وفي رواية أخرى مائتان وتسعة وثمانون أباً حكموا على القائلين « بالمشيئة الواحدة » في المسيح،منهم سرجيوس بطريرك القسطنطينية وأونوريوس بابا رومية وأقاموا المجامع المسكونية الخمسة فباتت هذه البدعة تعالج النزع في شيعة الراهب يوحنا مارون التي عرفت « بالمرَدَة » وانحصرت على قنن لبنان وتسمى الآن « بالمارونية نسبةً إلى الراهب المذكور الذي صار أسقفاً أول عليها حتى استوفت أنفاسها أيام حملات الفرنج الصليبيين على الشام سنة(١١٨٢) فإنهم جذبوا الموارنة إلى الخضوع لكنيسةرومية فثبتوا فيه بعد أن طرد المسلمون الصليبيين، إلا أنهم أبدلوا بدعة « المشيئة الواحدة » بما ابتدعته رومية بعد أن قطعتها الكنيسة من شركتها في القرن الحادي عشر .

وفي سنة(٧٢٦) بدأ القيصر لاون الإيصوري محاربة صور الأولياء(الأيقونات وبقاياهم وشايعه أساقفة كثيرون فتأذت الكنيسة من هذه البدعة حتى حكمت عليها في مجمعها السابع المسكوني الذي اجتمع في مدينة نيقية سنة(٧٨٧)على عهد القيصرة ايريني الوصية على ابنها قسطنطين السادس وحضره ثلاثمائة وسبعة وستون أباً. إلا أن هذه البدعة تجددت في الشيع البرتستانتية في أوائل القرن الخامس عشر ولا تزال ترهقها بأضرار جمة عاملة على تشعث إلفتها وتمزق شملها .

وفي سنة(٨٧٩) إلتأم المجمع المسكوني الثامن في كنيسة أجيّا صوفيا وحضره القيصر باسيليوس المكدوني وعماله ليحافظوا على النظام جرياً على عادة أسلافه العواهل العظام وثلاثمائة وثلاثة وثمانون رئيس كهنة أثبتوا دستور الإيمان الذي وضعه المجمعان الأول والثاني على ما مرّ قاضين بانتباذ من يزيد فيه أو ينقص منه. ولا يحصى هذا المجمع رسمياً مع المجامع السبعة

المذكورة، مع أن الكنيسة كلها شرقاً وغرباً اشتركت فيه وقررت أحكامه بالاتفاق التام جرياً على عادتها فيها. وسبب ذلك أنه لم يلتئم بعده مجمع مسكوني تام الشروط ليثبت صلاحيته الشرعية اتباعاً لنظام المجامع .

ونشرت كنيسة رومية الدين المسيحي في شعوب أوربا أيام كان الله خاتماً على قلوبهم، فبذلوا لها مقادتهم وخشع ملوكهم أمام أساقفتها فعصفت في رؤوس الباباوات زوابع المجد العالمي واسترسلوا في سعيهم وراء السلطة المطلقة على الممالك والكنائس، فنزل جهل الغرب المطبق على مقترحهم وأسدر عيونهم نور الشرق — والشرق مبعث النور — فنصح لهم البطريركان المسكونيان أن يتنزعوا، فما كان منهم إلا أن غلوا في طغيانهم فنبذتهم الكنيسة بمجمع التأم على عهد القيصر قسطنطين مونوماخس والبطريرك ميخائيل المذكور، فعمدوا بعد يأسهم إلى القوة البدنية توصلاً إلى ما اشرأبت إليه أطماعهم فسيروا على الشرق الحملات الصليبية التي سوّدت بإفحاشها فيه مجلدات برمتها حتى محقها المسلمون وطهروه منها وردوا على الكنيسة الأرثوذكسية حقوقها التي منحها إياها الخليفة عمر بن الخطاب وخلفاؤه. فمقت الروم اللاتين حتى آثروا أن يروا عمامة السلطان محمد الثاني (الفاتح) في كنيسة أجيا صوفيا على أن يروا فيها كمة البابا .

ولما انحجب نور الشرق عن رومية تاهت كنيستها في شعاب الباطل فأجفل منها معظم أمم أوربا متعوذين بالمذهب البرتستانتي، فأنشأت لهم « ديوان التفتيش » المشهور بفظائعه. ثم لما سطع فجر العلم في أوربا وامتنع عليها إكراه الناس على التدين بما تمليه عليهم عمدت إلى دهاء الرهبانيات كالجزويت والكبوشيين وغيرهم فاستغوت بالمال حزائق من الطوائف الشرقية القديمة، منها حزيقة الروم الكاثوليك الذين استغوتهم من الملة الأرثوذكسية فانتحلوا لأنفسهم وصف « الملكيين » ليوهموا الناس أنهم الأصل ولكنهم لم يوهموا إلا أنفسهم فصدق فيهم قول المتنبي :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم

أما الحقيقة التاريخية فهي أن القائلين « بالطبيعة الواحدة » من أقباط مصر

نعتوا الأرثوذكسيين « بالملكيين » لتمسكهم بإيمان ملوك القسطنطينية .

فمن هذه الحقائق التاريخية التي أيدتها شواهد العقل والنقل المثبتة في المطولات يعلم المطالع :

١ً أن الحقيقة الإنجيلية حُفظت في الكنيسة الأرثوذكسية مصونةً عن كل شائبة بدعة وضلال وستحفظ إلى منتهى الدهر (مت ١٦ : ١٨ و٢٨ : ٢٠ يو ١٤ : ١٦) .

٢ً وأن المملكة البزنطية التي عاشت زهاء ألف ومئة وخمسين عاماً قد ناصرت الكنيسة على صيانة هذه الحقيقة مؤثرة أياها على المصلحة المادية .

٣ً وأن أمر الكنيسة الأرثوذكسية شورى لأنها تعمد في حل المشكلات إلى المجامع اقتداء برسل المسيح المخلص فلا يستبد فيها شخص واحد برأيه (مت ١٨ : ١٥ — ١٧ واع ١٥ : ٦) .

٤ً وأن السلطة العليا فيها منحصرة في المجامع المسكونية وحدها فهي تؤمن بما حددته من عقائد الإيمان المقررة في الكتاب المقدس وتأتمر بأوامرها وتحفظ قوانينها وتنبذ كل بدعة نبذتها وتحكم على من يتجاسرون على نقض أحكامها والعبث بقراراتها أياً كانوا .

٥ً وأن الشرق كان موطن أحبار الدين المحققين ، وجهابذة اليقين الراسخين ، الذين حددوا العقائد المسيحية تحديداً لا يحتمل التأويل والتبديل بما أقاموا عليها من البينات الواضحة والحجج الدامغة مما اضطر الغرب أن يجعل قياده في يده ويتنزل على حكمه في جميع الأمور الدينية .

٦ً وأن الروم الأرثوذكسيين كانوا أصحاب البلاد وكان معتقدهم سائداً في من توطنها من العباد حتى افتتحها المسلمون وأمّنوهم على دينهم وأموالهم فعاش بوجاهتهم في الممالك الإسلامية حتى اليوم بقية الطوائف النصرانية التي حكمت عليها الكنيسة قبلاً ، وقد قال القرآن الشريف في الروم « غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبِهم سيغلبون » (سورة الروم) .

الكثلكة :

الكثلكة أو الدين الكاثوليكي أو الكنيسة الكاثوليكية اسم واحد للمذهب

الديني المعروف الذي يدين به اليوم نيّف وثلاثمائة مليون من البشر كما ورد في أضبط الإحصاءات الحديثة. يعلن أصحابه ويثبتون قولهم بالبرهان أنه هو الدين الوحيد الذي بشر به السيد المسيح قبل تسعة عشر قرناً وأخذه عنه رسله الحواريون لينشروه بأمره في كل العالم (متّى ٢٨: ١٨ — ٢٠ مرقس ١٦: ١٥) تحت رئاسة الأساقفة الخاضعين للحبر الأعظم بابا رومية وخلف القديس بطرس المقام من السيد المسيح كالمتقلد الرئاسة العامة المطلقة على كنيسته وكراعي نعاجه وخرافه (متّى ١٦: ١٨ — ١٩ يوحنا ٢١: ١٥ — ١٧) وأما اسمها فمشتق من لفظة يونانية معناها الجامعة والمنتشرة في كل الأرض لأن الكنيسة الكاثوليكية منذ عهد الرسل انتشرت في جميع أنحاء المعمور حتّى ما وراء حدود المملكة الرومانية .

وأصل الكثلكة تلك الجماعة الأولى التي أنشأها السيد المسيح بذاته ودعاها كنيسة (متّى ١٦: ١٨) ألفها من الاثني عشر رسولاً (متّى ١٠: ٢ — ٥) ثم من الاثنين والسبعين تلميذاً (لوقا ١٠: ١) وأنبأهم بتبشير إنجيله في كل العالم (متّى ٢٦: ١٣) وأوصى تلامذته قبل صعوده أن يتلمذوا كل الأمم ويعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس ويعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصاهم به (متّى ٢٨: ١٩ — ٢٠) فما مر عليهم بضعة أيام حتّى حل عليهم البارقليط أي الروح القدس الذي وعدهم بإرساله (يوحنا ١٥: ٢٦) فأنطقهم بألسنة جميع الأمم التي كان حضر بعض أبنائها أورشليم لعيد العنصرة ووقفوا بذلك على الدين الجديد (أعمال ٢: ١ — ١٢) فاعتمد في ذلك اليوم ثلاثة آلاف من اليهود (أعمال٢: ٤١) ثم بلغ عددهم خمسة آلاف بعد أيام (٤: ٤) ثم شاع اسمهم فعُرفوا بالمسيحيين (١١: ٢٦) ثم صار التخصيص بظهور بعض الشيع فدُعوا بالكاثوليك وكنيستهم بالكنيسة الكاثوليكية قريباً من عهد الرسل كما ورد في كتاب القديس أغناطيوس تلميذهم والفيلسوف يوستنيوس النابلسي المستشهد سنة(١٦٥م)ولم يزل مذ ذاك الوقت اسمهم الخاص دون سواهم .

يؤمن الكاثوليك بكل العقائد التي أوحى الله في الكتب المنزلة وفي التقليد . وتقسم الكتب المنزلة إلى قسمين أسفار العهد العتيق وأسفار العهد الجديد .

وأسفار «العهد العتيق» منها أولية ومنها ثانوية. فالأولية هي التي كتبت في الأصل باللغة العبرانية وهي: أسفار موسى الخمسة (التكوين والخروج والأحبار والعدد وتثنية الاشتراع) ثم الأسفار التاريخية (يشوع والقضاة وراعوث والملوك الأربعة وأخبار الأيام الاثنان وعزرا ونحميا وأستير) ثم الأسفار النبوية: أربعة كبار (أشعيا وأرميا وحزقيال ودانيال) واثنا عشر صغار (هوشع ويوئيل وعاموس وعوبديا ويونان وميخا وناحوم وحبقوق وصفنيا وحجاي وزكريا وملخيا) ثم الأسفار الحكمية (مزامير داود وأمثال سليمان وأيوب ونشيد الأناشيد والجامعة).

أما الأسفار (الثانوية) فهي التي كتبت بالكلدانية أو اليونانية ونقلت في الترجمة المعروفة بالسبعينية وهي: طوبيا ويهوديت وابن سيراخ والمكابيون (اثنان).

وهذه كتب «العهد الجديد»: الأناجيل الأربعة القانونية للرسولين متى ويوحنا وللتلميذين مرقس ولوقا. ثم سفر أعمال الرسل للقديس لوقا. ثم رسائل القديس بولس الأربع عشرة ثم رسالة القديس يعقوب ورسالتا بطرس وثلاث رسائل يوحنا ورسالة يهوذا ورؤيا يوحنا.

وفي الكنيسة الكاثوليكية معتقدات أخر ليست مدوّنة في الأسفار المنزلة وإنما أخذتها بالتعليم الحي بسلسلة متواصلة من عهد الرسل إلى يومنا وأعلنت بها في مجامعها أو في براءات أحبارها وفي تعليمها اليومي. وخلاصة هذه المعتقدات المدوّنة في أسفار العهد العتيق ولا سيما في أسفار العهد الجديد مرجعها إلى ما يلي:

أولاً عقيدة التوحيد: أي اعتقاد وجود إله واحد روح بسيط أزلي لا أول له ولا آخر لا يحصر جوهره المكان، قائم بذاته ذو صفات وكمالات لا حدّ لها من قداسة وحكمة وقدرة ورحمة وعدل. وهو خالق كل الكائنات الروحية والهيولية من العدم بجوده واختياره.

ثانياً عقيدة التثليث: هذا الإله الصمد ذو الجوهر الفرد والطبيعة الإلهية الواحدة له ثلاثة أقانيم هي صفات جوهرية نسبية متساوية بكل كمال وكل

قدرة لا يفرقها شيء سوى نسبة بعضها إلى بعض. فندعو الأقنوم الأول «أباً» وهو أصل اللاهوت غير مولود وغير منبثق. والثاني «ابناً» مولوداً من الآب منذ الأزل ليس ولادة جسدية بل ولادة عقلية روحية بمعرفة الآب لذاته ولكمالاته يصدر بهذه المعرفة ابنه الشبيه به وضياء مجده وصورة جوهره (عبرانيون ١: ٣ كولوسّي ١: ١٥) فهو إله من إله نور من نور إله حق من إله حق من جوهر الآب (دستور نيقية). والثالث (روحاً قدساً) منبثقاً من الآب والابن ليس بطريق الولادة العقلية، بل بتبادل حب الآب لابنه وحب الابن لأبيه المولود منه. وهذا الحب ليس عرضياً بل جوهرياً ندعوه الروح القدس. وهذه عقيدة تثليث الأقانيم في الله أوصى بها الله بنوع خفي في العهد العتيق كما يؤخذ من بعض آياته، ثم صرّح به السيد المسيح في نصوص عديدة في الإنجيل وقرره تلاميذه في رسائلهم بما لا يبقي في الأمر أدنى ريب وإن كان سراً يفوق الإدراك البشري .

ثالثاً عقيدة التجسد: هو سر الأقنوم الثاني من الثالوث الأقدس الذي تأنّس واتخذ في أحشاء مريم العذراء دون زرع بشري طبيعتنا البشرية بكل خواصها ما عدا الخطيئة ليفدي بني آدم من تبعة الخطيئة الأصلية التي ارتكبها الأبوان الأولان بمخالفتهما لأوامره تعالى في جنة عدن وخلّفاها لسائر نسلهما وبها حصل هلاك الجنس البشري ففقد البرارة الأصلية التي مُنحها قبل خطيئته فلم يعد أهلاً للتمتع بالنعيم الأبدي ومشاهدة الله في السماء. وإذ كان الإنسان غير قادر على الوفاء عن خطيئته لجلال الله فإنه تعالى رحمه ووعده بمخلّص يُعيذ له بفدائه ما فقده من تلك النعم (تكوين ٣: ١٥) وليس هذا المخلص إلا السيد المسيح منتظر الآباء والأنبياء وجميع الشعوب وهو الإله المتجسّد ذو الأقنوم الإلهي الواحد وذو الطبيعتين الإلهية والإنسانية (يوحنا ١: ١٤ و٣ : ١٦ لوقا ١ : ٢٦ — ٣٦) فهذا الإله المتأنس قضى على الأرض ثلاثاً وثلاثين سنة يعمل ويعلّم وأنشأ كنيسة وأسلم نفسَهُ اختياراً للعذابات وللموت ثم قام بقوّة لاهوته من قبره في اليوم الثالث وتراءى مراراً لتلاميذه ثم صعد إلى السماء بعد أربعين يوماً. وبكل ذلك أتمّ جميع ما تنبأ عنه الأنبياء دون أن يخلّ من نبوّاتهم حرفاً .

ولما كانت أعماله سواء صدرت من طبيعته الإلهية كالمعجزات التي صنعها أو من طبيعته الإنسانية كمولده وموته ذات قيمة غير متناهية لصدورها عن شخصه الوحيد الإلهي شخص ابن الله فقدّمها لأبيه ولا سيما موته على الصليب تكفيراً عن خطايا البشر الذين يستطيعون بعد ذلك أن ينالوا نعمة البرارة والخلاص الأبدي بواسطة المعمودية والأعمال الصالحة والتوبة عن الزلاّت .

رابعاً عقيدة القيامة: يؤمن الكاثوليك بخلود النفس فعند انفصالها عن الجسد بالموت تدخل السماء إن كانت طاهرة من كل خطيئة ثقيلة أو خفيفة وتعاقب بعقوبات جهنم إن كانت في حال الخطإ المميت دون توبة عند الموت . أما إن كانت مدنسّة ببعض الخطايا الخفيفة أو لم تكفر تماماً عن خطاياها السابقة المغفورة فيحكم عليها بعذابات موقتة وذلك ما يدعونه المطهر ريثما تفي لعدل الله الوفاء التام. وفي آخر الأزمنة سيبعث الله الموتى من قبورهم فيعودون إلى أجسادهم ليحضروا الدينونة الأخيرة التي يتولاها السيد المسيح فيحكم نهائياً على البشر فيجازي الأبرار بالنعيم الأبدي ويعاقب الأشرار بالعذاب الدائم (يوحنا ٥: ٢٦ — ٢٩) .

خامساً المعتقدات التقليدية: ما عدا المعتقدات السابقة التي وردت في الأسفار المقدسة يؤمن أيضاً الكاثوليك ببعض الحقائق التي لم تصرح بها الكتب المنزلة وإن أمكن إثباتها من بعض آياتها كعقيدة عصمة الحبر الأعظم عن الغلط في أمور الإيمان والآداب إذا علّم كنائب المسيح وكخليفة هامة الرسل وكعقيدة حبل العذراء مريم بلا دنس وكعقيدة وجود المطهر وهلمّ جرّاً : فهذه العقائد يمكن ترقيتها بسلسلة متواصلة إلى زمن الرسل تشهد عليها نصوص الآباء والمجامع جيلاً بعد جيل ويُعلن بها أرباب الكنيسة في تعليمهم اليومي بالإجماع. لما كانت الكنيسة الكاثوليكية تعلن بكونها هي كنيسة المسيح ويعارضها في ذلك غيرها من الكنائس المنفصلة عنها كان لا بدّ أن تمتاز الكنيسة الحقيقية عن سواها ببعض العلامات الخاصة. وهذه العلامات قد سبق الرسل ودوّنوها في دستور الإيمان المنسوب إليهم وتكرر ذكرها في كل دساتير الإيمان المتقررة بعدهم وهي أربعة: أن تكون الكنيسة واحدة

مقدسة جامعة رسولية. وهذه العلامات لا تستطيع أن تثبتها لنفسها أي كنيسة كانت إلا الكنيسة الكاثوليكية .

فهي «واحدة» باتفاق جميع أعضائها في خضوعهم لرأس واحد منظور هو نائب المسيح وخليفة بطرس هامة الرسل ثم في اعتقادهم كل ما تعلمه الكنيسة دون خلاف وأخيراً في اشتراكهم بالأسرار عينها .

وهي «مقدسة» لأن منشأها السيد المسيح هو القداسة بالذات ثم لأن كل تعاليمها وآدابها صالحة مقدسة ولأنها أيضاً تقدم لذويها وسائط جمة لتقديس نفوسهم لا سيما بالأسرار السبعة التي رسمها المخلص أعني المعمودية والميرون والتوبة والقربان الأقدس ومشحة المرضى والكهنوت والزواج بقرينة واحدة دون طلاق. ولذلك قد أولدت عدداً لا يحصى من القديسين في كل أنحاء العالم تشهد على قداستهم أعمالهم العجيبة وفضائلهم السامية التي لا تزال آثارها ظاهرة لكل ذي عينين. وكفى دليلاً عليه وجود الرهبانيات الساعية وراء الكمال بنذورها والمتفانية في عمل كل خير دون غاية زمنية .

وهي «جامعة» لأنها وحدها قد نشرت تعاليمها في جميع أقطار العالم المعروف فقام دعاتها بأمر الرب الموصي بنشر إنجيله بين كل الأمم ومن ثم لا يكاد يخلو قطر من بعض تبعتها. وهي أعظم عدداً من أي مذهب كان إذا قيس بها منفرداً منقسماً كالروم والشيع البرتستانية والبوذية والبرهمانية وهلم جراً. وفي اسمها دليل على هذه السمة فإن الكاثوليكية معناها الجامعة . وقد ظهرت هذه العلامة منذ عهد الرسل إذ يقول القديس بولس في رسالته إلى أهل رومية (١ : ٨) «إن إيمانكم يبشر به في العالم كله» .

وهي «رسولية» لأن سلسلة أحبارها الأعظمين تتصل دون انقطاع برأس الكنيسة الأول القديس بطرس هامة الرسل. وبيوس الحادي عشر الجالس اليوم سعيداً على كرسي رومية إنما هو خلفه المائتان والسادس والستون .

هذه علامات الكنيسة الكاثوليكية الأصلية. أما ما يرى في بعض بلاد الشرق من الاختلافات في الطقوس واللغات والعادات الدينية فكل ذلك ثانوي عرضي يمكن تغييره مع الزمان دون أن يمس جوهر الكنيسة الكاثوليكية لا بل يزينها ويزيدها جمالاً .

ومعلوم أن الكنيسة الكاثوليكية انتشرت بكل سرعة في العالم كله منذ عهد الرسل الحواريين حتّى تجاوزت حدود المملكة الرومانية. ولوقوع بلاد الشام في جوار فلسطين لا يستغرب انتشار النصرانية فيها قبل سواها. وذلك ما تثبته أقدم الشواهد التاريخية وأولها سفر أعمال الرسل الذي منه يلوح إنشاء الدين المسيحي في أنطاكية (١١: ٢٦) وفي سائر سواحل الشام ذُكر منها صور وعكة وقيصرية (٢١: ٣ — ٨) .

ويمكننا أن نتتبع تاريخ الكنيسة الكاثوليكية في الشام جيلاً بعد جيل على الرغم مما حلّ بها من اضطهادات الوثنيين وعلى الرغم مما شاع من البدع كالأريوسية واليعقوبية والنسطورية والمنوثلية فلم يكن بين الطوائف الشرقية ما يفصلها عن الكنيسة الرومانية في إيمانها وخضوعها لرأس الكنيسة الرومانية وآدابها غير الأعراض السابق ذكرها. والدليل على ذلك إكرام كنائس الشرق لقديسي الغرب وإكرام الغربيين للقديسين الشرقيين. وفي طقوس الشرقيين القديمة ما يشهد إلى اليوم بتلك الوحدة والاتفاق. وكذلك سِيَر القديسين الشرقيين تثبت ذلك الأمر. وكثيرون منهم أزهروا في الشام كالقديس يوحنا فم الذهب والقديس أفرام السرياني والقديس مارون الناسك .

غير أن تملك العرب على الشام واستفحال الشيع المضادة لتعاليم الكنيسة وصعوبة طرق المواصلات بين الشرق والغرب أضعفت الدين الكاثوليكي كثيراً في الشام، إلى أن عاد فتعزّز بقدوم الصليبيين إلى الشرق ثم بدخول المرسلين منذ القرن الثالث عشر في هذا القطر، فظهرت آثاره الطيبة أولاً بين الموارنة ثم بعد ذلك بزمن بين الروم والأرمن، ثم بين الكلدان والسريان حتّى قامت لكل هذه الطوائف كنائس منظمة لها بطاركتها وأساقفتها ورعاياها، ولكل طائفة تاريخها الخاص يترجم عن أعمال بنيها ومشاهير ملتها وارتباطها مع الكرسي الروماني .

واليوم يبلغ إحصاء الكاثوليك في الشام نيفاً وستمائة ألف معظمهم الموارنة (٣٠٠،٠٠٠). ثم الروم الكاثوليك (١٢٠،٠٠٠). ثم الأرمن (٨٠،٠٠٠) . ثم السريان (٢٠،٠٠٠). ثم اللاتين (١٠،٠٠٠). ثم الكلدان (٢٠٠٠) هذا ما عدا المهاجرين منهم إلى أميركا وغيرها.

وقد تعززت الكثلكة في الشام بدخول الرهبان وأقدمهم الفرنسيون في القرن الثالث عشر. ثم في القرن السابع عشر الكرمليون والكبوشيون واليسوعيون. ثم في أواخر القرن الثامن عشر اللعازريون، وفي القرن التاسع عشر أخوة المدارس المسيحية والأخوة المريميون مع راهبات من رهبانيات مختلفة كراهبات الزيارة وراهبات المحبة واليوسفيات وراهبات القلبين الأقدسين وراهبات السجود وراهبات العائلة المقدسة وراهبات العجز الخ. ولكل من هؤلاء الرهبان والراهبات من المشروعات الجليلة ما يكفي وحده لتشريف الكنيسة الكاثوليكية. ولله الحمد على كل حال .

المارونية :

الموارنة طائفة من النصارى الكاثوليكيين الشرقيين يعرف من تواريخهم أنهم ينتسبون إلى الناسك البار القديس مارون القورسي النشأة على ما يرجح . اعتزل هذا الفاضل الدنيا في أواخر القرن الرابع ولجأ إلى صومعة في قمة جبل غير بعيد عن أنطاكية فما لبث عرف فضائله أن فاح في تلك الأنحاء فجذب إليه جماعات قصدوه ليلتمسوا منه بركته وصلواته ويسترشدوا بتعاليمه ويقتدوا بسيرته. وقد زهد قوم منهم بالدنيا واختاروا العزلة والتفرغ لخدمة الله في المغاور وأعالي الجبال ليقيموا بعيدين عن ضوضاء العالم، على أن أريج حياتهم الطاهرة لم يمكن إخفاؤه فتقاطر المجاورون حول تلك المناسك وتألفت منهم طائفة عُرفت فيما بعد باسم الطائفة المارونية، وكان أهم المراكز التي التفوا حولها دير القديس مارون المبني على ضفاف النهر العاصي في نواحي أفامية .

ولما توافر عددهم مست الحاجة إلى تنظيم أحوالهم الروحية فأقيم لهم بطريرك هو البار يوحنا مارون وبه تبتدئ سلسلة بطاركة الموارنة، وعاش هذا البطريرك الأول في أواخر القرن السابع في حين كان للموارنة أمراء يديرون شؤونهم الزمنية، ثم أخذ الموارنة يهجرون إلى الأقطار المجاورة، فنزل قوم منهم في جبال عكار وعمروا فيها القرى، وسارت فئة نحو الجنوب إلى لبنان الشمالي فما عتموا أن قويت شوكتهم فيه فبلغ في القرن العاشر عدد

رجالهم الصالحين للقتال أربعين ألفاً على ما ذكر مؤرخو الحروب الصليبية .

وقصد فريق منهم سورية الداخلية فاستوطن جوار دمشق واستغل الأرض فيها وبنى الدساكر والمرابط. وفريق أمّ القدس وآخر نزح إلى قبرس في أيام الصليبيين وبعض الأسر سكنت حلب في أواسط القرن الخامس عشر وهبط بعضهم مصر وردوس ومالطة. على أن الأغلب فضلوا الإقامة في جبال لبنان فاعتصموا بها ونموا وكثروا رغم ما أصابهم من النكبات في أوقات مختلفة. ولما ضاق بهم جبلهم رحل قسم منهم إلى بلاد المهجر كأميركة وإفريقية وأوقيانية حيث ألفوا جاليات لها مقامها المعتبر في عالم التجارة والصناعة والأدب كسائر إخوانهم اللبنانيين والسوريين، وبلغ عدد الموارنة ويدخل فيه المهاجرون خمسمائة ألف نسمة .

أما في الدينيات فيتفق الموارنة مع الكاثوليكيين بمعتقدهم وشرائعهم الدينية والأدبية وهم مثلهم خاضعون لسلطة بابا رومية، إنما لهم وللسريان لغة طقسية واحدة هي السريانية لكنهم يختلفون عن سائر الطوائف بترتيباتهم ونظام إدارتهم الروحي المبينة كلها في دستورهم المجمع اللبناني الذي عقد سنة (١٧٣٦) وفي عاداتهم المشروعة، ويرأس الطائفة بطريرك يعرف ببطريرك أنطاكية مستقل عن سائر البطاركة الشرقيين مركزه الشتوي دير سيدة بكركي فوق جونية ومقره الصيفي جديدة قنوبين في لبنان الشمالي فوق طرابلس . ويخضع لإدارته مطارنة يقيم بعضهم نواباً له وبعضاً على أبرشيات معينة مستقل بعضها عن بعض، ويعهد إليهم في تدبير هذه الأبرشيات الروحي والزمني وإدارة أوقافها مباشرةً أو بواسطة وكلاء يسمونهم لذلك ويراقبون أعمالهم، وفي الأبرشيات كهنة يعنون بخدمة الرعايا. وفي الطائفة جمعيات رهبانية يقيم أعضاؤها في أديارهم ومدارسهم ويتفرغون لخدمة الله والنفوس .

وكان للموارنة شرع خاص يتقاضون بموجبه أقره لهم جميع الذين حكموا القطر من نصارى وغيرهم، ولا تزال أغلب قوانينه مرعية الإجراء عندهم حتى اليوم .

ونبغ منهم في رجال الدين كثيرون نذكر منهم البطاركة جرجس عميرة الذي ألف أول غراماطيق سرياني ووضع قواعده باللغة اللاتينية ليسهل على

المستشرقين درس هذه اللغة، ثم العلامة أسطفانوس الدويهي المؤرخ المشهور، ويوسف حبيش وبولس مسعد ويوحنا الحاج، والبطريرك الحالي الياس الحويك صاحب المواقف المشهورة في القضايا الوطنية .

ثم الأساقفة كالمطران جرمانوس فرحات والسيد يوسف سمعان السمعاني ويوحنا حبيب ويوسف الدبس وغيرهم كثيرون من رجال الدين ممن خدموا اللغة العربية والقانون والتاريخ .

وبين العلمانيين أمراء شهاب وبيت أبي اللمع وأناس امتازوا بخدمة وطنهم وأعمالهم المبرورة كآل خازن ودحداح وحبيش والسعد وكرم والظاهر ونبغ غيرهم في خدمة العلم كآل البستاني والشدياق والنقاش والباز . ولا يمكن في عجالة سرد أسماء جميعهم .

البرتستانتية :

التأم في أوائل سنة (١٥٢٩) في إحدى مدن جرمانيا مؤتمر بأمر الأمبراطور كارلس الخامس قرر عدم السماح بإحداث تغيير في الرسوم الدينية وكان هذا القرار موجهاً ضد الإصلاح والمصلحين. وفي ١٩ نيسان من نفس السنة أرسل كثيرون من الأمراء والأشراف وأربع عشرة مدينة امبراطورية احتجاجاً قالوا فيه: إنهم مستعدون أن يطيعوا الامبراطور والمؤتمر في كل القضايا الواجبة والممكنة ولكنهم لا يخضعون لأحد في ما يعتقدونه مخالفاً لكلمة الله وضميرهم . فسموا من ذلك برتستانت أو محتجين، ومن هذا الوقت أطلق هذا الاسم على كل المسيحيين من غير اللاتين والكنائس الشرقية بفروعها. وهم يدعون أنفسهم غالباً إنجيليين ويدعون غيرهم تقليديين نسبة إلى التقليد كما سترى . والبرتستانتية بمعناها اللغوي لا يخلو منها دين أو مذهب، ففي كل زمان ومكان أفراد وجماعات يحتجون على رسوم في الدين أو المذهب الذي ولدوا فيه قد ينجحون أو لا ينجحون. أما البرتستانت فقد نجحوا نجاحاً لم يقدره أحد لهم فعددهم الآن يتجاوز مئتي مليون في الدرجة الأولى عدداً بعد اللاتين وكل من انضم إليهم من الكنائس الشرقية، وفي الدرجة الأولى في الرقي وسعة الملك .

ثم إن البرتستانت وإن افترقت أكثر فرقهم في أمور أكثرها عرضية

فهم مجمعون على أمور كثيرة، وإليك التفصيل في ما هم مجمعون عليه وما هم مختلفون فيه: أهم ما تجمع عليه أكثر فرق البرتستانت (عدا ما هم مجمعون عليه مع غيرهم مما يأتي بيانه):

(أ) : أن الكتاب المقدس هو القانون الوحيد في كل ما يلزم للخلاص.
(ب) : أن المسيح هو المخلص الوحيد وليس بأحد غيره خلاص.
(ج) : أن الخلاص كله نعمة مجانية من الله.
(د) : أن الإيمان هو السبيل الوحيدة لنيل الخلاص.
(هـ) : أن الأعمال الصالحة هي ثمر الإيمان الحي فنعمل لأننا مخلصون لا لكي نخلص.

والبرتستانت إجمالاً قسمان كبيران – الأول الايسكوبيليان أي الأسقفيون وهم الذين يقولون: إن درجات الأكليروس ثلاث: الأسقف والقسيس والشماس – الثاني البرسبتيريان أي القسوسيون وهم الذين ليس عندهم رتبة أساقفة. وأكثر فرق البرتستانت هذا القسم. فالأسقفيون مثلاً يجرون العبادة غالباً بموجب كتاب صلاة أي صورة معينة تتلى وقت عبادة الجماعة. وأما العبادة العائلية والاجتماعات الأخرى الروحية فيتركونها لحرية القسيس أو من ينوب عنه. أما القسوسيون فالحرية مفوضة للخادم في كل الأوقات. وعندهم بعض صلوات وإرشادات مكتتبة لمساعدة القسيس في أحوال خصوصية.

على أن هذا النظام لا يعد جوهرياً فهذه الكنيسة الانكليكانية وهي تجري عبادتها بموجب كتاب صلاة تقول في العقيدة ٣٤ «لا يلزم أن تكون التقاليد والطقوس في جميع الأماكن واحدة متساوية إذ قد اختلفت في كل الأزمان ويصح تغييرها على مقتضى اختلاف المكان والزمان وعادات الناس بحيث لا يرتب منها شيء مضاد لكلام الله ... وكل كنيسة تختص بأمة فلها سلطان أن تثبت وتغير وتبطل طقوسها ورسومها التي رتبت بسلطان الناس فقط».

وكل الأسقفيين والأكثرية العظمى من غيرهم يجرون السرين المعمودية والشركة ويعمدون الأطفال والبالغين الذين لم يعمدوا أطفالاً، أما بعض القسوسيين فلا يعمدون إلا البالغين ويسمون بالمعمدانيين، وبعضهم لا يجري السرين مطلقاً وهم المعروفون بالفرندس أو الكويكرس.

يتفق البرتستانت مع غيرهم في أمور كثيرة جوهرية ويخالفونهم في أمور أخرى وإليك التفصيل: أهم الأمور الجوهرية التي يتفق فيها البرتستانت مع غيرهم. يتفقون في قانوني الإيمان — أولاً القانون المعروف بقانون إيمان الرسل وهو يرجع إلى أواخر القرن الأول المسيحي بل قيل: إن الرسل أنفسهم وضعوه — ثانياً قانون الإيمان النيقاوي وضعه المجمع المسكوني الأول الذي التأم سنة ٣٢٥ في مدينة نيقية مع ما أضيف إليه في ما بعد سوى عبارة واحدة بخصوص انبثاق الروح من الابن أضيفت فيما بعد لا يقبلها الروم الأرثوذكس. ويوجد قانون إيمان ثالث مجمع عليه يسمى قانون مار أثناسيوس ولكنه أقل شهرة وأقل استعمالاً من الأولين. ويمكن تلخيص الأمور الجوهرية التي يتفقون فيها في ما يأتي: (١) التوحيد والتثليث (٢) الخلق والسقوط والفداء (٣) تجسد الكلمة الأزلية المسيح ابن الله من مريم العذراء بالروح القدس وكل ما يتعلق بتاريخ فداء المسيح من ميلاده إلى مجيئه الثاني للدينونة (٤) القيامة والدينونة (٥) وجوب التبشير بالمسيح ودعوة الغير إلى الإيمان به (٦) عدم تحريف الأسفار التي يتفقون على قانونيتها من الكتاب المقدس .

وأهم الأمور المختلف فيها سلطان الكتاب المقدس. ويعتقد البرتستانت أنه المرجع الوحيد المعصوم الذي يجب الرجوع إليه في عقائد الإيمان. ويعتقد غيرهم أن للكتاب والتقليد سلطاناً متساوياً ومن هذا يدعوهم البرتستانت تقليديين. والتقليد عند المسيحيين كالتلمود عند اليهود والحديث عند المسلمين . وبعد فلا خلاف بين البرتستانت وغيرهم في عدد أسفار العهد الجديد إنما الخلاف في عدد أسفار العهد القديم. فالبرتستانت لا يقبلون إلا الأسفار التي يقبلها اليهود وذكر عددها يوسيفوس. وغيرهم يضيف إليها أسفاراً تسمى أبوكريفا وجدت في الترجمة السبعينية مضمومة إلى باقي الأسفار. ومع تسليم البرتستانت بلزوم المجامع وفائدتها فهم لا يحسبون لما تقرره قوة ولا سلطاناً إلا إذا أثبت من الكتاب المقدس. أما المجامع عند الروم الأرثوذكس والمجامع والبابا عند البابويين فهممعصومون من الخطإ في ما يقررونه من عقائد الإيمان . ويعتقد البرتستانت أن فرصة الخلاص تنتهي بالموت وبه يتقرر حال كل

نفس إما في النعيم أو في الجحيم. ويتفق معهم غيرهم في حال أهل الجحيم ويخالفون في حال أهل النعيم فعندهم مكان عذاب وقتي غير الجحيم يسمى عند الباباويين المطهر وعند الروم الأرثوذكس عقالات الجحيم تذهب إليه الأنفس لتكفر عن ذنوب صغيرة، وتصرف فيه مدة تطول وتقصر بحسب عدد تلك الذنوب وصفتها، ويمكن تقصير هذه المدة بالصلوات والصدقات. يحصر البرتستانت الشفاعة وطلب الخلاص بالمسيح،وغيرهم يطلبهما منه ومن الملائكة والقديسين.

عند البرتستانت سران فقط هما المعمودية والشركة وغيرهم يضيف إليهما خمسة فيصير العدد سبعة والمضافة هي: (١) التثبيت عند اللاتين والموارنة. والميرون عند غيرهم. (٢) الكهنوت. (٣) الاعتراف للكاهن. (٤) الزواج. (٥) المسحة الأخيرة قبل الموت. أما الإفاضة في تعريف السر وفاعليته وما يحدث فيه وما يحدثه هو من التغيير وفي سبب هذا الخلاف فإنها تخرجنا كثيراً عن المقصد.

والبرتستانت يعترفون لله وحده وللشخص الذي أخطأوا إليه، ولله وحده عندهم السلطان على مغفرة الخطايا. وغيرهم يوجب الاعتراف للكاهن. وللكاهن سلطان مطلق على غفران الخطايا.

ولما كان البرتستانت في هذه الديار ثمرة الإرساليات نرى من الواجب أن نشير إلى الداعي إلى الإرساليات، فالداعي إليها أوامر الكتاب المقدس الكثيرة، وأهمها أمر المسيح الأخير الصريح «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس». وقد أطاع رسله أمره وتفرقوا في أنحاء العالم المعروف حينئذ وليس لهم ما يستندون عليه أمام قوات هذا العالم سوى إيمانهم وثقتهم بوعده. وعدوا مخالفة أمره هذا جرماً عظيماً فقال الرسول بولس: «إذ الضرورة موضوعة عليّ فويل لي إن كنت لا أبشر». ولا يزال هذا التبشير من مميزات الكنيسة الحقيقية ففي العقيدة ١٩ الانكليكانية «كنيسة المسيح المنظورة هي جماعة المؤمنين التي فيها يبشر بكلمة الله النقية».

وقد وجه البرتستانت قواهم إلى هذا الواجب حالما تمكنوا من تنظيم

شؤونهم، فتألفت الجمعيات هنا وهناك، وربما كان أقدمها جمعية المورافيين نسبة إلى مورافيا على ضفاف الدانوب، وتعرف بجمعية الأخوة المتحدين، وقد كانوا ولا يزالون في المقدمة بالنسبة إلى عددهم الذي لا يتجاوز ٣,٠٠٠,٠٠٠. وفي أواخر القرن الثامن عشر زاد عدد الإرساليات البرتستانتية وزاد نشاطها. وقد طلبت من أمين سر الجمعية (S. M. L.) المستر هاردمان في القدس بعض إحصاءات لهذه الإرساليات فأسل آخر ما عرفه منها أعربه بالشكر قال: عدد إرساليات البرتستانت في العالم ٣٨٠، عدد المرسلين رجالاً ونساءً ٢٩٠٤٩ والمال الذي صرفته خمسة عشر مليون ليرة إنكليزية. « هذا عدا ما جمع في حقول الإرساليات نفسها وصرف عليها أيضاً ». وعدد الإرساليات في فلسطين ١٧ وعدد المرسلين فيها ١٦٠.

وعمل بعض هذه الإرساليات عام وبعضها خاص محصور في قارة أو مملكة أو إقليم أو دين أو مذهب أو رتبة من الناس أو الذكور أو الإناث أو الطب العام أو الخاص أو طبع الكتب أو نشرها أو التبشير مجرداً أو فتح المدارس فقط. وهذا الاختصاص في الغرب حتى في الأمور الدينية هو أساس نجاحه.

ومن المبادئ الأساسية لهذه الإرساليات أن تنظم المهتدين جماعات تشرع بإدارة شؤونها بنفسها، وتسير نحو الاستقلال الإداري والمالي. ومنها عدم التدخل في سياسة البلاد التي يرسلون إليها، ووجوب إطاعة أوامر حكوماتها، والمحافظة على قوانينها ونظاماتها في كل ما لا يخالف الضمير بناء على قول المسيح « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » وبناء على أوامر رسله المتعددة بالصلاة والطاعة للحكام. ومع ذلك فقد أوقعت السياسة الأوربية تهمة المداخلة في السياسة على المرسلين، لأنها استعملت الإرساليات على غير قصد من المرسلين جسراً عبرت عليه إلى مقاصدها الاستعمارية فشوهت سمعة المرسلين.

ولقد كان من الطبيعي أن توجه الإرساليات أفكارها إلى هذه الديار مهبط الوحي ومهد المسيحية لإنعاش المسيحية وتبشير غير المسيحيين بها. وفي إحصاء بتاريخ سنة (١٩١٣) أن عدد الإرساليات في هذا القطر أكثر من

٣٠ أميركية وإنكليزية واسكوتلاندية وإيرلندية وألمانية ودانماركية وموراڤية وأسوجية. ويقوم بأكثرها أفراد أو مدينة أو جماعة صغيرة،وأعمالها غالباً محصورة في العواصم كالقدس وبيروت ودمشق أو بعض المدن والقرى كيافا وحيفا والناصرة وبيت لحم والخليل ورام الله وصفد والشويفات وبرمانا وبيت مري والشوير وشملان وبعلبك والنبك ودير عطية وغيرها. وليس بين كل هذه الإرساليات سوى إرساليتين عموميتين كبيرتين لهما طائفة منظمة بمجامع وقوانين وميزانية مالية مستقلة عن ميزانية الإرسالية، الأولى أميركية قسوسية في الشمال، والثانية إنكليزية أسقفية في الجنوب .

إرسالية الشمال أميركية قسوسية أسست سنة(١٨١٠). وفي سنة(١٨٢١)نزل أول مرسليها من ميناء يافا وشرعت بعملها في القدس وجوارها، ولكن قضت الأحوال أن ينحصر عملها في الجزء الواقع شمالي رأس الناقورة، وقام مرسلوها بمبادئ الإرساليات البرتستانتية بكل أمانة ونشاط وكان لهم اليد الطولى وفضل السبق في نشر العلم والمدنية لا بما عملوه فقط بل بتحريض غيرهم أيضاً .

ودائرة عمل إرسالية الجنوب من رأس الناقورة شمالاً إلى حدود مصر جنوباً، وهي إنكليزية أسقفية أعضاؤها من كنيسة إنكلترا المثبتة. أُسست في لندن في ١٢ نيسان سنة(١٨٩٩)واسمها جمعية المرسلين الكنسية ويعبر عنها بالأحرف(C. M. L.)وللإحاطة بعمل إرسالية فلسطين لا بد من ذكر لمحة من تاريخ الأسقفية الإنكليزية فيها. في سنة(١٨٤١)أُسست أُسقفية انكليكانية في القدس بالاشتراك مع بروسيا. وكان من مبادئ المرسلين الأولية أن لا يشقوا من الطوائف الأخرى المسيحية طائفة برتستانتية وخصوصاً من طائفة الروم الأرثوذكس التي يعتبرونها أم الكنائس. بل قصدوا أن يعملوا بالاتفاق مع رؤسائها لإنعاش المسيحية من الغفلة التي استولت على معظم مسيحيي الشرق. ولكن مقاومة هؤلاء الرؤساء وهيجهم طوائفهم على المرسلين وعلى كل من يقترب منهم، اضطرتهم بعد تردد طويل إلى تأليف طوائف. وقد دان بالمذهب البرتستاني من كل الطبقات، وارتقى كثيرون من أولاد الفقراء والفلاحين إلى أسمى ما يمكن الوصول إليه من المراتب. على أن تأثير المرسلين

لم يقتصر على العدد القليل من البرتستانت العرب، بل عم القطر بل هم كانوا من أول عوامل الرقي .

إن لكل من الإرساليات المذكورة عمالاً وأفراداً متعلقين بها وعددهم بحسب سعة عملها. ولكن للإرساليتين السابقتين فقط طوائف برتستانتية منظمة بمجامع وقوانين وميزانية مستقلة عن ميزانية الإرسالية كما مر .

ليس لطائفة البرتستانت العرب كما مر قسوسية مشيخية، وليس لها كتاب صلاة تجري بموجبه عبادة الجماعة سوى بعض إرشادات مطبوعة ضرورية لإرشاد القسيس في بعض الواجبات وهو مع ذلك غير مقيد بها. وتستعمل كتاب ترتيل فيه الآن(٤٣٢)ترتيلة بأنغام مختلفة غربية وبعض أنغام شرقية، وإنما العلامات الموسيقية كلها غربية. وهذا الكتاب مشترك بين سورية وفلسطين ومستعمل للعبادة في الكنيستين .

وعدد نفوس الإنجيليين في لبنان ١٠ آلاف نفس. بقي الكنائس الأخرى غير المشيخية منها كنيسة الفرندس في برمانا ورأس المتن والكنيسة المعمدانية في راشيا الوادي وجوارها والكنيسة الإنجيلية في دمشق للكنيسة المشيخية الاسكوتلاندية والكنائس الإنجيلية في جهات القلمون وهي تابعة للإرسالية الدانمركية ولها عدة مراكز في النبك ودير عطية ويبرود وصدد وغيرها .

أما طائفة البرتستانت العربية في فلسطين فهي أسقفية انكليكانية تجري عبادتها بموجب كتاب الصلاة العامة المترجم عن الإنكليزية مع عقائد الدين التسع والثلاثين وكتاب الترتيل المشترك مع كنيسة سورية. رسم أول قسوسها الوطنيين سنة(١٨٧١) في الناصرة وكانت طائفة الناصرة في مقدمة كنائس فلسطين في إقامة الأوقاف والسعي نحو الاستقلال وكان أحد أفرادها عودة عزام المستوطن القدس في الربع الثالث من القرن الماضي وقف أملاكه كلها لكنيسة القدس وأصبحت الآن ذات قيمة كبيرة. وتبعه غيره في الوقف على الكنائس. ويبلغ مجموع البرتستانت في فلسطين وشرقي الأردن نحو ثمانية آلاف إنسان .

وبعد فإن في العالم أجمع الآن حركتين متضادتين نعبر عنهما بالجذب والدفع، فبينما أنت ترى الشعوب تتحرك بدفع بعضها عن بعض فتتألف

كتلاً متفرقة تجدها في نفس الوقت تنجذب وتتقارب وتتفاهم وتسعى لتوحيد هذه الكتل أو ربط بعضها ببعض على الأقل، وعلى الرغم مما نجده من التباعد بحركة الدفع والتمركز نجد الناس يقرب بعضهم من بعض بحركة الجذب، والعامل الأقوى في حركة الجذب سرعة المواصلة وانتشار العلم، فسرعة المواصلة قربت الناس بعضهم من بعض فأخذوا يتفاهمون، والعلم جعلهم يحكمون العقل أكثر من العواطف فرأوا أن كثيراً من الفوارق إما وهمية أو عرضية أو مبالغ فيها. وما يجري في الدائرة البشرية الاجتماعية يجري في الدائرة الدينية. فعلى الرغم من بعد مسافة الفوارق الدينية والمذهبية نجد أهل هذه الأديان والمذاهب أكثر تسامحاً وأسرع سعياً نحو الاتفاق، حتى في الأديان التي نراها على أعظم مسافة من البعد، فلا تكاد تمر سنة حتى يعقد مؤتمر الأديان يجتمع فيه نواب معظم الأديان الإلهية كالمسيحية والإسلام واليهودية وغير الإلهية كالبوذية وغيرها. وقد عقد أول مؤتمر رسمي في ١٦ أيلول سنة(١٩٢٤)في سوق الغرب اجتمع فيه نواب الجهتين للسعي في زيادة الاتحاد وتوحيد النظام .

أصل السنة :

لا يخفى أن الأحكام الشرعية التي علمت من الكتاب والسنة ثلاثة أقسام: الأول الأحكام الاعتقادية وأصولها المجملة ستة الإيمان بالله وبالملائكة وبالكتب وبالرسل وباليوم الآخر وبالقدر. ويقال لجميع هذه الأحكام دين الإسلام وهي ما جاء به جميع الأنبياء. وهذه وإن كانت في تعيينها مذاهب عديدة إلا أن ما عدا مذهب السنة باطل .

القسم الثاني الأحكام العملية وهي عشرة: الفرض، الواجب، السنة، الاستحباب، الإباحة، الحرمة، الكراهة التحريمية، الكراهة التنزيهية، الصحة، الفساد. ولا يخلو فعل العاقل البالغ عن حكم منها، فالشرائع المتعلقة بأفعال المكلفين ثلاثة أنواع إجمالية: الأول العبادات وهي عبارة عن الصلاة والصوم والزكاة والحج وسائر الفرائض والواجبات. الثاني المعاملات كالنكاح والطلاق والهبة والوصية والبيع والشراء والكفالة والوكالة. الثالث العقوبات كالدية

والكفارة والفدية والقصاص، وفي تعيينها مذاهب كثيرة إلا أنه تقرر فيها المذاهب الأربعة، وأصحابها أبو حنيفة النعمان بن ثابت، ومحمد بن إدريس الشافعي، ومالك بن أنس، وأحمد بن حنبل، فما اتفق عليه هؤلاء الأئمة الأربعة هو حق وصواب، وما اختلفوا فيه يحتمل الخطأ والصواب، لأن كل مجتهد يخطئ ويصيب، والحق واحد لا يتعدد، وكل مؤمن مأمور باتباع مذهب منها إذا لم يكن بلغ مرتبة الاجتهاد، ويلزمه الاعتقاد بصواب متبوعه، إذ لا يجوز له تقليده إن اعتقد خطأه.

القسم الثالث الأحكام الشرعية المتعلقة بأحوال القلوب، والمتكفل بذلك علم الأخلاق والتصوف. والقصد هنا بيان اعتقاد أهل السنة والجماعة في القسم الأول. وينبغي أن نبين أولاً من هم أهل السّنة والجماعة ثم نذكر عقائدهم إذ ربما يظن بعض الناس أن كل من يطلق عليه اسم المسلم هو من أهل السنة والجماعة، وليس الأمر كذلك، فإن أهل البدع والأهواء مخالفون لأهل السنة والجماعة، والحال أن فيهم من يعد من أهل ملة الإسلام، لذلك رأيت من اللازم أولاً بيان من هم أهل السنة والجماعة، ثم بيان عقائدهم التي اتفقوا عليها، ولم أتعرض للمخالفين لهم ولا لذكر حجج الطرفين، وسرد المسائل التي وقع فيها اختلاف بين الأشعرية والماتريدية لما أن ذلك خارج عن موضوع الخطط وإنما هو من خصائص كتب الكلام، فاقتصرت على أهم المسائل الاعتقادية التي يكلف كل مؤمن باعتقادها.

وقد ألّف العلماء كتباً لبيان الفرق الإسلامية ومقالاتها كالشهرستاني وابن حزم وعبد القاهر البغدادي وغيرهم. إذا أطلق أهل السنة والجماعة يراد بهم الأشعرية والماتريدية، أما الأشعرية فهم أصحاب الإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل من ذرية أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري الصحابي الجليل. أخذ علم الكلام أولاً عن شيخه محمد بن عبد الوهاب الجبائي شيخ المعتزلة وتبعه في الاعتزال حتى صار للمعتزلة إماماً، ثم رجع عن مذهبه وصنف كتباً في الرد عليهم، وأجمع على عقيدة الأشعري المالكية والشافعية وبعض الحنفية وفضلاء الحنابلة، ولم يكن أبو الحسن أول متكلم بلسان أهل السنة، إنما جرى على سنن غيره أو على نصرة مذهب معروف فزاد المذهب

حجة وبياناً، وليس له في مذهب السلف أكثر من بسطه وشرحه وتآليفه في نصرته. ولد سنة ستين ومائتين وتوفي سنة أربع وعشرين وثلاثمائة .

وأما الماتريدية فهم أصحاب الإمام أبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي نسبة إلى قرية بسمرقند، الحنفي المتكلم ناصر السنة وقامع البدعة ومحيي الشريعة، كان إماماً جليلاً مناضلاً عن الدين موطداً لعقائد أهل السنة قطع المعتزلة وذوي البدع في مناظراتهم، وله مصنفات منها كتاب التوحيد وكتاب بيان وهم المعتزلة وكتاب تأويلات القرآن وهو كتاب لا يوازيه فيه كتاب .

وليس هو من أتباع الأشعري لكونه أول من أظهر مذهب أهل السنة كما ظن. لأن الماتريدي مفصل لمذهب الإمام أبي حنيفة وأصحابه المظهرين قبل الأشعري مذهب أهل السنة. وكانت وفاته بسمرقند سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة .

والحاصل أن كلاً من هذين الإمامين الجليلين أبي الحسن وأبي منصور لم يبدعان من عندهما رأياً ولم يشتقا مذهباً إنما هما مقرران لمذاهب السلف مناضلان عما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ . أحدهما قام بنصرة مذهب الشافعي وما دل عليه، والثاني قام بنصرة مذهب أبي حنيفة وما دل عليه. وناظر كل منهما ذوي البدع والضلالات حتى انقطعوا.

ومما ينبغي أن يعلم أنه ليس بين هاتين الطائفتين اختلاف في أصول الدين، وإنما اختلفوا في بعض مسائل متفرعة عن الأصول لا تستلزم تضليلاً ولا تفسيقاً .

ثم إن عقائد أهل السنة والجماعة تنحصر في أربعة أركان هي مبنى الإيمان: الإلهيات والصفات والأفعال والسمعيات .

(الركن الأول في ما يجب لله تعالى وما يجوز وما يستحيل) — العالم بجميع أجزائه حادث وجد بعد أن لم يكن، وهو قابل للفناء وله صانع واجب الوجود لذاته ممتنع العدم بالنظر لذاته، واحد لا شريك ولا مثيل له في ذاته وصفاته وأفعاله، قديم لا بداية له، أبدي لا نهاية له، متصف بصفات الكمال، منزه عن سمات النقص، ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض، ولا تحله الجواهر

ولا الأعراض، ولا يحل في غيره ولا يتحد بغيره، ولا يقوم بذاته حادث، منزه عن التحول والانتقال، استوى على العرش على الوجه الذي عناه وبالمعنى الذي أراده، استواء يليق بجلال ذاته، وهو فوق سمواته فوق عرشه، مباين لخلقه لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بقدرته، ومع ذلك فهو قريب من كل موجود بل هو أقرب إلينا من حبل الوريد ، وهو تعالى مرئي للمؤمنين بالأبصار في دار القرار ، فيرونه لا في مكان ولا على جهة من مقابلة واتصال شعاع أو ثبوت مسافة بين الرائي والمرئي .

(الركن الثاني في العلم بصفاته تعالى) الله تعالى متصف بالعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام والحياة، وهي صفات له أزلية ونعوت له أبدية، فهو تعالى قادر على جميع الممكنات، وجميع الحوادث واقعة بقدرته تعالى، وقدرة الله على المقدورات كلها قدرة واحدة، يقدر بها على جميع المقدورات على طريق الاختراع دون الاكتساب، ومقدوراته تعالى لا تفنى .

وهو سبحانه مريد لأفعاله فلا وجود إلا وهو مستند إلى مشيئته وصادر عن إرادته، لا يقع شيء في العالم إلا بإرادته ومشيئته، فالخير والشر والطاعة والمعصية واقعة بإرادة الله تعالى وقضائه وقدره ومشيئته، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وإرادته تعالى قديمة وهي في القدم تعلقت بإحداث الحوادث في أوقاتها اللائقة بها على وفق سبق العلم الأزلي، والإرادة غير الأمر لأنه قد يأمر بالشيء ولا يريده، ويريد الشيء ولا يأمر به، ويريد الشيء ويأمر به، ولا يريد الشيء ولا يأمر به. وغير الرضا أيضاً فإن الإرادة قد تتعلق بما لا يرضى به الله تعالى كالكفر الواقع من الكفار فإنه تعالى أراده ولم يرض به ولا يرضى لعباده الكفر ، وليست عين العلم لأن العلم يتعلق بالواجب والمستحيل والجائز ، والإرادة لا تتعلق إلا بالجائز .

وهو تعالى عالم بجميع الموجودات كلياتها وجزئياتها ، ومحيط بكل المخلوقات لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السموات ، وعلمه واحد يعلم به جميع المعلومات على تفصيلها من غير حس ولا بداهة ولا استدلال عليه ، وعلمه قديم لم يزل عالماً بذاته وصفاته وما يحدثه من مخلوقاته، ومهما حدثت

المخلوقات لم يحدث له علم بها بل حصلت مكشوفة بالعلم الأزلي . وهو تعالى حي وحياته بلا روح ولا اغتذاء، وجميع الأرواح مخلوقة، والحياة شرط في العلم والقدرة والإرادة والرؤية والسمع ،فمن ليس بحي لا يصح أن يكون عالماً قادراً مريداً سامعاً مبصراً .

وهو سبحانه سميع بصير يسمع ويرى لا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفي، ولا يغيب عن رؤيته مرئي وإن دق، ولا يحجب سمعه بُعد، ولا يدفع رؤيته ظلام، لم يزل رائياً لنفسه،وسامعاً لكلام نفسه، وأن الانكشاف بالسمع غير الانكشاف بالبصر، وأن كليهما غير الانكشاف بالعلم، بل لكل منها حقيقة يفوض علمها لله تعالى. وهو تعالى متكلم بكلام قائم بذاته ليس بحرف ولا صوت هو به آمر ناه مخبر وأن القرآن كلام الله غير مخلوق .

(الركن الثالث في الأفعال) الله تعالى لا خالق سواه وكل حادث في العالم حدث بقدرته وخلقه لا محدث له غيره، وجميع أفعال العباد اختيارية واضطرارية، مخلوقة له تعالى ومتعلقة بقدرته،وإنما الله تعالى خلق في العبد قوة تسمى الإرادة الجزئية وأقدر عبده على صرف هذه القوة إلى ما شاء من جزئيات المأمورات والمنهيات باختياره، وهذا الصرف هو الذي يسمى بالكسب تارة وبالميل والجزء الاختياري تارة أخرى. ويسمى أيضاً بقدرة العبد.وقد جرت عادة الله تعالى أنه لا يخلق القدرة على المعصية في أعضاء العبد حتى يصرف العبد إرادته الجزئية إليها، فإذا صرفها إليها بأن مال قلبه وعزم عليها فهناك يخلق الله تعالى القدرة في أعضائه على فعلها فيفعلها،فقدرة العبد التي هي الميل المذكور مقارنة لإيجاد الله تعالى ليس لها تأثير في إيجاد الفعل بل مجرد مقارنة .

وهو تعالى لا يجب عليه شيء من فعل الأصلح لعباده، ورعاية الحكمة والمصلحة في فعله، فله أن يعذب على الطاعات ويثيب على المعاصي ، وأن يبتلي عبده بضروب الآلام من غير جرم سابق ومن غير ثواب لاحق، ولا يعد ذلك منه قبيحاً ولا ظلماً لأنه يتصرف في ملكه لا في ملك غيره، يفعل ما يريد، ولا حاكم عليه بل له الحكم، وإنما يثيب على الطاعة بحكم الكرم والوعد لا بحكم الاستحقاق واللزوم،ويعاقب على المعصية عدلاً منه تعالى،

وقد راعى الحكمة فيما خلق وأمر تفضلاً منه ورحمة ولا باعث له على الفضل .

بعثة الأنبياء ممكنة عقلاً وواقعة قطعاً، وفي وقوعها حكمة بالغة ورحمة للعالم شاملة، واحتياج الناس إلى الأنبياء كاحتياجهم إلى الأطباء، النبوة إنما تحصل بمجرد اصطفاء إلهي لا، باستحقاق من المبعوث واجتماع شروط فيه، بل الله يختص برحمته من يشاء وهو تعالى أعلم حيث يجعل رسالته، وقد أرسل الله تعالى رسلاً من البشر إلى البشر مبشرين ومنذرين، لئلا يكون للناس على الله حجة،وأيدهم بالمعجزات الخارقة للعادات المقرونة بالتحدي، وكلهم جاءوا بتوحيد الله تعالى والنهي عن الشرك وإخلاص العبادة له تعالى، وهم صادقون فيما جاءوا به مصونون عن التحريف والتبديل، معصومون من كل نقص حسي أو معنوي[١] مبلغون أممهم جميع ما أمروا بتبليغه، وأولهم آدم وآخرهم نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

إن الله سبحانه أرسل نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم إلى الخلق كافة بشيراً ونذيراً، وجعله خاتم النبيين فلا نبي بعده وأيده بالمعجزات الباهرة، والبراهين الظاهرة، وأنزل عليه القرآن الكريم الذي هو له معجزة باقية إلى يوم الدين،فنسخ بشريعته الشرائع التي كانت قبله إلا ما قرر منها، وفضله على سائر الأنبياء، وجعل الشهادة له بالرسالة شطر الإيمان، وألزم الناس تصديقه في جميع ما أخبر به عنه، وأمره بتبليغ ما أنزل عليه فقال تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك » فبلغ صلوات الله وسلامه عليه الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة حتى أتاه اليقين .

إن الله تعالى ملائكة هم عباد الله المكرمون ورسل الله بينه وبين أنبيائه وأمناؤه على وحيه لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة، ولا يأكلون ولا يشربون، ولا يعلم حقيقتهم ولا عددهم إلا خالقهم، وهم أجسام لطيفة نورانية يروننا ولا نراهم بصورهم الأصلية .

(الركن الرابع في السمعيات) إن لهذه الدنيا أجلاً محدوداً فإذا جاء أجلها يتبدل نظام هذا الكون، فتبدل الأرض غير الأرض والسموات غير السموات،

---

(١) النقص الحسي يكون في الذات كالجذام والبرص والعمى والجنون ، والمعنوي يكون في الصفات كدناءة الحرفة ودناءة النسب وكالمعاصي الكبائر والصغائر .

ويعيد الله تعالى الأرواح إلى الأجساد، ثم يجازي الله تعالى كل نفس بما كسبت إما بنعيم أبدي أو عذاب سرمدي، وجميع ما أخبر به الصادق من عذاب القبر ونعيمه، وسؤال الملكين ووزن الأعمال، والمرور على الصراط، والشفاعة لمن أذن له الرحمن، جميع ذلك حق يجب الإيمان به .

الشيعة :

الشيعة لفظ معناه الأتباع والأنصار يطلق على الواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث، تقول هو شيعة وهما وهم وهن شيعة وجمعه شيع وأشياع، ثم صار علماً بالغلبة على أتباع علي بن أبي طالب عليه السلام .

عرف جماعة من كبار الصحابة بموالاة علي في عصر رسول الله ﷺ مثل سلمان الفارسي القائل: بايعنا رسول الله على النصح للمسلمين والائتمام بعلي بن أبي طالب والموالاة له. ومثل أبي سعيد الخدري الذي يقول: أُمر الناس بخمس فعملوا بأربع وتركوا واحدة. ولما سئل عن الأربع قال: الصلاة والزكاة وصوم شهر رمضان والحج قيل: فما الواحدة التي تركوها؟ قال: ولاية علي بن أبي طالب قيل له: وإنها لمفروضة معهن قال: نعم هي مفروضة معهن. ومثل أبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان وذي الشهادتين خزيمة بن ثابت وأبي أيوب الأنصاري وخالد بن سعيد بن العاص. وقيس ابن سعد بن عبادة وكثير أمثالهم. ومن أرادهم فليراجع كتاب الدرجات الرفيعة لابن معصوم .

عرف هؤلاء باسم شيعة علي ثم غلب فأُطلق فقيل لهم شيعة. ذكر أبو حاتم الرازي في كتاب الزينة في الألفاظ المتداولة بين أرباب العلوم على ما نقل في كتاب الروضات أن أول اسم ظهر في الإسلام على عهد رسول الله ﷺ (الشيعة) وكان لقب أربعة من الصحابة وهم أبو ذر وسلمان وعمار والمقداد إلى أن آن أوان صفين فاشتهر بين موالي علي عليه السلام. ومهما تكن منزلة هذه الرواية من الثقة فالأمر الذي لا خلاف فيه أنه لما استقل الأمويون بالأمر وناهضوا الهاشميين وأتباعهم تلك المناهضة الشديدة كان اسم الشيعة على إطلاقه علماً على أتباع آل البيت .

أما ما ذهب إليه بعض الكتاب من أن أصل مذهب التشيع من بدعة عبد الله ابن سبإ المعروف بابن السوداء فهو وهم وقلة علم بحقيقة مذهبهم. ومن علم منزلة هذا الرجل عند الشيعة وبراءتهم منه ومن أقواله وأعماله وكلام علمائهم في الطعن فيه بلا خلاف بينهم في ذلك، علم مبلغ هذا القول من الصواب.

لا ريب في أن أول ظهور الشيعة كان في الحجاز بلد المتشيع له. وكان التشيع هناك ضعيف الحول ولكنه مكين في قلوب أهله. ثم استفحل أمره في العراق زمن خلافة علي عليه السلام. أما في الشام فالمعروف بين الشيعة في جبل عامل خلفاً عن سلف أن الذي دلّهم على هذا المذهب أبو ذر الغفاري لما سُيّر إلى الشام ولا يزال في قرية الصرفند (بين صيدا وصور) له مقام معروف باسمه اتخذ مسجداً معموراً وهو غير مسجد القرية الجامع، وفي قرية ميس الجبل له مقام آخر. وميس هذه قرية في جبل عامل على طريق القادم من دمشق. وروى الحر العاملي في كتابه أمل الآمل أن أبا ذر لما أُخرج إلى الشام تشيع فيها جماعة ثم أخرجه معاوية إلى القرى فوقع في جبل عامل فتشيعوا من ذلك اليوم. ثم ذكر رواية عن الإمام أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام وقد سئل عن أعمال الشقيف فقال: أرنون وبيوت وربوع وتعرف بسواحل البحار وأوطئة الجبال هؤلاء شيعتنا حقاً.

وفي كتاب الروضة والفضائل لشاذان بن جبرئيل القمي رواية مسندة إلى عمار بن ياسر وزيد بن أرقم تدل على أنه كان زمن خلافة علي عليه السلام قرية في الشام عند جبل الثلج تسمى أسعار أهلها من الشيعة، وأسعار هذه قرية خربة بين مجدل شمس وجباتا الزيت وهناك نهر يعرف بنهر أسعار.

المتاولة جمع متوالي مأخوذ من الموالاة وهي الحب، لموالاتهم أهل البيت واتباعهم طريقتهم. والظاهر أن تلقيبهم بهذا اللقب في جبل عامل لم يتقدم عن القرن الثاني عشر للهجرة لأن كل المؤرخين قبل هذا القرن لم يعرفوا لهم هذا اللقب ولم ينبزهم به أحد منهم، وكانوا إذا أرادوا ذلك تجنبوا الشيعة وقالوا: الرافضة كما فعل المحبي في خلاصة الأثر. ولكن من تأخر عن القرن الحادي عشر لم يلزمهم بترك نبزهم به كما فعل المرادي في سلك الدرر فإنه لم يذكرهم في جبل عامل إلا باسم المتاولة وفاقاً للشهرة في عصره.

وقد جاء في إحدى « السالنامات » التركية أن ابتداء ظهور المتاولة سنة (١١٠٠) للهجرة. وعلى الجملة إن هذا اللقب أطلق عليهم لما أظهروا وجودهم السياسي وخلعوا طاعة أمراء لبنان واجتمعوا جملة واحدة في جبل عامل تحت قيادة آل نصار الوائليين، وفي بعلبك تحت لواء بني حرفوش، وفي شمالي لبنان بزعامة المشايخ آل حمادة .

كانوا يومئذ (ينتخون) باسم بني متوال فعرفوا به واشتهر عنهم، ويدلنا على ذلك أن هذا اللقب لم يكن إلا للذين دخلوا في غمار تلك الفتن فعرف به شيعة جبل عامل وبعلبك وشمالي لبنان، ولم يعرف لشيعة حلب وحمص وحماة، ولا لشيعة دمشق إلا الذين تديروا الصالحية وأطراف الميدان وهم من مهاجرة بعلبك وجبل عامل .

الشيعة في الشام هم في جبل عامل، وهو البلد الواقع بين صفد جنوباً، ونهر الأولي شمالاً، وغور الحولة وما حاذاه إلى أرض البقاع شرقاً، والبحر المتوسط غرباً. وفي مدينة بعلبك وأعمالها وزمنهم فيها قديم .

وفي أعمال حمص قرى قليلة لهم وفي نفس المدينة جماعات ظاهرة ومستترة، وفي أعمال ادلب قرى الفوعة ونبّل وغيرهما وكلها شيعة، وفيهما إلى اليوم السادة بنو زهرة نقباء الأشراف في مدينة حلب في الزمن السالف. وكل هؤلاء من بقايا زمن الحمدانيين ومن فلول شيعة حلب يوم تشتت شملهم .

وفي دمشق ويرجع عهدهم إلى القرن الأول للهجرة، وفي أكناف حوران وهم من مهاجرة جبل عامل، وفي شمالي لبنان والمتن والبترون وهم من مهاجرة بعلبك. ولا يقل عدد نفوس الشيعة في الشام عن مائتي ألف من الإمامية.

معتقدات الشيعة، وهم فرقة من المسلمين، اعتقادات المسلمين العامة عينها ولكنهم في الأصول يخالفون أهل السنة بالإمامة، وهي عندهم رياسة عامة في أمور الدين والدنيا لشخص من الأشخاص بحق النيابة عن النبي، وهي واجبة عقلاً على الله لأنها لطف وكل لطف واجب عليه تعالى، ولذلك خالفوا المعتزلة القائلين بوجوبها على الخلق عقلاً، والأشاعرة القائلين بوجوبها على الخلق شرعاً .

ويجب عندهم أن يكون الإمام معصوماً وانفرد بهذا الشرط الإمامية

والإسماعيلية من الشيعة، وأن يكون منصوصاً عليه وأن يكون افضل أهل زمانه .

وإن الأئمة اثنا عشر أولهم علي بن أبي طالب المنصوص عليه من الرسول ﷺ وآخرهم محمد بن الحسن العسكري الذي اختفى عام (٢٦٠) في سرمن رأى وهو حي يرزق ولا يعلم الناس مقره وسيظهر في آخر الزمان في مكة المكرمة، وقد قال بقولهم هذا فريق من أهل السنة. وأما القول بأنه يخرج من سرداب سرمن رأى فلم يقل به أحد من الشيعة وإن نسبه إليهم من لا يعرف مذهبهم جهلاً بحقيقة الحال .

ويخالفون الأشاعرة في بعض صفاته تعالى فالأشاعرة تقول في كونه تعالى متكلماً: إن الكلام معنى قائم بذاته تعالى ليس بحرف ولا صوت ولا شيء من أساليب الكلام وهو قديم. والشيعة والمعتزلة يقولون: إن الكلام قائم بالغير يراد من كونه متكلماً فعل الكلام لا أن الكلام قائم به ولذلك فالكلام حادث .

والأشاعرة تقول: إن أفعاله تعالى لا لغرض وإلا لكان ناقصاً مستكملاً بذلك الغرض. وعند الإمامية أن أفعاله معللة بالعلل والأغراض وإلا لكان عابثاً. والغرض عائد لغيره إما لمنفعة العبد أو لاقتضاء نظام الوجود ذلك الغرض .

والأشاعرة تقول: إن الأفعال كلها واقعة بقدر الله وأنه لا فعل للعبد أصلاً. وقال بعضهم: إن للعبد من ذلك الكسب أي كونه طاعة أو معصية . وقال آخرون: إن العبد إذا صمم خلق الله الفعل عقيب التصميم وأنه تعالى فاعل للكل حسناً أو قبيحاً. والشيعة إمامية أو زيدية يقولون بقدرة العبد واختياره وأنه ليس بمجبر على فعله، بل له أن يفعل وله أن لا يفعل وأن الفعل منسوب إليه نفسه وأنه يستحيل عليه تعالى فعل القبيح. وقالت الإمامية بوجوب اللطف عليه تعالى وهو ما يقرب من الطاعة ويبعد عن المعصية ولا حظ له في التمكين ولا يبلغ درجة الإلجاء .

وقالوا بجريان المسببات عن أسبابها فالشبع مثلاً شيء حادث عن الأكل لا أنه شيء يحدثه الله عند الأكل .

وقالت الأشاعرة بإمكان الرؤية البصرية يوم القيامة على الله تعالى. وقالت الشيعة والمعتزلة باستحالتها مطلقاً .

وقالت الأشاعرة في الحسن والقبح بأنهما شرعيان أي أنه ليس في العقل ما يدل على الحسن والقبح، بل ما حسنه الشرع فهو حسن وما قبحه فهو، قبيح، وقالت الشيعة الإمامية بأن الحسن حسن في نفسه يستحق صاحبه المدح، والقبيح قبيح بنفسه يستحق صاحبه الذم ولا يتوقف ذلك على حكم الشارع .

ويقولون : إن العدل صفة من صفاته تعالى واجبة الثبوت له. هذه أمهات المسائل الأصولية التي يخالفون فيها بعض فرق المسلمين كالأشاعرة، وربما وافقهم في أكثرها غيرهم كالمعتزلة. وأما في الفروع فلا تكاد تجد لهم قولاً مخالفاً لا يكون قائلاً به غيرهم من فرق المسلمين اليوم .

نعم انفردوا اليوم بالقول بالمتعة وإن كان أثرها في العرب منهم قليلاً بل أندر من النادر. وهي متعتان متعة النكاح ومتعة الحج، فالأولى هي الزواج إلى أجل مسمى تحل عقدته بانقضاء الأجل، وعلى الزوجة المتمتع بها بعد انقضاء الأجل أن تعتد العدة الشرعية فلا تنكح زوجاً غيره حتى تنقضي عدتها، ولا بد فيها من ذكر المهر والأجل، ولا توارث بينها وبين الزوج للدليل الخاص إلا مع الاشتراط، ولكن الولد منها ولد شرعي لا فرق بينه وبين إخوته. وأما متعة الحج فهي الطواف الأخير المعروف بطواف النساء فلا تحل للمحرم النساء حتى يأتي به .

ومنها في الميراث مسألة العول والتعصيب فهم ينكرون العول. ويقول إمامهم جعفر بن محمد الصادق على أن الذي أحصى رمال عالج يعلم أن المواريث لا تعول، ويجرون فيما جاء من ذلك على قاعدة من له الغنم فعليه الغرم .

ولا يقولون بالتعصيب بل يرثه أقرب الناس إليه، وطبقات الإرث في النسب ثلاث: الآباء والأبناء، والإخوة والأجداد، والأخوال والأعمام . فالمتقدمة من هذه الطبقات تحجب ما بعدها، فإذا كان ذو فرض أخذ فرضه ورُدّ الباقي على نفس الطبقة لا يتعداها سواء كان المردود عليه ذكراً أو أُنثى .

فإذا مات الميت عن بنت وأب أخذت البنت النصف والأب السدس بالفرض ورد الباقي عليهما كل بقدر سهمه لأنهما من طبقة واحدة، فلو لم

يكن له أب بل جد أو أخ كان الرد على البنت لأنها من الطبقة الأولى والجد والأخ من الطبقة الثانية فهي أولى منه بآية وأولو الأرحام .

ويقولون بالجمع بين صلاتي الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء سفراً وحضراً ولكن التفريق أفضل .

وإذا قال القائل لزوجته أنت طالق ثلاثاً فإن كانت جامعة لشروط الطلاق وقعت واحدة وإلا كان الطلاق باطلاً. وشرط صحة الطلاق أن تكون الزوجة طاهرة في طهر لم يواقعها الزوج فيه وأن يكون الطلاق بشهادة ذوي عدل .

وتجتمع الشيعة في أيام عاشوراء فتقيم المآتم على الحسين بن علي شهيد كربلاء عليه السلام، وعهدهم بذلك بعيد يتصل بعصر الفاجعة وأول من رثاه أبو دهبل الجمحي بقصيدة يقول فيها :

تبيت النشاوى من أمية نوّماً وبالطفّ قتلى ما ينـام حميمها

والظاهر من سيرة ديك الجن الحمصي في كتاب الأغاني أن هذه الاجتماعات للمآتم كانت معروفة في زمانه. ثم إن بني بويه أيام دولتهم عنوا بها مزيد العناية. ولا تزال إلى اليوم تقام في جميع أقطار الشيعة، وليست هي من الفروض كما يتوهم بل يستحبونها لأنها تصدر عن ولاء ومحبة. وقد تطرف بعض العجم فأبدعوا فيها بدعاً يمقتها الله والناس من ضرب أنفسهم بالمدى وإسالة الدماء على أثوابهم وعمل ما يسمونه (الشبيه) وقد مقته العلماء من الشيعة ولم تذعن لهم به العامة في كثير من البلدان التي استحكمت فيها هذه العادة .

الباطنية :

أطلق هذا اللقب على فرق خالفت الإسلام مدعية بأن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلاً. ولهم ألقاب كثيرة سوى هذه على لسان قوم قوم . فبالعراق يسمون الباطنية والقرامطة والمزدكية، وبخراسان التعليمية والملحدة، وهم يقولون: نحن إسماعيلية لأنا تميزنا من فرق الشيعة بهذا الاسم وهذا الشخص ، ثم إن الباطنية القديمة قد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة وصنفوا كتبهم على ذلك المنهاج — هذا ما قاله الشهرستاني. وقال عبد القاهر

البغدادي: إن الذين وضعوا أساس دين الباطنية كانوا من أولاد المجوس، وكانوا مائلين إلى دين أسلافهم، ولم يجسروا على إظهاره خوفاً من سيوف المسلمين، فوضع الأغمار منهم أساساً من قبله صار في الباطن إلى تفضيل أديان المجوس، وتأولوا آيات القرآن وسنن النبي عليه الصلاة والسلام على موافقة أساسهم. ولما تأولت أصول الدين على الشرك احتالت أيضاً لتأويل أحكام الشريعة على وجوه تؤدي إلى رفع الشريعة أو إلى مثل أحكام المجوس.

وذكر أنه خرج منهم أناس بالبحرين والقطيف والأحساء ومنهم من ظهر في طريق الحجاز واستولى على مكة. ومنهم من ظهر بالقيروان واستولى بأتباعه على بلاد المغرب. ومنهم من استولى على هجر. ومنهم من ظهر باليمن وقتل الكثير من أهلها. ومنهم من خرج بالشام وهو أبو القاسم بن مهرويه. وأن زعيمهم الأول ميمون بن ديصان كان مجوسياً أولاً. ومنهم من نسب الباطنية إلى الصابئين الذين هم بحرّان، واستدل على ذلك بأن حمدان قرمط داعية الباطنية بعد ميمون بن ديصان كان من الصابئة الحرانية. واستدل على ذلك أيضاً بأن صابئة حران يكتمون أديانهم ولا يظهرونها إلا لمن كان منهم. والباطنية أيضاً لا يظهرون دينهم إلا لمن كان منهم، بعد إحلافهم إياه على أن لا يذكر أسرارهم لغيرهم. قال عبد القاهر: الذي يصح عندي من دين الباطنية أنهم دهرية زنادقة يقولون بقدم العالم وينكرون الرسل والشرائع كلها لميلهم إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع. والأرجح أن المحور الأعظم الذي تدور عليه الباطنية هو مسائل الملك والسلطان وهي أشبه من بعض الوجوه بالطريقة الماسونية.

وعلى الجملة فإن منشأ هذه المذاهب خلافة علي بن أبي طالب، وطلب شيعته باسمه الملك فغالوا فيه مغالاة عظيمة حتى أخرجه بعضهم عن البشرية. وقد كان أكثر أهل الشام في القرون الثلاثة الأولى للإسلام على ما يظهر من مذاهب النصارى، والمسلمون أقل منهم. ولقد انتهى الحال بجميع القبائل القديمة في الشام مثل بني كلاب وبني جذام وبني عاملة أن دانوا بالإسلام ولم يتخلف عنهم بادئ بدء سوى تنوخ في حلب وتغلب في شمالي شرقي تدمر. ولما مرّ السائح ويليبالد في القرن الأول للهجرة بحمص كانت نصف

مسلمة وقويت حركة الإسلام في القرون التالية لما سكنها العباس من قواد المروانيين في خمسين من أولاده .

وكانت الشام في الإسلام توالي علياً وأصحابه تارة وتوالي غيره أخرى . وكان أهل حلب سنية حنفية حتى قدم الشريف أبو إبراهيم الممدوح فصار فيها شيعية وشافعية. وأتى صلاح الدين وخلفاؤه فيها على التشيع كما أتى عليه في مصر. وكان المؤذنون في جوامع الشهباء يؤذنون بحي على خير العمل . وحاول السلجوقيون مرات القضاء على التشيع فلم يوفقوا إلى ذلك. وكان حكم بني حمدان وهم شيعة من جملة الأسباب الداعية إلى تأصل التشيع في الشمال. ولا يزال على حائط صحن المدفن الذي في سفح جبل جوشن بظاهر حلب ذكر الأئمة الاثني عشر وقد خرب الآن. وفي سنة(١٤١)ظهر في حلب قوم يقال لهم الراوندية خرجوا بحلب وحيران وكانوا يزعمون أنهم بمنزلة الملائكة،وصعدوا تلاً بحلب فيما قالوا ولبسوا ثياباً من حرير وطاروا من التل فكسروا وهلكوا .

وصف المقدسي مذاهب الشام في القرن الرابع للهجرة فقال: إن السامرة فيه من فلسطين إلى طبرية ولا تجد فيه مجوسياً ولا صابئاً، مذاهبهم مستقيمة أهل جماعة وسنة. وأهل طبريا ونصف نابلس وقدَس وأكثر عمان شيعة ولا ماء فيه لمعتزلي إنما هم خفية،وببيت المقدس خلق من الكرّامية لهم خوانق ومجالس ولا ترى به مالكياً ولا داودياً، وللأوزاعية مجلس بجامع دمشق والعمل كان فيه على مذهب أصحاب الحديث، والفقهاء شفعوية وأقل قصبة أو بلد ليس فيه حنفي،وربما كانت القضاة منهم قال: واليوم أكثر العمل على مذهب الفاطمي .

ووصف ابن جبير المذاهب المتغلبة على الشام في القرن السادس فقال : وللشيعة في هذه البلاد أمور عجيبة وهم أكثر من السنيين بها وقد عموا البلاد بمذاهبهم.وهم فرق شتى منهم الرافضة وهم السبابون ومنهم الإمامية والزيدية وهم يقولون بالتفضيل خاصة. ومنهم الإسماعيلية والنصيرية يزعمون الإلهية لعلي رضي الله تعالى عنه. ومنهم الغُرابية وهم يقولون: إن علياً (رض) كان أشبه بالنبي ﷺ من الغراب بالغراب،وينسبون إلى الروح

الأمين عليه السلام قولاً تعالى الله عنه علواً كبيراً. إلى فرق كثيرة يضيق عنهم الإحصاء. قال: وسلط الله على هذه الرافضة طائفة تعرف بالنُّبُوية سنيون يدينون بالفتوة وبأمور الرجولة كلها، وكل من ألحقوه بهم لخصلة يرونها فيه منها يحرّمونه السراويل فيلحقونه بهم، ولا يرون أن يستعدى أحد منهم في نازلة تنزل به، لهم في ذلك مذاهب عجيبة، وإذا أقسم أحدهم بالفتوة برّ قسمه وهم يقتلون هؤلاء الروافض اين ما وجدوهم. وشأنهم عجيب في الأنفة والائتلاف.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته الرد على النصيرية أيام استولى هؤلاء على جانب كبير من الشام: إن للقرامطة في معاداة الإسلام وقائع مشهورة وكتباً مصنفة، فإذا كانت لهم مكنة سفكوا دماء المسلمين وقد قتلوا من علماء المسلمين ومشايخهم وأمرائهم وجندهم ما لا يحصي عدده إلا الله تعالى، وهم دائماً مع كل عدو للمسلمين، فهم مع النصارى على المسلمين، ومن أعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار، ومن أعظم أعيادهم إذا استولى النصارى على ثغور المسلمين، وبسببهم استولى النصارى على القدس الشريف وغيره، فإن أحوالهم كانت من أعظم الأسباب في ذلك. واتفقوا بعد صلاح الدين ونور الدين مع النصارى فجاهدهم المسلمون حتى فتحوا البلاد. وقال: إن لهم ألقاباً معروفة عند المسلمين تارةً يسمون الملاحدة وتارة يسمون القرامطة وتارةً يسمون الباطنية وتارةً يسمون الإسماعيلية وتارة يسمون النصيرية وتارةً يسمون الخرمية وتارةً يسمون المحمرة. وهذه الأسماء منها ما يعمهم ومنها ما يخص بعض أصنافهم. وهم كما قال العلماء فيهم، ظاهر مذهبهم الرفض وباطنه الكفر المحض. وحقيقة أمرهم أنهم لا يؤمنون بنبي من الأنبياء والمرسلين لا بنوح ولا إبراهيم ولا موسى ولا عيسى ولا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ولا بشيء من كتب الله المنزلة لا التوراة ولا الإنجيل ولا القرآن، ولا يقرون بأن للعالم خالقاً خلقه ولا بأن له ديناً أمر به، ولا أن له داراً يجزي الناس فيها على أعمالهم في غير هذه الدار، وهم يبنون قولهم على مذاهب الفلاسفة تارة وعلى أقوال المجوس الذين يعبدون النور. وقال: إن إخوان الصفا ونحوهم هم من أئمتهم

وينكرون على الرسل ودعوى أنهم من جنسهم طالبون للرئاسة فمنهم من أحسن بطلبها ومنهم من أساء في طلبها حتى قتل، ويجعلون محمداً وموسى من القسم الأول والمسيح من القسم الثاني ويستهزئون بالصلاة والزكاة والصوم والحج الخ اه .

الإسماعيلية :

هم القائلون بانتقال الإمامة بعد جعفر الصادق إلى ابنه الأكبر إسماعيل، انتقلت إليه بعد أبيه دون أخيه موسى الكاظم. وهم يوافقون الإمامية في سوق الإمامة من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى جعفر الصادق ثم يعدلون بها عن موسى الكاظم الذي هو الإمام عند الإمامية إلى إسماعيل هذا. ثم يسوقونها في بنيه فيقولون: إن الإمامة انتقلت بعد أمير المؤمنين علي إلى ابنه الحسن ثم إلى أخيه الحسين ثم إلى ابنه علي زين العابدين ثم إلى ابنه محمد الباقر ثم إلى ابنه جعفر الصادق ثم إلى ابنه إسماعيل الذي تنسب إليه هذه الفرقة بالنص من أبيه . ثم يقولون: إنها انتقلت من إسماعيل إلى ابنه محمد المكتوم ثم إلى ابنه جعفر الصادق ثم إلى ابنه محمد الحبيب ثم إلى ابنه عبيد الله المهدي أول خلفاء الفاطميين ببلاد المغرب، وهو جد الخلفاء الفاطميين بمصر، ثم إلى ابنه العزيز بالله أبي منصور نزار ثم إلى ابنه الظاهر لإعزاز دين الله أبي الحسن علي ثم إلى ابنه المستنصر بالله أبي تميم مَعَدّ خامس خلفائهم بمصر .

ومن هاهنا افترقت الإسماعيلية إلى فرقتين مُستعلوية ونزارية. فأما المستعلوية فيقولون: إن الإمامة انتقلت بعد المستنصر بالله إلى ابنه المستعلي بالله أبي القاسم ثالث خلفائهم بمصر ثم إلى ابنه الآمر بأحكام الله أبي علي منصور إلى آخر من جاء بعدهم وهو حادي عشر خلفائهم بمصر. وأما النزارية فإنهم يقولون: إن الإمامة انتقلت بعد المستنصر إلى ابنه نزار بالنص من أبيه المستعلي. ثم الإسماعيلية في الجملة من المستعلوية والنزارية يسمون أنفسهم أصحاب الدعوة الهادية تبعاً لإمامهم إسماعيل المذكور، وكان يسمى صاحب الدعوة الهادية — وفي القرن التاسع كانوا يسمون في ديوان الإنشاء بالقصاد وبين العامة بالفداوية — وهم يرون أن الأرواح مسجونة في هذه

الأجسام المكلفة بطاعة الإمام المطهر، فإذا انتقلت على الطاعة كانت قد تخلصت وانتقلت للأنوار العلوية، وأن انتقلت على العصيان هوت في الظلمات السفلية .

وذكر في العبر أن منهم من يدعي ألوهية الإمام بنوع الحلول، ومنهم من يدعي رجعة من مات من الأئمة بنوع التناسخ والرجعة، ومنهم من ينتظر مجيء من يقطع بموته، ومنهم من ينتظر عود الأمر إلى أهل البيت. ويتفق المستعلوية والنزارية في بعض المعتقدات ويختلفون في بعضها. ولدعاة الأئمة المستورين عندهم مكانة عظمى لا سيما الداعي القائم بذلك أولاً وهو الداعي إلى محمد المكتوم أول أئمتهم المستورين، فإن له من الرتبة عندهم فوق ما لغيره من الدعاة القائمين بعده. واشتهر من دعاتهم رمضان وابنه ميمون وعبد الله القداح بن ميمون، اطلع هذا على أسرار الدعوة من أبيه وسار من نواحي أصفهان إلى الأهواز والبصرة وسلمية من أرض الشام يدعو الناس إلى أهل البيت. ثم أنشأ ابنه أحمد فأرسل هذا أحد دعاته إلى اليمن وإلى المغرب. ومن نسب أحداً من هؤلاء الدعاة إلى ارتكاب محظور أو احتقاب إثم فقد ضل وخرج عن جادة الصواب عندهم، ويرون تخطئه من مالأ على الإمام عبيد الله المهدي أول أئمتهم القائمين ببلاد المغرب وارتكابه المحظور وضلاله عن طريق الحق، وكذلك من خذل الناس عن أتباع القائم بأمر الله بن عبيد الله ثاني خلفائهم ببلاد المغرب أو نقض الدولة على المعز لدين الله أول خلفائهم بمصر، ويرون ذلك من أعظم العظائم وأكبر الكبائر .

ومن أعيادهم العظيمة الخَطَر عندهم يومُ غدير خُم (غيضة بين مكة والمدينة على ثلاثة أيام من الجحفة) وسبب جعلهم له عيداً أنهم يذكرون أن النبي ﷺ نزل فيه ذات يوم فقال لعلي: «اللهم من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار». ومن أكبر الكبائر عندهم وأعظم العظائم أن يرمى أحد من آل بيت النبي ﷺ ولا سيما الأئمة بكبيرة، أو ينسبها أحد إليهم أو يوالي لهم عدواً أو يعادي ولياً. ويقولون: إن الإمام منهم لا يموت إلا وقد خلف ولداً ذكراً منصوصاً عليه .

وأصل هذه الفرقة كانت بالبحرين في المائة الثانية وما بعدها،ومنهم كانت القرامطة الذين خرجوا من البحرين حينئذ ثم ظهروا بأصبهان في أيام السلطان ملكشاه السلجوقي، واشتهروا هناك بالباطنية لأنهم يبطنون خلاف ما يظهرون، وبالملاحدة لأن مذهبهم كله إلحاد، ثم صاروا إلى الشام ونزلوا فيما حول طرابلس وأظهروا دعوتهم هناك، وإليهم تنسب قلاع الإسماعيلية المعروفة بقلاع الدعوة فيما حول طرابلس كمصياف والخوابي والقدموس والمرقب والعليقة والمينقة والكهف والرصافة وغيرها. وهم يعظمون راشد الدين سنان، وهو رجل كان بقلاع الدعوة وانتهت إليه رياستهم في زمن صلاح الدين .

ولما افترق الإسماعيلية إلى مستعلوية ونزارية أخذ من منهم ببلاد المشرق بمذهب النزارية عملاً بدعوة ابن الصباح، وأخذ من منهم بالشام بقلاع الإسماعيلية بمذهب المستعلوية وصاروا شيعة لمن بعد المستعلي من خلفاء الفاطميين بمصر واشتهروا باسم الفداوية لمفاداتهم بالمال على من يقتلونه . روى هذا القلقشندي وقال ابن ساعد: ويلقب الإسماعيلية بالسبعية لقولهم بسبعة أئمة، ويرون أن في كل دور سبعة أئمة، إما ظاهرون وهو دور الكشف، وإما مختفون وهو دور الستر، ولا بد من إمام، إما ظاهر وإما مستور، لقول أمير المؤمنين رضي الله عنه لن تخلو الأرض عن قائم لله بحججه، ويلقبون أيضاً بالباطنية لقولهم: إن لكل ظاهر باطناً،وبالتعليمية لقولهم: إن العلم بالتعلم من الأئمة خاصة، وربما لقبوا بالملاحدة لعدولهم عن ظواهر الكتاب والسنة لأنهم يتأولون سائر النصوص، وعندهم أن من مات ولم يعرف إمام زمانه وليس في عنقه بيعة إمام مات ميتة جاهلية اهـ .

وذكر كاتب چلبي أنه كان للفداوية الذين اشتهروا في زمن الظاهر بيبرس — هكذا كانت العامة تسمي الإسماعيلية — من طرابلس إلى صيدا إلى حلب على الساحل حتى حوران سبعون قلعة أهمها قلعة صهيون. وقد ذكر مؤرخو حلب أنه جاء إلى جبل السماق سنان بن سلمان بن محمد أبو الحسن البصري صاحب الدعوة النزارية ومتولي الحصون الإسماعيلية، وكان أديباً فاضلاً عارفاً بعلم الفلسفة وله شعر حسن وكلام منثور جيد، وتمكن

في الحصون وانقادت إليه الطائفة الإسماعيلية ما لم ينقادوا إلى غيره .

ويقضي مذهبهم على ما قال هوار في المعلمة الإسلامية بأن الله لا صفات له ولا تدركه العقول ولا تفهمه الألباب ولم يخلق العالم مباشرة ، بل تجلت إرادته في أمره وهو العقل العام وفيه تختفي جميع الخصائص الإلهية وهو الله المتجلي. وإذ كان لا يُصلى لكائن لا يدرك فإن الصلاة تتجه نحو صورتها الخارجية وهي العقل الذي هو حقيقة معبود الإسماعيلية. فكما أنه لا سبيل إلى معرفة الله بل يُعرف العقل فقط فهذا العقل يطلق عليه أسماء الحجاب والمكان والأزل والعقل والأول. والعقل يخلق الروح العام الذي هو الجوهر في الحياة،وإذ كانت حياة العقل بالعلم وهو ناقص من هذا النظر فيرمي بالضرورة إلى تحقيق الكمال. ومن هنا تنشأ حركة بمعنى آخر عن حركة أخرى تتولد منها. الروح تخرج المادة الأولى التي تتألف منها الأرض والكواكب وهي غير عاملة بل تتجلى في أشكال تنطوي فيها الأفكار على العقل. وهناك كائنان ضروريان وأصليان وهما الأمد والزمان. والكواكب والعناصر نتيجة لازمة من عمل هذه المخلوقات الخمسة مشتركة. ويُفسر ظهور الإنسان بالضرورة التي يشعر بها الروح العام في إحراز العلم الكامل حتى يرقى إلى طبيعة العقل العام ومتى جرى الوصول إلى هذه الغاية تبطل كل حركة . وللخلاص يجب على المرء تحصيل العلم الذي لا يتأتى أن يأتي إلا من تجسد العقل على هذه الأرض ويتجسد ذلك في الرسول وخلفائه والأئمة. ويسمى العقل المتجسد « الناطق » والروح المتجسد « الأساس » والأول هو الرسول الذي يتجلى فيه الكلام الموحى، والثاني هو ترجمان هذا الكلام بما يحوي من المعاني التي تُؤَول. والمبادىء الثلاثة الأخيرة هي الإمام والحجة، الذي يبرهن على رسالة الأساس، والداعية. وكان محمدٌ الناطقَ وعليٌّ الأساس .

والذين يرخص لهم بالاطلاع على أسرار الدين هم طبقات كانوا أولاً سبعة ثم صاروا تسعة. ويبدأُ الداعية مع من يريد تلقينه أسرار الدعوة بأن يضع له مشكلات في صعوبة فهم الشريعة وهي الطريقة التي يجري عليها الباطنية عامة ، ولا يزال به حتى يذكر له أن هذه المشاكل قد حلت على أيسر

وجه بتأويل القرآن ومعرفة رموزه . وللحساب المستخرج من قيمة الحروف العددية شأن كبير. ومتى اقتنع المدعو بقوة البراهين التي أوردها له الداعية يستحلفه بأن لا يبوح بأدنى سر من الأسرار التي سيفضي بها إليه، ويعلمه بأن الواسطة للنجاة أن يخضع خضوعاً أعمى لأوامر الإمام الروحية والزمنية . وجمهور المؤمنين بهذه الدعوة ما كانوا يقفون على أكثر من الدرجة الأولى أو الثانية من الأسرار، والدعاة يصلون إلى الدرجة السادسة إلا قليلاً. ولا يبلغ الدرجة العالية إلا بعض الممتازين. وهذا أشبه بتعاليم الشيعة والمتصوفة في تعيين درجة الإنسان الكامل .

والجنة معناها مجازاً حالة النفس الواصلة إلى كامل العلم، وجهنم معناها الجهل، وما من نفس يحكم عليها بالخلود في جهنم على الأبد، بل تعود إلى الأرض بالتناسخ حتى تعرف إمام الزمان وتأخذ عنه علوم الدين. والشر لا بقاء له ولا بد من زواله يوماً بتمثل كل الموجودات في العقل العام تمثلاً تدريجياً. ومع ما اشتهر عن الإسماعيلية من القتل يجب أن نذهب إلى أن ما اجترحوه لم ينشأ عن عقيدة لهم بل يجب أن ينظر فيه إلى الإفراط الذي عرف به رؤساؤهم في نيل السلطة السياسية. وقال رسو من السياح: إن من عرفهم من الإسماعيلية هم على جانب عظيم من الكرَم ولطف الأخلاق، وقلما يحبون التنقل ويعملون في أرضهم ويتمسكون بأهداب دينهم الذي يخالف مذهبهم القديم كل المخالفة، وهم أشداء عند الحاجة خاضعون لزعمائهم. انتهى قول هوار .

ولم يعرف الزمن الذي نزل فيه الإسماعيلية بعض أرجاء الشام إذ لم يجر لهم ذكر قبل أوائل القرن الخامس للهجرة. وكان الحكيم المنجم وأبو طاهر الصائغ وهما من دعاة الإسماعيلية وأمثالهما من العجم أول من أظهر هذا المذهب بالشام في أيام الملك رضوان بن تتش السلجوقي صاحب حلب الذي أغضى عنهم وأراد اتخاذهم حزباً له فقبل دعوتهم على ما قيل، واستمالوا إليهم خلقاً كثيراً بسرمين والجوز وجبل السماق وبني عليم وجعل لهم في حلب دار دعوة. ولم يلبثوا أن اغتالوا في جامع حمص (٤٩٦) عمه جناح الدولة صاحب حمص، تولى ذلك ثلاثة من العجم يلبسون لباس الصوفية

بينما كان يتهيأ لغزوة صنجيل أمير طرابلس من الصليبيين لرفع الحصار عن حصن الأكراد. ولم يلبث هذا الطبيب المنجم أن قضى نحبه عاهداً بالدعوة إلى رفيقه أبي طاهر الصائغ. واستولى الإسماعيلية على أفامية من الصليبيين ثم استرجعها هؤلاء منهم (٤٩٨) ووُضع السيف في الإسماعيلية بحلب سنة (٥٠٧) و(٥٠٨) كما وضع فيهم في دمشق سنة (٥٢٢) (خطط الشام ج ١ وج ٢) وكذلك كان حالهم في الباب من عمل حلب. قال ابن جبير: فداخلت أهل البلاد الحمية فتجمعوا من كل أوب عليهم ووضعوا السيوف فيهم فاستأصلوهم عن آخرهم. وقال: إن الإسماعيلية يبذلون الأنفس دون إمامهم سنان وحصلوا من طاعته وامتثال أمره بحيث يأمر أحدهم بالتردي من شاهقة جبل فيتردى. وفي تلك السنة أيضاً قتلوا برق بن جندل أحد مقدمي وادي التيم. وفي سنة (٥٧١) حاول أحد الإسماعيلية من العجم اغتيال السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فأنجاه الله وأغضى الطرف عنهم. وفي سنة (٥٨٨) قتل الإسماعيلية كونراد أمير صور. وبعد مدة قتلوا ريموند بن بويمند الرابع المعروف بالأعور أمير أنطاكية من الصليبيين قتلوه في الكنيسة. وفتح الظاهر بيبرس والتتار قلاعهم وخضعوا بعد ذلك لمماليك مصر.

وكان للإسماعيلية في بلاد العجم وقائع عظيمة وهم الذين قتلوا الوزير نظام الملك في بغداد وغيره من رجال الإسلام حتى ضاقت بهم الصدور. وقد سموا أوائل دخول الصليبيين إلى الشام بالحشاشين أو القتلة(Les assassins) لأن رؤساءهم كانوا فيما قيل يعطون الحشيشة لمن يريدونه على قتل أحد خصومهم السياسيين. وكان الصليبيون يطلقون على رئيسهم شيخ الجبل. وقد نالوا من الصليبيين كثيراً كما نالوا من أمراء المسلمين. وهم جمعية سياسية ترمي إلى إقامة مُلك. وما كان هذا القتل منهم عن باعث مذهبي بل سياسي. على أنهم أخافوا رجال السياسة في هذه الديار وهي في أشد أوقات ضيقها زمن الحروب الصليبية وحروب التتار. ويبلغ عدد الإسماعيلية اليوم في الشام نحو خمسة وثلاثين ألفاً منهم جماعة في سلمية وفي قلاع الدعوة في جبل النصيرية. ومن الإسماعيلية عشرات ألوف في العجم والهند والأفغان وعُمان ومسقط وزنجبار وإفريقية الشرقية. وإسماعيلية هذه الديار يجبون

الزكاة كل سنة ويرسلونها إلى إمامهم آغاخان في الهند أما، سائر الإسماعيلية فليسوا مرتبطين به. وقد ذكر بعض أعيانهم أن الإسماعيلية اليوم يقولون: إن كل زمن لا يخلو عن رجل من السلالة الطاهرة يسمونه إماماً واعتباره اعتبار علمي ديني خالٍ من كل غرض سياسي.

النصيرية أو العلوية :

قال القدماء: هم أتباع نصير غلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وهم يدعون ألوهية علي رضي الله عنه مغالاةً فيه ويزعمون أن مسكنه السحاب وإذا مر بهم السحاب قالوا: السلام عليك يا أبا الحسن ويقولون: إن الرعد صوته والبرق ضحكه، وهم من أجل ذلك يعظمون السحاب، ويقولون: إن سلمان الفارسي رسوله، وإن كشف الحجاب عما يقوله من أي كتاب بغير إذن ضلال، ويحبون ابن ملجم قاتل علي ويقولون: إنه خلص اللاهوت من الناسوت ويخطئون من يلعنه. وإن لهم خطاباً بينهم من خاطبوه به لا يعود يرجع عنهم ولا يذيعه ولو ضرب عنقه. وهم يخفون مقالتهم ومن أذاعها فقد أخطأ عندهم. ولهم اعتقاد في تعظيم الخمر ويرون أنها من النور ولزمهم من ذلك أن عظموا شجرة العنب التي هي أصل الخمر حتى استعظموا قلعها. ويزعمون أن الصديق وأمير المؤمنين عمر وأمير المؤمنين عثمان تعدوا على علي ومنعوه حقه من الخلافة.

وقال المحدثون منهم أنفسهم على ما ذكره صاحب تاريخ العلويين: إن النصيرية رجع لهم اسمهم القديم بعد انتهاء الحرب العامة (١٩١٨م) وسميت العلوية وكانت محرومته مدة (٤١٢) سنة أي من قتال الأتراك للعلويين وإن اسم العلويين الذي كان يطلق على طائفتهم دثر عدة قرون[١] وسمي الموجودون باسم الجبل ويظن بعضهم أن اسم النصيرية هو نسبة للسيد أبي شعيب محمد بن نصير البصري النميري مع أن الأصح هو لأنه تغلب اسم

---

(١) أجمع المؤرخون ومن كتبوا في الملل والنحل أن النصيرية عرفوا بهذا الاسم في القرن السادس والسابع وبعده ؛ فدعوى أنه كان يطلق عليها اسم العلويين وحرم عليهم أربعة قرون فيها نظر

الجبل عليهم وأصبحت كلمة النصيري أشنع كلمات التحقير .

وقال: إن قوله تعالى اليوم أكملت لكم دينكم، معناه كمال الدين وكمال الدين هو ولاية علي، وهذه هي الحكمة المقصودة من نزول القرآن بالتدريج. ويقول العلويون: إنه لما أعلن كمال الإسلام كان لا يزال بعض العقائد مكتوماً وخفياً، ولذلك بقي إلى هذا اليوم مكتوماً بخصوصيته، وبتعبير أصح إن بقاء عقيدة العلويين مكتومة هو من كمال الإسلام وإعلانها مضرّ به لأن الرسول ﷺ بشر المؤمنين بولاية علي وبذلك كمل الإسلام، ولكنه بقي حريصاً على كتمان البقية ولذلك كان كتمان البقية من كمال الإسلام أيضاً. وهذا هو تعليل تكتّم العلويين في عقيدتهم. وهم يقولون أيضاً: إن بني هاشم كانوا يعرفون في زمن النبي أحكاماً ما كان يعرفها الأمويون، وإن أهل البيت تعلموا علوماً لم يسمعها غيرهم. وهنا مبدأ أسرار العلويين. ومن جملة أسباب تكتّم العلويين أن بيعة غدير خُم لم تكن إلا إفشاء لبعض حقوق أهل البيت والأمر باتباعها واحترامها .

وقال: إن السلطان سليماً العثماني لما فتح الشام استدعى عشائر تركية من الأناضول إلى خراسان وقدرها تسعون ألف خيمة أي أكثر من نصف مليون تقريباً وأسكنهم في القلاع في جبال النصيرية والمواقع الغنية المرتفعة منه، ولم يمض أكثر من خمسين عاماً حتى انقرض الأتراك في المنطقة الضيقة التي لم تكن حاصلاتها تكفي سكانها الأصليين، ولم يبق من الأتراك سوى خمسة عشر ألفاً وهم اليوم في الباير والبوجاق وقليل منهم في الساحل، حافظوا على جنسيتهم ولسانهم، ومن نزل منهم أرجاء حماة وحمص تغلبت عليه العربية .

وليس بين العلويين اختلاف في المذهب بل تفرقوا عشائر وأفخاذاً فمنهم الكلبية وهي من أكبر العشائر والنواصرة والجهينية والقراحلة والحلقية والرشاونة والشلاهمة والرسالنة والجردية والخياطية والبساترة والعبدية والبراعنة والفقاروة والعمامرة والحدادية وبنو علي والبشالوة والياشوطية والعتارية والمتاورة والحلبية والخرْزجية والسوارخة والنيلاتية والسرانبة والصوارمة والمهالبة والدراوسة والمحارزة والبشارغة والجواهرة والسواحلية والأنطاكيون

والأطنويون. والنسبة في هذه الأسماء إما إلى أشخاص منهم معروفين عندهم أو إلى قرى ومدن معروفة في أرضهم وغيرها .

وقال أيضاً: ليس للعلويين ديانة خاصة أو مذهب خاص كما يظن بعضهم، بل إن العلويين مسلمون شيعيون جعفريون، لا تفرق بينهم وبين سائر الجعفرية قيود دينية أو اجتهادات عملية، ويعتقدون أن الأئمة الاثني عشر هم معصومون من الخطايا، وإن أقوال الأئمة دلائل قطعية، ولا يمكن أن يخالف الإمام القرآن والأحاديث ولا يحق لأحد أن يؤول القرآن، ولا أن يفرق بين محكمه ومتشابهه سوى أهل البيت، ولا تنفع عند العلوي القواعد الصرفية والنحوية أو الأصولية في استخراج الأحكام الشرعية، بل كل ذلك من جملة حقوق أهل البيت. وإن العلويين يمتازون على بقية الجعفرية أي الاثني عشرية بانتسابهم في الآداب الدينية إلى الطريقة الجنبلانية، وهذا الانتساب هو الذي أدى إلى افتراقهم عن بقية الاثني عشرية. ويرى المؤلف أن يتحد العلويون والشيعة المتاولة والإسماعيلية، وليس بين هؤلاء وبين العلويين سوى الافتراق الخاص في اعتبار الأئمة بعد جعفر الصادق .

وقد سألنا الأستاذ الشيخ سليمان أحمد من علمائهم فأجاب معتذراً عن التوسع في وصف مذهبهم وختم بقوله: أمة توالت عليها النوائب السياسية والاجتماعية خمسة أجيال فأخملتها أي إخمال، وانزوى علماؤها وصلحاؤها وعاث الجهل في عشائرها فساداً، ليس من السهل الكتابة عنها، وليس بالهين ضلال التاريخ، وقل من جرى في ميدانه فلم يعثر. لا فرق بينهم وبين الإمامية إلا ما أوجبته السياسة والبيئة وعادات العشائر التي توارثها سكان الشام، أكثر الناس اختلافاً، وأقلهم ائتلافاً، إذ شيخ مذهبهم الذي ينتمون إليه (الخصيبي) من رجال الإمامية تقرأ ما له وما عليه في كتب الرجال. إنما لهم طريقة كالنقشبندية والرفاعية وغيرهما من الطرق الصوفية بالنسبة إلى أهل السنة. وهذا مصدر التقولات الباطلة عليهم، وما أبرّئ جهلتهم من كل ما يقال، ولكن أشهد بالغرض والتغرض على غالب المؤرخين الذين كتبوا عنهم اهـ .

ويسكن النصيرية أو العلويون اليوم في جبال اللاذقية وطرابلس وحماة

ومنهم فئة قليلة في دمشق وصالحيتها وفي قرى عين فيت وزعورا وغجر في الحولة،وعدد العلويين اليوم أكثر من مائتي ألف. وقد استعمل العنف معهم في أكثر الأدوار السالفة فنفروا وقد كان الظاهر بيبرس في القرن السابع أمر أن تبنى لهم جوامع في قراهم فبنوا في كل قرية جامعاً وما كانوا يدخلونها على عهد ابن بطوطة في القرن التاسع ،بل كانت حظائر للغنم وإصطبلات للدواب،وأمر السلطان قلاوون أيضاً أن يبنى جامع في كل قرية من قرى النصيرية، وهكذا فعل عبد الحميد الثاني من العثمانيين فبنى لهم جوامع لم يلبثوا أن خربوها وأهانوها. وشأن العلويين شأن سائر الطوائف الإسلامية الصغرى كلما زادوا علماً وتربية رجعوا إلى الأصول الصحيحة. وفيهم كرم وشمم وشجاعة ومكارم أخلاق .

الدروز :

لما طمع الحاكم بأمر الله الفاطمي سادس خلفاء الفاطميين أو العبيديين بمصر في دعوى الربوبية، أخذ يمهد لذلك المقدمات ولقب نفسه الحاكم بأمره وأمر الخطباء بأن يقرأوا بدل البسملة (باسم الله الحاكم المحيي المميت) وفي رواية أنهم كتبوا بسم الحاكم الله الرحمن الرحيم. فلما أنكروا عليهم كتبوا بسم الله الحاكم الرحمن الرحيم فجعلوا في الأول الله صفة للحاكم وجعلوا في الثاني العكس. وأنشأ يدعي علم المغيبات، وكان من دعاته رجلان عجميان من دعاة الباطنية يقال لأحدهما محمد بن إسماعيل الدَّرزي[1] المعروف بنشتكين،وللآخر حمزة بن علي بن أحمد وهذا من أعظم دعاة الحاكم، كان يؤثره على جميع عشيرته، وكان صاحب الرسائل والمكاتبات عنده. وصنف الدرزي كتاباً كتب فيه أن روح آدم انتقلت إلى علي بن أبي طالب ومنه إلى أسلاف الحاكم متقمصة من واحد إلى آخر حتى انتهت إلى الحاكم بأمر الله. وقرئ هذا الكتاب في الجامع الأزهر بالقاهرة، فهجم الناس على مؤلفه ليقتلوه ففر منهم، وحدث شغب عظيم في القاهرة وقتلوا

---

(١) الدرزي بفتح الدال معناه الخياط فارسي معرب والعامة تضم الدال ويقولون في الجمع الدروز والصواب الدرزة محركة .

كثيرين من أصحابه. وكانت بلغت جريدة أسمائهم ستة عشر ألفاً. ولم يسع الحاكم بأمر الله بعد أن وقع ما وقع إلا أن يبعث إلى الدرزي في السر والا وأوعز إليه أن يخرج إلى الشام وينشر فيها الدعوة، فنزل وادي تيم الله بن ثعلبة غربي دمشق، وقرأ الكتاب على أهله واستمالهم إلى الحاكم، وأعطاهم المال فكثر مشايعوه وأنصاره .

وكان الأمراء التنوخيون سكان لبنان على استعداد لقبول دعوة الدرزي فانقادوا إليه فسمي جماعته بالدروز. والدروز ينكرون هذه التسمية ويحبون أن يدعوا بالموحدين، وكان يسميهم أصحابهم بالأعراف. وغلب عليهم في حوران في العهد الأخير لقب آل معروف دعوا به تحبباً. وهذا كان من شعار اليمنيين لانقسام هذه الطائفة إلى أصلين من أمهات أصول العرب في هذا القطر وهما القيسية واليمنية. ولما أنشأ الدروز يبثون دعوتهم بين المسلمين غزُوا في عقُر دارهم في وادي التيم نحو سنة (٤١٠) على الأرجح وغزوا في جبل السماق من أرجاء حلب لما جاهروا بمذهبهم أيضاً وخربوا ما عندهم من المساجد فقتل دعاتهم وأعيانهم سنة (٤٢٣) (خطط الشام م ١) .

ووقع خلاف بين الداعية الأول محمد بن إسماعيل الدرزي والداعية الثاني حمزة بن علي بن أحمد، فكتب التقدم لهذا ومات الدرزي في سنة (٤١١) فقام بالدعوة حمزة وأصبح القوم يقدسونه ويلقبونه بهادي المستجيبين وحجة القائم وغير ذلك. ولما هلك الحاكم كتب حمزة الرسالة المسماة بالسجل المعلق وعلقها على أبواب الجامع وفيها يقول: إن الحاكم اختفى امتحاناً لإيمان المؤمنين، وشرع حمزة يزرع في القلوب بذر الاعتقاد بألوهية الحاكم وتوحيده وعبادته، ويجتمع هو وأتباعه في المعبد السري، حتى ثار عليهم المسلمون وطردوهم ففروا من مصر إلى الشام .

قال سليم البخاري: إن الدروز يخالفون في عقائدهم عقائد الفرق من أرباب الديانات يتظاهرون بالتبعية لمن يكونون تبعاً له، وأما في الباطن فإنهم ينكرون الأنبياء عليهم السلام وينسبونهم إلى الجهل وأنهم كانوا يشيرون إلى توحيد العدم وما عرفوا المولى، ويشنعون بالطعن على جميع أرباب الديانات من المسلمين والنصارى واليهود، والديانة الحقة عندهم هي توحيد الحاكم،

ويفترض عندهم صدق اللسان بدل الصوم وحفظ الإخوان بدل الصلاة . ويقرأون القرآن ويؤولونه ويذهبون إلى قدم العالم تبعاً لبعض الفلاسفة ويقولون بالتناسخ معبرين عنه بالتقمص، فالجسد يسمى قميصاً عندهم، وأن الميت حين موته تنتقل روحه إلى من يولد وقتئذ، فالأرواح الإنسانية لا تنتقل عندهم إلا إلى قوالب إنسانية. ويقولون: الهوية الإلهية تنتقل من قالب وتحل في قالب آخر في كل عصر، فتتجلى في كل زمن بصورة وتجلت أخيراً في الحاكم، وأن حمزة أيضاً ظهر في كل عصر بقالب، ففي زمان كان فيثاغورس الحكيم، وفي زمان كان شعيباً، وفي زمان كان سليمان بن داود، وفي زمان كان المسيح الحق، فهو النبي الكريم عندهم، وحمزة العصر المحمدي هو سلمان الفارسي ، ويزعمون أن القرآن قد أوحي حقيقة إلى سلمان الفارسي وأنه كلامه وأن محمداً أخذه وتلقاه عنه حتى زعموا بأن خطاب لقمان الذي خاطب به ولده في معرض الوصية بقوله: « يا بُنيّ أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانْهَ عن المنكر » هو خطاب سلمان لمحمد والتعبير بالنبوة إنما هو من خطاب المعلم للمتعلم .

وإذا أراد أحد من جهالهم أن يدخل في سلك الموحدين ينبغي له أن يستجلب رضاهم بتقديم وسائل العطف مدة حتى تتحقق توبته، فإذا قبلوه أدخلوه على الإمام فيوصيه بحفظ السر وعدم إشهاره، ويأمره بتحرير العهد الواجب تحريره، إذ لا يكون موحداً خالصاً بدون تحرير العهد على نفسه، فإذا حرره وسلمه إلى الإمام صار واحداً منهم. وصورة العهد وهو المعروف لأول انتشار الدرزية بميثاق ولي الزمان: « توكلت على مولانا الحاكم الأحد الفرد المنزه عن الأزواج والعدد، أقر فلان بن فلان إقراراً أوجبه على نفسه وأشهد به على روحه في صحة من عقله وبدنه وجواز أمره طائعاً غير مكره ولا مجبر، أنه قد تبرأ من جميع المذاهب والمقالات والأديان والاعتقادات كلها على أصناف اختلافاتها وأنه لا يعرف شيئاً غير طاعة مولانا الحاكم جل ذكره والطاعة هي العبادة وأنه لا يشرك في عبادته أحداً مضى أو حضر أو ينتظر وأنه قد سلم روحه وجسمه وماله وولده وجميع ما يملكه لمولانا الحاكم جل ذكره ورضي بجميع أحكامه له وعليه، غير معترض ولا منكر

لشيء من أفعاله ساءه ذلك أم سره، ومتى رجع عن دين مولانا الحاكم جل ذكره الذي كتبه على نفسه وأشهد به على روحه أو أشار به إلى غيره أو خالف شيئاً من أوامره، كان بريئاً من البارئ المعبود وحرم الإفادة من جميع الحدود واستحق العقوبة من البارئ العلي جل ذكره،ومن أقر أن ليس له في السماء إله معبود ولا في الأرض إمام موجود إلا مولانا الحاكم جل ذكره كان من الموحدين الفائزين. وكتب في شهر كذا وسنة كذا وكذا من سني عبد مولانا جل ذكره ومملوكه حمزة بن علي بن أحمد هادي المستجيبين المنتقم من المشركين والمرشدين بسيف مولانا جل ذكره وشدة سلطانه وحده »

وليس لأحد من الناس أن يدخل في مذهب الدروز لأن ذلك لا يتأتى إلا إبان الدعوة الأولى، وقد سد هذا الباب بعد ذلك. ويحرص الدروز كل الحرص على كتمان عقائدهم ولذلك يعبرون عن مرامهم في كتبهم ورسائلهم بطريق الرمز والكناية فلا يفهم ما يراد منها إلا الطبقة العالية من أرباب الدين عندهم أو مشايخ العقل. ويذكرون مباحث من علم الكلام، وبعض مقالات غلاة المتصوفة، وتأويلات الرافضة والملاحدة، وخصوصاً الإسماعيلية من غلاة الشيعة. ولهم قضاة منهم يحكمون في المعاملات المدنية الجارية بينهم على مقتضى الشريعة، غير أنهم يخالفونها في بعض المعاملات بحكم العادة الموروثة وقد اصطلحوا على التوصية بما يشاءون لما يشاءون.ولا يجوز عندهم الجمع بين امرأتين فإن لم يطلق التي عنده لا يمكنه التزوج بغيرها. وتطلق المرأة بأدنى سبب، ولا يجوز عندهم رد المطلقة ولو كان بعد زوج آخر .

ويقسم الدروز من حيث الدين إلى ثلاثة أقسام: العقال أو الأجاويد والشراح والجهال. ويرخص للشراح بالاطلاع على ما كتبه الشيخ الفاضل بشرح أحد أوليائهم الأمير عبد الله التنوخي الملقب بالسيد دفين قرية عبيه وهو الذي بنى المساجد وجدد الجوامع، وكان على ما قيل يريد أن يرجع بالدروز إلى مذهب أهل السنة والجماعة توفي سنة (٨٧٤) .

ولا يباح للجهال من الديانة غير معرفة المسائل الأولية من الدين. ومن العقال طبقة أتقياء يقال لهم المتنزهون وهم مثابرون على العبادة والورع، ومنهم من لم يتزوج، ومنهم من لم يأكل لحماً طول حياته، ومنهم من هو

صائم كل يوم، ولا يذوقون شيئاً من بيت أحد من غير العقال. والعقال جميعهم يعتقدون أن أموال الحكام والأمراء حرام فلا يأكلون شيئاً من طعامهم ولا من طعام خدَمهم ولا من طعام حُمل على دابة مشتراة من مال حاكم، وقد يعتاشون من عمل لهم خاص يتعاطونه بأنفسهم من زراعة وصناعة. وينزهون ألسنتهم عن ألفاظ الفحش والبذاءة ويتجنبون الإسراف.

واسمع بعد هذا رأي الأمير شكيب أرسلان (من مقالة في جريدة الشورى (١٥) جمادى الثانية سنة (١٣٤٤) في الدروز قال: الدروز فرقة من الفرق الإسلامية أصلهم من الشيعة الإسماعيلية الفاطمية، والشيعة الإسماعيلية الفاطمية أصلها من الشيعة السبعية القائلين بالأئمة السبعة، وهؤلاء هم من جملة المسلمين كما لا يخفى. وإذا قيل: إن الدروز هم من الفرق الباطنية التي لا يحكم لها بالإسلام فالجواب أن الدروز يقولون: إنهم مسلمون ويقيمون جميع شعائر المسلمين ويتواصون بمرافقة الإسلام والمسلمين في السراء والضراء، ويقولون: إن من خرج عن ذلك منهم فليس بمسلم. ولهذا أصبح من الصعب على المسلم الذي فهم الإسلام كما فهمه السلف الصالح والذي سمع حديث (فهلا شققت عن قلبه) أن يخرج الدروز من الإسلام. وفي الشرع المحمدي قاعدة: نحن لنا الظاهر والله يتولى السرائر. وقد قال الله تعالى: «ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا» وهؤلاء لا يلقون السلام فقط بل يلقون السلام ويقولون: إنهم مسلمون، ويحفظون القرآن، ويلقن ملقنهم الميت «إذا جاء منكر ونكير وسألاك ما دينك ومن نبيك وما كتابك ومن إخوانك وما قبلتك فقل لهما الإسلام ديني ومحمد نبيي والقرآن كتابي والكعبة قبلتي والمسلمون إخوتي» وليس من شعائر الإسلام شيء لا يقيمه أو لا يوجب إقامته الدروز.

وإذا قيل: إنه مع كل هذه المظاهر تحتوي عقيدتهم الباطنية التي تعرفها طبقة العقال على ما يصادم أركان عقيدة السنة والجماعة ولا يتفق معها في شيء فالجواب قد وجد في الإسلام أئمة كبار يترضى عنهم عند ذكرهم ولهم قباب تزار وتعلق فيها القناديل وكانوا يقولون بوحدة الوجود! فهل وحدة الوجود مما يطابق السنة؟ كلا فهل أخرج المسلمون هؤلاء الأئمة من

الإسلام ؟ وأما تجسد الإله فليس من عقيدة الدروز كما يتهمهم بعضهم والتجسد شيء والترائي شيء آخر. وأما تأويل آي القرآن الكريم بحسب زعمهم فكم من فرقة في الإسلام انفردت بتأويلٍ للآيات الكريمة ... اه .

وبعد فإن للدروز روابط مهمة بينهم منها أنهم مهما كانت بينهم طوائل وحزازات يتخلون عنها ويصبحون جسماً واحداً يوم يريدون مقاومة عدوٍ لهم. وهم من التسامح على جانب حتى مع من يخالفهم. ومعظم عاداتهم إسلامية وأسماؤهم إسلامية وفيهم من الإسلام شيء كثير من جوهره. وقد رأينا لعهدنا أبناء هذا المذهب كلما تعلموا قربوا من الأصول الإسلامية وفيهم اليوم فئة صالحة مستنيرة تريد الجهر بالرجوع إلى مذهب أهل السنة . ومن أراد زيادة تفاصيل في مذهب الدروز فعليه بالرجوع إلى كتبهم ورسائلهم وهي محفوظة في دور الكتب العامة هنا وفي الغرب. وينزل الدروز اليوم في شوف لبنان وجبل حوران ووادي التيم وبعض قرى الغوطة بدمشق والجبل الأعلى في حلب وبعض قرى عكا ولا يقل عددهم عن مئة وأربعين ألفاً .

البابية :

مؤسس هذا المذهب رجل من فارس اسمه الميرزا علي محمد الشيرازي ولد سنة (١٢٣٥هـ) وتوفي والده وهو حدث فكفله خاله وعلمه مبادئ الفارسية والعربية وحسن الخط واشتغل لأول أمره بالتجارة،وفي سن العشرين أخذ يكثر من الرياضة والعبادة فخاف خاله على صحته فأرسله إلى العراق وقضى أشهراً في كربلاء والنجف اجتمع خلالها إلى علماء الشيعة وخرج من العراق بأفكار تخالف ما عرفه الناس من الإسلام، وأخذ يبث دعوته فمال إليه جماعة وحج في تلك الأيام. وكان يقول: ادخلوا البيوت من أبوابها « أنا مدينة العلم وعلي بابها » يشير إلى أنه واسطة السعادة الأبدية، ثم دعا نفسه « الباب » ومعنى الباب عند الشيعة نائب المهدي المنتظر وتخلى عن اسمه . وبعد مدة أرسل إلى بوشهر ومنها أرسل دعاته إلى شيراز وأصفهان يبثون دعوته. فعقد والي شيراز لهم مجالس المناظرة مع الفقهاء فأفتى هؤلاء بكفر

البابية ووجوب قتلهم. لكن الوالي اكتفى بقطع العصب الكعبري من كعابهم وسجنهم. وجيء بالباب من بوشهر (١٩ رمضان سنة ١٢٦١) وأنزل في دار أبيه ريثما يهدأ روعه، ثم استقدمه الوالي سراً وبعد المفاوضة تظاهر الوالي بأنه اقتنع بصحة دعوة الباب وجعل هذا في قصره، ثم عقد له مجلساً لمناظرته فأفتوا بكفره فلم يسع الوالي إلا أن أشار بضربه على رجليه فلما استغاث أوعزوا إليه أن يصعد المنبر ويعلن توبته ففعل. وظهر الوباء في شيراز واختلت أحوال فارس فبعث والي أصفهان يستدعي الباب إليه، فلما رأى والي شيراز ذلك نفى جميع أصحاب الباب من ولايته، ولما حُمل الباب إلى والي أصفهان أوعز هذا بأن يحسن القوم استقباله فاستقبلوه، ثم عقد له مجلس المناظرة فأفتى العلماء بقتله، فاعتذر الوالي عن تنفيذ فتواهم، وخبأه في قصره مطلقاً له حرية التأليف والكتابة وبقي في داره حتى قُتل الوالي وخلفه في الحكم ابن أخيه، فطالع هذا رجال عاصمة الملك بالأمر، فأمروا بنفيه إلى آذرباجيان فحبس في قلعة جهريق ثم في قلعة ماكو.

وبث الباب دعاته وساعده المحيط واختلال الأمن في كثير من الولايات، فاشتد دعاته في بث دعوته فلقيت قبولاً من بعض الناس، وفي مقدمة أتباعه الملا حسين بشرويه الملقب بباب الأبواب في خراسان، والثاني الملا محمد علي البارفروشي بمازندران والثالثة امرأة من قزوين اسمها زرين تاج من عائلة عريقة في العلم وزوجة أحد المجتهدين وهي جميلة الصورة جميلة الأدب، تحفظ القرآن وتعرف تفسيره وأسراره، فاقتنعت بصحة دعوة الباب، ولم تلبث أن دعت إليه سراً وجهراً وإن لم تجتمع به، فمال الناس إلى مواعظها وفتنتهم بفصاحتها وجمالها وجميل شعرها، وقد حسرت نقابها ولقبت بقرة العين، ثم خرجت إلى خراسان فالتقت في رشت بالبارفروشي أحد الدعاة ومعه جند من البابية فبعثا منادياً ينادي «عجلوا أيها الناس فقد ظهر الإمام المنتظر» فنصبوا منبراً ووقفت قرة العين سافرة وحثت الناس على الاعتقاد بالباب فآمن بعضهم وأنكر الآخر، ثم انتقلت على هودج إلى مازندران والناس يتبعونها، وأخذت تطوف القرى تبشر بدعوة الباب فقبضت عليها الحكومة وخنقتها وأحرقتها.

ثم قام الملا حسين بشرويه وقد كثر أنصار الباب وألف منهم جيشاً صغيراً قاتل جيش الشاه في مازندران وجعل الملا علي البارفروشي مقدساً وسماه حضرت أعلى » وحجبه عن الناس، وأصيب بشرويه في إحدى المعارك وأوصى جماعته بأن يطيعوا « حضرت أعلى » وتغلبت الحكومة على قلعتهم وقبضوا على ملا محمد علي وحاكموهم فقتلوهم على بكرة أبيهم. وبلغ عدد من قتل في هذه الوقائع ألفين وخمسمائة من البابية وخمسمائة من الجند وغيرهم. وحدث مثل ذلك بقيام أحد الدعاة الملا محمد علي الزنجاني في زنجان ولكنه لم يُوفق. وكذلك وقع في مدينة تبريز فقاتلت حكومة فارس دعاتهم حتى أبادتهم. أما الباب فكان مسجوناً في سجن جهريق. ولما اندلع لسان الثورة في مازندران وزنجان وتبريز وقتلت الأنفس، ارتأى رئيس حكومة فارس قتله فقتله بمشورة الشاه في ٢٨ شعبان سنة (١٢٦٦هـ) . ووضعت حكومة فارس في أشياعهم السيف في جميع مملكتها خصوصاً بعد أن ثبت أن الذي حاول اغتيال ناصر الدين شاه سنة (١٢٦٨) هو من شيعة البابية .

وكان من جملة العلماء الذين فتنوا بدعوة الباب رجل اسمه بهاء الله ميرزا حسين علي فلما وقعت هذه الحوادث قبض عليه وسجن ثم حوكم، وكان سفير روسيا يدافع عنه من تهمة الاتفاق مع الخارجين على الشاه، ثم أفرج عنه ونفي إلى العراق فأرسل مخفوراً بالجند الفارسي مع بعض فرسان من سفارة روسيا في طهران لئلا يغتالوه في الطريق فأقام في العراق ١٢ سنة ثم حمل إلى الاستانة ومنها إلى أدرنة فأقام فيها نحو خمس سنين ثم صدر الأمر بنفيه إلى عكا سنة (١٢٨٥هـ). ونفي أخوه مرزا يحيى نوري الملقب بعد بيحيي صبح أزل إلى قبرس وظل البهاء في عكا حتى وافاه أجله سنة (١٣٠٩) فدفن فيها، وخلفه ابنه عباس أفندي وكان كأبيه على غاية من حسن السمت والأخلاق وعظم النفس وبسط اليد وجمال الأدب وحسن العشرة حتى استمال بأخلاقه من يعتقد بالبابية ومن لا يعتقد. ولما توفي سنة (١٩٢٢) تفرق أمر الجماعة وانقلبوا فرقاً كما كان عباس أفندي في حياته مع صبح أزل متخاصمين متشاكسين. وسرت دعوتهم إلى عدد قليل من أبناء الشام وإلى بعض أهل أوربا وأميركا. ويبالغون في عدد من دانوا بهذا المذهب

في الغرب. وهم في الشام وفي أميركا وأوربا بضعة آلاف على الأغلب .

يقولون: إن من تعاليم الباب تحريم الكتب المنزلة قبله ونسخ القرآن وأحكامه . وإنه قضى بهدم المزارات حتى الكعبة وقبر الرسول وفرض بناء ١٩ مزاراً باسمه ومن دخلها كان آمناً، وأبطل الحج وقسم السنة إلى (١٩) شهراً وجعل الشهر الواحد ١٩ يوماً فأيام السنة عنده (٣٦١) وأضاف إليها خمسة أيام سماها المسروقة ورمز عنها بحرف (ه) وجعل أول يوم من شهر (فروردين ماه) الفارسي الموافق للحادي والعشرين من شهر مارس الإفرنجي الغربي الذي هو يوم الاعتدال الربيعي وهو يوم عيد النوروز عند الفرس عيداً للفطر وخصه بنفسه وسماه عيد رضوان. وجعل الصوم (١٩) يوماً من شروق الشمس إلى غروبها وخصص الأيام الخمسة المذكورة للهو والطرب قبل دخول شهر الصيام. والمطهرات عنده خمسة النار والهواء والماء والتراب وكتاب الله (أي البيان كتابه) وكيفية التطهير بالبيان أن يتلى ما تيسر من اسم النقطة أي الباب مع تلاوة آية التطهير (٦٦) مرة على كل شيء نجس . وجعل الدم وروث البهائم وغيرها طاهراً. وللباب وخليفته بهاء الله عدة رسائل وكتب منها ما كتباه بالفارسية ومنها بالعربية،من أهمها من قلم الباب كتابه البيان وفيه شريعته وتعاليمه. ومن أهم كتب بهاء الله كتاب أقدس نهج فيه منهج القرآن في ترتيب الآيات والسور ودوّن فيه شريعته وأحكامها باللغة العربية. وقد أدخل البهاء عدة إصلاحات على مذهب الباب اقتضته الحال ذلك. وبعضهم يطلق على أهل هذا المذهب اسم البابية نسبة للمؤسس الأول وبعضهم يلقبهم بالبهائية نسبة لبهاء الله الذي زاد في المذهب ونقص منه، وهم يسمون أنفسهم أهل البيان .

قال كليمان هوار: إن الباب أنشأ ديناً جديداً بتعاليمه وعقائده وأنشأ مجتمعاً جديداً تحت ستار الإصلاح في الإسلام. فالله واحد وعلي محمد مرآته التي ينعكس فيها النور الإلهي ويتأتى لكل إنسان أن يشاهدها. وقال الباب في كتابه البيان: عليكم أن تجعلوا من أنفسكم ومن أعمالكم مرائي بحيث لا ترون فيها إلا الشمس التي تحبونها وقد برأ الله العالم على سبع صفات سميت حروف الحقيقة وهي القدر والقضاء والإرادة والمشيئة والإذن والأجل

والكتاب. ويدير شؤون الطائفة (١٩) رجلاً وكل بابي يدفع لهم في السنة خمسة في المئة من قيمة رأس المال، وتلغى جميع العقوبات ما عدا الغرامة التي توضع على زوجين لا يريدان أن يتعاشرا بالمعروف. والتجارة والعقود مشروعة، ويسمح بدفع فائدة عن بضائع بيعت بالنسيئة. والزواج إجباري بعد الحادية عشرة والطلاق ممقوت، ويمهل الزوجان المتخاصمان سنة لتأليف ذات بينهما، وعلى الأرامل من الرجال والنساء أن يتزوجوا، وعدة الرجال منهم تسعون يوماً والنساء خمسة وتسعون يوماً وإذا لم يفعلا يغرمان غرامة.

ولا يضرب الولد قبل أن يبلغ الخامسة وبعد ذلك لا يضرب أكثر من خمس ضربات. ويسمح لمن يدينون بهذا المذهب أن يستعملوا الحلي والجواهر خلافاً لما أمر به الشرع الإسلامي. ويسمح لهم بالوضوء ولكن لا على أنه فرض، ويجب أن يكون في كل حي حمام، ولا يتحجب النساء ويؤذن بالتحدث إليهن من دون إكراه، وأن يكون الكلام معهن جهراً لا سراً. ويحج أتباع الباب إلى البيت الذي ولد فيه حيث يقام له مسجد، أو إلى المكان الذي سجن هو فيه أو خاصة حوارييه، ولا يسمح لمن يدينون بمذهبهم بالارتحال والسياحة إلا لمن اضطر إلى ذلك، ولا يسمح بركوب البحار منهم إلا للحجاج والتجار، ولا تقام صلاة جماعة إلا على الأموات وخطبة المسجد واجبة، ويدفن الموتى في زجاج أو في حجارة منحوتة مصقولة، ويجعل في يد الميت اليمنى خاتم يكتب على فصه «لئلا يفزع الموتى في قبورهم». وليس من حق أحد أن يستعمل الشدة مع إنسان ولا أن يسيء إلى أخيه، ويجيبون على كل من يكلمهم أو يكاتبهم ويفرض عليهم أن يؤدوا الرسالة التي ائتمنوا عليها إلى صاحبها من دون عبث بها. ويحظر عليهم تعاطي المخدرات والمسكرات، ويجب أن يدعو كل واحد منهم في كل شهر تسعة عشر إنساناً، وأن يجتمع معهم ولو على شرب الماء القراح، ويحظر عليهم الكدية، ومن الضلال إعطاء الشحاذين. وتقسم مواريثهم على الصورة التالية بعد صرف نفقات الدفن والجنازة: للولد (٩) من ستين وللزوج (٨) من ستين وللوالد (٧) من ستين وللأم (٦) من ستين وللأخ (٥) من ستين وللأخت (٤) من ستين وللأستاذ (٣) من ستين، ولا يرث أحد من ذوي القربى بعد ذلك اهـ.

وحُظر على البابية لما نزلوا عكا الدعاية إلى مذهبهم في الشام. ولما أعلنت

الحرية سنة (١٩٠٨) انتقلوا إلى عكا وزاد أشياعهم قليلاً وهم هنا قلائل ربما لم يتجاوزوا المائتين وهم على غاية من حسن الأخلاق وجميل المعاملة قلما شكا منهم إنسان أو اشتكوا هم من إنسان، ولا تجد بينهم من لا يحترف حرفة ويعمل ويكد. ولا سيما رئيسهم الأخير عباس أفندي فقد كان محافظاً على صلواته مع الجماعة لم يخرج في سمته عن روح الشرع الإسلامي. فإما أن يكون صادقاً في إسلامه أو أنه عاش في تقية متقنة كما يعيش كثير من أرباب النحل الضعيفة بين المخالفين لهم من السواد الأعظم، ولا سيما الشيعة بين ظهراني أهل السنة .

وكان عباس على علم وأدب إذا تكلم يمزج الفلسفة بالمنقولات فيتعذر على كل إنسان فهم كلامه، وله خطب ومواعظ انطلق بها لسانه في سياحة له في أوربا وأميركا دامت خمس سنين، ويؤخذ من مجموع أقواله أن البهائية أو البابية ترمي إلى تطبيق الشرائع السماوية على العقل وحلّ المشاكل القائمة بين أهل الأديان السماوية الثلاثة اليهودية والنصرانية والإسلام. وقال مرة: إن الباب صاحب المذهب كان يريد التوفيق بين السنة والشيعة. بل كان يرمي إلى وحدة العالم الإنساني ونشر السلام العام والتأليف بين قلوب البشر بقوة الدين وتحكيم العقل والعلم، ونبذ التعصب الديني والجنسي والوطني والسياسي ، ونشر العلم وإنشاء محكمة عامة كبرى تفصل الخلافات التي تحدث بين الشعوب والدول، وإلى تربية بني البشر على الفضائل الإنسانية وإلى إقامة القواعد الاقتصادية وتأليف لغة عامة تفهمها جميع الأمم .

ويقال على الجملة: إن التشيع كان منشأ البابية والإسماعيلية والنصيرية والدرزية. وكما كانت فارس مثابة كثير من أسباب المدنية الإسلامية كانت أيضاً منشأ معظم ما تفرع من الإسلام من النحل والطرق الغريبة. ولو تسامح أهل هذه المذاهب في نشر حقائقها، لما تقول عليهم المتقولون، ولا رماهم المخالفون بما قد يكونون منه أبرياء. بقي أن يقال: إن في الشام مذهب اليزيدية عبدة الشيطان، وممن ينتحلون هذه النحلة قريتان في ضواحي حلب، ولما كانت جمهرة أهل مذهبهم في جبل سنجار من عمل الموصل لم نخصهم بمبحث خاص لأنهم لا يسترعون الانتباه ويتمثلون على الأغلب في سواد الأمة والله أعلم .

الاخلاق والعادات

عادات الدمشقيين :

كان سمر الشاميين قبل نصف قرن تقريباً في بيوتهم، تكتفي كل طبقة باجتماعها مع أهل طبقتها، فنتج عن ذلك أن ترى في المدينة الواحدة من مدن الشام الكبيرة تبايناً، يكاد يوهم لأول وهلة أنهم من أقاليم مختلفة يتباينون بأزيائهم ومآكلهم ومشاربهم وسمرهم ولهجاتهم، وبالطبع بتصوراتهم وعقليتهم إلى أن ولي الشام مدحت باشا الوالي العثماني الشهير ووضع أسس الإصلاح العلمي والاجتماعي والإداري، وبدأت النهضة الأدبية عقب ذلك فتعارف الأولاد بالمدرسة أولاً، وتقومت ألسنتهم، واعتادوا التلفظ بالفصيح الصحيح، وفتحت الأندية والمقاهي ودور التمثيل، ثم قاعات الصور المتحركة، وتعارف الناس وقلت الفوارق، وقضي على الأرستقراطية إلا قليلاً، وحلت محلها الديمقراطية، فنشأ عن ذلك اعتياد الشباب الراقي المتعلم ارتياد المحال العامة والاحتكاك بمن مضى وقت تعليمهم، فمرنوا أيضاً على التخاطب بالفصيح الصحيح ما أمكن، وعم ذلك جميع الطبقات حتى غير المسلمة وما نزال نرى ذلك في تقدم مستمر .

تنقسم حفلات الدمشقيين إلى مدنية ودينية. أما الدينية فتنحصر فيما يلي: عيد الفطر والنحر، والرجوع من الحج، والإياب من زيارة مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام، وسنة الختان، وبعض نذور لله يقوم بها من أبلّ من مرض شديد، وآب من سفر خطر أو بعيد، وعادات القوم في تلك

(١) كتب هذا الفصل محمد شخاشيرو

الأعياد إخراج الصدقات والزكوات والتوسيع على الفقراء، وتكثر الزيارات، ويتصافح القوم عما بينهم من سيئات، ويصلون أرحامهم ويوسعون على عيالهم. وعادتهم في ذلك أن يبدأ الأصغر سناً بزيارة الأكبر، ويُقدّم الأكبر سناً ويحترم في كل شيء. ومنشأ ذلك على ما أعلم الأمية فإن غلبة الأمية على قوم تضطرهم إلى احترام من كان أكثر تجربة منهم، ومن مرت عليه السنون، وحلب الدهر أشطره وكثرت تجاربه، كان جديراً بالاحترام. أما اليوم فحقيق بالاحترام من يقدم الخدم النافعة لأمته، وليس للسن دخل في ذلك. وخير الناس كما قيل أنفعهم للناس.

ويتقدم عيد الفطر شهر رمضان، وللدمشقيين فيه عادات: منها إتمام فريضة الصيام، والانقطاع عن بعض عادات ضارة، ويقضون نهاره في سماع المواعظ في المساجد، وليله في زيارات بعضهم بعضاً، وارتياد محال اللهو المباح، وتكثر حركة الأخذ والعطاء والبيع والشراء، وهو من المواسم المذكورة.

أما حفلات الحج في هذا العصر، فتتم حين رجوع أحدهم من بعد أداء فريضة الحج بأن يقدم إلى خواص ذوي قرباه وجيرانه وأصدقائه وأحبابه هدية، وتختلف هذه الهدية بحسب مقدرته المالية، ويبتدئ المهنئون بزيارته في داره، ويقدم له خواص أصدقائه وأقربائه قبل وصوله إلى وطنه هدايا تكون غالباً من اللباس الفاخر، ويكون مثل ذلك بعد رجوع أحدهم من زيارة مسجد الرسول. وتختم هذه الزيارات غالباً بإقامة حفلة يدعونها مولداً وهي عبارة عن اجتماع يضم أصدقاء المحتفى به وذوي قرباه وزملاءه وجيرانه في داره، ويدعون المنشدين ويفتتحون بتلاوة بعض آيات من القرآن الكريم وينشدون بعض قصائد في مديح الرسول يتلون المولد النبوي فيه وتعداد بعض مآثره ونسبه وبعض أرهاصات تقدمت بعثته، وحين مولده، يقصدون من ذلك التبرك.

ومثل ذلك حفلة الختان ومن المتعارف فيها أن يهدي إلى صاحب الحفلة أهله وأصدقاؤه شيئاً كثيراً من السمن والأرز والغنم والقهوة، بل من جميع ما يلزم لتلك الحفلة، ويكون ذلك ديناً عليه وفاؤه، حين إقامة حفلة مثلها

عند المهدين. وتختم هذه الحفلة مثل أخواتها أيضاً بتلاوة المولد .

ولم يبرح بعض من لا يعتدّ بعقولهم ينذرون بعض نذور غريبة وهي ما يسمونه بالنوبة يقيمون لها حفلة هي عبارة عن دعوة بعض الفقراء المشعوذين، ممن يضربون على الطار والطبل، ويلعبون بالشيش، وبعض قطع من السلاح الأبيض ويطفئون بأفواههم النيران فيجتمع عليهم الأطفال وبعض صغار الأحلام فقط. وهي عادة أصبحت على وشك الزوال .

ومن الحفلات الدينية أيضاً حفلات تكايا أو زوايا المولوية، وأرباب هذه الطريقة لهم حين إقامة هذه الحفلات لباس خاص وهو ثوب أبيض فضفاض، ويلبسون على رؤوسهم ما يسمونه « كلاهاً» وهو من اللباد مستطيل الشكل، ويمتاز رئيس تلك الطريقة بوضعه عمامة خضراء فوقها ويدورون على أنفسهم على نغمات موسيقية مطربة جداً من حيث الفن الموسيقي. وهي من حيث نظامها أتقن حفلات الشرق الدينية على الإطلاق، وهي بالحفلات المدنية أليق منها بالدينية .

إذا حضرت أحدهم الوفاة تعلن وفاته إن كان من الأشراف والعلماء وأرباب الظهور في مآذن المدينة، ثم يحضر غسل المتوفى أصدقاؤه وذوو قرباه. وغسل الميت عند المسلمين يقوم مقام التقرير الطبي في هذه الأيام، يثبت بها أن الميت مات ميتة طبيعية فيطلع الغاسل على عامة جسمه، فإذا كان فيه أثر ضرب أو رض أو خنق ظهر ذلك لحاضري غسله، وهم غالباً من محبيه، فيشيع ذلك ويتصل بالحكام، وبعد غسله يشيعون جنازته إلى أحد المساجد ويصلون عليه، ويذهبون به إلى المقبرة ويمشي المؤذنون أمام جنازته يذكرون الله وذلك إشهاراً لموته وإعلاناً له. وبعد رجوعهم من المقبرة يذهبون إلى منزل عميد الأسرة يعزونه ويحضرون على ثلاث ليال بعد العشاء أحد المساجد القريبة من دار المتوفى، يسمعون ما تيسر من القرآن الكريم، ويسمون ذلك « صباحية »، ويحضر تلك الحفلة أقرباء الراحل وجيرانه وزملاؤه، ويصرفون على الفقراء والمعوزين الدراهم والطعام بحسب ثروة المتوفى. وهذه العادة كادت تبطل لمعرفة القوم بقيمة الوقت فأخذوا يكتفون بالتعزية في

بيت آل الفقيد. وعادة عيادة المريض معدودة عندهم من الواجبات يواسونه ويسلونه ويكررون الاختلاف إليه .

من عاداتهم المدنية أنه متى بلغ الشاب العشرين إلى الثلاثين أن يتولى عميد أسرته إرسال عميدة العائلة مع من ترضاه من أُخت وعمة وخالة ونسيبة وبعض خواص الجيران إلى بيوت المدينة وأحيائها يبحثن وينقبن على زوجة لذلك الشاب، وتكون قاعدتهم في خطبتهم غالباً الكفاءة من جهة الثروة والسن والآداب. ولا يزلن يوالين بحثهن عاماً كاملاً على الأقل ومتى قر قرارهن على إحدى البنات يكررن التردد إلى دارها مرات عديدة ليرينها بجميع مظاهرها، يرينها في زينتها وفي وقت الغسيل ووقت الطبخ وتنظيف المنزل. وعادة الدور التي يكون بها بنات في سن الزواج وهي عادة من الخامسة عشرة إلى الخامسة والعشرين أن يناط بالبنات تقديم القهوة والشراب للخاطبات فيتأمل الخاطبات مشيتها ونقل أقدامها وأدبها في تقديم القهوة في الإياب والذهاب ويخاطبنها فيرين غنة كلامها وفصاحتها، ومتى أصبح الأمر تقريباً واقعاً يذهبن إلى الحمام معاً ويرين جسمها عارية وشعرها ويشممن آذانها وفمها وتحت إبطها ورائحة عرقها وثيابها، وينقلن ذلك إلى الخاطب وعميد الأسرة مع وصف شكلها وجمال وجهها وطولها وغير ذلك. هذا مما له مساس بالنساء من طرف الخاطب .

أما وظيفة النساء من جهة الخاطب فيزرن الحي القاطن فيه سراً ويرسلن من يثقن به من أقربائهن وجيرانهن فيدخلن غالب بيوت ذلك الحي باحثات عن أخلاق الخاطب وثروته وتجارته أو وظيفته، وعن عدد آل بيته ومركز تلك الأسرة في الهيأة الاجتماعية. ويجري التقصي عن آداب بيت الخاطب وأصوله ويذهبن بالمخطوبة سراً إلى مقر الخاطب أو طريق ذهابه وإيابه فتراه فإذا راق الخاطب في أعينهن بعد تلك الاستخبارات يرفعن الأمر إلى عميد أسرة المخطوبة. وهنا تنتهي مهمة النساء، ثم يتألف شبه وفد من عميد أُسرة الخاطب، والبعض من معارف عميد بيت المخطوبة، إلى دار ذلك العميد، ويطلبون منه الموافقة على زواج تلك البنت من ذلك الشاب، بعبارات تختلف بحسب مركز تلك الأسر في المجتمع. ويكون الأمر مقضياً على الأغلب

بعد تلك التمهيدات، ويقررون المهر ويقرأون الفاتحة فاتحة القرآن الكريم للتبرك دليلاً على رضى الطرفين. وبعد ثلاثة أيام يقدم الخاطب خاتم الخطبة. وبعد أسبوع غالباً يحتفل بحفلة العقد يقوم بها الخاطب، فيدعو برقاع مطبوعة على غاية الإتقان أهله ومعارفه، معيناً وقت الدعوة ويومها، ويرسل إلى عميد أسرة المخطوبة بعدد من تلك الرقاع يتفقون عليه من قبل، فيدعو من أراد من أسرته وأصدقائه. فيجتمع المدعوون في المحل المعين ويجري على الأغلب افتتاح تلك الحفلة بقراءة المولد. وتدار المرطبات وقراطيس الحلوى على المدعوين، بعد عقد قران الزوجين الشرعي، وينفض المدعوون، وتنتهي حفلة العقد بعد دفع المهر المقرر، وبعد شهرين أو ثلاثة غالباً يذهب وفد نسائي من قبل العروس بعد أن يكون أهل العروس أتموا لوازم عروسهم يحملن هدية تختلف بحسب مكانتهن، يسمينها «تعيينة» فيعين موعد حفلة العرس وعدد المدعوات من أهل العروس وتكون تلك الحفلة ليلاً في الغالب، ويرسلون بطاقات الدعوة، وليلة الحفلة يرسل وفد من النساء في مركبات على عدد المدعوات من النساء إلى دار العروس، يأتين بها من دارها مع المدعوات إلى دار العروس، وتكون هذه على غاية الرواء والبهاء والزينة، ويدعى عادة إلى تلك الحفلة المغنيات والمطربات ويقضين تلك الليلة بعد دخول العروس بعرسه غرفة خلوتهما بالغناء والرقص وسماع الموسيقي وآلات الطرب، ويمسين على ذلك إلى الصباح، وتعود السيدات المدعوات إلى دورهن ويبقى في بيت العروس بعض الخواص من أهلها، مثل أمها وعمتها وخالتها ومربيتها سبعة أيام.

هذه هي الحفلة النسائية أما الحفلة الخاصة بالعروس (الرجل) فيتقدم أحد وجوه أسرته أو أصدقائه غالباً يعد داره لتلك الحفلة ويسمونها «تلبيسة» ويدعون إليها جميع أقارب العروس وأصدقائه وأرباب مهنته وجيرانه، في جوقة موسيقية تدير هذه الحفلة نحو ساعتين تطرب الحضور بأنغامها. ومتى حان للعروس لبس ثيابه يهزج الشباب عادة عند إلباسه كل قطعة من ثيابه بأهازيج وطنية عامية بحسب كل عصر ومصر. يذهب به الحضور عقبي ذلك إلى دار حفلة العروس بالأهازيج، ويدخلونه الدار مع عميد الأسرة

فيدخله ويضع يده بيد عرسه ويدخل بهما إلى غرفتهما ويذهب بسلام .

هذه حفلات الزواج وعوائد القوم قديماً، واليوم قد زيد عليها معاينة صحة الزوجين، وينظرون إلى الكفاءة العلمية قبل كل شيء مما يبشر الأسرة المقبلة بأعلى درجات السعادة الزوجية، وهذا الشكل في تأسيس الأسرة يعض عليه المحافظون بالنواجذ، ويؤيدونه بكل ما أوتوا من قوة، ويرونه أضمن لحفظ السعادة البيتية من جميع أشكال النظم المتبعة في العالم .

ومن عاداتهم الخروج أواخر فصل الشتاء وأوائل الربيع إلى المتنزهات العامة يوماً في الأسبوع لاستنشاق الهواء النقي، على اختلاف عادهم ومذاهبهم، نساء ورجالاً، وتكون أماكن جلوس النساء خاصة بهن غالباً، ولا يتيسر للرجال أن يخالطوهن بحكم العادة، والشاذ قليل. ومن العادات القديمة التي نشأت من الأمية أيضاً سماع القصاص في المقاهي وقد تلاشت الآن هذه العادة، وكان يجتمع في المقهى عدد يختلف بحسب المحل والقصاص، يتصدر القصاص « الحكواتي » في صدر المكان ويقرأ لهم غالباً القصص التي يرغبون فيها مثل رواية عنترة والزير وأبي زيد وهي روايات حماسية، تمثل الشجاعة والكرم والأنفة والحمية والوفاء والصدق والمروءة والجرأة وحفظ الذمام ورعاية الذمار والجار، إلى آخر ما هنالك من مكارم الأخلاق ينسبونها إلى أبطال الرواية، ويجعلون نهاية النصر لهم والدائرة على مناوئيهم، ويصفون الخصوم بالجبن والكذب والبخل والرياء والغدر والخيانة والنكث بالعهد إلى آخر ما هنالك من مفاسد الأخلاق، مما يربي نفوس السامعين على حب الفضائل ويحبب إليهم العمل بها، ويبغض إليهم النقائص ويحملهم على البعد عنها، وغالب من يجتمعون لسماع تلك الأقاصيص من طبقة العوام، وهم متصفون ببعض تلك الفضائل .

ومن ملاهيهم خيال الظل والعوام يدعونه « قره كوز »، وكان في أول القرن الحاضر من أشد العوامل تأثيراً في تهذيب الأخلاق وتقويمها، بما يلقيه أستاذ هذا الفن المشهور بدمشق علي بن حبيب على ألسن تلك الخيالات من المواعظ الأخلاقية، بعبارات ملؤها انتقاد، تفعل في قلب أشد الناس بلادة، وكان يصور في كلامه العادات السيئة المتفشية في عصره، ويظهرها

في قالب ينفر الناس منها، ويصور ظلم الحكام وأصحاب النفوذ وأغلاطهم، في صور نقد لطيف، وكان يحترمه علية القوم ويعد أستاذاً كبيراً في الموسيقى تخرج به كل من ينتمي لهذا الفن بدمشق .

ومن العادات الشائعة تعاطي القهوة والشاي في المقاهي العامة شتاء، وأنواع المرطبات صيفاً، والتدخين بالتبغ والنارجيلة على الدوام، وتكون صورة اجتماعهم حسب طبقاتهم، ويرتادون أماكن سمرهم هذا، بعد العشاء حين الانتهاء من مزاولة الأشغال وطلب الراحة. وأحاديثهم غالباً تدور على السياسة وفي موضوعات علمية واجتماعية يمتدحون فلاناً لمكرمة أتاها ، وينمون فلاناً لنقيصة بدرت منه. ارتقت أحاديثهم في هذا القرن إلى الخوض في هذه الشؤون العامة، ولم تكن في القرن الماضي تتعدى أحاديث البطون والفروج إلا قليلاً. ومنهم من يقضي سمره ببعض الألعاب الشائعة كالشطرنج والبليار والدومينة والداما والنرد وألعاب الورق على اختلاف أشكالها وأسمائها .

وقد فشت مؤخراً عادة ارتياد بعض الشباب أماكن الشراب. وموقعها غالباً بين الرياض والغياض، وعلى ضفاف الأنهار، وتكون أغلب تلك الاجتماعات متجانسة، فتراهم جماعات متشاكلين حول مناضد الشراب، يجتمع كل أليف إلى أليفه، وتجد جالساً إلى كل منضدة غالباً رجل من أرباب الصوت الحسن ينشد أصحابه الأناشيد الحسان. ومنهم من يختلف إلى زمرة من الموسيقيين الفنانين، يصحبون آلاتهم كالعود والكمنجة والقانون والدائرة والناي. ومنهم من يقتصر على بعض تلك الآلات. وتجري غالب الاجتماعات في أماكن خاصة. وأما المحال العامة للشراب فتحوي من كل شيء أحسنه كالمنشدين والمغنين والآلاتية، وتسمى تلك الأماكن الجنائن، تضم غالباً الماء والخضرة والشكل الحسن، وتبتدىء وقت الغروب وتنتهي عند منتصف الليل.

هذا مجمل عادات دمشق ولا تختلف عنها عادات سكان القطر في الشمال والجنوب والغرب اختلافاً يذكر ما خلا بعض عادات دينية عند الطوائف غير المسلمة، وفيما عدا ذلك فهم متشابهون في أخلاقهم الاجتماعية، ويمتاز سكان هذه الديار من غيرهم في المحافظة على ما ورثوه من بعض أخلاق

الفاتحين العرب منذ نيف وثلاثة عشر قرناً وهي الرزانة والوقار والصبر على المصائب، ويلتزمون هذه الرزانة وهذا الوقار في أعمالهم ومجالسهم بل وفي بيوتهم وبين ذويهم ومجالس سمرهم وشرابهم وأنسهم، ويكرهون من يتصف بالطيش والرعونة والشكوى الصريحة ويتجنبون مجالسته، ولكل عادة من هذه العادات شذوذ وهي قليلة.

عادات الحلبيين(*) :

للحلبيين المسلمين عادات يستعملونها في أفراحهم وأتراحهم نذكر منها شيئاً يحفظه التاريخ إلى ما بعد أن يجتاحه تطور الزمن فيبقى ذكره من مستغرب الأخبار وروائع الآثار فنقول :

مما يستعملونه في قضية الولادة أن الطفل متى تمخضت به أمه وولدته تلمسه القابلة فإن كان غلاماً صلت على محمد وإن كان جارية ترضت عن فاطمة الزهراء ثم يقدم إلى أحد أقاربه فيؤذن في أذنه الأذان الشرعي ثم يسمى من قبل وليه ويطبخ لأمه حلوى بالشونيز والجوز لتكثير لبنها وتقتصر بالشرب على ماء الحمام المنقوع فيه أصول البنفسج مدة أسبوع ويرسل أحد أصدقاء الأسرة مائدة كبيرة تشتمل على مقدار عظيم من الزلابية معها أباليج السكر، ويولم أهل المولود في اليوم السابع وليمة حافلة بين أطعمتها حلوى قوامها الدبس والشمرة تعرف باسم « المغلي » وقد يحضر في ليلة تلك الوليمة قيان للنساء ومطربون للرجال، وكل صديق لأبوي المولود يقدم هدية بعضها مأكول وبعضها مما يتحلى به ومنها مسكوكات ذهبية قديمة تعلق في قلنسوة الطفل واسم ذلك « تهناية » وبعد مضي أربعين يوماً على الولادة تؤخذ النفساء إلى الحمام مع أترابها من النساء ويكبس بدنها « بالشدود » وهو المردقوش والخزامى المغربية. وإذا شعرت أم الطفل بمغص في بطنه تمضغ له لب عجو الدراقن وتعصر لفاظتها في فمه فيسكن مغصه وتدهن مراقه بالزيت وتذر عليه مسحوق ورق المرسين، ومتى بدأت أسنانه بالخروج تسلق له شيئاً من

(*) هذا الفصل لكامل الغزي أخذاً من كتابه نهر الذهب

الحنطة تدوفه بالسكر ولب الجوز واللوز والفستق وتطعمه منه وتفرق باقيه على الأهل والجيران .

متى بلغ الطفل الخامسة من عمره يرسل إلى المكتب أو إلى الشيخة أو المعلمة إذا كان جارية ومتى ختم تعلم القرآن العظيم تعمل له حفلة تسمى « نشيدة » يحضر فيها إلى منزل الغلام جماعة الشداة والمطربين ودراويش الطريقة المولوية وبعد أن تقام نوبة سماح يطاف بالغلام ورفقائه بعض شوارع البلدة وهم ينشدون أزجالاً في المدائح النبوية ماشياً وراء الغلام حامل المبخرة ورجل آخر ينثر الشعير على رؤوس الناس دفعاً لإصابة عيون العُيُن ثم يعود هذا الموكب إلى منزل الغلام وتبسط له الموائد فيأكل وينصرف ويملأ جيب كل ولد فستقاً وزبيباً مضافاً إليهما شيء من النقود. وقد يختن الولد في هذا اليوم إذا لم يكن ختن من قبل. واعتاد كثير من الناس ختن أولادهم في اليوم السابع من ولادتهم كما اعتادوا ثقب شحمة أذن الأنثى فيه. وقد يفرد لختان الغلام حفلة يدعى إليها الأحباب والأصحاب ويولم لهم ثم يزين الغلام بالحلي والحلل ويركب على برذون مزين ويركب وراءه رديف يقال له العريف، ويطاف به في الشوارع يتقدمه أحد مشايخ الطرق راكباً على برذون مجلل بسجادة الإرشاد مكللاً رأسه بطيلسان أحمر في يده عقافة يشير بها إلى جماعته وهم سائرون أمامه يحملون أعلام طريقتهم ويضربون طبولهم، وبعد أن ينتهوا من تطوافهم يعودون إلى منزل الغلام وتتلى قصة المولد النبوي وفي ختامها يختن الولد. وقد يرافق هذا الموكب طائفة من الدارعين ولابسي الجواشن والخوذ في أيديهم السيوف والتراس يقفون في فسحات الطرق ويلعبون بعضهم مع بعض بسيوفهم وقد سار وراء جموعهم رجل يقود جملاً على ظهره منصة مهندمة يقوم رجل يرتدي كسوة نساء عرب البادية يقال له « عبلة » قد أمسك بيديه صنوجاً يرقص بها حتى يصل إلى دار المختون وهذا الموكب يسمى « عراضة » .

للغلام في أول يوم يصومه من رمضان طبق يملأ بأنواع الحلوى يفطر عليه. وإذا بلغ الغلام مبلغ الرجال وتاق للزواج تأخذ أمه وذوات قرابته يلتمسن له زوجة تنطبق أوصافها على أذواقهن. والأغنياء يغالون بالمهور

وربما بلغت جملة المهر ألف ذهب عثماني وزيادة، والمهر عند الفقراء لاحد لأقله والمعجل منه ثلثاه والمؤجل الثلث الباقي. والزوجة الغنية تضيف إلى المهر من مال أبيها قدره وربما زادت وتصرف الجميع على شراء أثاث المنزل . وعقد الزواج يكون في بيت الزوجة باحتفال فائق يحضره المطربون ويطاف على الحاضرين بكؤوس المرطبات وأنواع الحلوى المجففة. وبعد أن يتم العقد بأيام ينقل الجهاز الذي أعدته الزوجة إلى بيت الزوج بموكب حافل يتقدمه جماعة الحمالين ولاعبو السيوف والعصي ، وشداة الأزجال، ويسبق ليلة القران ليالٍ يسمونها « التعاليل » يحضر فيها المطربون والموسيقيون وتحرق الألعاب النارية ، وقبل ليلة القران بليلتين يدعو أهل الزوجة أقاربهن ويفرق عليهن الحناء ونقوشها فينلن منها على أيديهن ما تناله منها العروس على يديها ورجليها ومعصميها وتعرف تلك الليلة بليلة النقش. ثم في صبيحة اليوم الذي يكون القران في مسائه تقام وليمة العرس وتكون الدعوى إليها جفلى يجلس على سماطها من أحب. وفي هذا اليوم يأخذ أهل الزوج الزوجة من بيت أهلها فيركبن العربات المزدانة ويأتين بها إلى بيت زوجها وكن قبل ظهور العربات يأتين بها إلى بيت زوجها ماشيات على أقدامهن يزغردن ولا يمررن بها على باب حمام زعماً بأن جنه يخطفها. وأصل هذا ما كان يفعله الانكشارية من اختطاف العرائس اللواتي يمررن على حمامهن فكانوا لا يطلقون سراح العروس إلا بعد أن يأخذوا شيئاً من حليها أو نقوداً من زوجها .

في مساء هذا اليوم يأخذ الزوج زينته في منزل أحد أصدقائه ويحضر إلى منزله بموكب حافل من المطربين والموسيقيين وهو يسير الهوينى بين شابين يشبهانه يقال لهما سخاديج واحدهما سخدوج. قد حملت أمامه مصابيح ضخمة على عتلات في مقدمتهم شداة يترنمون بمواليات كلما أتم أحدهم مواليه يهتف الجمع بقولهم: « الله يساور جوز جوز جيز » تحريف « الله يصور الزوج زوج جهاز ». وقد تقدم صف الزوج صفوف المطربين وأصحاب الأزجال الحماسية وحملة المشاعل ومحرقو الألعاب النارية والمدرعون واللاعبون بالسيوف ألعاب الفروسية إلى أن يصل هذا الموكب منزل الزوج فيدخله وتتلقاه عرسه ويضع يدها في يده أقرب إنسان إليه ويدخلان الغرفة المعدة لهما

ويفتح على رأسيهما طيلسان ورديّ اللون. وفي صبيحة تلك الليلة يدخل الزوج الحمام ومعه الجم الغفير من الخلان والإخوان، وبعد خروجه منه يعمل له أصدقاؤه الولائم على عدة أيام وهي المسماة بالصبحيات. وفي اليوم الخامس عشر يولم الزوج لأهل زوجته وليمة شيقة تسمى عزيمة الخامس عشر .

ومما يستغرب من عادات بعض الأهلين من قطان أطراف حلب أنهم يفرشون ليلة القران في غرفة العروسين قطيفةً يجعلون رؤوس ما التوى من ريشها إلى جهة صدر الغرفة، فإذا وجد الزوج الوردة زراً غير باسم الثغر حول القطيفة أي جعل رؤوس ما التوى من ريشها إلى جهة عتبة البيت وإلا أبقاها على حالها، وفي الغد يقوم الحصام سراً فإذا لم يقع التراضي بين الطرفين فإنهما يعلنان القضية وتعلو الضوضاء وتشتد الضجة ويفتضح الحال .

ومما يستعمله الحلبيون المسلمون في أتراحهم من العادات هو أن بعض سكان أطراف البلدة يُحضر حين وفاة رجالهم الأعزاء عليهم – نائحات بدويات ينثّرن على رؤوسهن الحناء ويشددن في أوساطهن المآزر ويخدشن خدودهن ويسودن وجوههن بسخام القدر، وحين خروج النعش من الدار يضربن جبهة بابها بإناء خزفي زاعمة أن هذا العمل يمنع من أن يلحق بالميت غيره من أهله، ونعش الميت يسيرون به وهم يجهرون بكلمة التوحيد، وقد يكون في مقدمته من يؤذن أذان الجوق وينشد بعض المدائح النبوية، وقد يمشي أمام النعش جماعة الدراويش المولوية. وإذا كان الميت من مشايخ الطريق يتقدم جماعته ويحملون نعشه ويتجاذبونه ويتماسكون به كأنه يحاول الطيران وهم يمنعونه عنه وينادونه باسمه ويضرعون إليه بأن يعدل عن الطيران. وحملة أعلام الطريقة يفعلون بأعلامهم فعل حملة النعش به فيركضون بها إيهاماً بأنها تجرهم وتحاول أن تطير بهم إلى غير ذلك من الحركات التي ينكرها الشرع. إذا وصل النعش إلى القبر حطوه إلى الأرض وأخرجوا الميت منه ولحدوه، ومن الناس من يودع في نقرة من جدار القبر قنينة فيها شيء من زيت الزيتون قصد تعتيقه لينتفع به بعد من يكون مصاباً بالريح فيطلي منه بدنه فيبرأ .

في الليالي الثلاث الأولى من الوفاة يجتمع في مسجد الحي بين العشائين

نفر من الرجال والأطفال يكررون كلمة التوحيد وفي أيديهم سبحة كبيرة ينتظم في سلكها خمسمائة حبة كل حبة منها في حجم الجوزة. فإذا دارت دوراً سكتوا وتلا إمام المسجد شيئاً من القرآن. ثم تدور دوراً آخر في ختامه ينتهي الذكر ويفرق على الحاضرين الحلوى المعروفة بالغريبة. في صباح اليوم الثالث من الوفاة يجتمع الجم الغفير على القبر وتمد البسط على أطرافه وتوضع عليه قمام ماء الورد وتنثر فوقه الزهور ويفرق على الحاضرين أجزاء الربعات وبعد الانتهاء من قراءتها يصطف الناس حلقة ويذكرون الله تعالى ويفرق على الفقراء شيءٌ من النقود ويعزي الناس أهل الميت وهم في المقبرة. وهذا اليوم يسمى الثالث وفيه وفي كل من اليوم السابع واليوم الأربعين واليوم المتمم للسنة من الوفاة يدعى جماعة من القراء إلى بيت الميت يتلون القرآن العظيم في نهارهم، وفي المساء تبسط الموائد ويفتح باب الدار للفقراء فيأكلون ويزودون .

ومما اعتاده الحلبيون في أول يوم من المحرم أن يكون فطورهم من طعام حلو، وأن يخرج جماعة من العجزة يتصدق عليهم الناس بشيء من البرغل يقال لهم « فاز من صلى » سموا بلازمة زجل ينشدونه على الأبواب وهو « فاز من صلى على تاج العلى طه النبي المصطفى جد الحسين » وبعض الناس يسمونهم الحسينية. وهذه العادة موروثة عن الطوائف العلوية التي كانت تقطن حلب. وفي يوم عاشوراء يوسع الناس على عيالهم بالمطاعم ويطبخون طعام الحبوب الذي يشير إليه ابن منير الطرابلسي الشاعر بقوله :

« وسهرت في طبخ الحبو ب من العشاء إلى السحر »

وفي يوم عاشوراء كانت الحكومة قبل خراب مشهد الحسين تولم فيه وليمة حافلة يحضرها الوالي ومن دونه وينشد أحد المطربين قصيدة ابن معتوق في رثاء الحسين التي مطلعها « هلّ المحرم فاستهل مكبرا ». وتعطل الحكومة أيضاً في آخر أربعاء من صفر وفي اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول وتحتفل بتلاوة قصة المولد النبوي في الجامع الكبير، ويستمر الناس على تلاوة هذه القصة ليلاً ونهاراً إلى آخر هذا الشهر، ويولمون من أجلها الولائم العظيمة. وتعطل أيضاً في اليوم السابع والعشرين من رجب وتحتفل بقراءة قصة المعراج

في المشهد المذكور. ويجتمع الناس ليلة النصف من شعبان في المساجد بين العشائين ويقرأون سورة يس ثلاث مرات ويلقنهم الإمام دعاء ليلة النصف المذكور في كتاب نزهة المجالس وغيرها من الكتب، وتهجر المعاصي في شهر رمضان ويكثر ترداد الناس على الجوامع والمساجد ويقبلون على تلاوة القرآن ومنهم من يقصد المقاهي ليلاً للتفرج على المشعوذين والمتصارعين. ويخرج قرب السحر طبال يوقظ الناس للسحور ويعقبه شداة المدائح النبوية في منارات الجوامع. وبعد صلاة العيد يخرج الناس إلى المقابر لزيارة موتاهم، وكان يخرج قبل العيد بيومين رجل سُخْرة معه حمار مدرع بالودع والخرز والأجراس يستجدي الناس بالرقص ويضحكهم بحركات حماره يقال له جحش العيد. وكان يخرج في أيام العيد ولدان قد صبغوا أجسامهم بالسواد وعلى رؤوسهم الطراطير يستدرون إحسان الناس بالرقص والقفز ويقال لهم «بيضه بيضه»، وبعد انتهاء العيد يأخذ رواد الحجاز أهبتهم ويسافرون لأداء فريضة الحج ويحتفل أحبابهم بوداعهم. وفي عيد النحر يقبل الناس على الضحايا. وفي تاسع آذار الرومي الشرقي يخرجون صباحاً إلى ضاحية البلدة لاستنشاق نسيم الصبا التي تهب في ذلك الوقت كما يزعمه بعض المنجمين. ويكثر خروج الناس في أوائل أيام الربيع إلى جبل الجوشن وما قرب منه فإذا نور الشجر وأورق يترددون على البساتين. وفي شهر نيسان يحتكرون مؤوناتهم من السمن والجبن والفحم. وكان النساء في يومي أربعاء الزوبعة وخميس البيض (ويكونان قبل يوم الأحد وهو أول يوم من عيد الفصح) يخرجن إلى البساتين ويمضين فيها سحابة يومين ويفعلن مثل ذلك في يوم الاثنين الذي يلي عيد الفصح، ويزعمن أن من لم يخرج إلى النزهة في هذه الأيام لا يأمن الصداع ووجع الرأس، إلى غير ذلك من العادات التي بعضها مستحسن وبعضها مستهجن مما هو مذكور في كتاب نهر الذهب مسهباً مفصلاً.

وأما ما يستعمله النصارى الحلبيون من العادات في أفراحهم وأتراحهم فمنها أن مريد الزواج منهم يبدأ بتصفح وجوه النسوة في مجامع الناس وحين خروجهن من الصلاة فمتى أعجبته أنثى سعى بإعلامها أنه يرغب أن تكون له زوجة وهذه هي الخطبة الأولى. ثم يسعى بالخطبة الثانية وهي أن يرسل

أحد أوليائه مع كاهن طائفته إلى ولي مخطوبته فيعلماه أن موليهما يرغب أن تكون موليته زوجة له فإذا أجاب طلبهما وضع الكاهن يد أحدهما بيد الآخر علامة على الرضى المتبادل، وبعض الكهنة يسأل المخطوبة بقوله هل رضيت أن يكون فلان زوجاً لك فتطأطئ رأسها بالإيجاب وحينئذ يقدم لها قطعة من الحلي مرسلة من زوجها وبعد ذلك يشرع الخاطب بزيارة مخطوبته. وطالما نهى الكهنة عن كثرة هذه الزيارة فذهب نهيهم سدى. وبعد مدة يرسل الكاهن إلى أهل المخطوبة ليتفق معهم على ميعاد عقد الخطبة وليقدم هدية الخاطب إلى مخطوبته. وهذا العمل يسمى المشورة وقد ينكث أهل المخطوبة ويفسخ عقد الخطبة فيقيم الكاهن الحجة على أهل المخطوبة ويغرمهم ما أنفقه الخاطب في مدة الخطبة. أما إذا لم يفسخ عقد الخطبة فإن رقاع الدعوة ترسل بتوقيع الوليين إلى المدعوين لحضور حفلة الإكليل، فيقبل المدعوون إلى بيت الخاطب في اليوم المعين ثم يتوجهون إلى بيت المخطوبة فيضعون عليها خمارها وأزهارها وتكون جميع ثيابها بيضاء ويأتون بها في وقت العتمة إلى بيت خاطبها وهي تسير الهويني بين امرأتين على شاكلتها وأمامها المصابيح وجماعة الموسيقي. حتى إذا اقتربت من بيت خاطبها خف لاستقبالها فخاصرها ودخل بها إلى منزله وانتظم عقد المدعوين، ثم يقف العروسان بين يدي مطران الطائفة ومن معه من الكهنة وهم متحلون بملابسهم الكنائسية ويشرع المطران يترنم بآيات من الإنجيل مخصصة بعقد الزواج ويجري بين العروسين الإيجاب والقبول ويلقي عليهما النصائح ويأمرهما بالتحابب والطاعة أحدهما للآخر ويستغرق ذلك نحو ساعة من الزمن. وفي الختام يرفيهما هو والحاضرون ثم تعزف آلات الطرب وتدور أقداح الراح فيرقصون ويمرحون إلى الهزيع الأول من الليل، فيقدم للحاضرين سفرة « الدخلة » وهي قطع من لحم الدجاج الهندي والهضم المحمضة المعروفة بالمخللات والخبز الحواري وغير ذلك وبعد أن يتم الحاضرون أكلهم يعودون إلى السماع والطرب. ثم في منتصف الليل يقوم بعض الأدباء ويهنئ العروسين بقصيدة، وفي الصباح يقدم للحاضرين الفطور من معمولات اللوز الهندي « الشوكولاتة » مع بعض الحلاوي واللحوم المقددة ثم يتحلق الحاضرون حلقاً ويجلون العروسين بالرقص العربي والكردي ثم ينصرفون .

وفي هذه الصبيحة يهدي أحد أبوي الزوج إلى الزوجة قطعة من الحلي تسمى الصبحية وفي اليوم الرابع يحضر المدعوون إلى منزل الزوج لتهنئة العروسين، ثم في اليوم الثامن يزور العروسان أصحابهما فيحيون لهما ليلة طرب، ثم في اليوم الثاني عشر يولم الزوج إلى كهنة الطائفة وبعد شهر يطوف العروسان منازل الألى كانوا مدعوين ليلة القران ويردان إليهم الزيارة .

المهر يدفع من الزوجة إلى الزوج عكس ما هو معروف عند المسلمين ولا حد لأكثره إذا كانت الزوجة غنية والرغبة منها في الزوج فوق رغبته بها وهو يسمى « دوطه » وبعض الكتبة يترجمون هذه اللفظة بكلمة « بائنة » وإذا كانت رغبة الزوجين في الزواج متساوية فليس هناك دوطة إنما كل واحد من الزوجين يهدي الآخر قطعة من الحلي قيمتها تناسب ثروته .

بعد انتهاء هذه الحفلات يصرف بعض المتفرنجين شهراً من حياته بالتغيب عن منزله يسمونه شهر العسل يمضيه الزوجان في موضع نزه جميل يطلقان فيه حريتهما، كأن العروسين يمضيان هذا الشهر في وداع الحياة المطلقة المؤذنة بفراقها لحلول ذلك الضيف الثقيل بل القيد الأبدي الذي لا يحل وثاقه إلا بالموت: عادة أخذها الغربيون عن الأمم الوثنية القديمة كأنها رمز إلى سرعة انقضاء راحة الإنسان بالزواج وطول عنائه بعده، ذلك لأن الزوجين لا يلبث فرحهما بعد الاقتران سوى أيام قلائل حتى يدخلا في العريض الطويل من تكاليف الحياة وأوصابها التي لا تنفد إلا بنفاد العمر. فما أشبه الحياة وما فيها من الراحة والتعب بإناء مفعم من الصبر قد بسط على وجهه قليل من العسل، وكأن الإنسان لا يضطر إلى استعمال ما في هذا الإناء اضطراراً حقيقياً إلا بعد أن يتزوج فكأن مقدار ما يناله حينئذ من الراحة وما يعقبها من التعب كمقدار ما في ذلك الإناء من الصبر والعسل فلا يلعق من العسل غير القليل حتى ينفد ويظهر تحته الصبر، فيجرعه مكرهاً ضرورة عدم إمكان الحياة إلا به وهذا مصداق قول الناس في الزواج « فرح شهر وترح دهر » .

ومما يستعمله النصارى في أتراحهم أنه متى احتضر المريض يحضر إليه كاهنه ويستأديه واجباته الدينية، وبعد أن يقضي نحبه يتربصون بدفنه مدة أربع وعشرين ساعة يضعونه في خلالها في صندوق من الصفيح، وفي هذه البرهة

يرسلون رقاع الدعوة لحضور الاحتفال بالجنازة، ثم في الوقت المعين يضعون الصندوق في نعش مزدان بالأيقونات وأكاليل الزهر فيحمل إلى البيعة ليصلى عليه، ثم يحمل إلى المقبرة وأمامه صفوف الكهنة يترنمون بآيات من الإنجيل ووراءهم عظماء الطائفة وتلامذة المكاتب وحملة الصلبان والشموع، وقد اكتنف النعش أربعة من كبار الطائفة يمسكونه من أربع أطرافه بسفائف من الحرير الأسود، وحينما يصلون به إلى اللحد يضعه الحمالون عن كواهلهم ويتقدم أحد الأدباء فيرثيه نظماً أو نثراً ثم يوارونه في لحده، ويصطف أهل المتوفى للتعزية ويمر عليهم المشيعون لجنازته لتعزيتهم وفي مقدمتهم المطران ولفيف الكهنة. ولبعض الأسر الغنية ديماس تحت الأرض مختص بدفن موتاهم يقال له خشخاشة يودعون فيه النعش دون أن يهيلوا التراب عليه، وقد يكون هذا الديماس بناية تشبه البيت مبنية على وجه الأرض.

في اليوم الثالث من الوفاة يحتفل للمتوفى بصلاة في البيعة يسمونها جنازاً يسرجون فيها من المصابيح قدر ما يقع عليه الاتفاق من النقود بين أهل الميت وبين كهنة طائفته، وهذه الصلاة تعاد في اليوم التاسع وفي يوم الأربعين وفي نصف السنة وتمام السنة. وحداد الولد على أبويه ثلاث سنين والأخ على أخيه والزوجين أحدهما على الآخر والأبوين على ابنيهما سنتان.

ومما يستعمله اليهود الحلبيون من العادات في أفراحهم وأتراحهم أن يختنوا الطفل بعد يومين من ولادته، وإذا كان من سبط إسرائيل وكان بكر أبويه وجب على أبيه أن يفتديه من كاهن من سبط هرون يضع الطفل في حجره ويقول لأبيه: هذا المولود حق سبط الكهنة فيستوهبه أبوه منه بمقدار معلوم من الفضة. ومتى بلغ عمر الطفل سنة يأخذه أبواه كل سنة إلى وليمة قدوس أي زفاف يطعمانه من طعام (السيعوداه)، فإذا بلغ الثانية عشرة يؤمر بصيام ذلك اليوم، وإذا بلغ الثالثة عشرة يلبسونه «كنفوت» وهو صدرة تربط أطرافها الأربعة بفتائل من الغزل ويشد على رأسه وعضده الأيسر «تيفلين» وهو سير من الجلد يشتمل على الكلمات العشر والإصحاح الأول

من سفر الوصايا، وحينئذ يعتبر رجلاً متمماً صلاة الجماعة التي لا تتم إلا بعشرة رجال ويرث سهمين من تركة أبيه .

وإذا بلغ الثامنة عشرة وجب عليه الزواج فيباشر الخطبة ومتى انتقى مخطوبة يكتب بينهما قنيان أي عهد يسمونه شيطاراً يعينان فيه مقدار المهر المدفوع من الطرفين ويذكران ما اتفقا عليه من الشروط، ثم في اليوم المعين تنعقد جمعية يسمونها (كِتِبِيّة) فيها يكون تسلم الزوج الأمتعة والنقود التي تعهدت الزوجة بتقديمها إليه، وبعد ثلاثة أيام تكون حفلة الزفاف المعروفة باسم «قدوس» فيحضر المدعوون وتعزف آلات الطرب وتدار كؤوس ابنة العنب من وقت العصر إلى وقت الغروب، ثم يقوم رؤساء الدين ويجرون العقد بين العروسين ويقرأ أحدهم قداشين يقف الزوجان مدة قراءة الأول متقابلين ومدة قراءة الثاني متحاذيين، ويفتح على رأسيهما ملاءة من الصوف يسمونها «طليطة» أي طيلسان. وفي هذه الساعة يقدم الزوج إلى زوجته قطعة من الفضة فتأخذها منه ويشهد بذلك رجلان ليس لهما قرابة لأحد الطرفين، وحين تسلم الزوجة القطعة المذكورة من الزوج يخاطبها بقوله (هاري آت ميقديشت لي بي طباعت زكيدات موشي وإسرائيل) أي أنت مقدسة لي بهذه القطعة مثل دين موسى وإسرائيل. ثم يتقدم الحاخام الكبير وبيده كأس من الخمر فيبارك عليه بدعاء طويل باللغة العبرانية ويشرب منه جرعة ثم يدار على الحاضرين فيشرب من شفافته كل واحد منهم جرعة ثم يعاد إلى الحاخام فيرميه إلى الأرض فينكسر، وبعد ذلك يدخل الزوجان البيت المعد لخلوتهما فإذا التقى آدم مع حواء في تلك الليلة وجب عليه أن يمسك عنها مدة خمسة عشر يوماً، وأن ينطبل أي ينغمس في حوض خصوصي ، وعلى الزوج أن يدعو في ثاني يوم من زواجه عشرة من رؤساء الدين ويولم لهم، وعلى رئيسهم قبل الأكل أن يبارك على المائدة سبع مرات كما بارك على كأس الخمر يوم الزفاف .

ومما يستعملونه في أتراحهم أن المريض متى احتضر جلس عند رجليه رجلان يذكرانه بقولهما (شيماع إسرائيل أدوناي ايلو هينو أدوناي احاد) أي اسمع يا إسرائيل الديان إلهنا الديان واحد. فإذا قضى نحبه وضعوه على

« اللوحوت » أي المغتسل وغسلوه بالماء الفاتر وأدرجوه في ثوب من الكتان يعيبونه بالتقريض والحروق كيلا يطمع به نباشو القبور، ثم يضعون جثة الميت في « الأورت » أي النعش ويحضر أحد أقربائه ويقرأ عليه قداشاً أي يصلي عليه صلاة الميت، ثم يحمل النعش بين ثلاثة أشخاص وعلى كل من مرت به الجنازة أن يمشي معها أربعة أذرع أو أكثر ويطلب من الميت السماح، فإذا وصلوا بالنعش إلى الكنيسةقرأ عليه أحد أقربائه قديشاً آخر ثم يحملونه إلى مدفنه ويوارونه في ترابه ويقوم أحد الحاضرين ويبارك عليه بقوله: (باروخ ديان ها ايميت) أي تبارك من شرع الحق: ثم يقرأ ولده قديشاً ثالثاً ويعود هو ومن معه من الأقارب والأصحاب إلى بيت الميت، وفي أثناء الطريق يغسل كل واحد من الحاضرين يديه ويقول: (عينينو لو رأو ويادينو لو شافيخو بيدام هذه) أي عيوننا ما رأت وأيدينا ما سفكت هذا الدم. فإذا وصلوا إلى بيت الميت قام أحد الحاضرين إلى كل وارث له وخرق ثوبه من زيقه وهو يقول: (باروخ ديان هاايميت) ثم تحضر مائدة عليها أطعمة متنوعة يرسلها أحد الحاضرين فيأكل منها ورثة الميت على شرط أن يضع الطعام بأيديهم أحد الحاضرين ويبارك لهم بقوله: (باروخ ميناحيم ابيليم) أي تبارك الذي يسلي الحزين. وعلى ورثة الميت أن يلزموا منازلهم سبعة أيام لا يعلون فيها علاً مطلقاً ويسمونها « التآبيل » أي الحداد. وفي اليوم السابع يصنع طعام للفقراء وهكذا في اليوم الثلاثين وبمرور تسعة أشهر ومرور السنة اه .

عادات لبنان وأخلاقه :

كانت عادات لبنان إلى أواخر القرن الماضي ، قبل أن يبدأ أهله بالهجرة إلى أميركا، كعادات معظم جبال الشام، تغلب عليها السذاجة والفطرة السليمة ، وفي أهله مضاء ووفاء وإباء. يقل الكرم ويكثر الحرص في أهل القسم الشمالي منه وهم الموارنة والروم، وكان العكس في حال أهل القسم الجنوبي وهم الدروز والسنة والشيعة والنصارى الذين كانوا من أصول عربية، فإن أخلاقهم ظلت عربية بحتة، ولهم في باب الكرم وحفظ العهد فصول . وقد يكون الشماليون ألين عريكة وأقرب إلى السكون في الأحايين. والجنوبيون

أشد بأساً وأقوى شكيمة. ودخل تبدل كبير في العادات بانتشار المدارس الأجنبية في الجبل منذ نيف وستين سنة، واستبدلت العادات الإفرنجية ببعض العادات الوطنية إلا قليلاً. وحمل الذين عادوا من المهاجر بعض عادات من نزلوا عليهم، فأصبحت عادات الجبليين مزيجاً من الغربية والشرقية . ويكثر التقليد في سكان الشمال أكثر منه في سكان الجنوب. وهناك فروق ليست بقليلة بين سكان الجرود الشمالية والجنوبية .

كان اللبنانيون من أول من نفخ في ديارهم بوق الهجرة إلى أميركا، ولبوا دعوتها سراعاً قبل غيرهم من الشاميين، لأن حاصلات أرضهم قليلة لاتكفي لعولهم. وكانوا من قبل مولعين بمواطنهم،لا يحبون أن يتنقلوا ولو في أرجاء هذا القطر، وكان من يسافر من إحدى قرى الجبل إلى دمشق يضرب به المثل في بعد الهمة وكثرة الشجاعة. وكثيراً ما كانوا يتغنون بقولهم :

جوزك يا مليحة راح عالشام وحده

وكان أقصى ما يبلغه تصورهم من البعد «أنطاكية» شمالي الشام و «دنقلة» في السودان، ويقال إلى اليوم «أوصلك إلى دنقلة». وكان إذا نشط أحدهم للسفر إلى مصر أو الاستانة، يعد كمن وصل إلى المريخ، يقصدونه من القاصية ليسمعوا ما يقص عليهم من عجائب رحلته. فلما بدأوا بالهجرة وكثر عديدهم، واستسهلوا ركوب المخاطر في بلاد المهجر، ونجحوا وارتاشوا، تبدلت عقليتهم بعض الشيء، وهم كأكثر من يهاجرون في طلب الرزق يعتمدون على أنفسهم ومضائهم وتضامنهم، لا علَمَ يحميهم ولا دولة يهمها أمرهم. حملوا في جنوبهم عزماً وحزماً، وحملوا أيضاً روح التحزب والفرقة الذي امتازوا به لما نشأهم عليه رؤساؤهم. وكان المتعلمون منهم في هذه السبيل أشد مراساً من العوام. ولما كان العائدون من طبقة الفلاحين والعاملين إلى قراهم من ديار المهجر، أكثر من الراجعين من أصحاب المعامل والمزارع والتجارات ، وبعبارة ثانية أن عدد الراجعين الأميين كان أوفر من عدد الآيبين من المتعلمين والمغتنين – أصبح تسرب العادات الغربية لا يكاد يشعر به بين العامة على كثرتهم، وهو ظاهر محسوس بين الخاصة على قلتهم .

وقصارى ما يقال في هذا الباب أن أهل لبنان أخذوا مدنية الغرب من

مدارسه هنا وبالاختلاط بأهله وراء البحار بلا قيد ولا شرط، على حين كان غيرهم ولا يزالون يأخذونها ببعض الحذر والحيطة. ولبنان منذ عهد متطاول كانت علائقه بالغرب أكثر من غيره من أهل هذه الديار. والروح اللاتيني ترفرف عليه. يحمله إلى ربوعه الرهبان الموارنة من رومية وغيرهم من دعاة النصرانية والاستعمار. ولو مكنت طبيعة الجبل من إنشاء مدن كبرى فيه، لظهرت هذه الفروق على جليتها في أهله، كما تتجلى مثلاً في أهل المدن الداخلية .

لم يبرح الدروز يعدون في المحافظين على عاداتهم القديمة وأخلاقهم العربية من إباء ووفاء وحسن عشرة وكرم وحسن وفادة، يعظمون رؤساءهم ولو كانوا في سن صغيرة جداً. والدروز، ما خلا الطبقة المتمدنة منهم التي تلبس السراويل والمعاطف والسترات والأقمصة الإفرنجية على الأساليب الغربية، ما زال جمهورهم يلبس لباساً واحداً في جميع البلاد التي ينزلونها : عمائم بيضاء وقفاطين من الأقمشة الغليظة القطنية وأعبئة قصيرة مخططة وأحذية بلدية ساذجة. كأن لباسهم لم يتبدل منذ حلوا هذه الأرض، ونساؤهم محجبات قليلاً يسبلن على رؤوسهن شاشاً أبيض فإذا رأين غريباً أظهرن إحدى عينيهن فقط أي إن حجابهن الحجاب الشرعي .

كان أهل لبنان قبل حادثة سنة (١٨٦٠) يقسمون إلى خاصة وعامة، فالخاصة هم الأمراء والمقدمون والمشايخ. والمشايخ على ثلاث طبقات، مشايخ الإقطاع ، والمشايخ الذين يدلون إلى مشايخ الإقطاع بنسب، وكانوا يعرفون بمشايخ الطبق، ثم مشايخ الطبقة الثالثة. وتختلف مصطلحات هذه الطبقات باختلاف العصور، وكلامنا هذا يتناول الأخيرة منها التي ثبتت إلى ظهور الجبل بمظهر الاستقلال الداخلي بعد حادثة الستين. ولهم عادات راسخة في خطابهم وكتابهم ومجالسهم وأفراحهم وأتراحهم، أمست عندهم بمثابة القواعد العامة، وتختلف عن مجموع ما هو من نوعها في سائر الأقطار، والسرّ في ذلك أن لبنان مدين بظهوره بمظهر المنعزل المستقل منذ عهد المماليك والعثمانيين لأمراء كانوا يتولون جباية الجبل على سبيل الإقطاع مقابل مال يؤدونه، وهم ينصرفون إلى توظيف طبقات الناس، وتصنيف أهلها على

ما يرون. ومما أثبت هذه الأصول بين أشراف لبنان أن الأرستوقراطية فيهم كانت ثابتة لا تتحول عنهم لفقر أو غيره. ويغلب على الظن أنهم جمعوا في عاداتهم بين العادات العربية، وشيء من العادات الغربية اكتسبوها في مخالطتهم الصليبيين .

وفي الحق أن لبنان القديم وليد أمرائه من المعنيين والتنوخيين والشهابيين واللمعيين والأرسلانيين وآل علم الدين. وقد أقر هذه العادات المشايخ الجنبلاطية والعمادية والنكدية والتلاحقة والملكية وبنو العيد، وفي المسيحيين آل الخازن والدحداح والضاهر وحبيش وغيرهم. وأخذت تحتفظ كل طبقة بأصولها وعاداتها، لا يباح لأهل طبقة أن يتزوجوا من أهل طبقة أخرى، ولا أن يختلطوا بهم الاختلاط اللازم. وكان الجلال والوقار يغلبان على أهل كل طبقة. ويعدون من أسباب السقوط أن يسفّ ابن أسرة من أسر الأمراء أو المقدمين أو المشايخ فيصهر إلى غير أهل طبقته، ولذلك غلب ضعف الأجسام على بعض هذه الطبقات، وتأصلت فيها بالوراثة الأمراض العضالة لخروجهم عن الطبيعة في الزواج .

وكانت لهم عادات نشّأهم عليها حكامهم في السلام والجلوس والخطاب . وهم يغالون في الحرص على كرامتهم، ويعد أكبر أعيانهم من الشرف أن يكتب إليه الحاكم ويلقبه بالأخ العزيز ويوقع له بالمحب المخلص. ويكتب الأمير الى الطبقة الثانية من الشعب وهي طبقة المشايخ «عزيزنا» أو «أعز المحبين» أو «حضرة عزيزنا» أو «جناب» بدل «حضرة». وإذا كان طبق الورق صغيراً أو كبيراً، أو كان توقيع الحاكم في أسفل الكتابة أو في أعلاه فإن لكل ذلك معاني عندهم. والغالب أن القوم كانوا لقلة أشغالهم يتسلون بمثل هذه التافهات، ويضعون لها قواعد من عند أنفسهم، ويتنافسون في رضا الحاكم والوصول إلى مجلسه وتقبيل يده وثوبه، تأصل هذا الداء فيهم إلى العصر الأخير. فكان من كتب له هذا الشرف تناقل خبره أهل بيته خلفاً عن سلف وعدوه في مفاخرهم. وقد كثر فيهم حب الظهور حتى إن المرء ليبيع بستانه وداره ويبذل ماله لينال عملاً صغيراً في الحكومة أو ليكتسي الحرير هو وعياله ويتعاظم على أهل قريته. ومنهم من ابتعدوا

عن مواطن الشرف ليتزلفوا إلى من اعتقدوا أن في أيديهم إسعادهم. وكم من بيوت خربت بسبب هذا التمجد بالباطل والتقرب من أصحاب السلطان بفساد الأخلاق .

وكانوا إلى عهد قريب يقدمون الرجالَ على النساء في إعطاء القهوة أو الخمر ، يرفعون مقام الرجل فوق مقام المرأة، ولا يزال أثر ذلك ظاهراً في الطوائف الإسلامية. فلما اقتبسوا المدنية الحديثة أصبح الرجل عند المسيحيين لا شيء تقريباً في بيته، والحكم لامرأته تصرفه على هواها، خصوصاً إذا كانت أكثر تعلماً منه، أو كانت أسرتها أغنى من أسرته وجاءته ببائنة أو جهاز. وهذه الأخلاق ماثلة في بيروت وفي بعض الأقاليم المكتظة بالسكان . ويحترم الأولاد آباءهم كما كان ذلك في سائر أرجاء القطر، على صورة فيها التشدد الزائد، حتى إن الولد لا يكاد يجالس أباه ولا يقعد أمامه، ولا يؤاكله ولا يدخن أمامه ولا يرفع صوته، ولو تزوج وأولد، ولا سيما في البيوت التي احتفظت بتقاليدها. وكانت العادة أن لا يتفرق أهل البيت الواحد مهما كثر أفراده، يسكنون في دار واحدة ، وإذا كانت الأسرة فقيرة ففي غرفة واحدة. وكثيراً ما يخصون الولد الأكبر في الإرث بشيء من العقار أو الأرض أو المال، يؤثرونه به على إخوته، لاحتياجه إلى الظهور وحفظ كرامة البيت وقبول الضيفان، والغالب أنهم يحرمون الابنة أرث أبيها، لئلا تنتقل الثروة إلى أسرة أخرى، شأن كثيرين من المنحطين، بل شأن من يعدون أنفسهم في الراقين أيضاً .

كان اللبناني يتزوج في الثامنة عشرة أو العشرين من عمره ولا سيما في الطوائف الإسلامية، والمسيحيون قد يتأخرون إلى الثلاثين وبعضهم إلى الأربعين، وقد يخطف العروس عروسه في بعض الطبقات، إذا كانت من طبقة غير طبقته، وتظاهر أهلها بأنهم يأبون زواجه، أو لعداء بين أهل الخاطب والمخطوبة، أو لعدم الكفاءة في النسب أو المال، وكانوا يحبون كثرة النسل بخلاف ما نراهم اليوم بعد الهجرة، فإنهم أصبحوا على مثال الأمم التي تريد تقليل الذرية في البيت ما أمكن حتى لا يدخله الفقر. وكانوا يعدون كثرة العيال من اليسر والبركة، ويقلقون لمن يتأخر حملها من نسائهم، ويشرعون

بمداواتها أو وضع التعاويذ المصطلح عليها بينهم، وينذرون النذور إن رزقت ولداً، يقدمونها إلى قديسيهم وأوليائهم. ولهم كغيرهم خرافات كثيرة منها تخويف الأولاد في صغرهم بخيالات، فينشأ الولد عند بعض المسيحيين جباناً، والدروز يلقنون أولادهم الشجاعة والفروسية فيأتون شجعاناً أقوياء. ولذلك كان الدروز منذ القديم في هذا الجبل على قلة عددهم يخاف جيرانهم بأسهم. وقد زاد هذا الجبن كثيراً بعد انتشار التعليم ومعرفة قدر الحياة، فأصبح يجبن من لم يكن يجبن، ونزعت الأخلاق الحربية إلا من الدروز، وأصبح القوم يؤثرون الراحة ويتطلبونها حيثما وجدوها، ويزهدون في سكنى جبالهم على كثرة غرامهم بها، وتمجيدهم لهوائها ومائها ومناظرها وهنائها. وربما كان أهل لبنان من أكثر الشاميين اقتداراً على الإعلان عن أرضهم، والإعجاب بجبلهم، والتبجح بثروتهم وأثاث بيوتهم، وتمجيد رؤسائهم وعلمائهم وأدبائهم. وهذا مما ساعد على إعمار الجبل بما جلبه المهاجر اللبناني من المال إلى أرضه، وسمت الهمم بأهله أن يعمروه هذا العمران الواسع بالنسبة إلى البقاع الأخرى، لولا ذلك لكان كسائر جبال الشام انحطاطاً وفاقة.

تسربت العادات الغربية إلى لبنان أكثر من غيره، فبعد أن كان اللبناني يأكل وأهله وضيوفه على سفرة في الأرض أو على خشبة مستديرة من صحفة واحدة، بأدوات منها الخزف ومنها ملاعق من الخشب من صنع أرضه، أصبح يجلس إلى خوان وأمامه صحاف وملاعق وشوكات وسكاكين ومائدته مغطاة بثوب أبيض، وعلى يده منديل الغمر أبيض، وألوان الطعام تأتيه أرسالاً. وأكثر هذا محسوس الأثر بين المسيحيين ولا سيما سكان الساحل. وقد بلغ ببعضهم حب التقليد أن أصبحوا لا يكتفون بخمر أرضهم، ويتغالى بعض أغنيائهم المترفين فيجلب خمور الغرب يسقيها ضيوفه على مائدته. وغدا لا يطيب له الزجل والمواليا والمعنّى والقراديات والغناء العربي والقصائد العربية، وكانت تنبسط أرواح أجداده إلى سماعها، بل يحاول أن يسمع النغمات الإفرنجية لأنها أجمل وهو «تفرنج» و«تأورب» ويحب أن يقطع صلاته مع آبائه.

وهكذا يقال في الرقص والألعاب كلها فإنها أصبحت بين طبقات المتعلمين إفرنجية محضة في بيروت وفنادق لبنان الكبرى. وقد ولع بعض النساء في البيوت الراقية على الطراز الحديث بالرقص والمخاصرة والمقامرة ولا سيما في بيروت، ولوعاً لا تكاد تجد له مثيلاً فيما بلغنا وعرفناه من أخبار الأقطار الغربية. فقد ترى المرأة البيروتية ولا سيما من المسيحيات ترقص من الهزيع الأول من الليل إلى الساعة الثالثة والرابعة صباحاً. وترى السيدة المتقدمة في السن منهن تجلس إلى منضدة القمار تقضي الساعات الطويلة، وقد يكون بناتها الفتيات واقفات ينتظرنها ليذهبن إلى النوم وهي مستغرقة. وكثير عدد النساء اللاتي فقدن صحتهن وشرفهن لشدة ولوعهن بالقمار والرقص، وإذا رأيت أزياءهن، حسبتهن أوربيات وزيادة، أفرطن في التقليد، وغرتهن الظواهر من مدنية الغرب فاجتزأن بها، وكانت المرأة المسيحية في جنوبي لبنان في القرن الماضي تتحجب وتتجافى عن غشيان مجالس الرجال من غير محارمها.

وفي أندية بيروت في الشتاء والفنادق الكبرى في الجبل مدة الصيف، نموذج من الحياة البيروتية التي أصبحت مزيجاً غريباً من الأخلاق والعادات، يبدو فيها التكلف والتصنع، ويفقد منها الروح العربي، وليس المسلمون فيها على مستوى جيرانهم في النهوض الاجتماعي حتى ترسم لهم الآن صورة بعينهم. وقد أخذت بعض البيوت التي أخذت المدنية الحديثة لا تتكلم في بيوتها أو مجالسها واجتماعاتها إلا بالفرنسية وقليل منها بالإنكليزية، أو يمزجون لغتهم الأصلية باللغة التي تعلموا بعضها في المدارس، وأصبحت معظم عادات السكان إفرنجية مقتبسة منقولة لا أصلية أصيلة.

وأنت إذا دخلت اليوم دار لبناني متعلم ممن كتب له السفر كثيراً، ورأيت العادات القديمة محفوظة يأخذك العجب، لأن اللبناني يحاول أن يقلد، ولطالما عولج في هذه السبيل حتى تنزع منه عاداته وتقاليده، ويلحق بالإفرنج في مناحيه ومنازعه. ومن أبشع ضروب التقليد أنه أخذ بعد أن تعلم بعضهم في المدارس تعليماً ناقصاً أبتر يستعمل في سلامه وحديثه بعض ألفاظ إفرنجية، تساوى في ذلك البحري الجاهل والتاجر المتمول، فصارت أحاديثهم مزيجاً

من العربية والإفرنجية كعاداتهم وأخلاقهم. وأثبت ابن هذا الصقع أنه ما استطاع أن يتخلى عن القديم برمته، ولا استعد لأن يقتبس الجميل من الجديد بجملته.

واللبناني أكثر من غيره من سكان هذا القطر اقتصاداً وتؤدة، ومعرفة بأساليب الحياة، وبعدَ همم، وشدة حذر. وهو نظيف لا كابن الجبال الأخرى، وفي مسكنه وزراعته وصنائعه شيء من النظام. وقد تبيت في بيت الفقير منهم في إحدى المزارع الحقيرة، ولا تستنكف من مؤاكلته، ولا تأنف من النوم في فراشه، والجلوس على مقاعده، والاتكاء إلى وسادته. فالزعامة الزمنية من قبلُ عند غير المسيحيين، والرياسة الدينية عند المسيحيين، كانتا بين اللبنانيين على أتمهما لسهولة تسلط الزعيم أو الرئيس الروحي على رعاياه، لضيق الرقعة التي يمتد عليها نفوذه. وقد استفاد ابن الجبل من هذه الزعامة ترتيباً ونظاماً على الجملة، وولد فيه حب التضامن والصدق بما يلقنه إياه الشيخ أو الكاهن، وربُط الناس بقيود يصعب التفلت منها بعض الصعوبة وهذا أقرب إلى النفع من فوضى تضرب أطنابها بين سكان الجبال الأخرى، وجهالة ممتدة الرواق على الكبار والصغار لا تدري متى ينقشع ظلامها. وقد اضطر السكان أن يقلد بعضهم بعضاً في باب الأخذ بأسباب الترقي والتعليم. وكان للموارنة التقدم ثم لمن يليهم من الروم والكاثوليك، ثم يأتي الدروز فالسنة فالشيعة.

فقدت عادات ليست بقليلة من الجبل ومما فقد أو كاد لباس الفلاحين وهي العمائم والسراويل والعباءات،ولا سيما من القرى التي هي مصطاف البيروتيين والطرابلسيين والمصريين، ولباس جمهور عظيم منهم الآن هو اللباس الغربي، والقبعة الإفرنجية شائعة الاستعمال في النساء والرجال، ولا سيما عند من تعلموا التعليم الغربي في مدارس التبشير في بيروت وما إليها من القرى والمدن. والقبعة اليوم تهزم الطربوش والعمامة والكوفية والعقال أمامها، كما تنهزم المدنية الشرقية أمام المدنية الغربية طوعاً أو كرهاً، وربما كان لحالة لبنان السياسية مؤخراً دخل كبير في هذا التمثل السريع. والمغلوب أبداً مولع بشعار الغالب. وكل ما قام به اللبناني من اقتباس التمدن قبل هذا العهد كان مقدمة إلى هذه النتيجة. ولولا أن الهجرة نخرت عظام اللبنانيين،

وتغلغل حبها في شغاف قلوبهم، لكان الخطر كبيراً من هذه السرعة في اقتباس عادات ليست عاداتهم، وأخلاق قلما تلائم أخلاقهم، في أرض هي مفتاح باب البحار. وكأنا بلبنان إذا ظلّ غرام أهله بالرحيل عنه على هذه الصورة طلبَ الغنى، يوشك أن يفرغ من سكانه، وسكانه يتعلمون لا ليكونوا فلاحين وصناعاً بل تجاراً ومستخدمين. وقد أولعوا بتقليد الأمم العظيمة الغنية في عامة مناحيهم وهم لا ثروة ثابتة لهم، وفي ذلك ما يخشى عليهم من عواقبه، ومن أظهر شؤمه على مجتمعهم ما نسمع به اليوم بعد الآخر من كثرة الاختلاس والاحتيال في دواوين حكومتهم وبيوت تجارتهم بحيث كادت ترتفع ثقة الغرب منهم، ذلك لأن الصعلوك فيهم يحاول أن يعيش عيش أرباب الطبقة الوسطى، ، هؤلاء لا يقنعهم إلا أن يدانوا الطبقات العليا، وتقليد أوربا أوقعهم في شر أمورهم، وفاتهم أن الأمة لا تفلح إلا باقتباس الجديد، والاحتفاظ بالقديم المفيد، وأن كل شعب يحاول أن يرتجل عاداته، ويصطنع أخلاقه، يندغم في غيره، ويذوب في بوتقة من يريدهم ولا يريدهم .

العادات في الأرجاء الأخرى :

تتخالف العادات في القرى وتتقارب، بحسب قربها وبعدها عن الحواضر على الأغلب، وبحسب أصول سكانها، فإذا كانوا من أصول عربية تجلت فيهم عادات البادية كأهل حوران مثلاً فإنهم على قربهم من دمشق قد رسخت فيهم العادات البدوية، كأهل الحواضر والبوادي من سكان أقصى الجنوب . ذلك لأن العرب تسربوا إلى الشام أولاً من الجنوب قبل الإسلام بقرون، وما زالت موجات الهجرة تأتيها من تلك الأصقاع. وبينا تجد أهل غوطة دمشق كأهل الحاضرة في مناحيهم كما يقول الرحالة ابن بطوطة، ترى أهل المرج مرج دمشق، وما هم من الغوطة ببعيد، كأهل حوران، في عاداتهم ولباسهم وطراز معيشتهم. تتمثل فيهم عيش البداوة، وهم فلاحون مقيمون على الحرث والكرث وماشيتهم قليلة. وعادات المسيحيين في حوران وجبل الدروز ومادبا والكرك كعادات المسلمين السنة والدروز، والتعديل القليل يدخل على عادات المسيحيين لأنهم أسرع إلى التعليم من الأكثرية و ن كانت

الأقليات في الغالب تفنى في الأكثريات. بيد أن الحال كانت على ذلك قبل الانتباه الأخير في الأقلية. مثال ذلك أن النساء المسيحيات في نابلس وحماة يحتجبن كالمسلمات مراعاة لعادات الأكثرية .

ولباس أهل بلاد غزة والخليل ونابلس كلباس أهل حوران، كوفية وعقال وعباءة وقفطان. وكذلك أهل بر حماة وحمص والمعرة وما إليها مما هو في سمت الشمال من الأصقاع . وسكان قرى حلب القريبة، كسكان قرى دمشق يلبسون العمائم. وهذه لا تلبث أن تزول بالطربوش، لأن المتعلمين من أبناء القرى يؤثرون لباس الطربوش على العمامة أو الكوفية. دع أهل المدن فقد قلت العمائم فيها. ولذلك يصح أن يقال: إن القبعة تهزم الطربوش من الساحل، والطربوش يهزم العمامة في الوسط، والعمامة تهزم الكوفية والعقال من سائر أطراف القطر النائية. وهكذا لا ترى وحدة في اللباس في أية ناحية من أنحاء الشام اجتزت بها. وقد يظن الغربيّ الذي اعتادت عيونه رؤية التوحيد في الملابس، إذا مرّ بإحدى الحواضر عندنا، أنه في قاعة تمثيل هزلي، تعرض فيها صور من البشر غريبة في حركاتها وألبستها .

جاء في « دواني القطوف » أن عادات الحورانيين في أعراسهم وولاداتهم ومآتمهم شبيهة بعوائد سورية القديمة ممتزجة ببعض عادات العرب، مثل دفع الخاطب لوالد عروسه نقدها في القديم عشرة آلاف غرش فخفض إلى ستة آلاف ثم إلى ألفي غرش فقط لعهدنا هذا عند المسيحيين. وعندهم الألطاف (النقوط) ورشق العروس عند مرورها في البلد بالعنصل (بصل الفار) . وفي المآتم يحملون الطعام إلى بيت الميت. ومدة النوح سبعة أيام كاملة. ومن العار عندهم بكاء الرجال إلى غير ذلك. وأهم ملابس الرجال القمصان الطويلة البيضاء المرسلة الأردان، والغنباز من نسيج الديما القطنية أو الحريرية، وسلطة (قنطيشة) واسعة الكمين قصيرة، من الجوخ الأزرق، مطرزة بالحرير الأحمر الناتئ، والفقراء يتخذونها من الخام الأزرق بلا طراز. وعلى رؤوسهم الكوفية والعقال. وفي أرجلهم المداس و« الجزمة » (الحذاء) أما ملابس النساء فقميص أزرق ملون التطريز، واسع الأردان والأكمام، وفوقه « سلطة » أكبر مما يلبسه الرجال إما من الخام أو الجوخ. وعلى رؤوسهن

« شنبر » أسود حريري. فالمتزوجات يتلفعن به ويربطنه من الوراء. والعزبات يعصبن رؤوسهن فوق المنديل. ويلبسن (البوابيج) الصفراء والجزمات القصيرة، ويتخذن زناراً من الفضة (حياصة) قيمته أكثر من ألف غرش، وله ذوائب مسترسلة، وفي معاصمهن أساور فضية ضخمة، وفي أرجلهن خلاخيل فضية، وفي آذانهن تراكي ذهب (حلق مستدير)، وعلى رؤوسهن عصابة من قماش مرصوفة بنقود ذهبية تعرف بالشكة، وفي أصابعهن خواتم فضية. ويستعملون جميعهم نساءً ورجالاً الوشم إلى غير ذلك مما يختلف باختلاف حالتهم اهـ .

وعادات السكان في القرى تتشابه وكذلك ألبستهم، وكلما بعدوا عما يقال له التمدن تمازجوا وتضامنوا، فما يزال المسلمون في بعض قرى وادي بردى إذا كان عند جارهم المسيحي فرح أو ترح يأتي المسلمون يخدمون ضيوفه، ويقدمون له الهدايا ليبيضوا وجهه أمام الواردين عليه وبالعكس. وهذا من أجمل العادات في التضامن بين أهل البلد الواحد. وعادات المسلمين في الساحل والداخل متشاكلة، وكلها مقتبس من عادات أهل دمشق. فدير الزور وحلب وحماة وحمص والمعرة وأنطاكية واللاذقية وطرابلس وبعلبك وبيروت وصيدا وصور وصفد والنبطية والصلت ونابلس وعكا وحيفا ويافا والقدس والخليل وغزة، وبالجملة فكل بلد فيه كتلة إسلامية أو مسيحية من السكان لا تجد عاداته إلا دمشقية، وأهله يقتبسون من دمشق إلى اليوم ما يروقهم من عاداتها، ومدينة دمشق محبوبة تهفو إليها نفوس الشاميين عامة، وأهلها محبوبون للرقة التي فطروا عليها، ولأنهم يعطفون كثيراً على الغريب، وربما أغرقوا في عطفهم وآثروه على ابن حيهم، وكل من دخلها ولا سيما من سكان القطر متى خرج منها اكتأب ودعا لها بالعمار ولو خسر فيها جزءاً من ماله. قال القزويني: « وأهل دمشق أحسن الناس خَلقاً وخُلقاً وزياً وأميلهم إلى اللهو واللعب ولهم في كل يوم سبت الاشتغال باللهو واللعب. » ووصف اجتماعهم هذا الذي يدعى اليوم سبتية أي يوم يسبتون وما يجري فيه من المساخر والصراع والغناء والألعاب بما لا يخرج الآن عما كان منذ نحو ألف سنة. والغالب أن السبتية من عادات اليهود سكان البلاد الأصليين كما

أن إضراب بعض المشايخ عن القراءة أيام الثلاثاء، من عادات الصابئة لأن يوم البطالة عند الصابئة يوم الثلاثاء. ومع هذا فقد مُدح الدمشقيون منذ القديم كثيراً وهجوا كثيراً. ولعل المادح والقادح لا يخلوان من مبالغة.

ومن يتزوج من أهل هذا القطر بامرأة دمشقية يحسب نفسه سعيداً، فالدمشقيات يتغربن كثيراً، وما برحت دمشق تضم إليها الغرباء من أهل الكور الأخرى وتتمثلهم وتعيضها عمن يدخل إليها من الرجال بعضَ نسائها، يدخلن فيها عادات العاصمة الأموية، ويمزجن أهل الوطن الواحد من طريق الأسر والبيوت. والبدو والحضر من جميع النحل يؤثرون البنين على البنات، وكلهم يلدون كثيراً، ويعيش الأطفال في المدن أكثر من القرى، للعناية بصحتهم ووجود الأطباء والقوابل. ولولا أن البدوي يولد له كل سنة لانقرض نسله لكثرة الغزو والذبح في الدهر السالف.

وجميع نساء القرى من المسلمات في الشام سافرات يعملن مع الرجال في الحقول والمراعي على صيانة لا تبذل فيها، ما خلا بعض القرى القريبة من الحواضر فإن عادة الحجاب سرت إليهن، فيلبسن ملاءات من حَبَر أسود أو أزرق على الأغلب. وفي بعض المدن ملاءات ملونة بأصفر وأحمر معاً أو بأبيض فقط. ولكن نساء دمشق خاصةً اخترن زياً من الملاءات ومناديل الوجه، اقتبسنها عن نساء الاستانة أيام كان الحجاب شائعاً في نساء الترك. فلما كشف الحجاب في تركيا في العهد الأخير وأصبح زيهن كزي الغربيات، قبعات على الرؤوس وأثواب قصيرة خفيفة. وزال الحجاب أو كاد عند نساء مصر بالطبيعة لتغلب المدنية عليهن، بقي نساء حواضر الشام كبيروت ودمشق وحلب وطرابلس حائرات يطمح بعضهن إلى تقليد التركيات والمصريات. ولكن شدة المسيطرين من الرجال، اضطرتهن إلى الوقوف الآن عند حد حجابهن القديم، فيظهرن في الشوارع في حبرات سوداء مسدولة إلى أعقابهن ومناديل سود مسبلة على وجوههن، وقد تكون في المتبرجات شفافة جميلة لا تكاد تحجب الوجوه بل تزينها وتدعو الناظرين إلى إرسال الطرف إليهن.

ومنذ هاجر الجركس من القافقاس بعد الحرب الروسية التركية سنة (١٢٩٤) إلى الشام وأسكنتهم الدولة العثمانية في بعض قرى منبج وحمص

وسلمية ودمشق وعمان وجرش والقنيطرة، أدخلوا إلى الشام بعض عاداتهم في تربية المواشي والفلاحة والصناعات الزراعية. ويغلب على الجراكسة الإمساك والتضامن لأنهم في حاجة إليه لدفع عادية البوادي عنهم، ويغلب التدين على شيوخهم والشجاعة على شبانهم. وإذا أراد الشاب منهم أن يخطب فتاة خطفها من بيت أبيها مهما كانت منزلتها ومنزلته. ونساؤهم يظللن سافرات ما دمن أبكاراً وعانسات، حتى إذا تزوجن عمدن إلى الحجاب وابتعدن عن مجالس الرجال. والفتيات يختلطن بالفتيان ويغنين ويرقصن معاً ويتسامرون ويتحدثون من دون نكير. ويقل فيهم تعدد الزوجات، والمرأة الجركسية مثال المرأة الصالحة في تربية أولادها وإدارة شؤون بيتها .

وقد أخذ الصهيونيون في فلسطين يدخلون عاداتهم منذ كثر سوادهم فيها، ولكن من الصعب أن يقتبسها السكان الأصليون لأنهم ينظرون إليهم نظر أعداء، وإن كان في عاداتهم الجميل جداً كحب النظام والترتيب والنظافة والاقتصاد، وتجويد الأعمال الزراعية على اختلاف ضروبها. وكذلك الحال في المهاجرين من الأرمن الذين تسربوا من الشمال وامتدوا إلى الجنوب قليلاً وإلى الغرب ، فإن من عاداتهم ما هو المعقول، وهو تضامنهم إلى ما لا حد له، واقتصادهم ومهارتهم في التجارة والصناعة، بيد أنهم لا يمتزجون بالشاميين ويريدون كالصهيونيين أن يعاملوا أهل القطر ليربحوا منهم فقط، لا لتكون بينهم المنافع مشتركة كما هو الحال بين أبناء هذا الوطن الواحد على اختلاف نحلهم، وعلى كثرة ما يوقد الواقدون من الرؤساء المتعصبين من جذوة التعصب، يوشكون أن يقاطعوا غير أبناء جنسهم، ولكن السواد الأعظم إذا عاملهم بالمثل وعمدوا إلى مقاطعتهم لا يبقى أمامهم سوى الرحيل .

وأهل دمشق وحلب بل وأكثر المدن الداخلية من أشد الشاميين محافظة على عاداتهم وأخلاقهم، ولهم غرام إلى اليوم بالتلقيب بألفاظ التشريف، واستعمال الألقاب الضخمة، راجت رواجاً كثيراً على آخر عهد الترك العثمانيين، لأن رتبهم وألقابهم مما كانوا أسرفوا في منحه للرفيع والوضيع، فصار أهل الطبقتين الوسطى والدنيا لا يتخاطبون إلا بلقب « باشا » أو « بك » أو « أفندي » و« دولتك » « عطوفتك » « سعادتك » « سماحتك » « فضيلتك »

« سيادتك ». أما ألقاب سيدنا ومولانا فتكاد تؤلف جزءاً مهماً من أحاديثهم . ابتليت الأمة بهذه الألقاب كما ابتليت بالتلقيب بالدين في القرن الخامس إلى القرون الأخيرة. وقد وصف ابن جبير مآتم أهل دمشق وجنائزهم في الدولة الصلاحية فقال: ونقباء الجنائز يرفعون أصواتهم بالنداء لكل واصل للعزاء من محتشمي البلدة وأعيانها ويحلونهم بخططهم الهائلة التي قد وضعوها لكل واحد منهم بالإضافة إلى الدين[1] فتسمع ما شئت من صدر الدين أو شمسه

---

(١) أول من لقب بالدين في الإسلام بهاء الدولة بن بويه ركن الدين وذلك في القرن الرابع للهجرة . وسرى هذا التلقيب إلى العلماء ثم سمت نفوس العامة إلى التلقب بالدين فأصبحت بعد القرن الخامس لا تسمع إلا ألقاباً هائلة مضافة إلى الدين تساوى الناس في التمجد بها ولم تخل من التحلي بهذه الحلية سوى الأندلس لأن دولهم بقيت عربية الروح والجسم حتى في الأيام التي كان الحكم فيها للبربر . وقد حمل بعض العلماء قديماً على هذه الألقاب المبتدعة لمخالفتها للشرع ولما فيها من تزكية النفس المنهي عنها . قال القلقشندي : وبقي الأمر على التلقيب بالإضافة إلى الدولة إلى أيام القادر بالله فافتتح التلقيب بالإضافة إلى الدين وكان أول من لقب بالإضافة إليه أبو نصر بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه زيد على لقبه بهاء الدولة « نظام الدين » فكان يقال « بهاء الدولة ونظام الدين » . قال ابن حاجب النعمان : ثم تزايد التلقيب به وأفرط حتى دخل فيه الكتاب والجند والأعراب والأكراد وسائر من طلب وأراد وكره حتى صار لقباً على الأصل . ولا شك أنه في زماننا قد خرج عن الحد حتى تعاطاه أهل الأسواق ومن في معناهم ولم تصر به ميزة لكبير على صغير حتى قال قائلهم .

طلع الدين مستغيثاً إلى الـــ ـــه وقال العباد قد ظلموني
يتسمون بـي وحقك لا أعـ ـرف منهم شخصاً ولا يعرفوني

وقال أبو الريحان البيروني : وبنو العباس لما لقبوا أعوانهم بالألقاب الكاذبة ، وسووا فيها بين الموالي والمعادي ، ونسبوهم إلى الدولة بأسرهم ضاعت دولتهم ، فإنهم أفرطوا في ذلك حتى احتيج للقائم بحضرتهم إلى فرق بينه وبين غيرهم فثنوا له التلقيب ورغب في مثل ذلك غيرهم ، وكان الراغب ينجح حاجته بالبذل ، وتنزاح علته بالأدلاء ، فاحتيج ثانياً إلى الفرق بين هؤلاء وبين المختص بحضرتهم ، فثلثوا له التلقيب وألحقوا به الشاهانشاهية . وبلغ الأمر غايته من التكليف والتثقيل ، حتى إن الذاكر يمل ذكرهم قبل أن يبتدئ به ، والكاتب يفني زماناً وأسطراً ، والخاطب لهم على خطر من فوت وقت الصلاة . قال : وكذلك وزراء الخلافة قد لقبوا بالأذواء كذي اليمينين وذي الرئاستين وذي الكفايتين وذي السيفين وذي القلمين وأمثال ذلك . وتشبه بهم آل بويه لما كانت الدولة منتقلة إليهم ، وبالغوا فيه واستغرقهم الكذب فسموا وزراءهم بكافي الكفاة ، والكافي الأوحد وأوحد الكفاة . ولم ترغب السامانية ولاة خراسان في هذه الألقاب بل اكتفوا بالتكنية . وكانوا يذكرون في حياتهم بالملك المؤيد والموفق والمنصور والمعظم والمنتصر ، وبعد

أو بدره أو نجمه أو زينه أو بهائه أو جماله أو مجده أو فخره أو شرفه أو معينه أو محييه أو زكيه أو نجيبه إلى ما لا غاية له من هذه الألفاظ الموضوعة، وتتبعها ولا سيما في الفقهاء بما شئت أيضاً من سيد العلماء وجمال الأئمة وحجة الإسلام وفخر الشريعة وشرف الملة ومفتي الفريقين إلى ما لا نهاية له من هذه الألفاظ المحالية، فيصعد كل واحد منهم إلى الشريعة ساحباً أذياله من الكبر ثانياً عطفه وقذاله قال: ومخاطبة أهل هذه الجهات قاطبة بعضهم لبعض بالتمويل والتسويد وبامتثال الخدمة وتعظيم الحضرة، وإذا لقي أحد منهم آخر مسلماً يقول: جاء المملوك أو الخادم برسم الخدمة كناية عن السلام، فيتعاطون المحال تعاطياً، والجد عندهم عنقاء مغرب. وصفة سلامهم إيماء للركوع أو السجود فترى الأعناق تتلاعب بين رفع وخفض وبسط وقبض وربما طالت بهم الحالة في ذلك، فواحد ينحط وآخر يقوم وعمائمهم تهوي بينهم هوياً. وهذه الحالة من الانعطاف الركوعي في السلام كنا عهدناه لقينات النساء . وعند استعراض رقيق الإماء، فيا عجباً لهؤلاء الرجال، كيف تحلوا بسمات ربات الحجال، لقد ابتذلوا أنفسهم فيما تأنف النفوس الأبية منه، واستعملوا تكفير الذمي المنهي في الشرع عنه، لهم في هذا الشأن طرائق عجيبة في الباطل، فيا للعجب منهم إذا تعاملوا بهذه المعاملة، وانتهوا إلى هذه الغاية في الألفاظ بينهم فبماذا يخاطبون سلاطينهم ويعاملونهم لقد تساوت الأذناب عندهم والرؤوس، ولم يميز لديهم الرئيس والمرؤوس اه .

بمثل هذا اللسان الغريب وصفنا ابن جبير. ولما أفرط القوم في عاداتهم في الجنائز والمآتم والأفراح والمجتمعات والقيام والقعود وتبادل السلام وتقديم القهوة والشاي وغيرهما، ودخلت في طور من الهزل عجيب، زهد فيها المتعلمون على المناحي الغربية، وأنشأوا ينبذونها نبذ النواة. وخفت أيضاً

وفاتهم بالحميد والشهيد والسعيد والسديد والرضي وأمثال ذلك . ولكنهم لقبوا قواد جيوشهم بناصر الدولة وعمادها وحسامها وعميدها وسيفها وسنانها ومعينها ونصيرها اقتداء بأفعال الخلفاء. وكذلك فعل بغراجان من تلقيب نفسه بشهاب الدولة، وجاوز نفر منهم هذا الحد فسموا أنفسهم بأمير العالم وسيد الأمراء . فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا وأظهر لهم ولغيرهم عجزهم اه

ألفاظ التكريم عن عهد الترك وهي آخذة بالزوال، وبقدر ما يكثر سواد المتعلمين يقل سواد المداهنين والمرائين، على ما يقلّ المخرفون والمعتقدون. فقد كان بعض الناس يعتقدون بالفال والمندل والكيمياء والأحلام والكشف، فقلّ اليوم من يلتفتون إلى هذه المسائل، وخفت وطأتها حتى من القرى البعيدة. والمنورون من الناس قسمان: قسم وقف عند حدود الشرع واكتفى بأوامره ونواهيه، وآخر نزع ربقة الدين ولكن في سره دون الجهر من القول.

وبعض العادات لا تقوى على نزعها إلا الأيام الطويلة والنشوء السريع، وهذا متعذر الآن لتعذر نشر التعليم الإجباري في الشعب، فقد كان النساءُ إلى عهد قريب في الأحياء البعيدة عن مدينة حلب يخرجن في الجنائز مسخمات وجوههن مخمشات لها لابسات ثياب الحداد، باكيات مولولات منتحبات، وهذا من عادات الجاهلية التي منعها الإسلام. وأول المسؤولين عن إقرار مثل هذه العادات المشايخ والوعاظ وأرباب الصحف. وقل أن رأينا من المشايخ والوعاظ من يتعرض لإنكار مثل هذه البدع والعادات الضارة. أما الصحف فعلى كثرة ما نشرت من الأنوار في طبقات مخصوصة من الناس فقد بقيت في ناحية من النواحي مقصرة كل التقصير، وهو البحث في العادات المضرة والأخلاق الساقطة. وإنا ليحزننا أن كان في الصحافيين أناس لا يزيدون المجتمع إلا فساداً فوق فساده، لأنهم يلقنون العامة الكذب والخديعة والملق، ويدعون أن قراءهم لا يرضون منهم إلا بهذه الطرق. ولكننا على يقين من أنهم هم يبيعون من قرائهم ما يتفق مع مصلحة جيوبهم وأكياسهم. كان التدجيل إلى عهد قريب من خصائص بعض مشايخ الطرق فذهبت الآن ريحهم أو كادت وخلفهم هذا الضرب من الناس.

يمكن إرجاع أهم صفات الناس في هذا القطر إلى مادتين أصليتين «الوفاء والكرم» ولا تزال هاتان الصفتان ماثلتين في معظم الشاميين على كثرة ما اعتور مجتمعهم من تبديل وتعديل. وتجد هاتين المزيتين على أتمهما في كثير من أهل الطبقات الوسطى والدنيا، يقومون عليهما غالباً من دون أن يتوقعوا عنهما أجراً سماوياً أو مظهراً دنيوياً. أما الطبقة العليا فمن النادر أن يكون فيها الوفاء والكرم، وإن وفت فلأمرٍ ما تفي، أو تكارمت فلغرض

ترتجيه. وكلما ضعف الوازع الديني في القوم، وهاجمتهم عادات الغربيين، انحلوا من عهدة الوفاء والكرم، ولذلك ترى الأوفياء والكرماء بعيدين إلا قليلاً عن المناطق التي اختلطت بالغريب على سواحل البحر، وأخذت من معارفه، وتخلقت بأخلاقه، واعتادت عاداته .

ومنذ شاع الكذب والحسد في الشاميين، ضعفت مادة حياتهم من التجارة والصناعة، وكادت ثقة الغرب ترتفع منهم، وإذا كتب لهم أن عاشوا في الجملة اليوم فبفضل الأسس القديمة التي قام عليها مجتمعهم وجامعتهم، وبفضل نشاطهم في مهاجرهم حيث رأوا أنفسهم أمام جاليات كثيرة من الأمم اضطرتهم الحال معها أن يظهروا بمظهر الأمانة ليعتاشوا ويرتاشوا. أما التحاسد والمشاغبة فلم تنقطع شأفتهما فيهم حتى في ديار الغربة ، وربما زادهم على ما كانوا ألفوه منها ما رأوه في مهاجرهم عند الأمم الأخرى فاقتبسوه وأضافوه إلى رؤوس أموالهم. وربما بلغت الجالية الشامية نحو ألف ألف نسمة أي نحو سبع سكان القطر، فما أمرهم باليسير إذاً حتى لا يشار إليهم بجملة، لأنهم على الأقل يمثلون صورة من أهل القطر في الخارج، والأجانب لا يعرفون إلا أنها صحيحة مطابقة للأصل، أو أنهم من أمثل طبقات الشعب . ولو تفرقوا في الأرجاء التي ينزلونها، كما تفرقت قلوبهم في موطنهم الأصلي، لكان لزاماً أن يؤثر ذلك في أخلاقهم وعاداتهم، ولكنك تراهم في مهاجرهم يجتمعون أهل كل إقليم بإقليمه على الأكثر، وقد لا تختلط لفائفهم بسكان الديار التي ينزلونها إلا كما يختلط الشامي بالمصري إذا نزل مصر، يختلط به ليربح منه ويحتفظ بشاميته وتقاليده بعد جيلين وثلاثة وأحياناً بعد أربعة وخمسة .

عادات القبائل وأخلاقها :

ثُمن أو سبع أهل القطر الشامي اليوم أي نحو خمسمائة ألف نسمة بادية أوقبائل رحالة، ويقال لهم في الاصطلاح: العرب أو العربان، تصطاف في مكان وتشتو في آخر، وقلّ من يألف منهم سكنى الدور، وبيوتهم من الخيام والمضارب تنسج من شعر المعزى، يعمدونها بعمد ويشدونها بأطناب،

ويضربونها حيث نزلوا لرعية ماشيتهم، يحملون معهم أثاثهم وخُرثيهم ودوابهم ومؤونتهم، وهم شاوية يقومون على تربية الشياه والعنز ويربي بعضهم الأباعر، والشاوية من الأسماء التي تطلق على عشائر دير الزور على الفرات خاصة لأنهم جماعة شياه. ومعاش البدو من مواشيهم وما تدرّ عليهم من السمون والألبان والأجبان والزبد وما يبيعون من نتاج قطعانهم، أو من غزو بعضهم بعضاً إن كانوا أشراراً على الفطرة لم تتدمث أخلاقهم قليلاً بالاحتكاك بالمتحضرين، وإذ كان سكان البادية على هذه الحالة من التنقل وأكثرهم يوغل في الشتاء إلى وسط ديار العرب انتجاعاً للكلإ والماء، أصبح من المتعذر أن تنشأ لهم حالة ثابتة يتأتى معها وصف كل قبيل منهم في عاداته وأخلاقه .

وعرب الشام من أصول شتى وقد تتغير أسماء قبائلهم مهما عظمت في كل قرن أو قرنين، فقد تغيرت أسماء القبائل التي كانت معروفة بدخول الإسلام الشام، في القرن الثالث أو الرابع، وما عرف من أسمائها في القرن الثامن أو التاسع تبدل في القرن الحادي عشر، وهكذا تتبدل أسماء العشائر تبعاً للمتأمر عليها، وقد تسمى القبيلة كلها باسم أميرها أو شيخها. والعشائر كلها تنقسم إلى أفخاذ وبطون، والإمارة أو المشيخة ترجع على الأغلب لمن كان له أصل قديم من بيته، أو من كان أذكى قومه جناناً، وأبسطهم بالكرم يداً، وأشجعهم يوم النزال قلباً، وأصلبهم في الحوادث عوداً، ثم تنتقل بالوراثة .

وغزو القبائل بعضها بعضاً يحول دون بقاء الثروة الناطقة والصامتة فيهم، فقد تكون القبيلة اليوم في الغاية من طيب العيش ، ناعمة البال بحلالها أي ماشيتها ، فتغزى من الغد في عقر دارها ، فلا تلبث أن تصبح أعرى من مغزل لا سَبَد لها ولا لبد. دع ما يصيبها من نقص في الأنفس، فقد كان من النادر أن تجد رجلاً بلغ أقصى سن الشيخوخة لأنه يُعتبط في الغزوات، ويُقتل في سن الفتوة غالباً. والحكومات الشامية اليوم تحظر على القبائل الغزو، وهم يخافون سطوتها لمكان السيارات ورشاشاتها في الأرض، والطيارات وقذائفها في الجو، وتحاول كل حكومة أن تعطي البادية أرضاً تزرعها لتأوي

إلى البيوت الثابتة، وتتخلى عن عيش البداوة وما تستلزمه من شقاوة وشقاء . ومن عشائر الشام ما عرف أنها كانت رحالة فأصبحت مزارعة مقيمة، ولذّ لها عيشها الثاني فاغتنت يوم تحضرت، مثل الدنادشة أو بني دندش فهم قبيلة يمانية جلت إلى حوران منذ نحو ثلاثمائة سنة، ثم انتقلت إلى أرجاء تل كلخ من عمل حصن الأكراد، ولهم اليوم قرى عامرة وبيوت وقصور في قرى الفتايا والحوز ومدان وحير البصل والموح ومشتى حمودة ومشتى حمزة وبرج الدنادشة وغيرها، وظلت أخلاقهم إلى عهد قريب أخلاق العشائر يحبون الغزو والسطو ويحمون الذّمار والجار، وهم على حصة موفورة من الكرم والوفاء وصحة العهد. واتفق مثل هذا التحول لكثير من عشائر الحديديين والموالي وبني خالد، فإنهم لما امتلك السلطان عبد الحميد الثاني أرضاً واسعة في الشمال الشرقي من الشام في أرجاء حماة وحمص، حمى العشائر ومنع الغزو بينها، فتحضر من هذه العشائر عدد كبير انصرفوا إلى اعتمال الأرض والعناية بالزرع والضرع. وهكذا كانت الحال في القديم والحديث، تدخل البادية في الحضارة، وقلّ أن خرج أفراد من الحضارة إلى البداوة، لأن الترقي سنة الطبيعة، والبداوة أصل ثم ينوب أهلها على الزمن في الحضر .

تبعد منازل البدو عن سواحل البحر المتوسط غالباً، ولا تزال تمتد في الداخل حتى ينتهي العامر من ديار الشام في الجنوب والشرق، وهناك البداوة بأجلى مظاهرها. والأولى أن يقال مثلاً في عشائر الفضل والهوادجة والبحاترة النازلين على ضفاف بحيرة الحولة، وبني صخر الضاربين في البلقاء، وبني حسن في عجلون، والحسينة والفواعرة والعكيدات في أرجاء حمص، وبني خالد عرب حماة. والحديديين والموالي واللهيب والغيّار عرب حلب. والسّبَعة والفدعان من عنزة النازلين من بحيرة الجبول إلى سلمية وعشائر البشاتوة والبواتية الغزاوية والمساعيد ونقار والصقور عرب بَيْسان ونابلس وجنين وطول كرم. وعشائر شرقي الأردن التي تشتو في وادي العربة أو الأغوار، أو الحماد أي الصحراء العربية شرقاً، وتصطاف في أرض معينة الحدود معروفة — فالأولى أن يطلق على هذه القبائل اسم نصف حضرية

لأن منها من يزرع الأرض، ومن أفلح في الفلاحة، وأيقن على الأيام أن العيش الثابت خير من المتقلقل، وأن من يدفع للدولة أجرة حمايته، أهنأ بالاً ممن يتكل في حمايته على نفسه وسيفه وعصبيته .

وهكذا يقال في عرب الغياث والعمور في اللجا والصفا، وعرب العدوان والأيديات والعباد والمشالخة والحمايدة والشوابكة والدعجة والعجارمة والنمر والكايد في أطراف عمّان والصلت ومادبا، والخرشان والجبور في الموقر والعليا والنقيرة ، وبني حميدة والسليط والحجايا والحباشنة والصرايرة والطراونه وكثرربة والمعايطة والمجالي والمدانات في أرجاء الكرك . والحويطات والدمانية وأبي تايه والمطالقة والنعيمات والديابات وبني عطية في جهات معان، وعرب الشرور وبني عطا والهلالات والعبيدية والعلايا في وادي موسى وجبال الشراة، والحميدات وعبدين والبحارات والكلالدة والوهبيات والمناعين في الطفيلة، فإن كثيراً منهم يزرعون الأرض، ويقومون على تعهد الماشية، وقد يبعدون في الانتجاع ثم يعودون أدراجهم.

وعلى مثل هذه الحال عشيرة العمور في أرجاء تدمر وعشائر بوشعبان في السخنة والجبور في البوكمال والكعيدات في الميادين ودير الزور وغيرهم من العشائر النازلة على شط الفرات الغربي، فإنها كلها نصف متحضرة وبقليل من العناية تدخل في المدنية وتترك عاداتها وشقاءها، ويسوغ لنا أن نستنتج أن البادية حتى أكثرها إيغالاً في البداوة يمكن تحضيرها إذا أكرهت على التحضر خلافاً لما يذهب إليه بعض أهل الغرب. وفي الشام قبائل من البدو مثل عرب الروالة من عنزة وهم لا يقلون عن عشرين ألف نسمة، يتنقلون أبداً كالنور أو الغجر كل مدة في ناحية، ولا ينزلون المدن إلا لابتياع حاجاتهم وبيع جمالهم وأصوافهم وألبانهم. والنور جيل منحط من الناس يرتحلون كالبدو ويعملون الأعمال الخسيسة، ولذلك يحتقرهم جميع أصناف العالم من أهل المدن والقرى والبدو، وهم قلما تخلو منهم بلد ومنهم عدد كبير في أوربا .

ولا تختلف عادات العشائر لأنها كلها في حالة أولية فطرية هدتهم إليها الحاجة إلى الحياة، فعشائر ولد علي والسرحان والمعجل والسردية والنعيم

في حوران والقنيطرة والزوية، والزريقات في طرابلس والتياهة والعزازمة والترابين والجبارات والحناجرة والكعابنة والصرايعة والجهالين وفقرة وثباني وهارين وفرحات وزويديين وضواحك وسلامات وصقرير والرسيلات وأبي صونية والغوالبة في أقصى فلسطين أي في أرجاء بئر السبع وغزة والخليل والمجدل،وعشائر القدس ورام الله وبيت لحم وأريحا ويافا والرملة كالسويطرة وعرب النبي روبين والجماسين وأبي كشك والسوالمة والعوجا والديوك والنويعمة والحطباء والفهيرات والعرينات والنصيرات والتعامرة والعبيدية والسواحرة وعرب حيفا وعكا وزمارين والناصرة وطبرية وصفد وهم الغابة والعواضين والشقارات والزبيدات والتوائحة والكمابية والضيبة وبني عزة والنغناغية والرمل وعرب التركمان وجسر الزرقاء وقسارية والفقرة ونفيعات والدمايرة والسواعيد والسمنية والغوارنة والسويطات والحجيرات والطوقية والمريسات وصبيح الحجيرات والمزاريب والسبارجة والجواميس والغزالين والتلاوية والمواسي والسرجونة والسدور والسمايرة والحرامية والسماكية والمنارة وكراد الحيط والملاحة والشمالنة والبويزية والزنغرية وزبيد وقديرية وطوبا وحسينية وعلمانية ووقاس والصويلات والنميرات، وعشرات من القبائل كلها متشابهة في عاداتها وأحوالها الطبيعية وجلها لا تسد مطامعه إلا الغارات واستباحة حمى المعمور، عرفوا بذلك منذ عرف تاريخهم. وكان الرومان خاصة يقيمون المخافر خوفاً من اجتياحهم القرى ويقيمون لهم منهم زعماء يصدونهم عن الاعتداء بعضهم على بعض، أو يحولون دون اعتدائهم على المقيمين من سكان المزارع والدساكر .

وفي تاريخ فلسطين أن العزة والسيطرة كانت في جميع بلاد الساحل والسهل للبدو وأهل الدير،فبلاد السبع وغزة كانت منقسمة بين العزازمة والحناجرة والترابين والتياها والجبارات، فالعزازمة يمانيون ومشايخهم أجداد ابن سعيد، وأمراء الترابين عائلة أبي ست. وأمراء التياها الهزيل،وأنساب هذه القبائل غير صريحة فإنها مزيج من عشائر مختلفة وقبائل متنوعة وفيهم القيسي واليماني؛ وبلاد الخليل أكثرها قيسية ومقاطعة القدس يمانية وقيسية اه .

وكما عرف البدوي بأنه يجير الملتجئ إليه، فهو كذلك إذا آنس ضعفاً

من أحد أبناء السبيل في البرية سرق منه ماله وثيابه أو هميانه ودابته، وندر أن يقتله فشأنه شأن معظم البشر عبد القوة لا يحاذر غيرها. ولطالما كان الجنود الشاميون أيام كانوا يفرون على عهد الترك من اليمن تطيل البادية عليهم أيدي الاعتداء تارة ويكسونهم ويطعمونهم تارةً أخرى، وهكذا كان الفار يعرى ويكتسي مراراً حتى يصل إلى المعمور من دياره .

وماذا يعمل البدوي وماشيته ترعى أمامه، وكيف يصرف ليله ونهاره، وكيف تطيب له الحياة في الصيف والشتاء، وهو معرض لأشد الحرارة وأشد البرودة، وخائف على الدوام يترقب غزوة خصمه وقبيله الذي يعاديه ؟ لا جرم أن البدوي، وهو بذكائه وفراسته معروف موصوف أكثر من الفلاحين أهل القرى، يعرف من الأخبار التي تهمه من أنباء العالم ما ينبغي له الإحاطة به، ويتناقله بسرعة البرق، حتى إن ما يحدث في الحجاز أو العراق، يصل خبره إلى ابن بادية الشام وما وراءه من العرب، قبل أن تصل السيارة والبريد، فينتقل الخبر في الأفواه من فم إلى فم، ويسمون الأخبار « العلوم » وأول ما يسأل البدوي في البادية أو المعمورة عن العلوم. وإذا لم يكن عند البدوي ما يتسلى به من القصص والأخبار التي تكون في العادة نمطاً واحداً يأخذ شاعر القبيلة ربابه يضرب عليها، ويفكههم من نظمه أو من محفوظه بأشعار. وفي الغالب أن يكون ما ينشدهم إياه بلهجتهم التي يألفونها. ويحتوي على الأكثر الحماسيات وأخبار الغزاة والغزوات وأيام الشجعان وحوادث الكرماء والضيفان. والرقص معروف عندهم وهو الدبكة أو السحجة يرقص في الغالب الفتيان والفتيات، دون الرجال والنساء المتزوجات. ومهور النساء غالية في بعض العشائر، وتكون من الجمال والشياه غالباً لا من النقود لقلة تداول النقد بينهم فهم يتقايضون الحاصلات، كما يتقايضون البنات بالحيوانات. والبدوي يُخصب إن جادت المراعي من خيرات السماء، وإلا فقد أترب وأجدب، ونفقت دوابه فأعوزته اللقيمات .

ويجلس الرجال في العراء في خيمة مضروبة تكون في الغالب خيمة الشيخ أو الغني، يتعاطون قهوة البن وهم يجيدون طبخها لفراغهم وتوفرهم على معالجتها. وقد يستغني البدوي عن الأكل أو يقلل منه كثيراً، ولكنه لا

يستغني بحال عن تعاطي القهوة في كل ساعة فهي نقله وحلواؤه وشرابه المنعش، وقد يصرف أحدهم ثمن بنّ في السنة أكثر مما يصرف على طعامه ولباسه. وأحب الهدايا إلى قلب البدوي أن تحمل إليه مقداراً من البن. وطعامهم من أسهل الأشياء، مقصور على بعض الألبان والبرّ والجريش والأقط والعصيدة، ولباسهم ساذج للغاية وكسوتهم متشابهة: قفطان من القطن، وعباءة خفيفة، وزنار عادي، وكوفية وعقال، ولا يلبسون في الأعم من حالاتهم قمصاناً وصُدَراً وسراويل، وأكثرهم حفاة، ويصطنع بعضهم كسكان وادي موسى نعالاً من جلود الأباعر ينيطونها بحبال يدخلون فيها أباهِم أرجلهم تعلق بها .

قلّ أن تجد في البادية من يقرأ ويكتب، فقد تبلغ العشيرة ألف نسمة ولا تظفر فيها بمن يكتب جملة. ومن العشائر من تستأجر خطيباً من أهل الحضر يكون معها في مشتاها ومصيفها، يقرئ بعض أبناء العشيرة القرآن، وينظر في الأنكحة والطلاق ويعظهم بما يعلم من أمور الدين. وأكثر البادية لا يتطهرون ولا يصلون ولا يصومون ولا يعرفون من الإسلام إلا أن الله واحد وأن محمداً رسوله. ولولا هاتان الكلمتان لقلنا إنهم كعرب الجاهلية حذو القذّة بالقذة وقد تصلي بعض القبائل كالروالة، ولما كان الماء يعوزهم في منتجعاتهم وتنقلاتهم فهم يتيممون صعيداً طيباً، والله يعلم هل يحسن أكثرهم قراءة فاتحة الكتاب، أو يعرفون بعض سوره الصغار. وما كانت هذه العشيرة تصلي من قبل لولا أن لابسها بعض دعاة الشيعة وعلموا كل فريق منهم إقامة الصلوات، ولقنوهم بعض معتقدات التشيع من حيث لا يدرون . وقد تديّن اليوم أي دان بالمذهب الوهابي قسم من الروالة لما لحقوا بنجد، والمذهب الوهابي مذهب محمد بن عبد الوهاب وهو مذهب أحمد بن حنبل بأصوله وفروعه .

وإذ كان من الأمور العادية في البادية أن تكون القبائل في خصام دائم، وهي أشبه بحكومات صغرى تتقاتل وتستعين بالغريب على خصمها، مست الحاجة إلى قضاة يفصلون بينها في المنازعات، وقضاتهم منهم يتقاضون عندهم بأجر معلوم، وأحكامهم سريعة نافذة، ومن أحكامهم ما هو مطابق للشرع

الإسلامي ، ومنها ما هو من بنات أفكار القاضي ، أو يأخذه من العرف والعادة. والاختلافات تفض بين المتخاصمين على أيدي الرؤساء صلحاً على الأكثر . وقلّ أن يراجع البدوي الحكومة في مسائله لأن من أصولها البحث والتحقيق، وهو يحب قضاء عاجلاً، وأن يحكم له أو عليه في جلسة واحدة، وينفى القاتل في بعض القبائل سبع سنين فإذا صالح أهل القتيل ودفع الدية يعود إلى عشيرته، وتختلف دية القتيل بين (٣٣) ألف غرش إلى (١٥) ألفاً، ولا يحق عند بعضهم لأحد بعد سبع سنين أن يثأر للقتيل، والأخذ بالثأر كثير عندهم، ولا مدة عند معظمهم للمطالبة بالثأر . ومن المأثور عنهم أن البدوي أخذ ثأره بعد أربعين سنة وقال: إنني تعجلت أخذه. وجزاء السارق تغريمه المال المسروق من ضعفين إلى أربعة أضعاف، وينجو السارق بالفرار، ويدفع الضارب للمضروب إذا عطل منه عضواً نصف الدية. والزاني يرجم عندهم حتى يموت ولكنهم تساهلوا في هذا الحكم، والفحش عندهم على نسبة ما هو عند الحضر ويكثر في بعض العشائر ويقل بحسب اختلاطها بأهل المدن وبعدها عنها، والخمور لا أثر لها في البادية لأن العرب قلما يشبعون الخبز والإدام فمالهم إذاً والمُدام، ولشظف العيش عندهم يعدون في الأعياد اليوم الذي ينزل على شيخهم ضيف يجب أن ينحر له شاة فإنهم في تلك الوجبة مدعوون كلهم بالطبيعة، وعندما يأكلون اللحم فترى قطعانه تسافر من فوق الرؤوس حتى يُطعم من « المنسف » البعيد منهم عنه، وتسمع عندها تعريق اللحم عن العظم أشبه بأصوات حيوانات وقعت على عظام .

ويكثر تعدد الزوجات بينهم خصوصاً عند من يملك بعض نعجات أو بضعة أباعر فتراه طول النهار وجزءاً من الليل، تحت خيمته يتقهوى أي يشرب القهوة مستلقياً على قفاه، يقص أقاصيصه وينعم ببطالته، على حين ترعى امرأته وبناته الغنم والجمال، ويحتطبن الحطب أو يجمعن العشب، وتحمل المرأة الماء على رأسها من مكان بعيد، أو تستقيه في قِرَب تحملها على حمار إن كان صاحبها من أهل اليسار، وتستخرج المرأة الزبد والسمن وتعمل الجبن وتخبز الخبز وتهيئ الطعام . ويعيش أولادهم كالسائمة في البرية بدون عناية ويهلك معظمهم قبل الخامسة من العمر، ولهذا تكون أجسام من يفلتون

منهم من الموت قوية تبعاً لقاعدة بقاء الأنسب. وهم لا طبيب عندهم ولا جراح ولا قابلة إلا ما تعلموه من أجدادهم من الوصفات، وثقفوه بطول الزمن في مداواة الجروح، ويداوون أكثر الأمراض المستعصية بالكيّ أو بأدهان وحشائش لهم يعرفونها.وأمراضهم قليلة بالنسبة لخشونة عيشهم وجشوبة طعامهم وقلة تطهرهم، وذلك لمكان الهواء النقي والشمس المطهرة من أجسامهم ولندرة ما يطعمون من الأطعمة المركبة من حامض وحلو وحار وبارد، ولقلة الهموم التي تساورهم وما تساور في العادة إلا سكان المدن والقرى ممن يفقهون واجبات الحياة، ويكدحون في طلب المعاش ولا يزالون مأخوذين بحب التقليد. والبدوي حاد النظر يرى الأشباح من مسافة بعيدة جداً، وقد يرى والقمر ليلة هلاله ما لا يبصره الحضري، ومن رآه في تمييز المرئيات عن بعد باعد، يكاد يصدق ما ذكرته العرب عن نظر زرقاء اليمامة. وكما كانت أبصارهم حادة كانت أسنانهم وأضراسهم سليمة براقة للطف أخلاطهم وتخليطهم .

قال أديب وهبة: «إن سكنى البدوي في بيت الشعر في البوادي المحفوفة بالأخطار والمشاق، وبعده عن الحامية وانتباذه الأسوار، قد ولد فيه عدة مزايا يمتاز بها على الحضري، منها الشجاعة والعصبية والكرم والوفاء والأنفة والنجدة فتوغل البدو في البادية، وتولعهم بالغزو والغارات قد جعلهم في قتال أو استعداد دائم للقتال، فأصبحت الشجاعة فيهم طبيعية، وتعذر قيام الفرد مهما كان شجاعاً بمقابلة العدد العديد من العدو قد اضطرهم للالتجاء إلى العصبية، وهي التضامن المطلق بين أفراد القبيلة، حتى تطلب العشيرة بأجمعها بحق أحد أفرادها، وأقرب أسبابها لديهم الأخوة والأبوة والعمومة، ومنها تتألف الأسرة، ومن الأسر تتألف الفصيلة وتتدرج بهذه الصورة إلى القبيلة. والذي عليه عشائر الشرق العربي أنها تطلب وتطالب بحقوق أفرادها إلى الجد الخامس من جدود الطالب والمطلوب، أي لكل فرد يتصل مع أيهما بالجد الأول أو الثاني أو الثالث إلى الخامس الحق بطلب حق قريبه، وعليه أن يخضع للحق المطلوب منه، ولهم بذلك قوانين وقواعد موروثة . ثم إن ابتعاد البدو عن المدن وتفردهم في الأرض المقفرة يضطرهم إلى إكرام

الضيف والقاصد وحماية الضعيف والملتجئ ، حتى إذا وقع أحد أفراد قبيلتهم بمثل هذا الأمر الذي يكثر حدوثه لديهم يتقاضى ما أسلفه. وقد قويت هذه المزية فيهم حتى ضرب بكرمهم المثل، وفاقوا به سائر الأمم . وإن مطاوي التاريخ العربي مستفيضة بأقاصيص كرماء العرب وكرمهم العجيب. والبدوي يعتقد أنه لا ذكر له ولا إرث أفضل من سمعة الكرم والجود. وإن هذه المزية لا تزال عند بدو الشرق العربي على ما كانت عليه في زمن أجدادهم الجاهليين . فلا يحل ضيف بيت أحدهم غنياً كان أو معدماً، إلا ويسرع لتهيئة كل ما يرضيه ويسره ، وإن الكثيرين منهم يضطرون إلى تحمل أعباء الدين الثقيلة لإرضاء قاصدهم. وإذا استأمنهم مستأمن على أمانة فدوا لحفظها أموالهم وأولادهم وأنفسهم، وكذلك إذا التجأ إليهم خائف، أواستجار بهم مظلوم، أو نزل عليهم موتور مطرود » .

رأي في الأخلاق الشامية :

تمثل الأمم في العادة طبقتان من أبنائها « الوسطى والعليا ». والطبقة الدنيا وهي طبقة العامة مستتبعة لا متبوعة، لأن ما هي فيه من تأخر أسباب الحياة، لا يترك لها مجالاً للتفكير في شيء ، غير ما يقع تحت حسها مباشرة ، وتشتد حاجتها الطبيعية إليه. وقد تقلد الطبقة السفلى الطبقة الوسطى تقليداً خفيفاً لا يكاد يشعر به، وتقليد الطبقة الوسطى الطبقة العليا أشد ظهوراً من تقليد الدنيا للوسطى . وتتجلى في الطبقة العليا مظاهر السعة في العيش ، والبسطة في العلم أو الحضارة، وهي أبداً حريصة على مكانتها، تحاذر سقوط شأنها من أنظار الطبقتين التاليتين، وتعد السؤدد كل السؤدد ، ما هي فيه من جاه ومال ومجد وعلم .

يُعد من الطبقة العليا العلماء والعظماء والقواد وأرباب الأموال، ممن يسيرون الجماعات إلى حياتها أو موتها، وينفثون في روعها ما يرفع مستواها العقلي، ويطهرون نفوسها من الآثام والآلام. وبأيديهم زبدة ثروة الأمة وجهودها، وإليهم منتهى ما بلغته قرائح أبنائها يمثلون التسلسل في الفكر، وتتجسم فيهم الإرادة الثابتة والعزيمة الصحيحة، وهم صورة البيوت الخالدة

ومنعكس التأثيرات الطريفة والتالدة، ومثال الشعب ورقيه ووجهه الوضاح الجميل، وفي قبضتهم مفاتيح المفاخر ومغاليق المآثر وهم المذكورون وهم المشهورون، ومصير غيرهم إلى الخمول والعفاء .

من أجل هذا كان على تلك الطبقة أن تتحلى بحلى الفضيلة والشرف، وأن تكون عفيفة الطعمة حسنة الأحدوثة، بعيدة عن الموبقات والبذخ والسرف، حريصة على النهوض بالأمة تشارك في المسائل المدنية عن عقيدة راسخة وتأخذ بأيدي العاثرين والبائسين، وتلقن أبناء أمتها علماً ينتج الثروة ويحفظ المجد، ويولي الكرامة. وإذا جُنّت بالظهور من دون استعداد له وحاولت الاحتفاظ بمكانتها دون أن تتذرع بأسباب البقاء، وبتجديد مواد حياتها الحين بعد الآخر، فإن عزها لا يلبث أن يزول، وسعادتها توشك أن تضمحل، ومن العبث أن تعيش هذه الطبقة بشهرة أجدادها من الحكام وأهل الشرف وأرباب المظاهر، وأن تعتقد أن جماع المفاخر وقف على أحسابها وأنسابها، وتطلب من كل إنسان أن يرفع مقامها لأن من أجدادها من كان على شيء من الفهم أو الظهور، أو أنه كان يسفك الدماء ويستحل أكل أموال الناس حتى أثرى وخلف عقاراً وقرى وصامتاً وناطقاً. ورب صعلوك في نظر المتمجدين كبير في عيون الخلق. والكبير من كبرت أخلاقه، ونفع الناس وانتفع بهم .

وإذا جئنا نحاسب مثلاً بعض من انتسبوا إلى الدين، وهم أشرف الفئات في العرف نراهم أقرب الناس إلى امتهانه بأعمالهم، يأتون ما لا ينطبق على جلال منزلتهم. فقد فشت المطامع فيهم واستحلوا الأموال مهما كان لونها وطعمها ورائحتها، وأتوا للاحتفاظ بمظاهرهم القديمة من الأعمال ما بدت به مقاتلهم، فقضوا بفساد ذممهم على أوضاع الأمة، وركبوا مراكب الهوى واستمرأوا لأنفسهم أكل ما اعتقدوه حلالاً طيباً فأضاعت الأمة مشخصاتها ومقوماتها، وأصبحت مزيجاً غريباً لا تعرف كيف تكيفه. وليس في المجتمع من يناقشهم الحساب، وكيف يناقشون وهم المرجع وهم الهادون. وكان المشار إليهم بالبنان من أهل هذه الطبقة في الدهر الغابر ، يدلون بشممهم على الخلفاء والسلاطين، ويسيطرون بإخلاصهم على القضاة والحاكمين، ومن هانت عليه عزة نفسه يوشك أن يستهين بكل محمدة. ولقد أدركنا أحد كبار شيوخ

العلم، لما شاهد هذا التسفل في طبقة العلماء يشير على طلاب العلم الديني أن يتقن كل واحد منهم صناعة حتى لا يسفّ لأحد يستجدي نواله، ولا يمسي عالة على أبواب الحكومات وأرباب السلطات، إن احتاج إلى صناعته احترف بها. وإلا كان لمناصب الدين والدنيا مخطوباً لا خاطباً .

ولي سويد بن عبد العزيز قضاء بعلبك سنة(١٦٧هـ)وكان محتاجاً، فلقيه داود ابن أبي شيبان الدمشقي فقال له: يا أبا محمد وليت القضاء بعلم العلم والحديث. قال:نشدتك الله أتحت جبتك شعار؟ فقال داود: نعم. فرفع سويد جبته وقال: لكن جُبتي ليس تحتها شعار. وقال:أنشدك الله هل هذا الطيلسان لك؟ قال داود: نعم. قال سويد: فوالله ما هذا الطيلسان الذي ترى عليّ لي، وإنه لعارية، أفلا ألي القضاء بعد هذا، فوالله لو ولوني بيت المال فإنه شر من القضاء لوليته اهـ. هذا قول عالم في زمن كان صاحب السلطان يطلب الأكفياء إلى القضاء فيفرون منه فرار السليم من الأجرب. ومنهم من ضُرب لأنه لم يقبل أن يلي القضاء، وكان محتماً عليه قبوله لانتهاء الرياسة في العلم والعمل إليه. كان هذا في ذاك العصر الذهبي فما بالك بالعصر الأخير، والجهال يتطلبون مناصب الدين إلا في الندر، ويقدمون لتوليتها الرُّشى والهدايا وقلّ فيهم النزيه الذي يستحق أن يطلق عليه اسم العالم، أفلا تسقط بجَدّك هيبة هذه الطبقة من النفوس بعد هذا؟

وبينا تجد بعض القائمين على الدين من أهل السواد الأعظم لا يهتمون لغير إملاء جيوبهم وبطونهم، تشاهد بعض رجال الدين من أبناء الطوائف الصغيرة يجمعون شمل من التفوا حولهم، يقودونهم إلى محجة سعادتهم، ويؤسسون لهم دور التعليم والقربات، وينشلونهم من السقوط الذي صاروا إليه بحكم الأيام. فلا بدع إن جاء مجموع الطوائف المسيحية على قلته في الشام، أرقى من مجموع الطوائف الإسلامية على وفرة عدده وسعة ثروته. وكان من أثر الرياسة الدينية المنتفية من الإسلام أن استخدمها أهل النصرانية في المصالح المهمة، فكان لهم فيها عموم النفع. وكانت هذه الرياسة على ما فيها ناجعة في تهذيب الشعب عندهم، فأخرجوه من تيه الفوضى إلى باحة النظام. وهذا هو سر الترتيب الذي تراه ماثلاً في المجتمع النصراني وهو على

حصة ضئيلة في المجتمع الإسلامي ولايؤاخذ الإسلام بانحطاط أهله وما المؤاخذ إلا من أخذوا على أنفسهم عهداً بأن يطبقوا مفاصله فأهملوا واجبهم، ولو كان الدين عاملاً من عوامل سقوط أمة ما كانت اليابان وهي تدين بالبوذية في مقدمة أمم الأرض علماً وعمراناً .

ولا مشاحة في أن من طبقة الدينيين فئة صالحة، ولكنها كانت في كل عصر تلقي الحبل على الغارب لغلبة اليأس عليها، وهناك فئة أشد تأثيراً وظهوراً وهي التي طالما قدمت وأخرت وباعت من هذه الأمة المسكينة ما شاءت وشاءت منافعها ودارت في كل دور مع مطامعها كيف دارت. إلا أن الدهر عاقب هذه الطبقة بما احتقبته من الكبائر، فضربها ضربة آذنت بانقراضها لأنها لم تجار الزمن في نشوئه، كأن تكون مثال الفضائل ترباً بأنفسها عن الغيبة والنميمة وتتشرب أفئدتها حب الصدق والصدع بالحق وتتحامى مزالق التغرير والتضليل وتحضر وكدها في واجبها من إرشاد العامة من طريق العلم الصحيح، في زمن اشتد فيه النزاع بين القديم والحديث، أو بين الدين والإلحاد، وتجلى الانتقال في كل مظاهر الحياة. وما زالت هذه الفئة تحاول أن تسترد بالثرثرة والتبجح مجداً زائلاً، وهي في حالة المحتضر لا تبدئ ولا تعيد . وما تحدثت أن تخرج من جهالتها، وتتطور بطور العصر، وتأخذ بحظ من العلم الديني والمدني، وتتحلى بشيء كثير من مكارم الأخلاق .

كان أحد أفراد هذه الطبقة أبلى في الدعوة الدينية بلاء حسناً، ورُزق قلماً ماضياً، وعزماً مؤاتياً، واستعد للنزول والنزال في ميدان دعوته، يحمل أكثر أدواتها. وما عتم أن ترك ما هيأته الفطرة له وأكسبته إياه التجربة وطول المدة وحاول بلوغ مظهر جديد اعتقد أنه جماع المظاهر، وهو لم يتمرس بآدابه، ولا عرف مداخله ومخارجه، وغلبه حب الشهرة فادعى ما لم يُخلق له ولا تخلّق به ونسي الغرض الذي يضطلع به، وراح يستغل موضع الضعف من فطرته ولا يعتمل فيما يرجى فيه كماله، ترك سيرته الأولى وهام بمظهره الثاني، زهد فيما يحسن وحاول التلبس فيما لا يحسن. وغريب من إنسان لم يقنع بمنزلة طيبة وضعته فيها بيئته وتربيته، ويجاهد جهاداً آخر في ساحة الوغى ولا سلاح معه يستخدمه، ولا آلة من أدوات الحرب يتقنها. الذكاء

وحده ينفع إلى حد معين، وأدوات النجح في طريقه تحتاج إلى علم وفطرة . والعلم بالتعلم والتريض، والفطرة هبة لا تُباع ولا تشرى .

أنت يا هذا إذا حفظت قواعد علم من العلوم، يتعذر عليك أن تدعي الكيمياء والطبيعة أو السياسة والاجتماع ، علوم مختلفة طويلة الذيل لا ينفع معها التخليط. القواعد المجملة التي تحفظ من كتاب في موضوع تحتاج في إتقانها إلى صرف طائفة طويلة من عمرك فلا تعطيك القريحة قياد كل أمر ولا تيسر في سبيلك كل دعوى. ولذلك ترى من هذا شأنه صاعداً متدلياً، ينفي اليوم ما أثبت أمس ويحارب حيناً من سالمه زمناً، يصانع أرباب القوة طوراً ثم يقلب لهم ظهر المجن تارة، إذا لم يستمرئ ما أطعموه ولم يستقبل من أمره ما استدبر في وضع الخطط التي خطها لهم، والناس كلهم في نظره صغار عقول وأرباب فضول وهو لا يرى غير نفسه استجمعت ضروب المحامد ، ولذلك لا يضن عليها بما يمجدها ، ويضع الألقاب الضخمة لها وينوه أبداً بما انطوى عليه من شرف وعلم وعمل، ومن رضي عنه من الناس ينيله من عطفه ما لو وزن أيضاً في ميزان القسط لشالت كفته. والعاقل من أنصف نفسه قبل أن ينتصف الناس منه، ومن ظلم نفسه كان حرياً بأن يظلم غيره، ولهذا أمثال غير قليلة فيمن يلقبونهم بـ «البارزين» والخواص أي النابهين .

نموذج آخر. بينا تجد الأول يجرع دعوته كما يجرع الصاب والعلقم ويستعلي ويستطيل ويحاول أن يثبت أنه مصدر كل خير، لو استمع الناس له لتمت سعادتهم الدنيوية والأخروية، ترى أخاه قد اتخذ في الحياة غير طريقته وخالفه في سيره وسيرته، فقد لقن في صباه مجملات يحكم فيها بالجزئيات على الكليات حكماً مسمطاً ويتلطف ويتطرف ليجد السبيل إلى قلوب العامة والسوقة لأنهم كثير سوادهم يستميلهم بالدعابة والفكاهة، وماذا يهمه من الخاصة وهم قليل عديدهم، وما يناله من غضبهم ورضاهم ما دام الجمهور عنه راضياً. وأحسن ما يراه للوصول إلى قلوب العامة أن يرضي كل صاحب سلطان، لأن في رضى القويّ تنطوي المظاهر والدنيا وهو عبدها وغايته من الحياة السجود على أبواب سدنتها، لا يبالي أن يصعق

كل من لم يمالئوه، ويتوهم أن النقاد لا يفرقون بين الزيف والبهرج، ولا بين الهازل الماجن والمجد المجاهد، والعلم الحقيقي يولي صاحبه عزوفاً، وإذا قرن بالتهذيب لا يحاول صاحبه درجة إذا تخطاها أدركه العثار .

عرفت عالمين دينيين أُريدا على أن تفتح لهما أبواب الرزق، وتغدق عليهما المظاهر على أن يسفا إسفافاً خفيفاً يكون في السكوت عن رجل كان لهما صاحباً قديماً فحاز مظهراً كبيراً من مظاهر الدنيا حسده عليه عبيد المطامع والشهوات، وكان جوابهما كل مرة أن من لا يعمل للمصلحة العامة لا يستحق صداقتنا، ليأت ما استطاع من الخير ونحن بالطبع له الأخلاء الأوفياء لا نريد منه جزاء . وهكذا قاطعاه وهو الحاكم المتحكم في الدولة، وهكذا عزفت نفسهما عن أن يرقصا للقرد في دولته ويزينا للظالم ظلمه وهو في أوج عزته . زهدا في الجاه العريض لزهد صاحبه في الفضائل وشدة هيامه بدرهمه وديناره . رجلان يأكلان اللقمة بالتسفل والرياء وآخران جاهرا بأنها تؤكل بدون هذا . وهذا مثال من أخلاق بعض المعاصرين، وعبرة للأعقاب في الغابرين .

ظهر التعطيل في الإسلام منذ قرون، بما قام به المبتدعة من أهل الطرق وسخفاء الدجالين والقصاصين، فانحطت العقول وضعف مستوى العلم والتهذيب في الناس فمن تصدى يا ترى لمحاربة هذه الضلالات التي لم ينزل بها سلطان؟ فشت أخلاق سيئة تخالف هدي الدين فتغافل الموكل إليهم هداية الخلق عن انتشار سمومها كأنهم يقرونها، وتركوا رعيتهم هملاً كالسائمة. وكانت دروس العلم مباحة موورودة إلى أوائل هذا القرن، وبتساهلهم كاد العلم الإسلامي ينقرض. وجاء كثير من مرتزقة الوعاظ والخطباء والأئمة والقضاة جهلاء يفتون بغير علم، ويخطبون بالمبتذل الساقط، ويلهون الجمهور بالقشور، ويبيعونه من سلعهم الكاسدة ما لو ائتمر العوام بأوامرهم لرجعوا ألف سنة إلى الوراء. وإذا اجتمع هؤلاء الدينيون إلى أكثر زعماء الأديان الأخرى، ظهر الفرق بين التقصير والعناية وتجلت المباينة بين من ساروا مع الزمن، ومن عاندوا الحقائق وحاربوا العقل وجمدوا في الفكر، ومالوا إلى الكسل عن العمل. وفوق هذا تراهم يجمعون أموالهم بخرق حرمة كل

قانون وشريعة، وهم متخاذلون متفاشلون لا يكاد واحد منهم يزكي أخاه، ولا تجد خمسة منهم اتفقوا على مقصد واحد من مقاصد الخير. والعاقل يرجح الأمية على هذا العلم الذي لم ينتج خيراً لأهله ولا لغيرهم، والأميون لا تصدر منهم هذه الجرأة على العبث بناموس الكمال. ومن تفلتوا من حدود الشرائع على قربهم منها، كانوا أشد انتقاضاً عليها من الجاهلين والغافلين.

وتتصرف على هذه الطبقة، طبقة تلتحم بالخاصة أو العليا أيضاً، من جماعة المتعلمين على الأصول المدنية الحديثة، فقد دب في بعض هذه الطبقة سوس الفساد ولما تزل في بدء تأسيسها، وظهر لأرباب البصائر أن الدروس الطبيعية والرياضية والاجتماعية والفلسفية والحقوقية تنير العقل، ولكنها لا تحسن الأخلاق، إذا كانت منحطة من أصلها. وربما كان العلم في بعض هذه الطبقة أداة شر تستخدمه حبائل لصيد ما يسد المطامع. والأخلاق مغروسة في الدم والأسرة، والعلم صناعة يتعلمه الذكي الدائب.

ولقد تلونت صبغة هذه الفئة في هذه الأرض الطيبة، بألوان أهوية الأقاليم وجوائها، بل بألوان المدارس التي تخرجت بأساتيذها، فمن تعلم منها في مدارس التبشير التي أنعم بها أهل أوربة وأميركا على آسية وإفريقية، جاءت إلا قليلاً منحلة من ربقة حب الوطن وعهدة حب الجماعة، واستحكمت في كثير من أفرادها الأنانية والأثرة استحكاماً هوّن عليها كسر قيود الحكمة والخروج على الأدب الصحيح.

وقد اشتهر بعض هذه الطائفة بمعاداة الدينيين والأعيان، والإزراء بسائر الطبقات وأكل الحسد والحقد قلوبها، فهي لا تتحاب بينها ولا تحب غيرها. ولا تعرف من محيطها أكثر مما يعرف الدخلاء: شمخت بأنوفها، واحتقرت كل من لم يجر على مثالها، ولا تثقف تثقيفها. ومنهم من دفعه ما لقفه من تربية وحصله من تعليم ناقص، إلى خدمة الغريب، والفناء في محبته والدهشة بكل ما يأتي على يده وقبول كل ما حمله من خُلق وثقافة والتغني بتاريخه ومجده والتغزل بجمال بلده والإعجاب بأوضاعه، أخذ كل ما أعطاه شاكراً مغتبطاً، فخرج بذلك عن قوميته. وكثير منهم هجر بلده، إلى مكان ينبت بزعمه العز ويدر أخلاف الرزق.

ومنهم من تعلموا في مدارس الدولة المنقطعة وتخلقوا بغير أخلاقهم، وانخلوا زمناً من قوميتهم فلا يفكرون ولا يتكلمون إلا بالتركية، ولا يكتبون إن كانوا ممن يحسنون الكتابة إلا بالتركية. فلما تبدلت الحالة السياسية بعد الحرب العامة دفعتهم الضرورة إلى ادعاء العربية وكانوا من قبل يعقونها وهم من أبنائها، زاعمين أنهم تبدلت أخلاقهم بمجرد الانتقال من دور إلى دور. وليست الأخلاق بذلة تنزعها، ولا طلاء تزيله وتستبدل غيره به. ولما كان معظم من تعلموا هذه العلوم في العهد السابق من أهل الطبقات النازلة في أصولهم، كان الموروث لهم والماثل فيهم من الأخلاق مثالاً من أخلاق أهل جرثومتهم، ولذلك هان عليهم ويهون في كل دور أن ينزلوا عن مشخصاتهم لأول طارئ. وهذه الفئة مضرة بأخلاقها أكثر من الجهال لأنها تعلمت تعليماً ممسوخاً ظنته كل شيء. ومذ فارقت المدارس التي تفاخر بأنها تحمل شهاداتها، وكثيراً ما نال شهاداتها المتوسط والغبي، ظنت أنها قبضت على قياد العلوم وودعت الكتب فصارت ترجع القهقرى في معارفها الأولية وتجلت أخلاقها في كل ما عانته من الأعمال، فكانت إذا وسد إليها أمر تلتهم الأخضر واليابس، وإذا بدا لها طمع تهزأ بالفضائل إذا لم تجلب لها السعادة التي تتصورها.

رأى المجتمع من سقوط الأخلاق في بعض أهل هذه الطبقة ما تندى الجباه من تسجيله: رأى منهم من يقول ولا يخجل أنه إذا قيل له: إن الحالة الحاضرة ستتبدل بعد عشرين سنة يفكر مذ الآن في أمر راتبه الذي يقبضه من سلك ما كان يحلم أن يحشر في جملة أهله، ويقول أبداً: اعذروني إذا خدمت أغراض كل صاحب قوة كما يشتهي، وإذا كنت له آلة في كل ما يحب. هو غني الجيب فقير النفس. جاهل يحشر نفسه في العلماء، والطبيعة تضعه حيث تريد.

ومنهم من جعل رأس ماله في مصانعة ولاة الأمر مهما كانوا والتقرب إليهم بكل حيلة، لينال مظهراً يظهر به، لاعتقاده واعتقاد كثيرين أن الشرف كل الشرف في التقرب من الحكام، وأن كل مجد جاء من غير طريقهم لا وزن له إذا نصبت الموازين، وهؤلاء المتصدرون أسوأ مثال لمن حولهم.

يحببون إليهم الاتكال وضعة النفوس، وكأنهم يقولون: إن سبيلهم لا غيرها هي سبيل الفلاح والتمجد، وإن الفضائل لا شأن لها أمام المغانم. وإن العلم لا ينفع بغير تدليس، والطريق المسلوك عندهم طريق المداجاة والمحاباة، وإتقان المؤمرات والسعايات .

ومنهم أناس ظنوا ويا لسوء ما ظنوا، أن السعادة مناط القحة، والسعادة هي المال، والمال محلل أخذه من كل وجه، فتراهم يرتكبون كل شائن من العمل ليجمعوا مالاً ويعددوه ويستمتعوا بمتع الحياة، فهم حراص على كل ما يوصلهم إلى غايتهم، سلاط في التسور على مقامات أهل الفضل، يصمونهم بكل كبيرة وينبزونهم بالخفة والرعونة. جوزوا لأنفسهم السرقة، لأنهم لا مأرب لهم في غير الإثراء، وجمع المال جماع المزايا في نظرهم. احتقروا الشرائع فهان عليهم تبديل مذهبهم والتقرب إلى أهل كل دين وطريقة بدينهم وطريقتهم. ولو أنصفوا لعدوا لصوصاً عارفين باللصوصية، واللص يسرق خفية من طريق واحدة قد يكون فيها مكرهاً ليطعم نفسه وعياله، وهذا يسرق جهرة من كل طريق ويزيد على لؤم طباعه تبجحاً بالمبادئ والشرف والأمانة، ومن الغريب أن يُرى حتى من الأذكياء من يجلونه أو يغالطون أنفسهم في انحطاط أخلاقه وهم يعرفونها، ورحم الله شاعر مصر إسماعيل صبري حيث قال :

غاض ماء الحياء من كل وجه فغدا كالح الجوانب قفرا
وتفشى العقوق في الناس حتى كاد رد السلام يحسب برا
أوجه مثلما نثرت على الأجـ ـداث ورداً إن هن أبدين بشرا
وشفاه يقلن أهلاً ولو أد رين ما في الحشا لما قلن خيرا

ومنهم أناس ورثوا عن آبائهم استحلال أكل السحت والعبث بحقوق العباد. فلما تلقفوا القشور اللازمة لهم في المدارس التي سموها بالعليا ومرنوا على النفاق والباطل ومردوا على آداب الأديان وخرجوا عن أوضاع المجتمعات، جاءوا سراقاً يسكنون القصور، وعاشوا طول حياتهم في ذل النفوس، يجمعون بين المنازع المختلفة في وقت واحد علماً بأن أحدها لا بد أن تكتب له الغلبة، فإذا نجح كان لهم حظ من نجاح أهله، وإذا أثمر الآخر لم تفتهم خيراته، جعلوا

بيوتهم للخمر والقمر أندية ومسارح، وفطموا نفوسهم إلا عن إشباعها المال الحرام. وهم بأصحاب الملاعب أشبه منهم بالمتعلمين أصحاب المراتب، وإذا دخل الغِرّ حانتهم وفيها كل مفعول جائز هان عليه انتهاك الحرمات، وإذا عاشرهم تعلم في بؤرتهم من التزوير والتغرير ما يعاب به الحيوان فضلاً عن الإنسان.

ومنهم من ورثوا التذبذب من بيوتهم وأخذوا الدس والوقيعة بالسند المتصل بآبائهم، وكان قصاراهم أن يحرزوا مناصب تمكنهم من المتاجرة بحقوق الناس ودمائهم، ليتأثلوا وينفقوا في السفه ما تأثلوه، فهم لا يستنكفون عن التقرب من أصحاب الشأن بكل ما لديهم من الوسائط، ويبسمون لعامة أصناف الناس بل ويصانعونهم على حين تلعنهم قلوبهم، وهم موقنون أن المصانع على الجملة يعرف كذب مصانِعه، ومع هذا يمضون في طريقهم وهم لا يحبون أحداً ولا يحبهم أحد. ونزع عقيدة عُرفوا بها أمس، لتقلد غيرها اليوم، أسهل عليهم من نزع أحذيتهم وقمصانهم. قضوا أعمارهم في نصب الحيل والمكايد، لا يلذهم من دنياهم غيرها، وأكبر أفراحهم يوم يغشّون ويسري في الناس غشهم، كأن المدرسة التي تعلموا فيها لم تعلمهم غير ذلك. ولكن هي الفطرة إذا فسدت فكل خير يأتيها يكون عارضاً عليها، تنبذه ولا تسيغه.

ومنهم أناس عرفوا منذ قبضوا على زمام أعمالهم بسلب نعمة الضعيف ومحاولة التقرب من القوي نبذتهم الطبيعة أولاً، ثم عمي الدهر عنهم فبلغوا مأربهم من المراتب، ولم تسعهم جلودهم يوم شاهدوا العز بعد الذل، فظهروا في مظاهر من الكبرياء والعظمة، ومن أين للسافل بأصله أن يكون فرعه عالياً. حصروا همهم في العبث بالمصالح العامة، فلا يفكرون بغير إملاء جيوبهم، والدهان لساداتهم مهما كانوا، وتوفير المنافع لمن يحف من حول عروشهم، وإن كانوا من أحط الطبقات معرفة وأخلاقاً. وقد رأينا من هذه الطائفة من يغير سيرته في السنة الواحدة مرتين، ويدخل في آن واحد في عدة أحزاب وجمعيات سرية وجهرية، ويقسم لكل واحد منها اليمين الغموس، معاهداً كل طائفة على الإخلاص لطائفتها وحزبها وطريقتها دون غيرها، وهو لا يتوقع من هذه المرونة المستغربة إلا أن يكون له شأن مع كل

حزب إذا كتب له الظهور .

ومن هذه الفئة أناس لا يهنأ لهم بال إلا إذا اغتنوا ، فلما انتفخت صناديقهم بالورَق والورِق ، ضيقوا حتى على بنيهم وبناتهم لئلا يسرفوا في أموالهم ، فاضطروهم إلى ارتكاب كل شنعاء ، أما هم فعادوا يدعون الفاقة ، فتراهم لا ينفقون إلا ما يحفظ عليهم مظهرهم ، ويوصلهم إلى مراميهم ، كأن الدينار جعل للخزن فقط ، والسعيد من يجمعه ولو لم يستمتع به حياته ، ويخلفه لمن هم عليه أشد الأعداء ، يصرفونه في العهر والخمر والزمر والقمر . ولو أنصف هذا نفسه لأنفق بعض دخله على ما يرفع مستوى أمته ويزيل بؤسها ، وفي هذا ظهور له أيضاً إن تاقت نفسه إلى الظهور .

ومنهم طائفة تصلي وتصوم ، وتلزم المساجد ودروس الوعظ ، وتتظاهر بالدين ، وتتقرب إلى حملة الشرع وأرباب الصلاح لا تُفلت السبح من أيديها ، تتظاهر بأنها تذكر اسم الله في غدوها ورواحها ، وهي في باطنها من أشد الخلائق عداوة للإنسانية ، تقول بألسنتها ما ليس في قلوبها ، ولو كشفت عنها الغِطاء لأيقنت أنها من الشفقة بحيث لو شاهدت صغاراً يتضورون جوعاً ما أطعمتهم فتات موائدها ، ولو بَصُرت ببائسين يرتعدون دنقاً وعرياً ما كستهم بلاس بلاطها ولا زودتهم حثالة مطابخها وأهرائها ، وإذا وقع لها أن أكرهت على نجدة بائس مؤوف تبجحت بما أتت ، وقامت تومئ بلسان الحال إلى أنه لولاها لانهار بناء الأمة وتداعت صروح مجدها ، وتوهم أن وجودها رحمة ، وعملها غبطة ونعمة ، ولها في نشر ما تتخيله محامد ، أساليب غريبة مضحكة .

ومنهم أناس إذا عرفتهم في العهد الماضي عرفتهم بعجمتهم التي لا غبار عليها ، وهم ما كانوا يجوزون لأنفسهم التكلم بلغتهم الأصلية ، فلما تبدلت السياسة تبدلوا لساعتهم ، وصاروا لغير ما سبب معقول حرباً على من كانوا بالأمس يتمنون رضاهم ، وأخذوا أنفسهم وأبناءهم بتعلم لغة من جاءوهم . وغيروا عاداتهم ولهجاتهم ، وأنشأوا يستخدمون كل الطرق للاحتفاظ بكراسيهم ، حتى إذا جلسوا عليها نسوا فضل المفضلين عليهم ، وقد عاهدوا أنفسهم أن يخدموا كل صاحب قوة بالصورة التي تروقه مع

ذكاء فيهم وتجربة أحرزوها فهان عليهم أن يبيعوها مقابل عرض قليل ومظهر ضئيل. التجسس فيهم فطرة والإزراء بالقومية والوطنية من مألوفاتهم ما أساءوا استعمال ما ائتمنوا عليه إلا ليغتنوا بطرق عرفوها، ويغنوا أبناءهم ولو كان في ذلك هلاك مئات من الناس .

ومنهم أناس كانوا في أخذ المال كالعلقة يمتصون الطاهر وغير الطاهر ثم يفيضون منه على القانع والمعتر، ويطعمون الطعام ويكسون الأيتام. ومنهم من جمعوا عشرات الألوف ومئات الألوف ولا تجود أنفسهم بدانق لتعليم أطفال الفقراء وإنجاد البائسين وإكساء العراة. وإذا تصفحت جرائد الجمعيات الخيرية التي قامت في العهد الأخير لتعليم اليتامى وإغاثة المحاويج، لا تسقط فيها إلا نادراً على أسماء بعض أرباب السعة، بمعنى أن هذه الطبقة كانت أقل الناس في معاونتها. والطبقتان الوسطى والنازلة هما اللتان جمعتا الدرهم فوق الدرهم، اقتطعتاه من رزق عيالها، لتطعما به من هم أجوع منها، وتنشل من السقطة من هم أكثر سقوطاً من بنيها .

وفي هذه الديار عشرات من الأغنياء يدمجون في سلك الأعيان يعتزون بأموالهم، ويضنون بها كل الضنانة، اللهم إلا إذا كان في صرفها إرضاء شهواتهم، وتوفير أنواع رفاهيتهم. وإذا أشير إليهم أن يشاركوا في المصالح الوطنية لووا وجوههم، وهزأوا في باطنهم بهذه الأعمال التافهة، حتى إذا حلت بهم مصيبة أخذوا يستنجدون ولا ينجدون، ويطلقون ألسنتهم في رجال كانوا بالأمس يقدسونهم، وأنى للأمة أن تعرفهم أيام شقائهم، وهم لم يتعرفوا إليها أيام سعادتهم. هذا وهم أنصار كل حكومة تسوغهم أكل حقوقها وحقوق الضعاف، وتطلق أيديهم في ظلم الفلاحين والمغفلين، وتعاونهم في محاكمها على فض قضاياهم بما يتفق مع رغائبهم، وتوسد إليهم أمورها المنتجة لهم مالاً وجاهاً .

في هؤلاء الأعيان رجل كان عنده من أدوات الزينة والتبرج ما يساوي المئات من الدنانير، وربما كان ثمن ربطات رقبته المعمولة من الحرير لا يقل عن ألف جنيه، لأن عددها كان ألفي ربطة معروضة في قاعة كبيرة، وكنت إذا أردته على أن يبتاع جريدة ليقرأها شكا إليك ضيق ذات يده،

وأظهر أن القراءة مما لا تسمح له به أوقاته الثمينة، وكان يدفن أمواله في الأرض، حتى لا يظهر عليها الناس إذا وضعت في المصرف، فظهر منها ألوف بعد أن أصيب بنكبة اضطرته إلى نبشها. وبلغ الشح ببعضهم أنه كان يطعم خدامه وأولاده طعاماً غير ما يطعمه نفسه وزوجه، ويدعي مع كل من يجتمع إليه أنه فقير مملق، لا طاقة له على تحمل شيء، فلما اضطر إلى الكشف عن دفائنه كانت ألوفاً عدا ما يسلفه بالربا الممقوت أضعافاً مضاعفة وعدا مزارعه وحدائقه. ومن الغريب أن يتطوع مثل هذا الرجل الذي رد إلى أرذل العمر في الجاسوسية وهو يتظاهر بالتقوى. وأكثر هؤلاء الأشحة يظهرون في العامة بمظهر المتصدقين والمحسنين، كأن تجود نفوسهم ببعض دريهمات لبعض المستكدين على رؤوس الأشهاد، ليقال عنهم إنهم أهل خير وصلاح. وهناك رجل كذب على قومه طول حياته الطويلة، بنسبه وعلمه وتقواه، فلم يعدم بين ضعاف العقول من صدقوه في دعاويه،وعاش بمداهنة الناس وبلغ من ثقة القوم به أنه إذا حانت منية أحدهم، يلوب على من يأتمنه على أولاده بعده، فلا يجد غير هذا المزوّر يقيمه وصياً على عياله لما اشتهر من أمانته بين السذج في كل دور، فلا يلبث مال الموصي أن يمزق بيد الوصي. وهكذا كان هذا الدعي بعد نصف قرن من المشار إليهم المجمع على تكريمهم، وقد عرف أيام تولى القضاء بتبرئة المجرم وتجريم البريء. ومن العجب أنه لم يسأله أحد من أين جاء بثروته،والعادة على الأكثر أن لا يسأل الغني عن طرق غناه بل يتمسح به ويتبرك بأنفاسه،ولو كان لا ينزل منه عن قطمير لأحد.

ظهر كثير من العامة في حوادث وقعت بمظهر الغيراء على المصالح الوطنية، وأبانوا عن حمية وأريحية ما كان يرجى صدور مثلهما من أرباب الطبقة العليا، ولا ممن اعتادوا أن يجعلوا من الأديان سلماً إلى درك شهواتهم، وقام من صفوف الأميين وأهل المتربة أناس جعلوا هدفهم ما اعتقدوه حقاً نافعاً مخلصين في أقوالهم وأفعالهم، معتقدين الخير فيما بذلوا أنفسهم ونفائسهم في سبيله. وتجلى النبوغ في أفراد منهم بحكم قانون الرجعة، فأثبتوا في الشدائد بهذا الشرف المغيب أنهم ربما كانوا من سلالة عظماء أكارم. وهناك أناس ظاهرهم مهذب براق آثروا

امتهان النفس في أخس الأعمال مقابل عرض ينالونه أو إقبال يتخيلونه، فارتكبوا كل ما يورثهم عار الأبد، فكان ظاهرهم مجملاً، وباطنهم خبثاً وخديعة، يفادون بكل ما ليس لهم فيه مصلحة، ويداجون كل من يلقاهم بما يريد، ولعلك على حق إذا قلت إن صيغ الكلام تضيق عن وصف أفعالهم. فهم ممن حُبب إليهم من دُنياهم أذى القريب لا ينامون ملء جفونهم إلا يوم يوقعون بأصحاب الشرف والمروءات.

وما لنا والإكثار من ضرب الأمثلة بفئة هي معقد الآمال في الإصلاح وهي لم تكد تحقق رجاء إلى الآن، وليست في أخلاقها مما يرغب المرء كثيراً في تكثير سوادها، لأن منها من تجرد من معنى الحق والصدق. ولو حللت نفوس أكثرهم تحليلاً دقيقاً لرأيتهم أعرف الناس بالمدخل والمخرج وأعراهم من أكثر الفضائل الكسبية واللدنية. ضعف عطفهم على جنسهم وهان عليهم أن يبيعوا وجداناتهم لمن يضمن لهم مظاهرهم. فهم أبداً سلاح الغريب على القريب، وهم يده الباطشة وأظافره الخادشة.

ولطالما نضب حلم أرباب الحلوم من تلاعب أُناس استناروا بقبس العلم الحديث، يتهارشون على أبواب جمعية مدنية وهم في الحقيقة لا يهمهم من دعوتها إلا أن يحموا بسلطانها سلطانهم، ويستروا في حمى كهفها معايبهم، ومن الغريب أنه لا يكاد يرقى في درجاتها إلا من عرفوا بالاسترسال في حظوظهم، وكانوا من الممقوتين في العرف والعادة، هذا وقانون الجمعية شديد في التسامح مع أمثالهم، ولكن كل قانون ينصبغ بصبغة محيطه، وما دام المحيط على ما ترى فلا بدع إن كان بعد هذا أعظم قانون سماوي أو أرضي في حكم العدم.

ولا يفوتنك أن الطبقة الوسطى في ديارنا هي التي تتمثل فيها الأمة حقيقة لا مجازاً ويكثر فيها الخير ويقلّ الشر، وهي التي تقوم بجلب المنافع ودرء المضار، وتعيش في خوف الديان، وتهتم لسعادة الأوطان، هي في الغالب محدودة بعقول أبنائها، كثيرة بما يتم على أيديها من الخيرات باجتماعها، وهي التي تفكر وتقدر وقد قام كثير من الأعمال النافعة بصنيعها ومن وضعها. فيهم الصبر وفيهم الأناة وفيهم الرحمة، خسيسهم أقل من رفيعهم، هم قوة الظهر

في جيش الأمة بل في طليعته المتيقظة. السخاء مغروس في أكثرهم والمروءة والوفاء غريزتان يورثهما الآباء لأبنائهم، وهم يبعدون عن أرباب السلطات، دأبهم التوفر على صناعاتهم وزراعاتهم، وقلما تحدثهم أنفسهم أن يتخذوا بديلاً عن عمل عاناه آباؤهم وأجدادهم .

الأخلاق التي تعبث بالفضائل هي التي رسخت في بعض العلية من أهله . وشهد الله أن هذه الأمة لا تشكو قلة علمها بقدر ما تشكو ضعف أخلاقها، وإذا أخذت المطامع البشعة من قلوب دعاة الإصلاح وحماة الحوزة كيف يوجه اللوم على من كان دون طبقتهم؟ ومما يسوء أن كان أقرب الناس إلى إدراك معنى الفضائل أسرعهم إلى عقوقها وانتهاك حرماتها. وإذا كانت في الطبقة الوسطى هنات لا يخلو منها إنسان فهي كالعوذة يتقى بها شر الحاسد، ويصان بها جمال المكرمات والمحامد، وقلما يخلو بشر من عيوب صغيرة ضررها على صاحبها وحده .

أكثر ما تعاب به هذه الأمة عصيانها على الأنظمة والشرائع لا تُطبق منها إلا ما لا يمس بمصالحها الخاصة، فإذا كان في بعضها ما يخالف الشهوات والأغراض خرجت عليها وحاربتها والمهيمنين عليها. ولذلك صعبت هنا في كل قرن مهمة المصلحين في إصلاحهم لقلة الثبات وونى الهمم. فقد يسرع بعضهم في التصديق خصوصاً إذا أحسنت الدعاية باديء بدء ولكنهم سرعان ما ينقضون العهد. ومن أضرّ ما يضر هذا الشعب أنه قلما يخضع للزعيم خضوعاً حقيقياً تقرأ معانيه في حركاته وسكناته ولو كان الزعيم في الغاية من حسن الأخلاق وإرادة الخير لها. وهذه أخلاق العرب بعينها أفرطوا في حب حريتهم فحاول الصعلوك فيهم أن يكون وجيهاً فسارع الانحلال إلى دولهم بالطبيعة وظهر التخبط في إحرازهم الرياسات منذ فجر الإسلام . وظلت هذه الأخلاق متسلسلة في دمائهم. وقد يريد الطامع في شيء أن تنقلب الدولة رأساً على عقب، وتنتقل ولو إلى عدوه، على أن يتولاها قريبه الذي لا يحبه وأن يهلك في الحمم والنيران المستعرة فريق عظيم من قومه إذا كان له من هذا الحريق ما يشوي به سمكته .

وأنت إذا حللت روح الشاميين تراهم فرادى لا يقلون كثيراً عن

غيرهم من الراقين، وإذا جئت تحللهم جماعات فهناك التفسخ في القوى والانحلال في الروابط. الشاميون إذا اجتمعوا تخالفوا عادة على الرياسة والتصدر، وتباينوا في الفكر والاجتهاد، لأن الذكاء غالب عليهم، وحب الذات مستحكم في شغاف قلوبهم، وكل واحد يريد أن ينفذ قوله ولو كان مغلطاً، وإذا لم يوافقه رفقاؤه على ما ارتأى عاداهم وربما آذاهم، كأن الاختلاف في الاجتهاد يستلزم العداوة والسخيمة. فلا تستغرب بعد هذا إن أصيبت أكثر أعمال الجماعات عندهم بالشلل والفشل ومنها ما يموت كالجنين في بطن أمه قبل أن يتمثل بشراً سوياً. وقد ينشئ غير المسلمين الجمعيات والمجامع ويحالفهم النجاح أكثر من غيرهم لأنهم على تربية متقاربة وعلى تكافل ودؤوب في الجملة. وما ندري لعل العامل في هذا النجح الضرورة التي دعا إليها تماسك الصغير أمام قوة الكبير، على حين ترى أن هذا الكبير لا يحسن على الأغلب إلا الإدلال بقوته الموهومة والإعجاب بماضيه يقف عند حده، ولا يعرف أن يبرهن على العظمة الغابرة بسداد أعماله الحاضرة .

ومن عيوب السواد الأعظم أن الهزل يغلب عليهم، والجد قليل فيهم، يحبون المداعبة والهزل واللهو، ويسوء بعض اللئام أن يروا في قربهم من يجد . يهزأون بمن يعملون وهم لا يعملون ولا يعرفون كيف يعملون، فسبيلهم سبيل العاطل والمعطل. ومن عيوبهم أنهم لا يصدقون صاحبهم لأن سوء الظن غالب عليهم، هذا ولو جاءهم مستنصحاً مسترشداً، لأنهم أميل إلى المصانعة لا إلى الصدع بالحق، وأقرب إلى أن يرضوا جليسهم ويسكتوا أمامه عن هفواته، وربما التمسوا له في حضرته المعاذير حتى إذا غاب عن عيونهم نحتوا أثلته وعابوه بما قد لا تلزمه تبعته. ومن أجل هذا تأصلت في القوم عادات وأخلاق كان يتأتى نزعها لو كتب لها من ينقدها وينكرها غير مدالس ولا موالس . فالنعومة الظاهرة التي تشاهد في بعض الشاميين يحتاجون معها إلى شيء من الخشونة والقسوة .

كانوا في الأيام الماضية إذا أرادوا الحط من شخص سلبوه صفاته واتهموه « بالمروق من الدين » وربما أوصلوه بهذه التهمة الشنعاء إلى ضرب عنقه، وهذا من بعض الأسباب في قلة النوابغ في القرون المتأخرة. واليوم

نشأ لهم زي جديد من أزياء التهمات يلبسونها من لا ترضيهم حاله، أضافوا إلى من يحاولون النيل منهم تهمة «المروق من الوطنية» كأن الوطنية ما هم فيه من الختل والتخاذل وطلب الظهور بقاصمة الظهور. ويا لشقاء الدين والوطن كم اتجر بهما متجرون في الغابر والحاضر. ومن تدبر أحوال هذه الطائفة بأدنى نظر أدرك أن كل من يتبجحون بهذه الدعاوي هم أول من يدوس كل مقدس لبلوغ غرض حقير .

والدواء الناجع في مداواة هذه الأخلاق هو أن يكون للصغار مدارس وطنية متقنة تلقنهم العلم الصحيح والأخلاق الصحيحة والقومية الصحيحة . أما الكبار الذين اشتهروا بسوء القالة فيقاطعون ويتجهم لهم العقلاء في كل أفق، لا يدنونهم من مجالسهم مهما بلغ من سلطانهم وجاههم ومالهم. فإن من السخف التلطف مع الأشرار في المحضر، والتهامس في قبيح سيرتهم في المغيب. يجب أن يناقشوا الحساب ولا يؤمن لهم على خطاب و« المؤذي طبعاً يقتل شرعاً » .

سيقول فريق ممن يقرأون هذه الصفحات: إنها أغرقت في وصف أخلاق الطبقات وفضحت ما كان مكنوناً لا يعرفه إلا أرباب البصيرة، ونحن في زمن أحوج ما نكون إلى السكوت عن المعايب حتى لا يبدو عوارنا لغيرنا، كأن غيرنا لا يعرفنا أكثر مما نعرف أنفسنا. وكان الأولى في عرفهم أن نجامل ونجمجم، بيد أن السكوت عن العيوب عيب كبير، وكتمان العلة مدرجة إلى الهلكة، والتاريخ لا يكتب على الهوى ولا يُملى لإرضاء الناس. وما نخال منصفاً بصيراً إلا ويعترف وهو مثلنا جد آسف أن ما أصاب هذه الديار من المصائب منذ عهد طويل لم يكن إلا بسوء أخلاق من تولوا من أبنائها أمرها، وأنه من المستحيل بعد أن صرح الحق عن محضه أن تؤلف الشام كياناً يذكر وتقوم في ساحة الحضارة البشرية بعمل يشكر، ولو أوتيت علم الجرمانيين واللاتينيين، ورُزقت غنى الإنكليز السكسونيين، ما دامت أخلاق أهل الحل والعقد فيها لا تعالج بالتقويم، ولا يحاول القضاء على مواطن الضعف من نفوسهم وعقولهم. الساكت عن الحق شيطان أخرس .

فصّلته لكن على عقلي فما مقياس عقلك كان لي معروفا

حياة محمد كردعلي

مؤلف خطط الشام

« ترجمته بنفسه »

أصل أُسرتنا من السليمانية تنسب إلى الأكراد الأيوبية، جاء جدي إلى دمشق في التجارة وكان من أهل اليسار فراقته وسكن فيها. ثم ذهب في بعض السنين إلى الحجاز متجراً، واتفق له أن انتقد ذات يوم عملاً من أعمال محافظ الحج، وكان ظالماً جباراً، فشق ذلك عليه، وأمر بمصادرته في كل ما يملك، فاضطر أن يذهب إلى الاستانة مستعدياً. وما زال يعمل الوسائط حتى اجتمع بالسلطان، واقترح عليه هذا أن يصرف النظر عن دعواه على محافظ الحج، ويأخذ مقابل ماله قريتين في الشام إقطاعاً له ولأولاده من بعده، فأبى وقال للسلطان: ما جئت لآخذ صدقة بل جئت أطلب عدلاً وإنصافاً. وهكذا رجع إلى دمشق مجرداً من ثروته وهلك قهراً بعد قليل. وخلف والدي يتيماً فقيراً فاشتغل لأول أمره في صناعة الخياطة ثم بالتجارة، فأثرى مرات وخسر مرات، وابتاع في آخر أمره مزرعة صغيرة في الغوطة تمززتها أنا وإخوتي منذ كنا صغاراً وإلى الآن.

ولدت في دمشق أواخر صفر سنة (١٢٩٣هـ) (١٨٧٦م)، من أم شركسية، ولما بلغت السادسة في العمر أخذت بتلقي القراءة والكتابة ومبادئ العلوم الإسلامية والحساب والطبيعيات في مدرسة كافل سيباي الأميرية، ونلت شهادتها من الدرجة الأولى. ثم دخلت المكتب الرشدي العسكري فدرست مبادئ التركية، وكانت دروس الإفرنسية ناقصة فأتاني والدي بمعلم إلى الدار أخذت عنه نحو هذه اللغة وصرفها على الأصول مدة ثلاث سنين،

وبرعت بالترجمة من الإفرنسية إلى العربية وبالعكس. ولما أحرزت شهادة المدرسة الرشدية من درجة متوسطة، لأني لم أتمكن على ما يجب من الرياضيات لإصابتي بالحسر وضعف البصر – بحيث لم أكد أتبين عن بعد ما يرسم الأستاذ من أشكالها وخطوطها في اللوحة، ففاتني التبحر فيها مع الأسف – عينت مدة ست سنين موظفاً في قلم الأمور الأجنبية، فأخذت في خلالها أتقن آداب التركية. وشرعت أُنشئُ فيها كما أُنشئُ بالإفرنسية، وقد اختلفت حولين كاملين إلى مدرسة اللعازاريين للاضطلاع بآداب اللغة الإفرنسية، ودرست الطبيعيات ودروس الكيمياء بهذه اللغة لأزيد تمكناً منها.

وقد اقتطعت مع ذلك جانباً من الوقت لدرس الآداب العربية والعلوم الإسلامية، وتلقيت اللغة الفارسية حتى حذقتها ثم أنسيتها. وفي خلال تلك المدة اتصلت بالأساتذة الشيخ طاهر الجزائري والسيد محمد المبارك والشيخ سليم البخاري وأخذت عنهم وعن غيرهم من مشايخ الطبقة الثانية كل ما وسعتني قراءته، من كتب اللغة والأدب والبيان والاجتماع والتاريخ والفقه والتفسير والفلسفة. وكان العامل الأكبر في توجيه إرادتي نحو الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي، والإقدام على التأليف والنشر، وإشرابي محبة الأجداد والتناغي بآثارهم، والحرص على تراث حضارتهم، أُستاذي الأكبر الشيخ طاهر الجزائري، فما زلت ألزمه منذ اتصلت به إلى أن ذهب إلى ربه سنة (١٣٣٨هـ) حميد الأثر. وكنت بدأت بنظم الشعر فنهاني عن تعاطيه أُستاذي المبارك، وأرادني على إتقان الإنشاء فقط، و ما ينبغي له من الأدوات، لئلا يشغلني الشعر بلذته عن طلب العلم. فصدعت بأمره، كما كنت قبلت نصيحة والدي، وأنا يافع، بترك الإنشاد بصوت رخيم. لأن ذلك كان يعدّ في نظره شيئاً وضيعاً كما روى ذلك عن شيخه. وهكذا حرمني والدي الموسيقى، وحرمني شيخي الشعر. ولولا نصيحتهما لعنيت بهذين الفنين، وكانا لي سلوى وأي سلوى. ولكن أُستاذي المبارك خرجني باللغة والإنشاء. ووالدي، وكان عامياً يقرب من الأمية، أنفق عن سعة ليعلمني. فكان مدة سنين يدر الرواتب على أساتذتي، وقد ابتاع لي خزانة كتب كانت تعد في ذلك العهد شيئاً في بلدتي.

وأهم ما أولعت بمطالعته ـــ بعد درس المطبوع من كتب الأدب العربي وجانب من المخطوط الذي عثرت عليه ـــ كتب الفلاسفة وعلماء الاجتماع ، وأصول الشعوب ومدنياتهم. وطالعت بالإفرنسية أهم ما كتبه فولتير وروسو ومونتسكيو وبنتام وسبنسر وفوليه وتين ورنان وسيمون وبوتمي ولافيس وهانوتو وبوترو ولوبون وبرونتيروبثي دي جولفيل ولمتر وسانت بوف، وتدارست المجلات الفلسفية الاجتماعية والتاريخية والأدبية باللغة الفرنجية . وجريت منذ نشأت على قاعدة مطردة لم أتخلف عنها قيد شبر ، وهي أن أقرأ أكثر مما أكتب، وقلما دوّنت موضوعاً لم أدرسه في الجملة ولم تتشربه نفسي. وعهد إليّ سنة (١٣١٥هـ). بتحرير جريدة « الشام » الأسبوعية فحررتها ثلاث سنين كانت مدرستي الأولى في الصحافة. وساعدتني فيها معرفة التركية والإفرنسية. ثم دعيت إلى المؤازرة في مجلة المقتطف المصرية أكبر مجلاتنا العربية. فنشرت فيها أبحاثاً جمة في التاريخ والاجتماع والأدب مدة خمس سنين فبدأت لي شهرة في عالم الأدب العربي لمنزلة هذه المجلة إذ ذاك بين أبناء اللغة العربية ، وكثرة من تقع تحت أنظارهم من العلماء والأدباء والباحثين . وفي عام (١٩٠١م) هبطت مصر للسياحة بقصد الذهاب إلى باريز للدرس، فعرض عليّ صاحب جريدة « الرائد المصري » نصف الأسبوعية أن أحرر في جريدته، فلبيت الطلب متكارهاً، إذ كانت عاقتني عن العودة إلى الشام أمور قام بها المشاغبون المتجسسة في دمشق. واتهموني تشفياً بأمور هي من المحرمات في عرف الحكومة العثمانية، ثم رجعت إلى الشام بعد عشرة أشهر . ومن أعظم ما استفدته من رحلتي هذه الأخذ عن عالم الإسلام والإصلاح الشيخ محمد عبده وحضور مجالسه الخاصة والعامة .

وفي شتاء سنة (١٣٢٣) فتشت الحكومة العثمانية داري في دمشق بحجة أنه علقت مناشير في شوارع البلدة مكتوبة بلغة سلسة، وفيها مطاعن في أحد الأعيان والوالي، ومثل هذه العبارة وهذه الأفكار لا يحسنها ولا يعرفها غيري ! فظهر للحكومة افتراء المفترين واكتفت بأن شردتني أياماً عن داري .

وفي هذه الوقعة نظم صديقي العلامة الأمير شكيب أرسلان قصيدة ارتجالية يداعبني بها، ويصف ما حل بي مجسماً قال سامحه الله :

ألا قل لمن في الدجى لم ينمْ ... طلاب المعالي سمير الألمْ
ومن أرّقته دواعي الهوى ... فدون الذي أرقته الحكم
فكم في الزوايا تخبي فتىً ... طريد الكتاب شريد القلم
يرى الأرض ضيقاً كشق اليراع ... ويهوى على ذا الوجود العدم
وكم ذا بجسرين من ليلة ... على مثل جمر الغضا في الضرم
تمنى الأديب بها ندحة ... ولو بات يرعى هناك الغنم
وكم سروة تحت جنح الظلام ... كسرٌ بصدر الأريب انكتم
يخاف بها حركات الغصون ... ويخشى النسيم إذا ما نسم
وإن تشدُ ورقاء في أيكة ... تؤرقه في صوتها والنغم
وكم بات للنجم يرعى إذا ... أديم السما بالنجوم اتسم
وطال به الليل حتى غدا ... يظن عمود الصباح انحطم
ومن ذعره خال أن النجوم ... لتهدي إلى مسكه عن أمم
إذا ما السماك بدا رامحاً ... توهمه نحوه قد هجم
ولولا الدجى لم يتم النجا ... وقد أمكن الظلم لولا الظلم
ولله در القرى إذ خفته ... فما بالسهولة يخفى العلم
«فجسرين»«زبدين»و«الأشعريّ» ... ديار بها قد أوى واعتصم
ونحو «المليحة» رام الخفا ... وكم بالمليحة من متهم
ديار أبى أهلها غدره ... وآواه فيها الوفا والكرم
ولا شك رقوا لأحواله ... طريداً يعاني الجوى والسقم
ليالي كانون في الأربعين ... وبرد العشيات أغلى الفحم
بأرض تراها سماءً وماءً ... ففوق السوافي وتحت الديم
يجول وقد صار مثل الخيال ... ودقّ فلو لاح لم يقتحم
وفوق الخدود كلون البهار ... وتحت المآقي كلون العتم
وفي كل يوم سؤال وبحث ... وأنّى تولى وكيف انهزم
وقد كان في كبسهم بيته ... بجلق قالٌ وقيلٌ عمم
فكانت على كتبه غارة ... كغارات عرب «الصفا» بالنّعم
وقالوا سينفى إلى «رودس» ... وقالوا سيجزى بما قد جرم

وقالوا سيحمله أدهم	بمرقاه لا تستريح القدم
وقد قيل « فزان » من دونه	وتلك السموم وتلك الحمم
وبعض بسجن عليه قضى	وبعض بضرب عليه حكم
و« كرد علي » غدا عبرة	ففات ومنه الرجاء انصرم
فيا كرد لا تحزننك الخطوب	فإن الهموم بقدر الهمم
ومن رام أن يتعاطى البيان	توقّع أن يبتلى بالنقم
فذي حرفة القول حرّيفة	وكم أدركت من لبيب وكم
وكم نكتة أعقبت نكبة	وكم من كلام لقلب كلم
ومن بالكتابة أبدى هوىً	فإن الكآبة منها القسم
فيا كرد صبراً على محنة	فكم محنة شيبت من لمم
وصبراً على ورقات لها	عيون المعاني يُبَكِّين دم
وواهاً لباقات زهر غدوت	لها جامعاً يا أخي من قدم
أزاهر تسهر في جمعها	فلا غرو إن فاح عرف فم
وما نمَّ إلا بنشر ذكي	وطيب يفوق عرار الأكم
فقولوا لواش بكرد علي	نشرت الثنا حين حاولت ذم الخ

كان التضييق عليّ في الشام يزيد كلما استفاضت شهرتي، والشهرة حقيقة كانت على صاحبها آفة في الدور الحميدي، فرأيت بعد طول التأمل أن المقام فيه عبثاً، فأخذت بالاستعداد للهجرة إلى مصر لأصدر مجلة المقتبس، فأصدرتها في أول سنة (١٣٢٤هـ)، وتوليت معها رئاسة تحرير جريدة الظاهر اليومية، وبعد سنة عُينت أمين سر تحرير جريدة المؤيد. والجرائد الثلاث التي توليتها في مصر هي « الرائد المصري » و« الظاهر » و« المؤيد » وكانت من الصحف التي تصدع بالوطنية المصرية، وتنتقد سياسة المحتلين، ولذلك كثر أصدقائي من الوطنيين المصريين، فعددت بهم مصر وطني الثاني، وكادوا هم يعدونني منهم. وقد آزرت في مجلة « العالم الإسلامي الباريزية » التي ما زالت تصدر في باريز باللغة الإفرنسية إلى عهد قريب. حتى إذا حدث الانقلاب العثماني (١٩٠٨م) رجعت إلى دمشق وأصدرت في ١٧ كانون الأول

(١٩٠٨) جريدة المقتبس يومية سياسية، بعد أن صدر المقتبس ثلاث سنين في القاهرة مجلة شهرية علمية، وعدت إلى إصدار المجلة أيضاً .

وكان المقتبس السياسي معتدلاً بلهجته، وطنياً بمسلكه، ينتقد ما يمكنه نقده من مواطن الخلل في الإدارة العثمانية، وما رمى إلى الانفصال عن الترك قط، بل كان يرمي إلى استحصال حقوق العرب ضمن الجامعة العثمانية الكبرى، فلم يرق هذا أيضاً بعض رجال الدور الحميدي، وأخذوا يقاومون المقتبس وصاحبه، ويقيمون عليه الدعاوي المزورة، يصدرها الظالمون المرتشون من الموظفين، ممن دأبنا على الكيد لهم، والعمل على تنحيتهم، حتى جاء زمن وعلى المقتبس عشرات من الدعاوي، يطلب فيها أصحابها جزاء المفتري على الأكثر، لأنهم أبرياء بزعمهم مما نسب إليهم .

ومن أغرب دعوى الوالي الحميدي عليَّ في السنة الأولى اتهامه إياي بالارتجاع، أي إرجاع عهد عبد الحميد الاستبدادي، وهو الدور الذي بكيت من أهواله، وقد هجرت الأهل والوطن فراراً من كابوسه، ولكن أعمالي في خدمة الحرية سنين طويلة، كذبته وأشياعه من الحميديين الاتحاديين . وقد اضطررت في هذه الدعوى إلى مغادرة الشام، فركبت البحر إلى فرنسا، وأخذ الوالي يهدد القضاة بالعزل إذا لم يحكموا عليَّ بالجناية، وصرفت الوقت في باريز أدرس مدنيتها وأستفيد من لقاء علمائها وساستها، ووقفت وقوفاً حسناً على حركتها العلمية والسياسية، وذلك بواسطة جماعة من أصدقائي علماء المشرقيات، عرفوني إلى الطبقة العليا التي أردت التعرف إليها في عاصمة الفرنسيس، وفي مقدمتهم فيلسوف فرنسا المرحوم إميل بوترو. وقد سألته أن يكتب لي جريدة بأمهات الكتب التاريخية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية، فتفضل وكتب لي ما أردت، فابتعته وطالعته كله مطالعة درس، ولا أزال إلى اليوم أجعل تلك المجموعة المختارة سلوتي في خلوتي وجلوتي .

كتبت خمساً وثلاثين مقالة ومحاضرة في وصف سياحتي، ولا سيما في وصف عاصمة فرنسا، وطبعت هذه المقالات في كتاب سميته « غرائب الغرب » وما كان في الحقيقة إلا غرائب باريز ليس إلا. وبعد أن أقمت ثلاثة أشهر في « كارتيه لاتين » بباريز عدت إلى الاستانة عن طريق ڤينا

مبرأ مما نسب إليّ. وفي سنة (١٩١٢) أقام نفس الوالي الحميدي دعوى على المقتبس وقبض على مديره المسؤول المرحوم أخي أحمد، وأخذ عالماً من علماء المدينة اسمه الشيخ إبراهيم الأسكوبي، وأرسلهما إلى الاستانة فسجنا مدة، وذلك بتهمة أن المقتبس نشر قصيدة لهذا العالم تمس الآ ل السلطاني. والحقيقة أنها تأوهات ونصائح، وكانت نشرت في جريدة من جرائد الشام قبل أن تنتشر في المقتبس بعشرين يوماً. أما أنا فتمكنت من الفرار كالمرة الأولى، وهبطت مصر عن طريق البر مع تجار الجمال. فدخلت الإسماعيلية بعد سير أربعة عشر يوماً، قطعت فيها الشام من الوسط إلى أقصى تخومها الجنوبية. ثم برئت مما نسب إليّ كالمرة الأولى، وعدت إلى دمشق بعد ستة أشهر، وعاد المقتبس إلى الصدور. إلا أن الوالي كان تمكن من إجبار أحد إخوتي على بيع مطبعتنا، فأباعها بثمن بخس، فأضيفت الخسارة بها إلى ما خسرناه في إغلاق صحيفتنا السياسية مرتين. ولم يعوض علينا أحد شيئاً مما خسرناه. واكتفى المقتبس إلى ذاك الحين باشتراكاته وإعلاناته ومطبوعاته فقط. وقد استقبلت يوم عودتي إلى دمشق كما يستقبل العظماء، فضحكت من تبدل الرأي العام، وبالغ بعض من استقبلوني بالحفاوة، وهم يزيدون على ألفين، كانوا يوم وقعت في الدعوى ينكرون عملي في انتقاد الحكومة، ومن قبل كانوا يصفقون ويستحسنون، وينحنون ويدعون، فلم أدر وجهاً لرضاهم ولا لغضبهم، فكتبت إلى صديقي المرحوم العلامة رفيق بك العظم أقول له: إن القوم لاقوني في دمشق في هذه المرة كما يلاقون الملوك. فلم أفرح لهذا الإقبال، ولا ساءني ذاك الإدبار، وعجبت لجنون من ينخدع بالجماعات الذين لا يثبتون بحال على أفكارهم .

وفي سنة (١٩١٣) زرت إيطاليا وسويسرا وفرنسا والمجر والاستانة، وكتبت ٣٣ مقالة في وصف مدنية تلك الممالك. وكان الداعي إلى هذه الرحلة الثانية البحث عن المخطوطات التاريخية التي نقل عنها بالتصوير الشمسي صوراً، الأمير ليوني كايتاني من علماء إيطاليا وعظمائها. وقبل نشوب الحرب العامة ببضعة أشهر وقف والي دمشق المقتبس، بدعوى أنه نشر عبارة في كشف الحجاب، وهي منقولة عن الصحف التركية، والحقيقة أن المقتبس

كان توفر على كشف حجاب الاتحاديين، وأصلاهم حرباً عواناً هو وأنصاره من رجال البلاد وحملة الأقلام فيها، فأخذوا يخلقون له هذه التهم أو يكفّ عنهم. ولطالما تقاضوه ذلك، وله أن يتحكم في مطالبه الخاصة ما شاء فأبى، وربما كان رده لهم غير جميل لا يخلو من بعض خشونة، ثم ورد الأمر من نظارة الداخلية بعود المقتبس إلى الصدور، فأبيت إصداره، لما رأيت من الحيف والغرض وتربص الاتحاديين الدوائر به وبصاحبه، وكانوا الحاكمين المتحكمين في السلطنة العثمانية بلا منازع. وألح أرباب الشأن بإعادة المقتبس إلى الصدور، فكان جوابي أنني زهدت في هذه الصناعة صناعة الصحافة، ما دامت أحكامهم غاشمة ظالمة. إلا أن الحكومة بقيت تحاذرني مدة أشهر. وأقامت شرطياً أمام داري يكتب كل يوم أسماء من يدخل عليّ من أرباب الطبقات المختلفة، حتى إذا خرجت إلى منتزه أو زيارة أحد يتبعني الجواسيس حيث سرت. أما كتبي وجرائدي وبرقياتي فإنها كانت تراقب أشد مراقبة، بل أضحكها وأبكاها .

وبينا كان حالي كذلك أعلنت الحكومة العثمانية النفير العام، وجاء الشام والٍ عاقل عادل اسمه خلوصي بك فنشأت بيني وبينه صداقة، ولا سيما عقبَ أن ظهر من تفتيش أوراق قنصل فرنسا أنني كنت دائماً إلى جانب خدمة العرب، ولم أمل إلى الخروج على الترك، ولا أسففت إلى خدمة غيرهم، مع أني أردت على ذلك مرات، وأغلوا لي الثمن والجعالة، فاحتقرت كل نفيس في سبيل خدمة المصلحة العامة، وهذا سر نجاتي من مخالب قتلة الاتحاديين الذين لم يراعوا عظيماً ولا غيره في الحرب، وصلبوا من صلبوا على أعواد المشانق بلا رحمة في مدن دمشق وبيروت وحلب .

أرادني خلوصي بك ست مرات على إصدار المقتبس وأنا أحاوله وأطاوله، ولكن قنصل ألمانيا كان يلح على الحكومة المحلية بإقناعي لإصداره، لما أيقن من تأثيره في أفكار الشاميين بل في بلاد العرب، فصحت بعد حين عزيمتي على إصداره، خصوصاً بعد أن أوحى إليّ أحد خلص أصدقائي، بأن القوم يتربصون بي الشر إذا لم أجبهم إلى إصدار المقتبس، ولم أخدم الحكومة في تلك الحالة الحرجة. وأنني إذا ظللت على إبائي يخشى أن يحاسبوني

عما اجترحته في الماضي حساباً غير يسير ، وتكون حياتي في تهلكة ، فاعتذرت بأن على المقتبس مبلغاً من الديون بسبب توقفه ثمانية أشهر وبيع مطبعته فقالوا إنهم يسددونها عني ففعلوا. وفي خلال ذلك جاء الشام أجد أساطين الاتحاديين «أحمد جمال باشا» قائداً للجيش الرابع، وحثني على التعجيل بإصدار المقتبس، وكان كلامه رجاءً في الصورة الظاهرة، وتهديداً في الحقيقة، فبادرت إلى امتثال الأمر فأصدرته، وبقيت سنة لا أكتب فيه إلا نادراً، ويتولى أخي سياسته، حتى تنبه جمال باشا للأمر وأرادني على كتابة مقالات افتتاحية باسمي ففعلت، وكثيراً ما كانت أفكاري ترشح اضطراراً من أفكار القائد العام مباشرةً أو بالواسطة، فكانت إرادتي مسلوبة لتهديدي كل ساعة بنشر الحسابات القديمة مع الاتحاديين، وفي أواخر السنة الأولى للحرب أرسلني جمال باشا مع البعثة العلمية من علماء الشام إلى الاستانة فجناق قلعة، وأوعز إلي بإنشاء رحلة هذه البعثة، ووضع كتاب في رحلة أنور باشا، وكيل القائد العام وناظر الحربية، إلى الشام والحجاز. ففعلت مضطراً. وظهر هذان الكتابان الأول باسمي واسم ثلاثة من أرباب الصحف في الشام، والثاني باسمي فقط. وهما من كتب الدعاية السمجة في الحرب الممقوتة. وفي هذه السنة أيضاً أنشأت الدولة بإيعاز ألمانيا وترتيبها في مدينة دمشق جريدة يومية عربية أسمتها (الشرق) عهدت إلي برئاسة تحريرها فوليته مدة، واضطرني أحمد جمال باشا إلى رفع اسمي من جريدة المقتبس لتروج جريدة الشرق التي ظهرت إلى أواخر الحرب. وكانت جريدة ألمانية تركية بحتة يقصد بها الدعاية والتأثير في العالم العربي خاصة والعالم الإسلامي عامة .

ولما بدأت جيوش الحلفاء تتقدم في جنوبي الشام غادر أحمد جمال باشا البلاد، فأرادني خلفه جمال باشا المرسيني أن أظل على ما كنت في جريدة الشرق فقلت له: «لم يستعبدني أحد في حياتي غير سلفك العالي ولا أريد أن أستعبد مرة أخرى». وقصدت إلى الاستانة للتجارة فمانعني الاتحاديون هناك بإيعاز من أحمد جمال باشا، ومنعوني من معاطاة أعمال لا أعرفها في الحقيقة . وبينا كنت أفاوضهم بذلك سقطت دمشق بأيدي الحلفاء ، وانقطعت الطريق بين الشام والاستانة، فعدت إلى دمشق بعد ثلاثة أشهر

من سقوطها، لأعاود إصدار المقتبس، لكن الحاكم العسكري العام وكان من أصدقائي، ألحّ عليّ أن أتولى رئاسة ديوان المعارف فقبلت متكارهاً، وأخذت في درس حالة المدارس لإصلاحها على ما يلائم روح الأمة العربية، وبدأت بإنشاء دار للآثار وتجهيز دار الكتب الظاهرية بجهاز حديث. ثم حصل خلاف بيني وبين الحكومة فأردت التنحي عن رئاسة ديوان المعارف، فألحّت عليّ الحكومة بالبقاء،فقلت: إن كان ولا بد فينقلب ديوان المعارف بأعضائه ورئيسه إلى مجمع علمي، وتكون علاقته مع رئيس الحكومة مباشرةً، فقبل هذا الاقتراح وشرعت في تأسيس المجمع العلمي العربي في ٨ حزيران سنة (١٩١٩).

وفي آخر تشرين الثاني سنة (١٩١٩) صدر الأمر بدعوى الضيق المالي بصرف رئيس المجمع العلمي وأعضائه، إلا عضوين فقط للإشراف على داري الكتب والآثار. وكان ذلك تشفياً من بعض الأحزاب التي لم أشأ أن أسايرها على العمياء. ودمت منعزلاً في داري إلى أن عهدت إليّ وزارة المعارف في ٧ أيلول سنة (١٩٢٠) أول دخول السلطة الإفرنسية إلى المدن الأربع، وهي الوزارة التي غيروا اسمها بعد مع سائر الوزارات باسم «مديرية عامة». وفي خلال ذلك أخذت عشرة من الطلاب للإخصاء في العلوم العالية في جامعات فرنسا. وزرتها للمرة الثالثة، كما زرت بلجيكا وهولاندة وانكلترا وإسبانيا وألمانيا وسويسرا وإيطاليا، وكتبت الرحلة الثالثة في إحدى وخمسين مقالة، وأعدت طبع «غرائب الغرب» وأدخلت فيه الرحلات الثلاث، فجاء في مجلدين. وكان أحد أعوان الجنرال غورو أول مفوض سامٍ للجمهورية الإفرنسية في سورية ولبنان نشر على لساني وبدون اطلاعي في إحدى المجلات الباريزية عبارة يقصد منها مدح الانتداب الفرنسي إلى التي ليس بعدها وتقريظ غورو وأعوانه. فكذبت ما عُزي إليّ في الصحف. وكان أحد موظفي البعثة الإفرنسية في دمشق دسّ أيضاً على لساني في خطبة أردت على إلقائها باللغة الإفرنسية في معرض بيروت التجاري على جماعة من الفرنسيس — جملاً بخصوص العهد الفيصلي لم تخطر لي في بال. فامتعضت مما وقع في المرة الأولى والمرة الثانية، ولما لم يرق عملي من التكذيب في نظر وكيل المفوض

استقلت من المعارف، وبقيت في رئاسة المجمع، وكنت أديره أثناء وزارة المعارف وبعدها. وكان في ذلك الخير لأني حصرت وكدي في خدمة المجمع وتأسيسه على ما يجب وبقدر ما يساعد المحيط والحالة المالية. وعرضت عليّ وزارة المعارف في الحكومة الموقتة خلال ثورة سنة (١٣٤٤هـ) فاعتذرت وآثرت الانقطاع إلى المجمع وإتمام كتابي «خطط الشام».

وفي ١٥ شباط سنة (١٩٢٨م) أسندت إليّ وزارة المعارف في حكومة صاحب الفخامة الشيخ تاج الدين الحسني وبقيت أدير شؤون المجمع العلمي الى الآن. وفي أواسط شهر تموز سنة (١٩٢٨) ندبتني دولة سورية والمجمع العلمي لتمثيلهما في موتمر المستشرقين السابع عشر بمدينة اكسفورد فرحلت إلى بلاد الانكليز وزرت بلجيكا وفرنسا. وقد اغتنمت فرصة وجودي في وزارة المعارف فأنشأت مدرسة العلوم الأدبية العليا جعلتها من فروع الجامعة السورية، كما هيأت جميع أسباب افتتاح كلية الإلهيات تضاف أيضاً إلى الجامعة وبذلك تمت لها أربع شعب، شعبة الطب، وشعبة الحقوق، وشعبة الآداب، وشعبة الإلهيات. وإذا انفسح الزمن للعمل ففي النية إضافة الفرع الأخير من فروع الجامعة وهو الفنون والعلوم.

كان المقتبس عقب الهدنة قد عاد إلى الصدور وظلّ يطرد نشره، حتى ألفت العصابات لغزو الساحل الشامي وأصبح القول الفصل لأناس من صعاليك العامة وأغرار الشباب، ممن أخذوا يهددوننا سراً وجهراً إن لم نمالئهم على رغائبهم، في هيج الأفكار ودعوتها إلى الثورة، فآثرت توقيف المقتبس على إصداره آلة للفتنة بين الناس، وإهراق دماء الأبرياء ليربح المستعبدون. على حين كنت على مثل اليقين أن الانتداب الفرنسي واقع لا محالة. وقد شق عليّ بعد أن بلوت من السياسة حلوها ومرها، وكرعت خلها وخمرها، أن آتي ما يكون وباله عليّ قبل غيري من رجال الصحافة، في أمر لا فائدة منه إلا لمن يستثمرون الثورات لمصلحتهم الخاصة. وبقيت جريدتنا معطلة سنة كاملة، حتى دخل الجيش الفرنسي فعادت إلى الظهور. وظهرت جريدة المقتبس بتحرير المرحوم شقيقي أحمد كرد علي تصدر حرة في الجملة، وطنية الصبغة والمنزع، فلما هلك أصبح تحريرها ألعوبة في أيدي أناس أرادوا

تسخيرها في خدمة أحزابهم ، فاضطررت إلى إغلاقها في صيف سنة (١٩٢٨) بعد أن خدمت البلاد عشرين سنة .

كان مذهب المقتبس السياسي معاونة الحكومة بالمعقول، وانتقادها عند الاقتضاء. وتحبيذها إذا أتت ما تحبذ عليه. ينزع أبداً إلى إنارة الأفكار، وبث الملكات الصحيحة وتقوية روح القومية العربية، وسياسته وطنية ليس فيها شيء من روح الكراهة للأجانب، ويرمي إلى فتح صدر الأمة لمعظم ما في المدنية الغربية من أسباب الرقي. ولا يتحزب المقتبس لحزب إلا إذا تجلى له غناؤه وبلاؤه في خدمة الأمة. فقد دخلت في جمعية الاتحاد والترقي قبل الانقلاب العثماني بنحو اثنتي عشرة سنة، وخدمت ما استطعت وساعدت البيئة، ولم أجدد في الانقلاب للاتحاديين عهداً مع كثرة إلحاحهم عليّ. إذ رأيت ذلك حطة وتناقضاً في الخطة، لأن مرامي الاتحاديين تجلت بأنها تقصد إلى تتريك العناصر، ومن أول مقاصدنا الدعوة إلى القومية العربية، وإنهاض العرب من كبوتهم .

ولما عبث الاتحاديون بالمقصد الذي رسموه لأنفسهم يوم نشأتهم الجديدة، تألفنا في الشام والاستانة كتلة من العرب والترك، وألفنا حزب الحرية والائتلاف اشتغلنا به مدة، ثم رأينا من المصلحة حله فحللناه. واقترح عليّ زمن الحكومة العربية غير مرة الدخول في الأحزاب فأبيت. ولكن لما تفاقم الشر، وأصبحت دمشق عاصمة في الصورة، والمدبرون لها أغماراً غرباء في الأكثر، صحت عزيمتنا مع جماعة من أهل الطبقة العالية مسلمين ومسيحيين وألفنا «الحزب الوطني» معدلاً لأمزجة الأحزاب الأخرى. فكان حاجزاً دون انبعاث ما يكدر من العوام .

وفي شباط (١٩٢٤) عُهد إليّ تدريس الآداب العربية في معهد الحقوق بدمشق، فرأيت تفاوتاً في عربية الطلبة، وكان منهم المقتدر الذي يصلح للكتابة والخطابة، ومنهم الضعاف في مبادئ النحو والصرف، لأن مدرستي الحقوق والطب كانتا تحاولان تكثير سواد الطلبة وتقبل منهم حتى المقصرين في الفروع المهمة، ولا سيما اللغة العربية التي يعدونها ثانوية ! فاضطررت إلى إلقاء بعض دروس نحوية مختصرة على التلاميذ ريثما يستعدون لتلقي

الآداب، وحاولت تعليمهم الإنشاء والخطابة بالعمل أكثر من النظر. ولم ترق بعض الطلبة العلامات التي نالوها في الفحص العام، وكان بعض أساتيذهم يشوقونهم من طرف خفيّ على رفع أصواتهم بالشكوى من المدرس ليضموا درسه إلى دروسهم، ورأى رئيس الجامعة الطبيب الكحال السيد رضا سعيد الايتوني استثمار هذه الحركة لمصلحته، ومصلحته أبداً في إقصاء الأكفياء أرباب الإرادات المستقلة من تداريس الجامعة، فقام مدفوعاً أيضاً بيد رئيس الحكومة إذ ذاك السيد صبحي بركات. وكان هذا مغيظاً محنقاً من صاحب الترجمة لأن جريدة المقتبس لم تماله على خطته، وصعب عليّ أن أترضاه، ولو بأن أذكر له على الأقل أن لا علاقة لي بالمقتبس منذ مدة طويلة، وأنني لا أديره ولا أحرره ولا ينطق بلساني .

وكانت المؤامرة فاستكتب رئيس الجامعة بعض الصحف للنيل مني، وأعطاها فيما قيل دراهم لتكتب له المطاعن عليّ بما يفيد في تنحيتي. ومن الرسائل ما كتبه له بعض مستخدميه ممن كان يغضي عن سرقاتهم في مدرسة الطب مقابل هذا التطوع في خدمة أغراضه، ومنهم طلبة مقصرون في دروسهم كافأهم على ما نشروه له من الطعن بي بأن منحهم شهادة الطب، ومعذرته أنه في حاجة إلى من يحسن من جماعته كتابة سطرين بالعربية، لأنه هو ورئيس الحكومة ابن بركات لا يحسنان كتابة سطر واحد، وإذا قرأا أو قرئ عليهما كلام عربي لا يفهمانه بحال. وهكذا جمع رئيس الجامعة بعض الطلبة المقصرين في دروسهم في دار أحد من يدهنون له من أطباء مدرسته، ولقنوهم كيف يجرأون على الشكوى من الدرس ويكتبون محضراً بهذا الطلب، ومن لم يوقعه من الطلبة يُهدد بما يخاف منه على مستقبله. وأخيراً تقرر إرسال بضعة من طلبة مدرسة الطب إلى درس الخطابة في دار الحقوق لينادوا بإسقاط خمسة من الأساتذة من جملتهم مدرس الآداب العربية، وخطب بحضوري أحد الطلبة، وهو ابن أحد أخصاء رئيس الحكومة خطبة لُقّنها، وكوفئ عليها بعدُ هو ووالده، فخرجت من المدرسة على أن لا أعود إليها، وتم لبعض الأساتيذ ما أرادوه، فاستأثروا بأكثر الدروس الشاغرة، ولم يعد من المخطوب فيهم إلا واحد وهو مدير المعهد السيد عبد القادر العظم الذي

استرضى الطلبة وصانع رئيس الجامعة مع أنه أضعف الأساتذة المشتكى منهم ولا صلة له بالعلم .

أهم المطبوع من كتبي مجلة المقتبس « ثمانية مجلدات وجزآن » صدر منها ثلاث سنين في مصر وخمس في الشام وهي تبحث في الاجتماع والأدب والتربية والتعليم والتاريخ ومنها « رسائل البلغاء » و« غرائب الغرب » و « غابر الأندلس وحاضرها » و« تاريخ الحضارة » و« القديم والحديث » و« رواية المجرم البريء » و« قصة الفضيلة والرذيلة ». وأول ما نشرت رواية « يتيمة الزمان » سنة (١٣١٢هـ). وآخره « خطط الشام » وهو كتاب في مدنية الشام وتاريخه صرفت في تأليفه ثلاثين عاماً، وطالعت لأجله زهاء ألف ومائتي مجلد باللغات الثلاث العربية والتركية والإفرنسية، وأنفقت في سبيل تأليفه نحو ألف وخمسمائة جنيه، ويدخل في ستة مجلدات وربما كان معجمه في أربعة. وعندي من التآليف التي لم تطبع « حرية الوجدان » و « الحرية المدنية » و« الحرية السياسية » معربة عن جول سيمون الفيلسوف الإفرنسي. ومنها « كنوز الأجداد » و « مكتشفات الأحفاد » و« أمراء الإنشاء » و« أخلاق المعاصرين » إلى غير ذلك من المقالات والأبحاث المنشورة في المجلات والصحف وآخرها مقالاتي وانتقاداتي في « مجلة المجمع العلمي العربي » خلال تسع سنين .

خلقت عصبي المزاج دمويه، مغرماً بالموسيقى العربية، محباً للطرب والأنس والدعابة، عاشقاً للطبيعة والسياحة. وقد كان للمزرعة الصغيرة التي أورثنا إياها المرحوم والدنا في قرية « جسرين » من قرى الغوطة أثر ظاهر في تربية ملكتي. وبها استغنيت أنا وإخوتي لأول أمرنا عن طرق الأبواب للتحيل أو التسفل للمعاش .

ولم أخلُ منذ اشتغلت بسياسة البلاد وحتى بعد أن تجردت للعلم المحض، من جرائد كان من جملة أغراضها ثلبي ، وكثير من الكتاب الذين عُرفوا بالسفاهة كانوا يرزقون الجنيهات الكثيرة على حساب النيل مني ، والتطاول عليّ ، وما زلت حتى الساعة لا أخلو من أُناس يتطاولون عليّ حب الشهرة ، ينالونها من طريق الطعن بمن اشتهروا ، ولم يحدث لي أن أجبت أحد هؤلاء

الطاعنين في وقت من الأوقات. اللهم إلا إذا كان هنالك تحريف لحقيقة وطنية أو قضية علمية، فأذكر الواقع بدون اسم المتحامل المخالف. وقد وقع مرة لمجلة ألبسها أصحابها ثوب الدين، أن سلخت نحو ثلاث سنين تكتب فيّ المقالات والقطع الصغيرة فلم أجبها، ولم أقرأ أكثر ما كتبت، حتى إذا نضبت مادتها من المال والقول، أجبتها بمقالة نشرت في كتاب «القديم والحديث» باسم «الإصلاح» وهي من المقالات التي لم تخل من حدة.

أعشق النظام والتدقيق، وأحب الحرية والصراحة، وقد أولعت بالتجدد، ومن عادتي أن أقف بمعالجته عند حد لا أتعداه إلى هدم أصل من الأصول المقدسة، وأدور من الإصلاح التدريجي العلمي في دائرة لا تتعدى الثورة في الأفكار، أجاهر في الحق، وأطعن في المنافقين وأتجهم لهم، وأجبه المرتشين والمخربين، لذلك يكثر أعدائي من أهل هذه الطبقة. ولطالما كادوا لي وآذوني في ماديّاتي فلذ لي عملي ولم تسؤني نتائجه. أخلص للصاحب وأخدمه خدمة خالصة، وأغار على مصلحته. وربما أرفعه فوق قدره، حتى إذا بدرت منه بادرة سوء نحوي أو نحو المجتمع، ألوي وجهي عنه آخر الدهر. ولطالما آخذني بعض أصحابي على أسداء المعروف إلى من هم أول من ينكرونه، وإسراعي إلى تصديق من حولي، في زمن يكذب فيه معظم أهله، دعاني إلى الإحسان إلى أناس ليسوا أحرياء به، وإلى الأخذ بأيدي فئة كان الأولى لهمْ أن يظلوا مغمورين، ومعظمهم كانوا لمقاصد لهم يتخيلونها أول من حملوا عليّ وعادوني، فكان الجواب، أني أحمل الناس على محمل الخير، فإذا ظهرت تربيتهم الحقيقية، وتبين أني كنت مغروراً بهم كان جزاؤهم الإعراض، وهل يجوّز العقل أن تعض الكلب الذي يعضك، والحيوان المفترس الذي يحاول إهلاكك ولو أطعمته وسقيته.

أكره الفوضى وأتألم للظلم، وأحارب التعصب، وأمقت الرياء، وإذا حاربت لأجل المظلومين، وهاجمت طغمة المتعصبين، فإنما أحارب وأهاجم بذوق وفهم على الأغلب، وأميل إلى الشدة، وقد تكون إلى الإفراط أحياناً، لتفعل البلاغة فعلها في عقول من يراد إرشادهم أو إسقاطهم. وتنقبض نفسي منذ الصغر من غشيان المجالس والمجتمعات الغاصة بأنواع الناس، وأحرص على الوقت فلا أكاد أنفقه إلا لمنفعة عامة أو خاصة اهـ.



مصادر الخطط

لم نذكر في هذا البيان الكتب المطبوعة ولا الأجنبية التي اطلع عليها المؤلف. لأنه لم يشر إلى مواضع ما أخذ منها، فلم يبين أجزاءها ولا صفحاتها مما أفقدها قيمتها لمن يحب الرجوع إليها. وإنما اقتصرنا على المخطوطات من تلك المصادر تعريفاً بها، ورجعنا في تحقيق وفيات مؤلفيها إلى الأعلام لخير الدين الزركلي، فما وجدناه فيه وضمناه بين هلالين وإلا استدركناه من معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة أو أبقيناه كما جاء في الأصل.

« الناشر »

أ

إتحاف المحبين بجواز ما يفعل في الخماسين لإبراهيم الخضيري الحنفي؟
الإحسان في دخول اليمن آل عثمان لعبد الصمد بن إسماعيل ؟
الأحكام السلطانية للقاضي أبي يعلى (٤٥٨) .
أخبار ملوك اليمن لقاسم بن حسن الجُرْموزي (١١٤٦)
الإشارات إلى أماكن الزيارات لأحمد الصباغ وذيله بتراجم بعض المشاهير من كتاب الزيارات لمحمود العدوي
الإشارات إلى معرفة الزيارات لعلي بن أبي بكر الهروي القاري (٦١١)
الإعانات في معرفة الخانات ليوسف بن عبد الهادي (٩٠٩)
الأعلاق الخطيرة في تاريخ الشام والجزيرة لابن شداد الحلبي (٦٨٤)
الإعلام في فضائل الشام لأحمد العدوي المنيني (١١٧٢)
إعلام الورى بمن ولي من الأتراك بدمشق الكبرى لابن طولون الصالحي (٩٥٣)

ب

ت

تاريخ حمص لعمر الأتاسي لم يبرح في المسودة
تاريخ الخوري ميخائيل بريك من سنة ١٧٢٠م الموافقة ١١٣٢هـ وفيه الأخبار الأخيرة إلى سنة ١٢٥٧
تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٧١)
تاريخ دول الأعيان شرح قصيدة نظم الجمان في ذكر من سلف من أهل الزمان لأحمد المقدسي المشهور بابن زوجة أبي عذيبة (٨٥٦)
تاريخ دولة الأتراك لحسن بن عمر بن حبيب الحلبي (٧٧٩)
تاريخ سليمان باشا والي عكا من سنة ١١٩٠ — ١٢٢٩ لإبراهيم العورا ١٢٨٠
تاريخ سورية المجوّفة لعيسى إسكندر المعلوف. (١٩٥٦م)
تاريخ عام لأكمل الدين بن مفلح المتوفى سنة ١٠١١ بلغ فيه زمن قايتباي سنة ٨٧٢
تاريخ فخر الدين بن معن لأحمد بن محمد الخالدي الصفدي ١٠٣٤
تاريخ معرة النعمان لمحمد سليم الجندي ١٣٧٥
تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي وأولاده من سنة ٧٣٧ — ٧٤٥ لشمس الدين ابن السجاعي (جزء من أجزاء).
تاريخ ميخائيل مشاقة (١٣٠٥) وفيه حوادث أسرته وما جرى في لبنان وبلاد الشام في عهده، وبعضها مما حذف من النسخة المطبوعة المحرفة.
تحفة الأدب في الرحلة من دمياط إلى الشام وحلب لأحمد بن صالح الأدهمي الطرابلسي سنة ١١٥٩
تحفة الأدباء وخلوة الغرباء للخياري (١٠٨٣) وهي رحلته من المدينة إلى الشام والروم ومصر.
تحفة الأنام في فضائل الشام لجلال الدين البصروي كتب سنة ١١٥٩.
تحفة ذوي الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب لصلاح الدين الصفدي (٧٦٤).
التحفة الظريفة المسماة بمجموعة الحكيم لحسن بن عثمان الحكيم جمعها سنة ١١٨٨

ث

ج

ح

حدائق الإنعام في فضائل ومحاسن الشام لعبد الرحمن بن عبد الرزاق من القرن الثاني عشر

الحسبة لمحمد بن محمد المعروف بابن الإخوة القرشي (٧٢٩)

الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز لعبد الغني النابلسي (١١٤٣) .

حل الرموز في عقائد الدروز لسليم البخاري (١٣٤٧)

حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر لعبد الرزاق البيطار (١٣٣٥) .

حوادث جرت في دمشق من سنة ١٠٢٣ - ١٠٢٦ من خط حسن البوريني .

حوادث جرت في دمشق بعد سنة ١٢٠١ دونها من لم يذكر اسمه .

حوادث دمشق اليومية . من سنة ١١٥٤ - ١١٧٦ لابن بدير الحلاق

حوادث يومية من سنة ٩٨٥ إلى ١٠٠٦ نقلت سنة ١١٠١ من خط محمد ابن داود المقدسي الدمشقي

د

در الحبب في تاريخ أعيان حلب لمحمد بن إبراهيم الحنبلي الربعي التاذفي (٩٧١)

الدر المنتخب بتكملة تاريخ حلب للجبريني المعروف بابن خطيب الناصرية (٨٤٣) كتب سنة ٧٨٥

الدر النضيد في مناقب الملك الناصر أبي سعيد ؟

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني (٨٥٢) .

دمية القصر وعصرة أهل العصر لأبي الحسن الباخرزي (٤٦٧)

ديوان النصائح الكافية لمحمد الحافظ النجار ١١٠٣ .

ذ

ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر لابن طولون الصالحي (٩٥٣) .

ذوب الذهب لمحسن بن حسن المنصور نحو (١١٧٠) .

ذيل التمتع بالأقران لابن طولون الصالحي (٩٥٣) .

ر

ز

س

سانحات دُمى القصر في مطارحات بني العصر لدرويش محمد الطالوي (١٠١٤)
سيرة أحمد باشا الجزار انتهت سنة ١٢٢٥ وفيها ما حدث بعد مماته لمؤلف مسيحي سوري .

ش

شذرات الذهب في أخبار من ذهب لعبد الحي بن العماد (١٠٨٩) .
الشعور بالعور لصلاح الدين الصفدي (٧٦٤) .
الشمعة المضية في أخبار القلعة الدمشقية لابن طولون الصالحي (٩٥٣) .

ص

صور الأقاليم لأحمد بن سهل البلخي (٣٢٢) .

ض

ضرب الحوطة على جميع الغوطة لابن طولون الصالحي (٩٥٣) .
الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي (٩٠٢) .

ط

الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد لجعفر بن تغلب الأدفوي (٧٤٨) .
طبقات أئمة القراء لابن الجزري (٨٣٣) .
طبقات الحنابلة لابن رجب (٧٩٥) .
طبقات فقهاء جبال اليمن لعمر بن علي بن سمرة بن الحَيمي بعد (٥٨٦)
طبقات المهندسين في الإسلام لأحمد تيمور (١٣٤٠) .
طبقات النحاة واللغويين لابن قاضي شهبة الأسدي (٨٥١) .
طرف الأخبار من نتائج الأسفار لشرف الدين حسين بن أحمد التميمي (١٠٧١) .

ع

غ

ف

ق

ك

م

مختصر الدارس للعلموي ٩٨١ .

مختصر تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨) .

مخدرات القصور لابن قطري البحيري ٨٩٨ .

المدبجات المسمى بمنادح الممادح وروضة المآثر والمفاخر من خصائص الملك الناصر لعبد المنعم الجلياني المتوفى (٦٠٢) .

المدهش لابن الجوزي (٥٩٧) .

المروج السندسية بتاريخ الصالحية لمحمد بن كنّان (١١٥٣) .

مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري (٧٤٩) أجزاء منه .

المشتبه وضعاً والمختلف صقعاً لياقوت الحموي (٦٢٦) .

معادن الذهب في الأعيان المشرفة بهم حلب لأبي الوفاء بن عمر العُرضي (١٠٧١) .

المعزة فيما قيل في المزة لابن طولون الصالحي (٩٥٣) .

المعلومات الزراعية والاقتصادية والإدارية عن لواء دير الزور لوجيه الجزار ؟

مفكرات توفيق طارق في مصانع دمشق ومدارسها وجوامعها وما حوت من النفائس الفنية ثابتة كانت أو منقولة (بالعربية والتركية) .

مفكرات نجيب نصار (١٣٦٧) في بلاد فلسطين .

مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصفهاني (٣٥٦) وفي آخره نور العيون في سيرة الأمين المأمون لابن سيد الناس (٧٣٤) .

المواكب الإسلامية في الممالك الشامية لمحمد بن كنّان (١١٥٣) .

منادمة الأطلال لعبد القادر بدران (١٣٤٦) .

المنتخب من تاريخ علم الدين البرزالي (٧٣٩) .

المنتقى من تاريخ الإسلام للذهبي مع ما أضيف إليه من تاريخي ابن كثير والصلاح الكتبي وغيرهما انتقاه ابن قاضي شهبة (٨٥٦) وهو من سنة ٣٠١ إلى سنة ٤٥٠

المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد لعبد الرحمن العليمي (٩٢٨).

ن

و



فهرست

الجزء السادس من خطط الشام